أولغا سكوروكودوفا

كيف أدرك العالم

« مذكرات عمياء - صمّاء - بكماء »

ترجمة :

ميشيل واكيم
قصي أتاسي

منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي

دمشق - ١٩٨١

أولغا سكوروكودوفا



كيف أدرك العالم

العنوان الأصلي للكتاب :

O.SKOROKHODOVA

COMMENT JE PERÇOIS LE MONDE

JOURNAL D'UNE AVEUGLE SOURDE-MUETTE

اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتيه

اكاديمية العلوم التربويـــة

معهـــد الابحاث العلميـــة للمعوقين

موســـكو في ٤ ـ ٧ ـ ١٩٨٠

الى السيدين المحترمين ميخائيل واكيم وفصي اباســـي .

قرأت رســـالتكما باهتمام بالغ ، وقد اسعدني انكما تقومان بترجمة كتابي الى العربيه مما تضيف كتابا جديدا الى قائمة الكتب التي ترجمت عن الروسيه الى لغات اخرى . وفي هذا العام تقوم اصدقائي وزملائي في بلغاريا بترجمة كتابي الى البلغاريه .

وقد ادهشني فهمكما العميق الدقيق لمضمون كتابي واستيعاب جوهر ما أردت ان أقوله فيه . ومما لا شك فيه أن قراء العربية سيتعرفون الى ذلك العالم الروحي لأولئك الناس الذين حرموا نعمة السمع والبصر ، وهذا العالم الذي يجهلونه .

ارسل لكما مع رسالتي نسخه بالفرنســـيه من كتابي . وانا على اســـتعداد للاجابة بكل سرور على اي سؤال تودان توجيهه الي شخصياً .

وســـاكون لكما شـــاكرة ومعترفه بالجميل لو أرســـلتما الي بعده نسخ مـــن الترجمـــة العربية .

اتمنى لكما اخيرا النجـــاح الكبير في عملكما المثمر .

اولغا سكوروكودوفا

С С С Р

АКАДЕМИЯ ПЕДАГОГИЧЕСКИХ НАУК

НАУЧНО-ИССЛЕДОВАТЕЛЬСКИЙ ИНСТИТУТ ДЕФЕКТОЛОГИИ

Москва, Г-121, Погодинская, 8 Тел. 245-04-52

Исх. № 3/1 "4" 04 1980 г.

Interprète Assermenté
MIKAIL WAKIM
Homs - R.A.S., Rue Algouta, SYRIE.

Уважаемые господа Михаил Ваким и Кусай Атаси!

Ваше письмо я прочитала с большим вниманием. Ваше сообщение о переводе моей книги радует меня, поскольку перевод на арабский язык увеличивает число тех книг, которые уже переведены на другие языки. А в этом 1980 году в Болгарии мои друзья и коллеги переводят мою книгу на болгарский язык.

Я глубоко тронута Вашим пониманием содержания моей книги. Вы очень тонко и правильно поняли все то, что мне хотелось высказать. И я не сомневаюсь, что читатели – Ваши соотечественники, также поймут еще не знакомый им духовный мир людей без слуха и зрения.

Высылаю Вам один экземпляр моей книги на французском языке. Если в процессе работы у Вас возникнут вопросы ко мне лично, то я с удовольствием отвечу Вам на них.

Глубокоуважаемые господа, буду Вам очень признательна, если Вы сможете мне прислать несколько экземпляров моей книги на арабском языке.

С наилучшими пожеланиями успехов в Вашей плодотворной деятельности.

О.Скороходова.

О. СКОРОХОДОВА

إلى القارئ الفرنسي

اولغا سكوروكودوفا ، مؤلفة هذا الكتاب ، وأنا الذي ساعدتها في تحريره ، قبلنا بسرور اقتراح (دار التقدم للنشر) بمراجعة نص الكتاب خصيصاً لنشره باللغة الفرنسية وكنا نتابع دائماً باهتمام التجربة الفرنسية في مجال اعداد وتربية العمي — الصم — البكم . وكل الذين يلمون بالحد الأدنى من قضايا هذا النوع من الاعداد يعلمون أن صاحبة أول عاهة ولادية نجحت في إتمام دراستها هي (ماري هورتان) الفرنسية .

وقد كوفئت جهود أستاذتها الفاضلة الأخت مارغريت دولارنيه (١٨٦٠ — ١٩١٠) — بجائزة مونتيون الممنوحة من قبل الأكاديمية الفرنسية .

إن الطريقة التي ابتكرتها وطبقتها الأخت مارغريت بهذا النجاح الكبير مألوفة لدينا إذ هي لاتعطي دوراً متميزاً للكلمات بشكل عام ولا للغةالمحكيّة بشكل خاص ، فالأخت مارغريت كانت تريد للطفل الأعمى الأصم الأبكم أن يأتلف مع عالم الأشياء التي يستخدمها في حياته العملية . والفضل الأكبر للأخت مارغريت هو أنها بدأت بتعليم طلابها العاجزين لغة الاشارة التي تتيح للعميان الصم البكم الاتصال بالناس ، وهذا التواصل هو المفتاح المؤدي إلى تطوير ملكاتهم العقلية .

إن تجربتنا الخاصة مضافاً اليها تجارب البلاد الأخرى ، في مجال تربية العميان الصم البكم ، أقنعتنا تماماً بأن التواصل بواسطة (الأشياء) والاشارات يجب بالضرورة أن يسبق الاتصال الكلامي في عملية إعداد العاجزين وتطويرهم .

ولم تكن الأخت مرغريت ذات التواضع الجمّ ، تريد أن يُنْظَرَ إلى نشاطها التربوي في هذا المجال على أنه عمل بطوليّ ، فقد عرضت أعمالها على أكاديمية العلوم التربوية دون موافقة منها ، ومع ذلك كانت تدرك تمام الادراك أهمية اكتشافاتها التربوية في مجال اعداد العمي الصم البكم ، وقد كرّست كثيراً من الجهد والوقت لنشر طريقتها بين أكبر عدد ممكن من المربين المختصين ولا سيما بين أولئك الأجانب الذين كانوا يمارسون التدريب في مدينة (لارنيه) . وقد نشرت مبادىء طريقتها هذه في الصحافة . وقد بدىء بتطبيق هذه الطريقة على مجموعة من الصبيان الصم البكم العمي الذين كانوا يعيشون في مركز دير (بواتييه) القريب من (لارنيه) والذي أنشىء بمبادرة منها . ولقد كان لطريقة الأخت مارغريت الأثر الأكبر في المدرسة الكندية للتربية ، ومن المؤسف أن طريقتها قد أغفلت بعد نصف قرن من وفاتها مما ترك أسوأ الأثر في مجال تربية واعداد الصم البكم العمي .

وفي هذه العجالة أريد التنويه بالأخت مارغريت التي ساهمت كثيراً في تطوير هذا الفرع المتخصص من فروع التربية .

إن المتخصصين في شؤون المعوّقين في أقطار العالم يعرفون (شارل ميشيل دوليب) (١٧١٢ — ١٧٨٩ (مؤسس أول معهد للصم البكم ، ومبتكر طريقة المحاكاة في التربية .

ولابد من التنويه (بفالنتين هواي) ١٧٤٥ — ١٨٢٢ / المربي الفرنسي الذي ابتكر طريقة تنضيد الحروف وعمل على تأسيس أول المعاهد الخاصة بالعميان في فرنسا وروسيا ، وهو أول من نظر إلى العميان على أنهم أعضاء حقيقيون في المجتمع ، وعمل على تزويدهم بالقدرة على الدراسة والعمل . وفي عام ١٧٨٦ نشر لأول‌مرة كتاباً للعميان بأحرف نافرة حسب طريقة من ابتكاره .

وبديهي أن من المحال أن نغفل عن ذكر لويس برايل / ١٨٠٩ — ١٨٥٢ / المعروف في العالم أجمع والذي فقد بصره منذ الثالثة من عمره والذي ابتكر في سن العشرين أحرفاً نافرة يستعملها العميان ، وهم مدينون إلى الأبد للويس برايل الذي منحهم نعمة النور التي لاتقدر فأضاء لهم سبل القراءة والكتابة .

وسيطول بنا الكلام لورحنا نعدد أفضال المدرسة الفرنسية في تربية المعوقين ؛ ولكن ماذكرناه يكفي للتدليل على الاحترام العظيم الذي تحظى به هذه المدرسة في الاتحاد السوفياتي .

ويبدو لي أن من شأن هذه المقدمة الموجزة أن تعرّف القارىء الفرنسي على واقع تعليم العمي الصم في الاتحاد السوفياتي .

إن معهد المعوقين جسدياً في أكاديمية العلوم التربوية يقوم منذ سنين عديدة بتجارب تربوية — نفسية في مجال اعداد الأطفال الصم البكم العمي وتطوير ملكاتهم العقلية.ومنذ عام ١٩٥٥إلى١٩٦٠ أشرف على هذه الأعمال الأستاذ سوكوليانسكي الذي كان أسس في خاركوف منذ عام ١٩٢٣ مدرسة — مستشفى تضم من خمسة طلاب إلى سبعة ،

لتربية الأطفال الصم البكم العمي ؛ وكان من طلاب هذه المؤسسة اولغا سكوروكودوفا.وهذا الكتاب يروي قصة حياتها الخارقة ويعرض النتائج المدهشة التي وصلت إليها .

وفي عام ١٩٦١ وعلى أثر موت الأستاذ سوكوليانسكي أحدث معهد المعوقين جسدياً مخبراً خاصاً أسندت إلي ادارته ، وتتابعت فيه التجارب التي كان بدأها الأستاذ سوكوليانسكي .

وفي عام ١٩٦٣ وبمبادهة من العاملين في مخبرنا أنشئت مؤسسة لتأهيل وتربية الصم البكم العمي في (زاغورسك) في ضواحي موسكو . والمربون في هذه المؤسسة يقومون بتعليم الأطفال المحرومين من النظر والسمع والنطق ، حسن التخلص في حياتهم اليومية ، وذلك بتزويدهم بالثقافة العامة والتأهيل المهني . ويتابع التلاميذ دروساً تتفق مع البرامج والطرائق التي أعدها مخبرنا . وهذه الدراسات موزعة على ثلاث مراحل : تحضيرية ومدرسية ومهنية .

وكل مجموعة في المؤسسة تضم ثلاثة طلاب ، أما الدروس فتعطى بالتناوب من قبل مدرس واحد وعدة مربين . ونصاب المدرس فيها خمس ساعات ، ويعيش التلاميذ على نفقة الدولة ، وهم يقضون العطل عند ذويهم إذا مارغب هؤلاء في ذلك .

وبمقتضى نظام هذه المؤسسة يمكن قبول الأطفال الذين بلغوا الثالثة ، وهكذا فالنتائج المرجوة تكون أفضل حينماتبدأ تربيةالأطفال الصم البكم العمي في سن مبكرة .

وطلاب الصفوف العليا يتعلمون الكلام بطريقة سليمة مرضية

تتيح فهم مرادهم ؛ وهم قادرون على قراءه المؤلفات الأدبية والكتب المدرسية والمطبوعات العلمية المبسطة المطبوعة بطريقة برايل . وباللجوء إلى بعض الطرائق الفنية يقرأ الأساتذة على الطلاب الصحف والمجلات والكتب غير المطبوعة بالأحرف النافرة . وكل طلاب الصفوف العليا يجيدون الضرب على الآلة الكاتبة .

ويتنقل الطلاب دون مساعدة أحد في أرجاء المدرسة وساحاتها ويمارسون كل أمورهم ذاتياً . فهم على سبيل المثال ينظمون دروساً للاصغر منهم سناً ويعلّمونهم استخدام المعجون المستخدم في صناعة القوالب والنماذج والعمل على تدبير أمورهم المعاشية بأنفسهم ، كما يصدرون جريدة جدارية بالأحرف النافرة وينظمون اجتماعات ومناقشات خاصة بالكتب التي قاموا بقراءتها . وهم يتابعون كذلك برامج الصفوف الأخيرة للمدرسة الثانوية . وقد نجح أربعة منهم عام ١٩٧١ بعد انهاء دراستهم الثانوية في مسابقة الدخول إلى كلية علم النفس في جامعة موسكو ، فالمستوى الفكري والخلقي والحس الجمالي لأولئك الطلاب لايقل شأناً عن مستوى الطلاب الآخرين ، إذ نجحوا ايما نجاح في متابعة دروس الكلية .

ولأول مرة في العالم ينجح صم عمي في متابعة الدراسات العليا إلى جانب الأسوياء ، وهكذا يكتسب هذا الإنجاز قيمة إنسانية لاتنكر . ومن جهة أخرى تكتسب تربية الصم العمي أهمية علمية كبرى ، فهي تتيح لنا المتابعة الكاملة لتطور الوظائف النفسية العليا للكائن الانساني

(في حالته الخالصة) أي بمعزل عن كل تأثير غير مدروس على التلميذ ، ففي هذه الحالة ينجح المربي في تشكيل الشخصية حسب طرائق أعدت بدقة وصرامة .

إنّ تجربة الاعداد الجامعي للطلاب الصم العمي تتيح لنا من الآن أن نغني ونحدد أفكارنا حول شروط التطوير النفسي لشخصية الطلاب وإنماء شخصيتهم وفي الوقت نفسه دلت هذه التجربة على أن تنظيم دروس الصم العمي في معهد عال يطرح أمامنا قضايا خطيرة ، فتضحيات المربين لاتكفي بل لابد من أرضية مادية هامة: إنها استخدام التقنيات الخاصة كالمؤلفات المكتوبة بطريقة برايل ونصوص المحاضرات والأعمال التطبيقية إلى جانب التوجيهات المنهجية الخاصة . وقد قدم لنا الأستاذ ليونتيف عميد كلية علم النفس مع إدارة جامعة لومونوسوف في موسكو في هذا المجال مساعدة قيمّة .

ومعلوم أن الصم العمي في مؤسسة زاغورسك لايتابعون جميعاً دراساتهم العليا فمعظمهم يتلقون إعداداً مهنياً ، وهكذا ومنذ الصفوف الدنيا يتعلم التلاميذ العمل : فيؤدون الخدمات المطلوبة في الصف كما في المطعم والقسم الداخلي وهم يصلحون الأثاث والتجهيزات المدرسية ، كما يصنعون اللعب ويسهرون على الحديقة والمدجنة في المدرسة ويقومون بتربية الأرانب وغيرها .

وفي الرابعة عشرة ينضم الطلاب الصم العمي إلى عضوية جمعية العميان في الاتحاد السوفياتي ويتمتعون بكامل امتيازاتها . وفي السادسة عشرة يتعلمون العمل في مشاغل الخياطة والتسوية والنجارة . ويمضي الطلاب الذين يتابعون الاعداد المهني خمساً وعشرين ساعة اسبوعياً في الدروس

العامة وثماني عشرة ساعة في التعليم المهني ، ويحق لمن تابعوا هذه الدروس الأخيرة مدة عام حينما يبلغون السابعة عشرة أن يحصلوا على الاعانة الممنوحة من الدولة للعاجزين .

إن عملية التوظيف المهني لهؤلاء تفتح أمامهم المجال للعمل في مشاريع جمعية العميان في الاتحاد السوفياتي ؛ أما عملهم وأوقات فراغهم فمُنظمة ومدروسة .

ويبدو لأول وهلة أن هذه الطريقة الخاصة في التنظيم تعزل الصم العمي عن المجتمع ، وواقع الحال أنهم لايشعرون بالعزلة والوحدة والنفي إلا عندما يُتْرَكون وشأنهم ، وهم لايمكن لهم أن يساهموا ويشاركوا في الحياة الاجتماعية إلا عندما يتمّ توحيد شملهم .

وما أصدق أنطوان دي سانت أكسوبري حينما قال : « إن المتعة الحقيقية الوحيدة هي في التواصل الانساني » . وتلك هي الفكرة التي تشيع في ثنايا كتاب اولغاسكوروكودوفا ، المرأة التي حُرمتْ نعمة السمع والبصر ، ولكنها أوتيت موهبة كبرى .

« أ . مشتشرياكوف »

* * *

مقدمة المؤلفة

كانت ولادتي في صيف عام ١٩١٤ في قرية بيلوزيوركا بالقرب من خيرسون في أوكرانيا .

كان أهلي فلاحين فقراء ، وحينما جند والدي عام ١٩١٤ ظلت أمي وحدها تعمل في خدمة أفراد أسرتنا التي تضم أعمامي وعماتي وجدّي المريض ، وإذ كانت بالإضافة إلى ذلك تعمل خادمة عند كاهن القرية فان عملها كان مضنياً ، وكانت في كل حين ، في وحول الخريف وصقيع الشتاء ، تذهب قبل بزوغ الفجر إلى الضفة الأخرى من النهر ، تاركة إياي مع جدّي المريض .

وعلى الرغم من قسوة هذه الفترة فان هذه السنوات كانت أسعد أيام حياتي ، إلى أن أصابني المرض في صيف عام ١٩٩١ وكنت آنذاك في الخامسة .

وما زلت إلى الآن أذكر ذلك المرض جيداً . أتذكر مثلا أن حمّى شديدة أصابتني وجعلتني أتخيل أني أرى حرائق وكلاباً مسعورة من لهب تلاحقني وتخيفني وأنا أحاول الخلاص منها . ومن ذكرياتي حينما استرجعت وعيي مرة ، أن أمي قدمت لي الشاي مع مربى المشمش وكنت أشعر بالوهن الشديد وبعجزي عن فتح عينيّ وبأنني

ما كنت أرى ما حولي ، كنت أتعرف على أمي باللمس وعيناي مغمضتان ، فهي التي أشرفت على تمريضي ، فقد مات جدّي ورحل باقي أفراد الأسرة وخلفونا وحدنا ، وذات يوم أردت أن أعرف مكان المربّى وما لونه ففتحت عيني . . . فما رأيت شيئاً لا المربى ولا لونه .

وما زلت أذكر أن مرضي قد طال ، فحينما رحت أتماثل للشفاء كان الجو بارداً فقد حل الخريف ولكنه ليس الخريف ما كان يخيفني ، فالمرعب حقاً لي ولأمي أننا فقدنا الأمل ؛ فأنا الآن عمياء وشبه صماء .

وقد تحول الوطن إلى أنقاض ، فالحرب الأهلية كانت مسعورة . وطبيعي أن أمي كانت عاجزة عن إرسالي إلى أية مؤسسة ، ولكنها كانت تبذل ما في وسعها ، فعرضتني على أطباء (خرسون) ، لكن المختصين بأمراض العيون والآذان اكتفوا بمداعبة رأسي ، ونصح أمي بلهجة مشفقة أن لا تفقد الأمل .

ولم يَعُد أبي من الحرب . أما أمي فكانت خلال الربيع والصيف تعمل في الحقول أو البساتين ، وفي الخريف والشتاء كانت تؤجر نفسها خادمة ، وقد تعودت أمي أن تغادر البيت باكراً وكنت حينما استيقظ لاأجدها في الغرفة ، وكانت حينما تعود متأخرة في المساء تجدني نائمة . فأنا كنت إذن متروكة لنفسي منكفئة على ذاتي أبقى حبيسة المنزل في الشتاء ، وفي الصيف ألعب في الحديقة تحت شجرة ضخمة من أشجار الليلك .

وما كنت لأدرك في هذه الفترة تأثير الصمم على منطقي ومداركي ، ومما لاشك فيه أن بقائي وحيدة وإهمالي وعزلتي الدائمة شبه الكاملة عن العالم الخارجي لم تساعد على تطور ملكاتي العقلية وقدرتي على النطق التي راحت تضعف وتنحط بتأثير الصمم . تلك كانت حياتي حتى شتاء عام ١٩٢١ — ١٩٢٢

وذات يوم وقعت أمي فريسة للمرض مما اضطرها لملازمة الفراش . وكم يحز في نفسي أن أتناول تلك الفترة بالوصف . كنت أتمنى أن يؤويني أحد في بيته ، فأنا الطفلة الصغيرة العمياء شبه الصماء كنت أعجز عن أن أوفر العناية لأم مريضة ، وما الذي بمقدوري أن أفعله لها ؟ وقد علمت فيما بعد أنها كانت مصابة بالسل . واشتدت وطأة أعوام القحط التي رافقت الحرب الأهلية وخيمت المجاعة على بيوريوركا ، ففي بداية الربيع ماكان في بيتنا رأس من البطاطا أو حبة من قمح . وصحيح أن الجيران كانوا يمدون لنا يد العون ، ولكن تلك المساعدة لم تكن مستمرة بحيث يمكن الاعتماد عليها ، كنت على درجة من الضعف لا أقوى معها على السير بينما كانت أمي تعالج سكرات الموت .

وصلت عمتي ذات يوم فأصابها الذعر مما رأت فحملتني إلى بيتها وأنا لا أكاد أعي من جوعي ، وبعد أيام علمت بأن أمي فارقت الحياة ..

وفي خريف عام ١٩٢٢ أدخلني المسؤولون عن التربية الوطنية في (خرسون) مدرسة العميان في أوديسا حيث مكثت فيها حتى عام ١٩٢٤ ، وهناك علمت بعد حين أن جميع طلاب المدرسة من العميان ، وكثيراً ماكان يصطدم بي أحد الرفاق فيتلمسني بيديه ويسائلني . كنت مستوحشة جداً ، أبكي كثيراً وأبحث عن صحبة المبصرين

وكان التلاميذ الأكبر سناً والمربون والأساتذة يجهدون لتسليتي فيصحبونني في نزهات ويقدمون لي بعض الهدايا الصغيرة من عقود وشرائط كما كانوا يلاطفونني ويحاولون تعليمي شيئاً ما . ولكن ما من أحدٍ يمكنه أن يهتم بي اهتماماً خاصاً . وما كان بمقدوري المشاركة في الدروس ، فأنا عاجزة عن سماع مايقوله المدرس ، ولابد من الصراخ الحاد في أذني اليمنى بينما اليسرى معطلة منذ مرضي .

وبعد عام من وصولي إلى المدرسة تعطلت أذناي كلتاهما ، وكنت موضع شفقة الجميع ولكن مامن أحد كان يستطيع أن يقدم لي شيئاً . وقد عرضوني على عدة أطباء تم أرسلوني إلى مؤسسة طبية خاصة بالأطفال ولكن دون جدوى . وكنت أمضي الأيام الطوال في غرفة نومي في عزلة كلية .

وقد كفوا عن اصطحابي للتنزه في المدينة لأني منذ أن فقدت السمع كلياً فقدت معه القدرة على التوازن فما كان بمقدوري السير وحدي

وحينما علم أحد أساتذة أوديسا بوجود فتاة صغيرة صماء عمياء أخبر الأستاذ سوكوليانسكي في خاركوف بذلك . وكانسوكوليانسكي يحاول في هذه الفترة إنشاء مؤسسة للأطفال الصم البكم العمي ، وفي بداية عام ١٩٢٥ أرسلوني إلى خاركوف لاقيم في مستشفى خاص بهؤلاء .

ومنذ الأيام الأولى بدت لي الحياة في هذه المؤسسة جديدة وغير مألوفة . وكانت تضم في تلك الفترة خمسة نزلاء . كنا نستنشق

رائحة النظام والنظافة في هدا المشفى ، فالعاملون فيه يهتمون بنا ويعاملوننا بمحبة فائقة ، وأستطيع القول دون خوف من الخطأ بأن المربين والأساتذة وسوكوليانسكي بالدات كانوا يحبوننا قدر حبهم لأولادهم

كان علي أن أوطن نفسي في بادىء الأمر على أن آلف هدا الجو الجديد وهذا النمط من الحياة . وفيما بعد راحوا يهتمون بي اهتماماً خاصاً ، فقد جهد الأستاد سوكوليانسكي في أن يعيد لي النطق الدي اضطرب وتخلخل منذ أن فقدت السمع وقد كُلِّلت جهوده بالنجاح إذ رحت أستعيد رويداً رويداً قدرتي على النطق نشكل طبيعي .

ومن المؤكد أني ماكنت قادرة على سماع ما أقول وعلىلا ادراك الكيفية التي أنطق بها ، ولكن كل مايحيط بي كان يعمل على تقويم نطقي في كل لحظة ، ولم يسمحوا لي أبداً ببذل الجهد أو رفع الصوت خلال النطق .

في مشفى خاركوف انهيت دراساتي الثانوية ورحت استعد للالتحاق بالتعليم العالى بكلية الآداب بالمراسلة ، وكان علي أن أنتقل إلى موسكو عام ١٩٤١ ، لكنّ اجتياح الجيوش الألمانية النازية للاتحاد السوفياتي في ٢٢ حزيران حال دون ذلك

وفي ٣١ تموز ١٩٤٤ وصلت إلى موسكو حيت كان في انتظاري بعض الأصدقاء مع معلمي الأستاذ سوكوليانسكي . وراح هؤلاء جميعاً يهتمون بي ويتيحون لي فرصة متابعة الدراسة والعمل . وأنا الآن أشغل منصب الباحثة في معهد المعوّقين التابع لأكاديمية العلوم التربوية في الاتحاد السوفياتي .

كلمة حول الكتاب

أريد أن أعرض بايجاز كيف خطرت لي فكرة تأليف هذا الكتاب .

شيئاً فشيئاً رحت أدرك العالم ، وما زلت أذكر بعض الفترات الصعبة . كان يمضني عجزي عن إظهار موقفي من العالم المحيط بي وعن التعبير عن أفكارى . وطبيعي أن أكون عاجزة في تلك الفترة عن تذوق تلك المتعة التي تتيحها لي اليوم القراءة والاتصال بالناس . في بداية الأمر لم أكن أعرف كيف يعبر الناس عن موقفهم من العالم المحيط بهم . وكما فهمت فيما بعد فان أولئك الذين كانوا على اتصال بي كانوا يحاولون أن يفهموا ما أريد وما تعنيه محاولاتي في الاتصال بهم وبالعالم الخارجي وهكذا وبالتدريج بدأت تراودني فكره دراسة الطرق الخاصة التي بها أتعامل مع حقائق البيئه .

وبدهي أن أوائل الأشخاص الدين بدأت بالتعرف عليهم كانوا من المحيطين بي . وفي البداية كان ذاك مبعث « صراع داخلي » لي فأنا أشعر بالعالم الخارجي ولا أفهمه ومع مرور الوقت رحت أشعر بالحاجة إلى أن أعرف وأفهم ، وبالرغبة في ان يشرح لي الناس مادا يدور من حولي . وعلى سبيل المثال حينما يفد بعض الغرباء إلى المؤسسة بروائحهم التى ماكنت ألفتها ، كان القلق يغزوني ، وإذا صادف وصولهم خلال الدرس فسرعان ماكان انتباهي يتشتت ، ويتنبه المدرسون

إلى قلقي ، لكنهم في بداية الأمر ماكانوا يدركون دائماً مايعتمل في مخيلتي وكان يُطْلَبُ مني ان التزم الهدوء ، أما انا فحميع تصرفاتي كانت تنم عن رغبتي في ان تُشرَحَ لي عن القادمين ولماذا أتوا كنت ألاحظ تقلبات المزاج عند الأساتذة والمربين ، وبشكل عام ، عند أولئك الذين اصادفهم في البيئة المألوفة ، والذين أدرك عملياً وبشكل صائب ، تصرفاتهم اليوميه .

وحينما ألاحظ ان المدرس المهتم بي قد غير شيئاً من سلوكه فسرعانماينعكس ذلك على سلوكي فمثلا كنت احس أنهم كفوا عن ملاطفتي وأن مجرى الدرس قد تحول ، وفيما بعد بدأت آميز بدقة متناهية مزاج أولئك المحيطين بي . فاذا كان أحدهم حزيناً ، فتجاوبي معه يختلف عما إذا كان فرحاً

وهكذا بدأت ذاكرتي تكدس في البداية ، وبشكل عشوائي غير واع ، كل الوقائع التي أدركها فيما حولي ، وقد دامت حالتي هذه سنوات عديدة . وشيئاً فشيئاً ، وحيما وصلت إلى أن أعي الحياة ، رحت أطلب أن يُشرح لي كل ما أحس به ، ولكني ماكنت دائماً قادرة على الفهم دون مساعدة الآخرين .

وما كان الآخرون يفهمونني حق الفهم ، فغالباً مايفسر بعضهم سلوكي على أنهمجردفضول أو علىأنهعدم لباقة،وهذا ماكان يرمبني بنوع من « الصراع الداخلي » ومع ذلك كنت أسعى بمزيد من المثابرة لمعرفة وفهم مايدور من حولي .

وإليكم هذا الحادث الطارىء : فحينما لاحظت خلال أحد

الدروس أن معلمتي حزينة لم أقف من ذلك لامبالية بل سرعان ماتملكني الحزن ، وحاولت بكل الوسائل أن أظهر لها تعاطفي ورغبتي في أن تبوح لي بما يعمها ، ولكنها لم تبح بشيء ، وعند انتهاء الدرس اقترب مني الأستاذ سوكوليانسكي وسألني كيف أدركت أن هذه المعلمة تعاني من الحزن ؟ وقد فسرت المعلمة تعاطفي معها على هواها حينما قالت للأستاذ إنها تصورت أني « أتوتر » خلال الدرس ، وهذا ما أحزنني كما أذكر . وما أكثر أنواع الصراع التي عانيت منها ، وماذا يجدي أن أعددها جميعاً فواحده منها تكفي .

إذن لم يكن الناس يفهمونني دائماً ، ماعدا شخصاً واحداً كان وحده الذي يفهمني بدقة ويشرح لي مايزعجني ويقلقني ويستعصي على فهمي ، إنه الأستاذ سوكوليانسكي . وحينما تعلمت الكتابة بدأت ، التماساً مني للاجابة على تساؤلاتي ، بتحرير هذه التساؤلات وعرضها على أستاذي . وهكذا تعودت تدوين تصوراتي عن العالم المحيط بي ، وكان الأستاذ يتلقى باهتمام هذه الملاحظات ويفرزها بانتباه ويحتفظ بها بعناية كما يشجع فضولي في كل مجال ، ولا يظنن أحد أن ملاحظاتي تلك كانت مرتبه كما وردت في هذا الكتاب . كلا ففي بداية الأمر ماكان لأحد أن يقرأها سوى أولئك المهتمين بي ، وحينما أصبحت متمكنة من اللغة صارت تلك الملاحظات أكثر وضوحاً وقابليه للفهم .

وعندما ملأت ملاحظاتي مصنفاً كبيراً أثار ذلك مسأله تحريرها تمهيداً لنشرها وفي الحق كان علي أن أعيد عشرات المرات صياغه وقائع عايدة كنت دونتها، ذلك أنه كان علي نسياً الاحساس بشيء ما وادراكه و « رؤيته » باليدين ، فمن الصعب جداً وصفه كما

أعيه وذلك بتقديم صورة مشخصة له . وعندما يقوم العمي الصم البكم بوصف احساساتهم وإدراكاتهم وأفكارهم بلغة المصرين فيجب أن ننسى أنهم يلجؤون إلى حواس أخرى خلال عملية الادراك مستخدمين لغة الذين يبصرون ويسمعون ، وحينما يلمح رجل سويٌ بقرةً من بعيد يقول (إني أراها وهي صهباء اللون ببقع بيضاء وعيناها كبيرتان حميلتان) ، والأعمى يستخدم التعابير نفسها ولكنه حين يصف احساساته وإدراكه المباشر فسوف يقول (لقد عاينت هده البقرة بيدي ، فوجدت وبرها صقيلا ناعماً ، ولمست قوائمها ورأسها حيث وجدت قرنين قاسيين لدى اللمس)

ما الذي يمكن لرجل أصم أن يقوله عن معزوفة على البيانو ؟ إليك مايقوله . (وضعت يدى على البيانو وشعرت باهتزاز ما اصطلح الناس على تسميته أصواتاً)

كنت أعي ظواهر عديدة ، وكلما زاد احتكاكي بالناس كانت معرفتي بالحياة والطبيعة تزداد ، وذلك بفضل الرحلات التي أقوم بها إلى الأماكن البهيجة ، كما كانت إحساساتي وأفكارى عن العالم الخارجي تزداد غنى وتعقيداً ، وبالمقابل كنت أعاني أيما صعوبة في إيجاد الصيغ الملائمة لكل واقعة خاصة ، وهكذا بلا شك سيرى البعض إلى الوقائع التي أسردها في كتابي هدا على أنها تافهة والتعبير عنها قاصر .

وما على هؤلاء إذن إلا أن يحاولوا التعبير بصدق وأصالة وباسلوب أدبي عن أحاسيسهم كأن يصفوا لنا كيف تاهوا في كهف مظلم عميق لاتصل إليه الأصوات ولا أشعة الشمس سيقولون ولا شك : « لقد

تعثرت بالظلام . . . تحسست بيدي . . . تشممت رائحة عفنة . . . الخ » وكل كاتب يستخدم أسلوبه الخاص حينما يصف أبطاله وهيئاتهم وحياتهم وطباعهم . . . وهذا ما أصعه في اعتباري حينما أحاول بدوري أن أكتب هذا الكتاب « بلغتي الخاصة » .

وعلى مر السنين اتسعت معارفي واعتنت لغتي الأدبية ، والقارىء حر في تصديقي ، ولكني مصرة على القول بأنني مدينة باتساع معارفي وغنى لغتي الأدبية ، لمطالعاتي وحدها ، ولاسيما المؤلفات الأدبية منها ، وما القراءة إلا ملاذ للأعمى وهي كذلك للأصم الأبكم ، فما بالك بالأعمى الأصم الأبكم ؟ وفي مقدور أساتذتي أن يحدثوكم بكيفية تعليم القراءة والكتابة للعميان الصم البكم ، أما أنا فأعيد مادكرته من أن القراءة هي ملاذ للأعمى الأصم الأبكم وخلاصه وإذا ماقدر للمشتغلين باعداد وتربية المعوقين أن يفهموا عني فان تعليمهم لأولئك سيزداد تقدماً .

وحينما يتابع القارىء كتابي بانتباه فسيلاحظ أن عرض الوقائع في الفصول الأولى يختلف عنه في الفصول الأخيرة ، وقد قمت بتأليف هذا الكتاب وحدي ، ولكني حينما كنت أجمع وقائعه لجأت في البداية إلى المساعدة الفنية من قبل اساتذتي ولا سيما عند زيارة المتاحف أو القيام بالأسفار

ولدى زيارة متحف ما كان يتعذر علي اصطحاب آلتي الكاتبة ذات الحروف النافرة بغية تسجيل انطباعاتي الموجزة وحفظها ، وهكذا كان المرافقون لي يحملون دفاتر عادية حيث أملي عليهم مايجب

تدوينه ، ولدى عودتي إلى المنزل أقوم بتحرير ذلك بطريقة برايل ، فكان يكفي ، مثلا ، أن أسترجع ذكرى علامةمميزة لتمثال ما سبق أن عاينته ، حتى يتَمَثّلَ هذا التمثال كلياً في ذاكرتي .

وقد لجأت دائماً إلى استخدام هذه الملاحظات خلال تحرير الكتاب ؛ ولأني كنت أملك هذه « المعالم » والدلائل فقد نجحت خلال ليالٍ كاملة في وصف الوقائع والظواهر المختلفه .

وأنا أعشق العمل في الليل فلا أحد يعكر صفوي ، والفكر « ينبض » بحرية ، كما القلب يفعل ، ويلح على أن يُتَرجَم إلى كلمات .

* * *

كيف أدرك العالم

الملاحظة الذاتية

حاسة اللمس

١ — دات يوم انغلق الباب الموصل بين المكتب والمطعم مرتين أو ثلاثاً فشعرت حينذاك باحساس غريب اجتاح أديم وجهي . وبدا لي أن الغرفة أصبحت أكثر ضيقاً فما عدت قادرة على التحرك فيها ، ولا على تحريك ذراعي لتناول الشاي وقد نغصني هذا الاحساس فقد ألفت أن يكون الباب الموصل بين المكتب والمطعم مفتوحاً على الدوام ، وأنا اتوجه عادة نحو الباب المفتوح مسترشدة بتيار الهواء المصافح لوجهي ، ولكني انحرفت قليلا حينما أغلق الباب . إن عينيّ لاتحسان بأي ضوء بينما لو رحت أجتاز فسحة خالية من أي جسم أضخم مني ، أو لو دخلت من باب مفتوح فسرعان مايستشعر وجهي نوعاً من الضياء . وجدير بالذكر أن هذا الاحساس لم يكن دائماً كما وصفت : فحينما أعاني من الصداع أو من انحراف في صحتي أو من توتر عصبي أو تعب ، يصبح احساسي هذا على درجة من الضعف لاتسمح لي دائماً باستشعار الفسحة الخالية .

وحينما أكون بحالة صحية ومعنوية جيدة ، يزداد احساسي بحرارة الجو وحركة الهواء ووجود الفسحة الخالية ، مثلما استشعر من جديد بقليل من النور لابعيني بل بأديم الوجه .

٢ — وأنا أحب البحر لا لرائحته فحسب بل لأني أعشق الأمواج التي تطوح بي بقوة في شتى الاتجاهات ، فتحملني أحياناً صوب الشاطىء وأحياناً داخل اليم . وعلى الرغم من جهلي للسباحة كنت استمتع بالاستحمام في البحر وبخاصة حينما يكون هائجاً ، إذ أرمي بنفسي بشجاعة في أحضان الماء كي استشعر صجته وصخبه بكل أجزاء جسدي .

٣ — وإليكم ماحدث لي ذات مرة : في الصباح الباكر وبينما كنت مستغرقة في نومي جاءت « ر . ل » لتوقظني ، فدخلتْ بهدوء دون أن أشعر بوقع خطاها ؛ لكني أحسست بحركة الهواء التي أثارها تنقلها ، تلامس وجهي ، فبادرتها بمد يدي إليها قبل أن تصل إلى

٤ — وقد يتفق أن أكون على درجة من التركيز حول شيء ما ، مما يجعلني لا أحس في الحال باقتراب شخص مني ، ولكن حينما يقترب أحدهم مني بشدة أفاجأ به وسرعان ما أرتعش وكأن صرخة حادة أصمتني أو أن لطمة أصابتني . وذات يوم ، بينما كنت مستغرقة في الضرب على الآلة الكاتبة ، لم أشعر تواً باقتراب (ك) مني ، ولكن ما أن صافحت حركة الهواء وجهي حتى أصابتني رجفة خوف ، وعراني الاحمرار تحت وطأة الانفعال .

٥ — كنت أقرأ يوماً ما في إحدى الغرف بصحبة (ت) . وفجأة شعرت بتيار هوائي يلامس عنقي وكتفي من صوب الباب ،

فارتعشت والتفت إلى تلك الجهة ، قالت لي (ت) · إنه (ك) الذي دخل .

٦ — وحينما تسلم علي (ل ي) مصافحة ، أتعرف حالتها الصحية دائماً ، كما أعلم بحزنها أو باستيائها ، وذلك من حركة أصابعها وتوتر يدها ورعشة جسمها . كانت غالباً ماتحيبني بأنها لاتعاني من الغم ، ولكن معرفتي الوثيقة بلغة يدها وحركاتها تجعلني لا أصدق ذلك . وأكبر الظن أنه لو أتيح لي أن أرى بعيني وادرس تعبيرات وجه (ل . ي) لما ازددت علماً بوضعها الجسمي وحالتها النفسية وذات يوم ، بينما كنا نعمل معاً لاحظت بادىء ذي بدء أنها مكتئبة وأن شيئاً ما يعذبها ، ولكن حينما سألتها قائلة : ماذا بك ؟ لزمت الصمت ، وبعد ساعة من الزمن تبدل مزاجها تماماً فأصبحت فرحة هادئة ورحت أسألها ثانية :

— ما الذى كنت تعانين منه قبل الدرس ؟

— لاشيء .

— لكنك كنت قلقة

— كنت أعاني من صداع .

قالت ذلك بصوت متردد ، لكني لم أصدقها .

٧ — إن أية نبضة خفيفة من أصغر عرقٍ في يد (ك) أو أية حركة طفيفة من أحد أصابعه تجعلني أدرك دائماً أن شيئاً ما قد أزعجه أو أنه ليس على مايرام ، وبنفس الطريقة أدرك كونه مسروراً .

٨ — وغالباً مايحدث أن أتعرف على الحالة الصحية أو المعنوية السيئة لا للاشخاص الذين أعرفهم أوثق المعرفة فحسب وإنما لأولئك الذين تربطني بهم معرفة سطحية ؛ فعلى الرغم من أني لا أرى صديقتي (ل) إلا لماماً فأنا منذ الثواني الأولى لمقابلتي إياها أشعر بأنها هادئة أو مسرورة أو أنها مهمومة حزينة . أسألها عن سبب ذلك فسرعان ماتجيبني بدهشة : نعم أنت على حق فأنا فعلا أعاني من الغم . . ثم تشرح لي سبب ماتعانيه

٩ — وتحل يداي جزئياً محل السمع والبصر . كما تؤدي قدماي دوراً لايقل أهمية ؛ وهكذا أحس بسهولة كل تحدب في الأرض حينما أسير في شارع أو حديقة ما ؛ ولهذا وحينما أكون في الشارع ولدى اقترابي من حافة الرصيف أعرف متى يجب علي أن أنزل أو أصعد ؛ وحتى في البيت فأنا أحس بأي تحدب في الأرض . وذات يوم جرى تجديد الأرض في صالة الألعاب . وحينما دخلت إليها بعد انتهاء العمل شعرت حالا بأن الأرض منخفضة قليلا في موضع ما .

١٠ — صعدت إلى الغرفة حيث أمارس القراءة مع طلاب الحلقة الثالثة . بادرني (س) بالتحية وقدم لي كرسياً ، فجلست . وكان من المفروض أن تقوم (ت) باجراء القراءة ولكن (آ) اقتربت مني بدلا منها . تعرفت عليها من يدها ، ولكن لأنها لم تقل لي شيئاً واكتفت بأن امسكت يدي ظننت أنها تتحدث مع شخص آخر . . . أخيراً وبعد أن طال انتظاري لها كي تهتم بي سألتها : « ما الذي تعنيه بذلك ؟ فسألتني (آ) بهدوء محاولة تقليد يد (س) : « ماذا » فحينذاك أدركت

أنها تريد التثبت من أنني قد تعرفت عليها ، شددت على أصابعها بقوة فسرعان ما اصطرت إلى الاعتراف بأنها لم تنجح في خداعي بمثل هذه الدعابه .

١١ — اخبرتني (ف . م) بأن عليها أن تحضر اجتماعاً وبأن (ل . ي) ستنوب عنها وبعد الدرس استلقيت لأستريح فغفوت ثم شعرت بأن أحداً يوقظني وتعرفت وأنا في نومي على (ف . م) حينما لامست كتفي ، استيقظت وسألتها : ألم تذهبي إلى الاجتماع أجابتني . كلهم ذهبوا إلا أنا .

١٢ — كنت أقرأ في الغرفة مع (ت .) دخل (ك) واقترب مني ووضع يده على كتفي قائلا · أنا (ك) أجبته : شعرت حالا أنك أنت عندما وضعت يدك على كتفي .

١٣ — مررت قرب الهاتف حيث توجد امرأة . توقفت ولمستها بيدي وعرفت للتو أنها (آ) ومن عادتي أن أتعرف عليها بلمس أي موضع من جسدها

١٤ — قيل لي : إن فتاة عمياء تريد مقابلتي ، وكنت أعرفها جيداً وأخمن بسهولة مزاجها وحينما رحت لمقابلتها أمسكت بي مرتجفة ولم تكد تناديني باسمي حتى قاطعتها قائلة :

— هل تلقيت رسالة ؟

— نعم . كيف عرفت بذلك ؟

لم أجبها بشيء وإنما سألتها ثانية .

وهل الرسالة من (س . م) ؟

ــ نعم . من أعلمك بذلك ؟

ــ لاأحد ، وإنما شعرت من حركاتك بأنك سعيدة فتوقعت أن تكون الرسالة من (س م) .

١٥ ــ لدى ممارستي القراءة مع (ت) شعرت فجأة بنفحة ريح تصافح خدي الأيمن ، فأدرت وجهي نحو مصدر النفحة . قالت لي (ت) : إنها (س) التي عبرت أمام الطاوله إذ كان لدي الأنطباع بأني أرى أحداً يمر .

١٦ ــ كنت أرى بعض الأصدقاء لماماً ، وكان من المظنون أني نسيت تماماً أشكال أيديهم وكان يغلب علي الظن بأني ماعدت أتذكر أيدي وحركات أولئك الذين أراهم نادراً ، ولكن لدى أول لقاء بهم أدرك أني لم أنس شيئاً من ذلك على الاطلاف ، فالسيدة (س) لا أعرفها إلا سطحياً إذ لم أقابلها خلال ثماني سنوات إلا ثلاث مرات أو أربعاً ، ولقاءاتي بها كانت قصيرة ولم تخلف في نفسي أي انطباع ذي أثر . وفي احدى الأمسيات التي نظمها معهد الطب التجريبي في اوكرانيا ، وخلال سيري في الرواق ، شعرت بيد تلامس كتفي . توقفت وأمسكت بيد الشخص الذي اقترب مني فتعرفت حالا على السيدة (س) مع أني لم أقابلها منذ زمن طويل وكنت أجهل حضورها الأمسية ، بل ماكنت أتوقعه .

١٧ ــ حينما تُقرأ لي الكتب المألوفة المكتوبة بالحروف النافرة فمن الهام جداً بالنسبة لي أن تكون يد مقرئي ماهرة رشيقة ، وألا

تكون مرهقة بعمل آخر ، أما إذا كانت يده متعبة وحركات أصابعه تعوزها المرونة فسرعان ما ينعكس ذلك كلياً على مدى استيعابي فأحس بالتعب الشديد ، لا في رأسي فحسب بل في يدي التي بها أقرأ ؛ ومع أن جميع المقرئين لايدركون ذلك وغالباً مايقولون لي : إن يدك ثقيلة أوإن انتباهك خفيف . وما أصعب علي أن أشرح لهم القضية التالية : فهم حينما يهملون حرفاً من كلمة أو يقومون بحركة لالزوم لها أكون مضطرة للزيادة في التركيز وللضغط بقوة على أصابعهم ، فبقدر ماتكثر الحركات التي لالزوم لها والأحرف المتروكة يزداد ضغطي على أصابع المقرىء . وبديهي أن تصبح رأسي ويدي عاجزة عن استيعاب النص بعد ساعة من قراءته بهذا الشكل . وهكذا أحس بنوع من الأسى حينما يرفض المقرىء الاعتراف بأني أستوعب جيداً وبأن قراءته هو رديئة .

١٨ — ذات يوم ، حينما كنت أصعد الدرج في قصر الطلائع أحسست بوجود سجادة تحت قدمي وكان السجاد يغطي كل الممرات والقاعات . لكن حينما دخلنا إحدى القاعات لاحظت أن الأرض رخامية .

١٩ — ترددت كثيراً على معهد الطب التجريبي وأنا أعرف جيداً جميع أرجائه ، وذات مرة ذهبت برفقة (ك) دون أن ينبئني عن اتجاهنا ، ومع ذلك عرفت أننا في المعهد منذ أن دخلنا إليه ، فأنا أعرف حقاً كيف هي أبوابه وأرضه وأدراجه .

٢٠ — كنت أعمل مع (ك) على أحد الأجهزة ، وعلى الرغم

من ضجيج الجهاز أحسست بوقع خطى في المخبر . سألت (ك): من هذا ؟ أجابني : إنه (ن آ) .

٢١ ـ غالباً مايدهش الناس من تصفيف شعري وهندامي ، فهم لايصدقون أن امرأة صماء عمياء بمقدورها أنْ تعتني بنفسها كما يفعل الناس الأسوياء ، وأنها قادرة على الظهور بأحسن مظهر في حالة كهذه تنوب حاسة اللمس عند الأصم الأعمى مناب حاسة البصر ، وعليّ أن أقول كذلك إننا معشرَ الصم العمي لانلاحظ سوء هندامنا فحسب بل نلحظ كل اهمال أو نقص في هندام مَنْ يحيط بنا . وعلى سبيل المثال إليكم هذه الواقعة : كنت أقرأ بصحبة (آ . ى) وبحركة من يدي الطليقة لامست تنورتها مصادفة فراودني انطباع بأنها لبستْها مقلوبةً ، وبعد أن تفحصت التنورة بعناية سألتها :

ـ لعلك لبست التنورة مقلوبة !

ـ لا .

ـ انظري فخيوط الدرزة ظاهرة .

نظرت (آ . ي) وقالت : نعم . هذا صحيح .

ـ كيف حدث أن فعلت ذلك ؟

ـ استيقظت باكراً وكان الظلام يسود الغرفة فما كنت أرى شيئاً .

ـ ألا تلاحظين الفرق لدى ملامسة التنورة ؟

ـ أبداً فملمسها هو نفسه من الجانبين .

ـ كلا ليس هو نفسه . أمعني النظر فهل الوجه مثل القفا ؟

٢٢ ـ أنا أعرف جيداً شوارع خاركوف فلقد تعودت عليها ، ولكن حينما زرت كييف لاحظت أن أرصفتها أكثر انخفاضاً من أرصفة خاركوف ، حتى إن العميان يجدون أيما صعوبة في اجتياز شوارعها في الشتاء حيث تغمرها الثلوج ، فالأعمى يتعرف على الشارع بمافيه من طلعات ونزلات ، ولكن حينما يكون الرصيف على مستوى واحد تقريباً من أرض الشارع فهذا مايتعبه في التعرف على طريقه ، وهكذا كلما زاد اختلاف الرصيف عن الشارع سهل على الأعمى التوجه فيه . وأنا أتذكر أني عانيت صعوبة في تمييز الرصيف من أرض الشارع في كييف ، مع أني كنت بصحبة أشخاص مبصرين .

٢٣ ـ وأنا أتناول الشاي وبيدي الفنجان وبالأخرى قطعة الخبز ، اقترب مني (ك) ولامس كتفي . وفي الحال تعرفت عليه بهذه اللمسة .

٢٤ ـ ذات مساء عدت إلى المنزل برفقة (آ . ي) وما كنت أعرف من أين . وحينما دخلنا الممشى كان الظلام سائداً حيث عجزت (آ . ي) عن التقدم فقالت : ياللظلام كأننا في كهف وأنا لا أدري أين أتجه . ولما كنت أعرف الطريق تمام المعرفة رحت أقودها ، ولكنها صارت تمشي بصعوبة بالغة فتجر قدميها مترددة في كل خطوة .

ـ لاتخافي فأنا دليلك .

ـ نعم ، لكني لا أدري أين تمشين بي .

ـ أنا أقودك إلى الباب ، أما أنت فتصطدمين بالجدار .

وأخيراً وصلنا إلى الباب فقرعت الجرس . أما (آ . ي) فكانت عاجزة عن تلمّس الجرس . ومن المضحك والداعي إلى الاشفاق أن ألاحظ إلى أية درجة يتخبط المبصرون في الظلمة ولو كانوا في أماكن مألوفة لديهم .

٢٥ — ذات مرة بينما كنت أرافق (آ) إلى شقتها وكان الظلام يخيم على المنزل ، وحينما وصلنا أول درج النزول شدت (آ) على يدي بقوة وراحت تتقدم بحذر شديد .

قلت لها . لاتخافي مايزال الدرج بعيداً ، وسوف أخطرك عندما يجب أن ننزل . انتبهي فنحن على الدرج

ثم خفضت يدي إلى الأسفل وتلك هي الحركة المتعارف عليها .

— لاأريد أن أتعثر وأنا لاأفهم هذه الاشارات .

— أنا لا أنوي إلا تنبيهك . . . والآن انتهينا من النزول ويمكن لك أن تمشي بدون خوف .

٢٦ — بينما يحدثني (ك) انطفأ النور . قال (ك) : سنقوم باصلاحه قبل أن نذهب . وبعد دقائق كنت في الغرفة حيث يوجد مصباح على الطاولة . كانت اللمبة ساخنة ففهمت حينئذ أن النور قد عاد ، ولما سألت الخادمة المناوبة عن وجود النور أجابتني بالايجاب .

٢٧ — بعد أن خلعت معطفي في الدهليز اتجهت نحو الغرفة فاذا أنا أمام شخص يرتدي معطفاً ويقف أمام الباب . وسرعان ماتعرفت على (ف . م) على الرغم من أن هذا ليس وقت حضورها .

٢٨ — خلال اصابتي بالتيفوئيد مرت بضعة أيام دون أن أرى

(ك) الذي لم يكن مناوباً . وفي يوم وصوله كنت ما أزال مريضة وكان يجب علي بذل جهود كبيرة لأفهم مايقال لي ومع ذلك حينما اقترب مني (ك) ولا مسني بيده تعرفت عليه حالا .

٢٩ — ذات يوم ، خلال عطلتي ، طلب مني في أحد معاهد أوديسا أن أتفحص رأس تمثال من الجبس واعدّد عيوبه . . . وهكذا اكتشفت العيوب التالية : العين اليمنى بعيدة جداً من الأنف — العين اليسرى أخفض من اليمنى — أحد الخدين أكبر من الآخر — الأذنان ليستا في مكانهما . وكانت القطعة المنحوتة صغيرة الحجم وعيوبها لم تكن واضحة ، ومع هذا فقد تعرفت عليها منذ أن وضعت يدي عليها ،وما كان أشد دهشة واعجاب رجال المعهد ، فلقد خيل إليهم أني أحترف « فن النحت دون سواه » . وليس أروع عندي ، من أن أنجح في تمييز عيوب التمثال ، لأن حاسة اللمس عندي تقوم مقام البصر عند أولئك الذين نظروا إلي على أني نحاتة .

٣٠ — ذات يوم وفي أحد المخازن ، تفحصت تمثالا صغيراً يمثل غجرية ترقص وتلوّح بطبلة فوق رأسها ، وبعد أيام من لمسي ذلك التمثال بدا لي كأن ساقيها الرائعتين الرشيقتين ترقصان على أناملي .

٣١ — في أحد الأيام تلمست تمثالا نصفياً لهيبوقراط ، ولقد أحببت كثيراً وجهه اليوناني الجميل المتسق ذا الشعر الأجعد ، فقلت لـ (أ) التي كانت معي : كم هو رائع الجمال ويالرأسه المتناهية في التناسق » فأمّنت (آ) على قولي وأجابت : نعم إنه رائع حقاً .

٣٢ — يوماً ما عاينت تمثالاً لهرقل في حالة الوقوف ، وأنا الآن أراه في مخيلتي يمورُ نشاطاً بعضلاته العظيمة المرنة القوية .

٣٣ ــ حينما تفحصت تمثال لينين خيل إلي كأني رأيته حياً ذات يوم ؛ وبعد مغادرتي التمثال كان مايزال أمامي : يده اليسرى في جيبه واليمنى على طرف سترته ، وابتسامة لطيفة طيبة على شفتيه .

٣٤ ــ ذات يوم زرت صديقتي (ف ف) فاقترحت علي معاينة تمثال ما دون أن تقول لي مَنْ يكون . ومنذ أن لامست رأسه تعرفت فيه حالا على لينين .

٣٥ ــ اتفق لي أن تفحصت يوماً في أحد المخازن تمثالا نصفياً لكارل ماركس . وبعد شرائه ووضعه في المخبر تعرفت حالا عليه ، فجبهته تنم عن الذكاء الحاد وشعره شديد الكثافة ، ولحيته من الطول بحيث يكفي أن تراه مرة واحدة فلا تنساه أبداً .

٣٦ ــ وفي قصر الطلائع حيث يوجد كثير من النباتات لمست مصادفة ، وأنا أعبر إحدى القاعات ، ورقة . وبدا لي أني أعرف جيداً ذاك النبات ، فوقفت وتلمست تلك الورقة وقلت : إنها مثل تلك النبتة في غرفتي ، أليس كذلك ؟ أجابتني (ك) : بلى هي كذلك .

٣٧ ــ زرت صديقتي (ف . ف) ورأيت عندها نباتات جميلة ، وأنا أحب تلك النباتات وأود لو كان لي مثلها ، وذات يوم دخلت غرفة الحمام فرأيت (آ . ي) وهي تغسل بعض النباتات ذهبت إلى (ف . ف) وسألتها لمن هذه الزروع ؟ فأجابت . إنها لنا وقد اشتريناها منذ حين .

٣٨ ــ اقتربت مرة من ماري فلاحظت أنها أطالت ثوبها الذي كان قصيراً جداً ، ولدى معاينتي لثناياه وجدت فيها بعض الخيوط .

ناديت (آ . ي) وسألتها : « لماذا تركت هذه الخيوط ؟ صحيحٌ أنها لاتكاد تُرى ومع ذلك فلابد من نزعها » .

٣٩ — وجدت بطريق الصدفة فتات خبز يلتصق بكمّ (آ . ي) فسألتها : لماذا تركت هذا الفتات على قميصك ؟ أجابت : لأني أقوم بتقطيع الخبز : قلت لها : ألا ترين إلى هذا الفتات على قميصك ؟ قالت : لا .

٤٠ — وإذا اتفق لي أن جلست في مكان ما سواء كان بستاناً أو حديقة عامة أو منزل أحدهم ، فأنا أتلمس المقعد قبل الجلوس ، وذلك كي لا أجلس على مقعد مغبر أو مبلل

ورافقت ذات يوم (آ . ي) لنقرأ في الحديقة ، وكان هناك مقعدان صغيران فتلمست مقعدي . إنه نظيف وجاف ، ولم أقم بمعاينة المقعد الآخر جاست (آ . ي) بهدوء ولكنها سرعان ماهبت واقفة فسألتها : ماذا حدث ؟ أجابت : لم ألحظ أن المقعد مبلل . . . وها قد أصاب ثوبي البلل .

٤١ — رأيت (ف . م) ترتدي منذ عده أيام قميصاً جديداً فسألتها : أليس قميصك حريرياً ؟ أجابت : لا . قلت لها : إلمسيه إذن . فتحسّسته قليلا وقالت : حقاً إنه من الحرير ولكني لم ألحظ ذلك .

٤٢ — بينما كنت اقترب من الطاولة في غرفة الطعام ،أحسست أن شيئاً ما على الأرض . سألت (ل . ي) : ماذا على الأرض ؟ أجابتني : شيء من الملح .

٤٣ — وأنا في غرفتي مع (ن) هبت نفحة هواء جعلتني أشعر ان شخصاً ما دخل ، سألت : من هذا ؟ أجابتني (ن) : أتت (د . ف)

٤٤ — أخذ (ك) آلتي الكاتبة لتشحيمها ، لكنه أعاد لي آلة (أنطون) بدلا منها ، ولما بدأت أعمل عليها أدركت من ملمسها أنها آلة (أنطون) فأخطرت (ك) بذلك فأجابني بقوله : ظننت أنها آلتك . .

٤٥ — ذات صباح وبينما أنا نائمة حاء أحدهم ليوقظني ، وظننت أنها (ر . ل) التي أتوقع منها ذلك ، ولكنها كانت (ل . ي) التي تعرفت عليها حال ملامستي لها ، مع أن ذاك لم يكن متوقعاً ف (ل ي) لاتناوب أبداً في المعهد ليلا . وبما ان (ر . ل) لم تحضر فقد نابت عنها (ل . ي) . ولم أكن أدري بذلك إلا حينما أيقظتني (ل . ي) وأخبرتني بأنها أمضت ليلتها في المعهد .

٤٦ — في صبيحة أحد الأيام استيقظت بنفسي قبل دقائق معدودة من موعد إيقاظي . اقتربت مني (ر . ل) ولاحظت أنها حزينة فسألتها : ما الذي يحزنك ؟ أجابتني : أنت على حق وسأشرح الك بعد حين .

٤٧ — زارتني (ن) ذات يوم وحاولت أن تخفي عني مزاجها المكدر ولكني شعرت بذلك حالا وسألتها :

— لعلك في حالة عصبية من الضيق . ماذا بك ؟
— هل يبدو علي سوء المزاج ؟
— نعم ذلك ظاهر .

– ظننت أن بمقدوري إخفاء ذلك .

– لا لم تنجحي في هذا .

٤٨ – يوماً ما قدمت صديقتي (ل) لزيارتي . حينما خلعت معطفها وعرضت علي فروته لاحظت فوراً أنه مصنوع من نوع غريب من الفراء وكأنه زغب العصافير . سألت (ل) : من أي شيء صنع معطفك ؟ أجابتني : من ريش النوارس .

٤٩ – بينما أقرأ مع (ت)و (س) الجالس على الطرف الآخر من الطاولة شعرت فجأة بنسمة خفيفة . أدرت وجهي نحو مصدر النسمة . قالت لي (ت) أن (س) الذي يقرأ الجريدة قد قلب الصفحة .

٥٠ – أثناء قراءتي مع (ت) ، استدعي وغاب عني دقائق معدودة وبقيت وحدي ، وأمامي على الطاولة بضعة كتب ، وكانت كتباً للمبصرين ولا أستطيع معرفة عناوينها ، ولكن اكتشفت على غلاف أحدها دائرة تحوي صورة نافرة ، فسرعان ماتعرفت على العينين والأنف والفم والذقن والأذن . وعندما عاد (ت) سألته :

– ترى ماهذا الكتاب ؟

– إنه فلسفة علم الاجتماع لـ (لامارك) .

– إذن هذه صورة (لامارك) .

– نعم . تلك هي .

٥١ – كنت جالسة على الديوان في غرفتي أمارس الخياطة. شعرت بنسمة وفي الحال أتى (ك) وجلس على الديوان . كان قد

دخل بهدوء دون أن أشعر بخطاه ، لكني حينما شعرت بنسمة الهواء قلت لنفسي . إنه (ك) .

٥٢ — قبل مباشرة القراءة مع (ف . م) أقوم باعداد الكراسي . وحينما رفعت كرسياً شعرت بأنه أثقل من غيره . تلمست الكرسي فوجدت عليه حقيبة ضخمة ، ودون أن أعاينها مكتفية بمسها أدركت أنها حقيبة (ل . ي) وعندما اقتربت (ف . م) سألتها : هل جاءت (ل . ي) أجابتني : نعم .

٥٣ — كنت بحاجة لمقابلة (ك) فذهبت إلى المكتبة لاستدعائه. اقترب مني وسألني: ماذا تريدين ؟ وشعرت فوراً بأنه مهتاج . ولم أكن مخطئة في تقديري فقد شرح لي فيما بعد سبب هياجه .

٥٤ — خلال زيارتي لأحد المتاحف قال لي(ت): هذا تمثال فهل لك أن تحزري لمن ؟ عاينته بسرعة وهتفت : إنه تمثال فينوس .

— نعم هو ذاك .

٥٥ — عاينت في المتحف تمثالين متقابلين · دافني وأبولون ، وبدا لي تمثال دافني وكأنه من الغار فأوراقه قد نمت على الأصابع ، والذراعان الشبيهان بالأغصان قد ارتفعتا وغطاهما الشعر المنسدل . وكان التمثال مكسواً باللحاء حتى الخاصرة ،أما قدماه فتبرزان من تحت اللحاء ، والجذور تنبت من بين أصابع القدم ، ومن خلفه تمثال أبولون يحضنه بين ذراعيه . وكان فم دافني مفتوحاً لكن شفاه أبولون مزمومة.

٥٦ — تفحصت في المتحف تمثال جندي روماني تعلو رأسه قبعة فولاذية وعليها حيوان خرافي ذو قوائم أربعة وجناحين ومنقار

طائر . ويعلو رأس الحيوان عرف ديك عادي ، وله ذيل رفيع ملتف كذيل أفعى . ولباس الجندي الروماني مزيج من ثياب الذكور والاناث ففي جزئه العلوي كأنه صدار بأكمام قصيرة مكسرّة ، وفي جزئه السفلي بنطال تعلوه تورة قصيرة .

٥٧ — عاينت تمثالا صغيراً لدون كيشوت ، واكتشفت اللحية المدببة لهذه الشخصية المعروفة فتذكرت حالا أوصافه الواردة في الكتب وقلت : إنها لحية اسبانية ، مع أنه لم يسبق لي أن رأيت لحية كهذه . أجابتني (ت) إنها الذقن الاسبانية على وجه الدقة .

٥٨ — وفي أحد المتاحف (شاهدت) تمثال مفيستوفيلس واستقبحته ، فأنفه طويل ومعقوف ولحيته كأنها ذيل سمكة .

٥٩ — وكذلك عاينت تمثال موزار الطفل . قالت لي (ت) : هل لك أن تحزري ماذا يحمل في يديه ؟ فتلمسته وأجبت : إنه يحمل كماناً . وبالفعل كان موزار يحمل في يده اليسرى كماناً وفي اليمنى قوساً . ولقد نسيت اسم صانع التمثال ولكنه راق لي .

٦٠ — رأيت مرة في المتحف تمثالا نصفياً للملك لويس الرابع عشر . كنت تعرفت عليه من قصة لأسكندر دوماس . ولدى معاينتي لوجهه اكتشفت أنفه الشنيع وبدا لي أن شناعة أنفه كفظاعة حكمه .

هذا وقد أتيح لي أن أعاين كثيراً من التماثيل الأخرى .

٦١ — في المتحف اطلعت على بعض الأواني والجرار من البورسلين الجميل ، وأنا أحب هذه المصنوعات لأن فيها فناً عظيماً ، ففي بعض الأواني أزهار من البورسلين . والجرار مزينة بالفواكه من خوخ

واجاص وتفاح وكستناء ، وبعد ملامستي لأول جرة هتفت . هذا خوخ وذاك تفاح .

٦٢ – عاينت مرة ثلاثة تماثيل متقابلة ، وكانت على التوالي تمثل امرأة ورجلا إلى جانب تمثال إله الحب . وعلى الرغم من صغر حجم تلك التماثيل فقد ميزت الرجل من المرأة من إله الحب ؛ فتمثال المرأة يمتاز بتسريحة الشعر وبتكوين الجسد ؛ أما الرجل فيمتاز برأسه وتكوينه الخاص أيضاً ، وأما تمثال كيوبيد اله الحب فيمتاز بجناحيه ، إذ بسط أحدهما وطوى الآخر على ظهره .

٦٣ – رأيت في المتحف مقعداً برونزياً صغيراً يجلس عليه طفلان : الأكبر منهما بنت تلبس قميصاً ، والآخر صبي عاري الجسم .

٦٤ – بينما كنت أدرس بصحبة (أ–آ)،بدت لي معكرة المزاج . ولأول وهلة لم أجرؤ على سؤالها عن سبب ذلك ولكن في النهاية ماعدت أتمالك نفسي فسألتها :

– ما الذي يعكر صفوك ؟

– لماذا تسألين ؟

– يبدو لي أنك مهمومة .

– كلا فأنا اليوم على أحسن مايرام .

– لكن حركاتك لاتؤيد ماتزعمين .

وبعد هذا الجواب اعترفت (أ – آ) بأنها حقاً سيئة المزاج .

٦٥ – اقتربت ذات يوممن(آ . ي) وسألتها عن شيء ما فأجابتني

بايجار . ولكني لاحظت أنها غضبى . سألتها عن سبب ذلك فأجابتني بأن الأطفال لايطيعونها .

٦٦ — ذهبت يوماً ما إلى صالون للحلاقة لأقص شعري . وبعد عودتي ذهبت لأغتسل فلاحظت أن الحلاق لم يحسن قص شعري بل شوه نظامه .

٦٧ — أمضيت ساعة في القراءة مع(ت)وإذ لاحظت أنها تعبت ، اقترحت عليها أن تستريح فبامكان (س) أن يقرأ معي ريثما تستعيد (ت) نشاطها ، فأجابت (ت) : إنّ (س) ليس على مايرام .

— يبدو لي أنه كان كذلك منذ البارحة .

— كيف عرفت ذلك ؟

— شعرت بانحراف مزاجه عندما كان يقرأ معي .

أجابت (ت) :

يقول (س) أنك لست مخطئة فقد كان حقاً سيء المزاج .

٦٨ — تعودت قبل نومي أن أنظف ثوبي بالفرشاة بعد خلعه . وفي هذا المساء حينما بدأت بتنظيف ثوبي في الممشى اقترب أحدهم مني وحينما تلمسته تعرفت فيه على (ك) .

٦٩ — ذات مساء وبعد أن تناولت الشاي توجهت لاحضار قليل من الماء الساخن إذ كانت (ل م) و (ف م)مناوبتين كالعادةلكن (آ ي) اقتربت مني وقالت : ها انذا .

حينئذ فهمت ما الذي حدث : فان آ ي التي حضرت إلى المشفى

لبعض الأعمال أرادت أن تتحقق من قدرتي على التعرف عليها خارج أوقات دوامها .

ومثل هذه الدعابات السمجة تشعرني بالمهانة ولذلك أجبتها مغتاظة :

– لماذا لاتجيبين على سؤالي ؟

– كم أنت غضبى

– وكيف لاأغضب ؟ فكم يزعجني أنك تريدين لي أن أغلط بك وأظنك (ل ي) أو (ف م) !

غادرتْ آ ي المكان ولم تضف شيئاً .

٧٠ – توجهت إلى مكتبة جمعية العميان لأبحث عن بعض الكتب برفقة ل ي . اقترب مني أحدهم وصافحني ، وبدت لي يده مألوفة جداً ؛ وإذ لم أنجح في التعرف على صاحبها سألتُ(ل ي): من هذا ؟ فأجابت :

– لاأعرف ذلك الشخص

وعاد الذي صافحني فهز يدي ثانية ؛ وسرعان ماتعرفت عليه وسألته ضاحكة :

– لم أتعرف عليك مع أني شعرت بأنك مألوف لديّ .

ولقد كان (آ .) الذي أجابني :

– لعلك لم تتعرفي علي لأنك لاتتوقعين حضوري هنا .

– نعم ماكنت أتوقع ذلك .

٧١ — ذهبت إلى جمعية العميان ، وخلال صعودي الدرج شعرت أنه من الخشب فأفضيت بذلك إلى ل . ي فأمّنت على كلامي .

٧٢ — بينما أمشي في المدينة بصحبة(ل . ي)كان علينا أن نجتاز أحد الجسور ، وكان ذلك في كانون الثاني حيث الجليد يغطي النهر فلا يمكن لي أن أتحسس رائحته كما هو في الصيف . ولكن حينما كدنا ننتهي من اجتياز الجسر أدركت ذاك من ملمس أخشابه تحت قدمي . ولدى وصولنا إلى الطرف الآخر قلت لمرافقتي ل . ي : لقد اجتزنا الجسر للتو .

٧٣ — بينما أقرأ مع(ف . م)تركتني وخرجت ، ولما عادت بعد دقيقة امسكت بيدي ووضعتها على ظهر حيوان تمسك به . وتوهمت بادىء بدء أنه هر ، ولكن بعد أن تفحصت رأسه ورأيت أذنيه الطويلتين صرخت مندهشة : إنه أرنب . وكنت رأيت كثيراً من الأرانب فيما مضى ولكني في تلك اللحظة ماكنت على علم بوجود أرنب في غرفتنا . وهذا ما أدهشني بالغ الدهشة .

٧٤ — ذات يوم ضاع وشاحي فطلبت من إحدى الخادمات المناوبات أن تبحث لي عنه ففتشتْ جميع أرجاء الغرفة وبحثت عنه في كل الزوايا وتحت أرجل المقاعد والسرير ولكن دون جدوى . حينئذ رحتُ أبحث عنه بنفسي وسرعان ماعثرت عليه ، إذ لم يكن بعيداً ، فقد كان معلقاً في زاوية من زوايا السرير بجانب الجدار .

٧٥ — حينما ضاعت مني إبرة طلبت من المرأة المناوبة أن تجدها لي،ففتشت طويلا على الأرض وفوق الطاولة دون أن تجد لها أثراً . قالت

لي إن الابرة لم تسقط أبداً ؟ ولعلها اختفت بين الأدوات.فلم أصدق ذلك ، ورحت أبحث عن الابرة بنفسي فوجدتها إلى جانب الطاولة الصغيرة

٧٦ — ذات يوم لم تحضر المناوبة ليلا ، وبعد أن أشرفت(آ.ي) على نوم أطفالها أعلمتني أنها ذاهبة للبحث عن المناوبة ، واقترحت علي أن أرافقها إذا مارغبت في ذلك .

— لابأس ، ولكن لابد من أن نأخذ المفتاح كي نفتح الباب عند العودة فلا أحد هنا .

وما كدت أتناول المفتاح حتى اعترضت (آ . ي) قائلة :

— ليس هذا بالمفتاح المناسب ، فاذا أغلقنا الباب فلن يكون بمقدورنا أن نعود .

— أنا على ثقة بمعرفتي للمفتاح الذي نحتاجه :

لم تصدق آ . ي كلامي فقلت لها بحزم :

— هيا اخرجي وسأغلق الباب لأبرهن لك على أن هذا هو مفتاحه .

ترددت (آ ي)بعض الوقت ثم خرجت وبكل ثقة أغلقت الباب وأعدت فتحه بالمفتاح الذي حملته .

ولقد ذهلت (آ . ي) وراحت على مدى الأيام تصف للملأ كيف جعلتُ المفتاح ينزلق في قفل الباب بتلك الثقة المتناهية .

٧٧ — بينما كنت أقرأ مع(ف . م)ذات يوم لم تنجح في التعرف على المكان الذي وصلنا إليه من الكتاب وحيث أشير إليه بظفر معدني ،

فأخذت الكتاب منها ورحت أتلمس صفحاته بأصابعي ودللت ف . م على المكان المُعْلّم ، وليست هذه المرة الأولى التي اكتشف فيها العلامات في الكتب فأنا قادرة غالباً على أن أدل القراء على المكان الذي يجب أن نبدأ منه القراءة .

٧٨ ـ وما أظن واحداً من الذين يملكون حاسة السمع قادراً على فهم ماتعنيه القراءة المعبرة بواسطة الأصابع ، وكم شرحت ذلك للذين يمارسون القراءة معي ، فبيدي كنت أظهر لهم كيف يمكن لنا أن نعبر عما نقرأ . ولكن عيون المبصرين لاتستطيع استيعاب هذا الأسلوب عملياً . ومع هذا فقد كنا نستوعب تماماً ذلك الأسلوب مع أطفال المؤسسة،وعلى سبيل المثال حينما تريد(ف)أن تتحدث عنأشياء لذيذة أو أشخاص محببين فانها تقوم بحركات لطيفة من أصابعها وكأنها تداعب شخصاً ما . وبالمقابل حينما يزعجها موضوع أو تغتاظ من أحد الناس فانها تقوم بحركات سريعة عنيفة دون أن يلقنها أحد ذلك على وجه الخصوص .

وإذا جاز لي أن أستعير لغة من يبصرون ويسمعون فأنا أقول عن الأيدي المعبرة : إنها تلك التي تجعلني أحس برنين أصواتها وحيوية نشاطها .

٧٩ ـ منذ زمن ليس بالبعيد تناولت زجاجة من الخل وتوجهت إلى / ن / سائلة :

ـ هل ترين كثيراً من الخل في هذه الزجاجة ؟

أجابتني بدهشة :

– بكل تأكيد . فيها الكثير .

ولقد سرني ذلك لأني كنت أدرك أنه ليس في الزجاجة إلا القليل القليل من الخل ، ولكن / ن / التي ماكانت ترى بل تسمع (فهي عمياء) ظنت أن في الزجاجة الكثير من الخل ، وهكذا قلت لها : تكاد تكون الزجاجة فارغة .

تناولت / ن / الزجاجة بيديها وراحت تهزها مرات عديدة .

– حقاً أنا أدرك الآن أنه ليس فيها إلا القليل ولكني توهمت عكس ذلك .

٨٠ – بينما كنت اتنزه مع رفاقي الصغار قررت أن ألبس قفازي لأن يدي كادتا تتجمدان من البرد ، وحينما امتدت يد إلى كمّ معطفي بلمسة ناعمة هادئة تعرفت فيها إلى / ت / .

٨١ – ذات يوم خرجت لحظة لاتعرف حال الطقس إذ كان علي أن أذهب إلى المكتبة في المدينة مع / أ . آ / . لم أغلق الباب بالمفتاح بل تركته مواربا ويدي على المقبض . فجأة اقترب أحدهم من الباب وأراد الدخول فتعرفت على معطف / أ . آ / ولم أكتف بذلك بل كان علي أن أتفحص يدها ، وحينما أمسكت بها قالت لي بأصابعها :

– هل أصابك الخوف ؟

– كلا فقد تعرفت إلى معطفك وأردت تفحص يدك كذلك

٨٢ – بينما كنت راجعة مع أحدهم من مشوار في المدينة ولدى اقترابي من البيت تعرفت إليه فأنا قد درست بقدمي كل تفاصيل الرصيف

والطريق . وفي يوم آخر كنت عائدة مع / ر . ج / ولدى خروجنا من الشارع الصغير للمشي وبينما كنا نتوجه صوب البيت قلت له :

— هانحن وصلنا .

— نعم .

٨٣ — وفي يوم ماقدمت معلمتنا القديمة لزيارتنا ، وكان مضى علي أعوام ثلاثة دون أن أشاهدها . اقتربت مني وشدت على يدي بقوة ، وبدت لي هذه الحركة مألوفة لدي ولكن لم أنجح في التعرف على صاحبتها .

— ألم تعرفيني ؟

— لا .

— فكري قليلا وسوف تتذكرين .

— هل أنت / ف آ / ؟

— نعم أنا هي .

٨٤ — كنت أقوم بالنزهة مع أطفال آخرين بصحبة / م . آ / وأخبرتها بأني أنتظر / ن / وأن عليها أن تراقب الجهة التي ستأتي منها . ولكن حينما تأخرت (ن) ظننت أنها لن تأتي أبداً . وبعد برهة توقفت / م . آ / وأمسكت شخصاً ما بيدها . ولكنها سحبتها بصمت وأجابتني بغموض على تحيتي . سألتها ضاحكة :

— ألم تتعرفي علي ؟

حينئذ شدت / ن / على يدي وأجابت :

– كلا لم أتعرف عليك وقد خيل إلي أن يديك تغيرتا .

– ربما أصابهما تغير خلال هذه الأيام المعدودة التي لم نتقابل فيها !

٨٥ – ذات يوم ذهبت لزيارة صديقتي / ن / . كانت أمها قد أعطتها قليلا من البطاطا لتقشيرها فطلبت إليها أن أساعدها فأذهلها ذلك .

– اتجيدين حقاً تقشير البطاطا وأنت لم تتعودي ذلك ؟ !

– سنرى من يجيد ذلك أكثر من الآخر .

قلت لها هذا وأنا أتناول سكيناً ؛ ورحت أتحسس كل رؤوس البطاطا بأصابعي ، وكلما وجدت واحدةً أسيء تقشيرها أعدت عليها الكرة . وحينما أنجزت تقشير عدة رؤوس من البطاطا قالت لي / ن / :

– اخبرتني أمي بأنك تجيدين هذا العمل أكثر مما أجيده ، وكنت أظن أنك أعجز من أن تفعلي ذلك .

٨٦ – إن معظم العميان يعتمدون تمام الاعتماد على المبصرين حينما يريدون ادخال خيط في إبرة . وما أقل العميان الذين تحرروا من هذه التبعية فصاروا قادرين على شك الخيط في الأبرة بأنفسهم . وإليكم كيف يتصرفون : إنهم يثبتون ثقب الابرة بمواجهة طرف اللسان وحينما يدخل الخيط في ثقب الابرة يشعرون به بلسانهم . ولكني أمارس طريقة أخرى : فأنا أثبت الابرة مابين الابهام والاصبع الوسطى ليدي اليسرى (وذلك بالقرب من الثقب) . أما الخيط فأثبته بين الابهام وسبابة اليد اليمنى . . وهكذا أدخل الخيط في ثقب الابرة

بسهولة وإذا كانت الابرة جيدة مستقيمة لاتنزلق بين الأصابع فأنا أجعل الخيط يمر فيها من أول محاولة .

وأنا لم أستغن عن المبصرين فحسب في هذا المجال وإنما على العكس فالكل يطلب مني المساعدة عندما يكون النور غير كاف . وقد طلبت مني / آ . ي / مساعدتها مرات عديدة ، وقلت لها مرة :

ــ ألا تستطيعين أن تفعلي ذلك وحدك ؟

ــ لاأستطيع فالدنيا مظلمة وأنا لاأرى بوضوح والابرة ناعمة جداً .

وبالمناسبة فأنا في شك الابر الناعمة أمهر مني في شك الابر الغليظة . .

٨٧ ــ يوماً ما قررت / آ آ / أن تحضّر قالباً من الكاتو المحشو بالكرز واقترحت عليها أن أساعدها فأدهشها ذلك كثيراً وقالت لي : سيكون ذلك صعباً عليك ، ومع هذا فقد سمحت لي بمعاونتها . وقد نجحت في ذلك حتى أن / آ . آ / التي لم تر في حياتها عمياناً يعملون ما انفكت مدهشة ، وراحت تقص على كل زوارها كيف قمت بمساعدتها في عمل الكاتو وتريهم أصابعي الملوثة بعصير الكرز .

٨٨ ــ لمست مصادفة ظهر / آ . ف / فشعرت بقطعة من النشاء لاصقة بقميصها نزعتها وأريتها اياها ففاجأها ذلك وقالت لي . لو لم تُريني إياها لما لاحظت ذلك .

٨٩ ــ قيل لي مرة أن / ن / أتت تزورني ؛ ولما صافحتها شعرت بأنها مهمومة فسألتها بقلق :

ــ ماذا بك ؟ فشرحت لي سبب غمها .

٩٠ ــ ذات يوم كنت أجرب معطفاً بصحبة / د ف / و / أ آ / وقامت بتركيزه علي . اقتربت مني ك ولامست المعطف وتعرفت على أصابعها من خلال نسيج الكم .

٩١ ــفي يوم ما وأنا أتحسس رقاص الساعة النافرة رأيت أن الساعة تشير إلى الثامنة والنصف ولكن في اللحظة نفسها لم تدق الساعة الثامنة والنصف بل دقت التاسعة ، وكنت قد لمست الرقاص عندما كان يعلن عن الرابعة ولهذا حسبت خمس دقات أخرى .

٩٢ ــ تركت الطاولة بعد الغذاء متجهة نحو الباب فاذا بشخص ما يمسكني بيده ، فتعرفت من يده على أنه /آ . ي / ، وإذ كنت لاأتوقع ذلك لم أرد على سلامه وبقيت مترددة .

وفي العادة لايعترضني أحد غير أساتذتي لدى معادرتي المائدة أ. وقد سألني /آ . ي / : ألم تتعرفي علي ؟ فأجبته بخجل ألست/آ . ي /؟ ثم شرحت له أن المفاجأة قد أربكتني .

٩٣ ــ كنت أود الدهاب إلى المطعم الجماعي فصعدت السلم واجتزت القاعة فاذا بأحدهم يربت على كتفي فتوقفت وقلت : إنها /آ . ي / . فقالت/ ل . ي / التي حضرت المشهد : لقد تعرفت على /آ . ي / إذن ؟ فأجبت : على الرغم من أنها لاتعمل في هذه الساعة فقد تعرفت عليها من يدها .

٩٤ ــ كنت مستلقية على فراشي وقت القيلولة وشعرت فجأة

بهبة هواء على وجهي . مددت يدي وأنا أقدّر أن أحداً يقترب مني . . . وبالفعل كانت / آف / آتية لتقيس حرارتي .

٩٥ — بينما كنت في الشارع بصحبة / ن / وضع أحدهم يده على كتفينا فتوقفنا . كان الشخص الذي اعترضنا قد أخذ يدينا بصمت . وتعرفت على / أ و / من يده ، أما / ن / فلم تستطع . وهكذا حدثنا / أ و / بعد أن هتفت باسمه فتعرفت / ن / عليه من صوته .

٩٦ — كنت أمشي في الشارع ، وعلى الرغم من حذائي السميك الذي أنتعله ، شعرت تحت قدمي بغطاء المجارير المعدني . سألت / ل ي / : هل هو غطاء المجارير ؟ قالت : نعم .

٩٧ — دات يوم جاءت / ن / لزيارتي ، وما كادت تصافحني حتى شعرت بأنها مهمومة فسألتها : ماذا بك ؟ فأجابت : لاشيء .

— يبدو لي أنك لست على مايرام .

— كلا ، فأنا أعاني من البرد .

وعلى الرغم من محاولة / ن / اقناعي بأن مزاجها طبيعي فأنا لم أصدق ذلك . وحقاً لم أخطىء الظن . فبعد بضعة أيام اعترفت لي / ن / بأنها كانت حزينة فعلا يوم أتت لزيارتي ، واستطردت تقول إنها لم تكن تريد ازعاجي مع أنني كنت مدركة تماماً لحالتها النفسيه .

٩٨ — كنت أتنزه في المدينة مع / رآ / و / آ ي / وكان / ر آ / يمشي طوال الوقت إلى جانبي دون أن يكلمني أو ينبهني إلى شيء . وبعد قليل شعرت بأن الطريق صار أملس فحزرت أننا دخلنا صالة

العرض الجديدة . وكنت طالما ترددت إليها ودرست خصائصها ، وهذا ماجعلني أدرك أني فيها الآن حقاً . سألت / ر آ / هل نحن في صالة العرض ؟ فأجابني موافقاً .

٩٩ — كنت أرد الزيارة برفقة / آ ف / لصديقة تسكن بعيداً من بيتنا . وحينما نزلنا من الترام لاحظت أن / آف / اتخذت طريقاً مغايراً لذلك الذي تعودت سلوكه مع صديقتي . فقلت لها ماكان يجب أن نمر من ها هنا . فأجابت : نعم أعرف أنه من الأسهل عليك أن تمري من الجهة الأخرى حيث الطريق أقل وعورة ، ولكن بامكاننا كذلك أن نعبر من هنا .

١٠٠ — جاءت / ل . ي / إلي ودعتني للدراسة . وشعرت فور أنها مستاءة ولكن لم أصرح لها بذلك .

وفي اليوم التالي (وكان يوم الأحد) أتت لتعمل معي ، وما كادت تحييني حتى شعرت بأنها مغتبطة جداً ، فلم أملك نفسي عن القول : كنت البارحة ذات مزاج سيء واليوم تبدين في غاية المرح فهل هذا صحيح ؟ أجابت : نعم حقاً .

١٠١ — ذهبت إلى القرية التي قضيت فيها طفولتي ، ومنذ أن غادرتها وسكنت المدينة لم يقدر لي أن أعود إلى الريف . وها أنذا الآن أعود إلى الريف وأود الذهاب إلى النهر والسير على حافته بين الأعشاب العالية . وكانت / آ / ترافقني أينما اتجهت . وفي طريق العودة اجتزنا بستاناً مهجوراً تنبت فيه الأعشاب ، وشعرت بلمس هذه الأعشاب إذ لم أكن أرتدي الجوارب . توقفت فجأة ورحت أحك ساقي فقد كنا وسط أعشاب (القرّيص) .

ـ لاأريد متابعة السير في هذا الطريق .

ـ وأنت تريدين مع ذلك تذوّق كل ماهج الريف .

هكذا قالت / آ / ضاحكة .

ـ ماكنت أفكر أبداً بهذا اللون من المباهج فأنت التي قدتني إليه .

ـ كلا لم أتعمد ذلك ولم أنتبه إلى الأعشاب ولم ألاحظ وجود هذا (القريص) ، وأنا أعاني من الوخز ماتعانين .

١٠٢ ـ يلذ لي استخراج الماء من البئر بالدلو ، وحينما أعلم أن / ي / بحاجة إلى الماء فسرعان ما آخذ الدلو وأتوجه إلى البئر ، وهكذا أعلق الدلو بالسلسلة وأسحب الحبل ، وحينما ينزل السطل في البئر أتركه ينزل رويداً رويداً بين أصابعي إلى أن أشعر بأن الدلو قد لامس الماء ، فحينذاك أشد الحبل لأعرف هل امتلأ الدلو أم لا ، فاذا شعرت بثقل الدلو سحبته نحو الأعلى . ولكن نظراً لصغر سني ماكنت أستطيع تدوير البكرة وأنا على الأرض لهذا كان علي أن أصعد على الغطاء الخشبي للبئر ، وكانوا يمنعونني من ذلك فالخشب المهترىء يهدد كل لحظة بأن يتحطم فأسقط في البئر ، وهكذا ابذل غاية جهدي فأتطاول بالوقوف على طرفي القدمين لأتمكن من لف البكرة . كنت أنجح في ذلك أحياناً ولكن في حين آخر تنوء يدي تحت ثقل الدلو فتكر البكرة راجعة ويصفعني ساعدها الفولاذي على جبهتي .

١٠٣ ـ كنا ندرس يوماً أنا و / ل ي / فاقتربت منا (آي) ودعتنا لتناول الفطور. وفي كل مرة تقترب مني /آي/كنت أتحقق من أنهالم تلبس التنورة مقلوبة أو أن قميصها الداخلي لا يظهر من تحتها . وفي هذه المرة فعلت ذلك

فرفعت يدي إلى السماء فقد كان قميصها الداخلي يتجاوز التنورة فانفجرنا نحن الثلاثة ضاحكين ولا سيما / ل ي / ، وقلت معلقة : مامن أحد بيننا يشذ في اباسه كما تفعل /آ ي / . . . فاستغرقت / ل ي / في الضحك فقلت : لماذا تضحكين على هذه الصورة ؟ وكنت أتصور وضعيتها الغريبة إذ لم تكن تعلم أن قميصها كان يمكن أن يُرى وهي واقفة في أعلى الدرج والناس من تحتها . شدت /آ ي / تنورتها وذهبت ، بينما بقيت مع / ل ي / لترتيب المقاعد ، ثم قلت لنفسي : يجب علي بلاشك أن امتحنها فلربما كان قميصها يتدلى هي الأخرى . وهذا ما فعلته فاكتشفت أن قميصها يُرى مـــن الجانب ومن الخلف ، ولكن على حالة أخف من حالة /آ ي / . . وهكذا كفت (ل ي) عن الضحك وراحت تسوّي قميصها وهي مستاءة .

١٠٤ ــ حينما مات الأكاديمي / فورو بييف / لم يخبروني بذلك في حينه لأني كنت لم أتماثل للشفاء تماماً من مرضي . ولاحظت أن / ل ي / كانت مرهقة جداً ، ولم أسألها عن السبب لأني أعلم أنه مادمت مريضة فلن تخبرني بشيء . وبعد يومين وحينما عوفيت من الحمى سمح لي بالنهوض . وفي اليوم المخصص لاحراق جثة /فورو بييف/ اقتربت مني / ل ي / وأخذت بيدي ؛ وحتّى هذه اللحظة كنت على يقين من أن الأكاديمي سينجو من العملية ، ولكن حينما أخذت/ ل ي / بيدي أدركت حالا أنها ستخبرني بموته . وهكذا أجلستني على الديوان ، وبعد ثوان من الصمت قالت لي : لقد حلت بنا كارثة عظيمة .

ــ إذن مات فلاديمير فوروبييف .

ــ نعم .

١٠٥ – قدموني ذات مرة إلى / ت / ولم أتبادل معها الحديث إلا مدة ربع ساعة فقط ، ولكن كان ذلك كافياً لدراسة يدها . ومر شهر على ذلك وصادفت / ت / في معهد الطب التجريبي في أوكرانيا ، شدت على يدي وراحت تكتب لي اسمها على باطن كفي ، أوقفتها وقلت لها : لقد تعرفت إليك حالاً فلا تتعبي نفسك .

١٠٦ – راح الأطفال في نزهة بالسيارة وكنت معهم وبصحبتنا / آف / . سألني السائق يستشيرني : هل أرغب بالسرعة أم لا ؟

– بأقصى ماتستطيع .

وهكذا سار بسرعة أربعين كيلومتراً في الساعة .

سألتني / آ ف / .

– كيف تشعرين ؟

– لابأس . ويبدو لي أننا نجري أسرع من السابق .

– نعم هذا صحيح .

– والآن بماذا تشعرين ؟

– إننا نسير بسرعة أكبر ، وأنا على مايرام .

١٠٧ – ذات صباح حضرت / ل ي / إلى المشفى وصادفتها في البهو ، وشدت على يدي بتراخ وهي تسلّم علي وراحت تصعد الدرج ببطء . صعدت معها وشعرت بانها تعاني من صعوبة في الصعود فسألتها : هل تشعرين بألم ؟

١٠٨ – ذات يوم بينما كانت / ت آ / تقرأ عليحضرت / ك /

وراحت تتحدث إليها . وضعت يديّ على حنجرتيهما وبدأت أصغي إلى صوتهما ، ثم تفحصت بعدئذ وجهيهما . قالت / ت آ / مازحة : نحن جميلتان ، أليس كذلك ؟ أجبتها : إن وجهك أجمل من وجه / ك / . قالت : لا فان / ك / أجمل وأنضر . فقلت لها : ربما كانت أكثر نضارة ولكن ملامح وجهك أكثر تناسقاً . وبعد فترة ، وبينما كنت أتحادث مع / ل ي / حكيت لها كيف تفحصت وجه كل من (ت آ) و (ك) وسألتها : مارأيك أليس وجه / ت آ / أجمل من / ك / ؟ أجابت · بلى .

١٠٩ – ذهبنا يوماً مع / ك / و / ل ي / إلى أحد أحياء خار كرف ، وكانت / ك / دليلنا . وطالما زرت هذا الحي ، ولكن لاحظت هذه المرة أن / ك / تسلك طريقاً غير الذي نسلكه أنا و / ل ي / . فقد نزلنا في المرة الماضية من تلة دون أن ألاحظ بعض الحفر العميقة ، بينما نخوض الآن في الثلج حتى الركبة . سألت / ل ي / : لماذا لم تسلكي ذات الطريق السابق ؟ فاجابت : لقد اختارت / ك / الطريق الأقصر · قلت لها : ولكن لماذا فهو أكثر وعورة ؟ وفي العودة صاحبتني / ل ي / وحدها فعلقت على الفور : ذاك هو طريقنا المعهود فهو يخلو من الطلوع والنزول ، وهو صاعد دائماً .

١١٠ – في غرفتي كثير من الزروع أتفحصها بعناية كل صباح فقد تكون بحاجة إلى الماء أو لعل غصناً منها قد كسر . وذات مرة تفحصت نبتة فلاحظت أن أوراقها قد ذبلت بعض الشيء فرحت أفتش عن الموضع الذي كسر منه الغصن ، ولكن رغم الفحص الشديد

لم أكتشفه على الفور ، ومع ذلك كنت مقتنعة بوجود كسر في الغصن ، وفعلا اكتشفت موضع الكسر .

١١١ — زارتنا يوماً خادمتنا القديمة ومعها وليدها الجديد ، وسمحت لي بان أعاين وجه الطفل الذي كان يرقد بهدوء على ذراعيها . وبعد أن لمست وجهه الصغير باصابعي لمساً خفيفاً وتفحصته بعناية قلت بثقة : إنه ذو أنف أقنى . ضحكت الأم وجعلتني أتلمس أنفها فأردفت أقول : إن أنفك هو الآخر أقنى مثل أنف ولدك .

١١٢ — خلال زيارة لمتحف الثورة اطلعتني / ل ي / في إحدى القاعات على راية صغيرة خيط عليها بعض الأرقام . عاينت باصابعي كل رقم منها وقلت : ١٩٠٥ هل هو علم الثورة ؟

أجابت / ل ي / : هو ذاك . قلت : إنه من حرير .

١١٣ — ذهبت ذات يوم إلى منزل / ت آ / ، ولما كانت تعرف مدى اهتمامي بالكتب راحت تريني مكتبتها . وعلى غلاف أحد الكتب الجديدة الضخمة أدركت صورة بارزة لشخصية واقفة ترفع يدها . عرفت تمام المعرفة هذا الرجل ووضعيته وهتفت بفرح : إنه الرفيق لينين .

١١٤ — تعود المربون قبل عيد أول أيار أن يشتروا الهدايا للمقيمين في المشفى ، وبما أني لست على علم بما سيقدم إلي قررت معاينة جميع الهدايا حينما سأخلو بنفسي . وبعد انتهاء السهرة التي قضيناها في معهد الطب التجريبي تركت صديقتي التي ستنام عندي تغتسل ورحت إلى القاعة حيث توجد الهدايا حسب ظني .

على الطاولة كانت علب الحلوى التي ماكنت أهتم بها فتوجهت نحو النافذة عسى أن أجد شيئاً خيراً من ذلك . اصطدمت يداي بتمثال صغير فسرعان ماعرفت فيه لينين ، وعلى مقربة منه تمثال آخر سرعان ماتعرفت عليه كذلك ، وكان يمثل بوشكين . ولدى عودتي إلى الغرفة كانت صديقتي تنتظرني . سألتني :

ـ أين ذهبت ؟

أجبتها باعتزاز :

ـ ستكون هديتي تمثالا لـ (لينين) وآخر لـ (بوشكين) .

وهذا ما أدخل السرور إلى قلب صديقتي ، وقالت :

ـ أنت تطمعين بكثير من الهدايا . وربما لن تنالي منها شيئاً .

ـ سترين أني ساحصل عليها .

وفي أول أيار قدم لي تمثال بوشكين ، وبعد بضعة أيام من انتهاء معرض الأطفال سمح لي بان أضع في غرفتي تمثال لينين .

١١٥ ـ كانت في غرفتي غرسة ورد صينية . ولاحظت ذات يوم أنها بدأت تذبل فعاينتها بعناية واكتشفت أن أحد أغصانها قد قطع . وهذا ما ساءني فانا لاأحب أن تتلف الزروع بلا مبرر ، فسألت عمن قطع الغصن فلم يجبني أحد ، ولكن / ل ي / قالت لي : إنك أنت التي كسرت الغصن دون أن تتعمدي ذلك . أدهشني كلامها لأني شديدة العناية بالأزهار والحرص عليها . ومن جهة أخرى فالوردة

الصينية ليست ذات ساق لينة ؛ ولذا فليس من السهل أن تكسر بحركة عفوية . زد على ذلك أن احدى المربيات قد أكدت لي ما أزعم عندما أريتها الوردة . ومع هذا كانت / ل ي / تحاول إقناعي باني أنا التي كسرت الغصن . وقد أضحكني ذلك وأجبتها : إن ذلك لايحدث إلا مع ضعف الوعي ، وطالما أن وعيي دائماً يقظ فلا بد أن أحداً غيري قد كسر الغصن .

* * *

حاسة الشم

١ – كنا نتنزه في الحديقة العامة ذات يوم أنا و / آ ف / و / ف ف / . وبينما نحن نمشي شممت رائحة تفاح طازج تهب من صوب / آ ف / . لم أجرؤ على سؤالها وكتمت ذلك في نفسي ، ولكن حينما دخلنا الحديقة لم أتمالك عن القول : ما أجمل رائحة التفاح .

أجابتني / آ ف / : من أين تشمين ذلك ؟ قالت / ف ف / : ليس ليس هناك تفاح وإنما هي الأوراق الجافة تفوح ، ولكني أجبت بكل ثقة : أنا أميز رائحة التفاح من رائحة الأوراق الجافة

وحينما جلسنا على أحد المقاعد تذكرت / آف / فجأة أنها تحمل بعض التفاح في حقيبة يدها وقالت : لقد نسيتها تماماً .

إن حاسة الشم عندي لاتخطىء .

٢ – مهما كان الفصل سواء كان ربيعاً أو صيفاً أو خريفاً أو شتاء فأنا أميز دائماً رائحة المدينة من رائحة الحدائق العامة . في الربيع أشم بوضوح رائحة الأرض الرطبة وصمغ الصنوبر ورائحة البتولا والبنفسج والعشب الطري كما أحس برائحة الليلك عندما يزهر وأنا أقترب من الحديقة . وفي الصيف أشم روائح الزهور المختلفة والأعشاب والصنوبر .

وفي مطلع الخريف أشم في الحديقة رائحة الأوراق الذابلة والميتة ، وهي رائحة قوية متميزة لاتشبهها رائحة أخرى . وفي نهاية الخريف وبخاصة بعد هطول المطر أشم رائحة الأرض المبللة والأوراق الجافة المبتلة . وفي الشتاء أميز الحديقة من المدينة لأن الهواء هناك أنقى فلا رائحة للناس والسيارات والمطابخ .

٣ – يحدث أن لايعلمني أحد بأن صديقتي / ن / تنتظرني في غرفتي ، ولكن حينما أدخل اليها – وهذا مايحدث غالباً عند اقترابي من الباب المفتوح – أحس بوجودها من رائحتها فأتوجه نحوها . ولا أذكر أني أخطأت في ذلك مرة واحدة .

٤ – في الصباح وحينما تبدأ / آ ي / عملها أتعرف إليها دائماً من رائحة تبغها .

٥ – دخلت يوماً إلى المطعم قبل موعد الغداء واكتشفت من الرائحة أن (متبل الباذنجان) سيقدم لنا . وما خاب ظني في ذلك .

٦ – كنت في المدينة ودخلت أحد المخازن فاكتشفت من رائحته أنه ليس مخزناً للمواد الغذائية.وحينما دخلت مخزناً آخر شعرت فوراً برائحة السمك المملح . وحينما سألت قائلة : هل يباع السمك هنا أجابتني / آ ن / : نعم هو ذاك .

٧ – خلال مروري بجانب الصيدلية حزرت من رائحتها أننا اقتربنا من البيت ، فالصيدلية ليست بعيدة من بيتنا .

٨ – خلال اجتيازي احدى القاعات اعترضني / ك / وقبل

أن يقول لي : إليك صحف اليوم أدركت من رائحتها أنه يحمل صحفاً تفوح منها رائحة حبر المطابع .

٩ - كنت راجعة من الحديقة العامة مع / ك / فقلت له : إني أشم رائحة خبز طازج إلى جانب حساء الملفوف . فأجابني / ك / : نحن نجتاز مطعماً عاماً .

١٠ - أذكر الواقعة التالية : بينما كنت أقرأ الجريدة مع / و / ، وقد انهيت قراءة الصحف الأخرى ، ذهبت / و / لتجلب صحفاً أخرى من عند / ك / وقدمت إحداها لي فقلت لها : لقد سبق لي أن اطلعت على هذا العدد .

- كيف عرفت ذلك ولم أقرأه لك بعد ؟

- أدركت من رائحته أني قرأته مع / ر ج /

- هذا مستحيل ، فطالما أن / ك / قد أعطاني إياه فهذا يعني أنك لم تقرئيه بعد

عندئذ طلبت إليها أن تقرأ لي عنوان تقرير منشور في تلك الجريدة ، وبعد ذلك أكدت لها أنني قد تصفحت هذا العدد مع / ر ج / . اقتنعت / و / بكلامي وراحت تفتش عن صحيفة أخرى .

١١ - عندما أذهب لحضور استعراض ما اشعر من مختلف الروائح أن هناك حركة من حولي ولكن تلك الروائح لاتختلط لدي بصورة عشوائية ، فأنا أميز على الدوام بعضها من بعض .

إليكم هذه الحادثة : ذهبنا لحضور عرض أول أيار ، ولدى

وصولنا إلى ساحة العرض توقفنا وشعرت فجأة بالرائحة الخاصة بالخيول . سألت / آ ي / :

– الخيالة هنا ، أليس كذلك ؟

نظرت (آ ي) حولها وأجابت :

– لاأظن ذلك فأنا لا أرى شيئاً .

أخذت نفساً وشعرت من جديد بهذه الرائحة المحيرة وأردفت أقول :

– أظن أن هذه الرائحة تأتي من الجهة اليمنى . انظري جيداً .

نظرت (آ ي) إلى الجهة التي أشرت اليها وخطت بضع خطوات وقالت :

– أنا أرى الآن الخيّالة ولكن موكبهم بعيد بحيث لاأكاد أميزه . ولو لم تقولي ذلك لما استطعت وحدي أن أرى شيئاً .

١٢ – ذات يوم ، وفي مطلع الصيف ، بينما أنا جالسة في حديقة المطعم ، شممت فجأة رائحة عطر ونفتلين فسألت / آ ف / حينما اقتربت مني :

– من عبر من هنا ؟

– لاأحد .

ورحنا نتنزه في الحديقة و ما زلت أتلفت صوب الطاولة غير فاهمة لماذا تصر / آ ف / على أنه لا أحد هناك ، مع أني لاأزال استشعر تلك الرائحة تأتي من تلك الجهة . وفي العادة حينما أتناول فطوري في المطعم أشم تلك الرائحة الغريبة نفسها . ناديت / آف / وسألتها :

– من مر في المطعم ؟

– العمال .

– لاأظن ، فأنا أشم رائحة العطر والنفتلين ، بينما تفوح من العمال رائحة التبغ والأخشاب التي يسوونها في الحديقة .

أما أنا فلا أشم أية رائحة ولست أدري ما الذي يزعجك .

وسألت من جديد :

مَنْ مر بجانبي عندما غادرت الطاولة ؟

– إنها / م / .

– وماذا كانت تفعل في الحديقة ؟

حينئذ عرفت / آ ف / سر الرائحة التي حيرتني فأجابت .

– إنها / م / التي كانت تنظف بالفرشاة في الحديقة البذلات والمعاطف الشتوية ؛ ولكن ماكان يخطر في بالي أن تشمي تلك الرائحة ، بالاضافة إلى أني لم أنتبه لها .

١٣ – على الرغم منأناستجابتي للاحساسات السمعية والبصرية كانت مستحيلة ، فلقد أحببت الطبيعة . كنت أستطيع شم الروائح والتعرف على الزهور والأعشاب والأوراق . كنت أشعر بحرارة الشمس وبرطوبة الظل والماء البارد الذي يرطب جسمي المرهق بالحرارة. أحب ارتياد البحر وأدرك من رائحته أننا متجهون إليه . وفي الحق أني لاأرى البحر ولا أسمع صخب أمواجه ، لكن اقترابي منه ورائحته المسكرة ترميني في أحضان متعة عظيمة . وهكذا أصل إلى شاطىء البحر وقد تملكتني الخشوع والفتنة بجبروته وروعته التي أحاول تمثلها .

١٤ ـ وكذلك أتعرف إلى أن النهر قريب من رائحته . وحينما أذهب إلى الريف أحب التوجه مساء إلى النهر أو إلى الغابة القريبة منه . وعندما أصل إلى قرية ما اكتشف وحدي وجود النهر من رائحته ونقاء الهواء دون أن يعلمني أحد بذلك .

١٥ ـ حينما يقدمون لي شخصاً ما أدرك من رائحته أنه من المدخنين أم لا . ومنذ زمن قريب تعرفت على / ب / ، ولأول وهلة عرفت أنه لايدخن . ولم أخطىء في ظني .

١٦ ـ ذات مساء حينما غادرت غرفتي إلى البهو أدركت من رائحة لفافة أن هناك شخصاً في المخبر . اقتربت / ل / مني فسألتها :

ـ من أتى ؟

ـ لماذا تظنين ذلك ؟

ـ لأني أشم رائحة التبغ .

ـ نعم فهناك أشخاص اتوا للاجتماع مع / ك / .

١٧ ـ بينما كنت أفتح نافذة الغرفة ، ولدى تحريكي المصراع الأول أدركت من الرائحة المتسللة أن المطر ينزل ، وحينما فتحت المصراع الثاني شعرت بقطرات المطر تتساقط فعلا على يدي .

١٨ ـ عندما مررت بالبهو شعرت برائحة / ر . ج / ، فدهشت لذلك لأني كنت أعلم أنها في اجازة فحدست أن هناك اجتماعاً عاماً . ذهبت إلى / ل ي / وسالتها .

ـ ستجتمعون . أليس كذلك ؟

ـ لاأعلم ، فلم يخبرني أحد .

ـ هل حضرت / ر . ج / ؟

ـ نعم إنها هناك ، وهي لم تنجز عملها بعد ولهذا جاءت بعد الظهر .

ـ أين هي الآن ؟

ـ إنها في البهو تلبس قميصها .

وأنا سعيدة بان حاسة الشم عندي لاتخطىء ، ومن المدهش حقاً أن نتأمل كيف تقوم الاحساسات الغنية والمنوعة مقام السمع والبصر ، لدى العمي والصم ، على قلة استخدامها ممن يبصرون ويسمعون .

١٩ ـ بينما كنت جالسة وأنا أقرأ اقترب مني / خ / وناولني شريطة ليست لي قائلا :

ـ وجدتها على الأرض بجانب باب غرفتك .

وقد كانت / ن / و / و / قد خرجتا ، ولما كانت / ن / لاتملك شريطة قدرت أنها تخص / و / وهي التي فقدتها .

شممت الشريطة وتأكدت من رائحتها أنها ا / و / وصرحت بذلك .

وما كدت أفعل هذا حتى حضرت بعض الفتيات يبحثن عن الشريطة . وكانت فعلا / و / هي التي فقدتها .

٢٠ ـ دخلت إلى المخبر يوماً ، وعلى الرغم من رائحة العطر المنبعثة تعرفت حالا على رائحة الثوم . وفي أول الأمر لم أدرك من أين تنبعث هذه الرائحة وفي نهاية النهار رأيت / خ / وشممت منه رائحة الثوم فاستنتجت أنه كان في المخبر عندما عبرت من هناك .

٢١ – سألت / آ ي يوماً عن العطر الذي تعطرت به ؛ فاجابت بالنفي قائلة : إنني منذ عام لم أستعمل العطر .

– مستحيل فلقد شممت رائحة العطر تنبعث منك .

ولكن / آ ي / ما انفكت تؤكد لي أنها لاتتعطر إلا مرة في العام . وبعدئذ وفي كل مرة أقابلها كنت أسالها ساخرة :

– لشد ماهي قوية رائحة عطرك هذا ؟ ألم تتعطري هذه المرة .

– نعم لقد تعطرت هذه المرة .

وقد تكرر ذلك مرات عديدة حتى كفّتْ / آ ي / عن الادعاء بانها تتعطر مرة واحدة كل عام .

٢٢ – بينما أقرأ مع / ل ي / شعرت برائحة أحذية جديدة فسألتها :

– هل اشتريت حذاء جديداً ؟

– نعم

– متى لبستِه ؟

– هذا اليوم .

– لقد وضح الأمر فانا أشم رائحة جلود طازجة .

٢٣ – خصص زورق وأرجوحة للأطفال ونصبت خشبةا لأرجوحة في البهو ، عبرت البهو في تلك اللحظة وشممت رائحة الخشب الطازج . ولم أكن أدري بتركيب هذه الألعاب في البهو فسألت / ل ي / عن

مصدر رائحة الخشب الطازج ، فشرحت لي ذلك ودلتني على خشبة الأرجوحة ، وهي ماتزال جديدة تفوح منها رائحة الخشب الغض

٢٤ ــ ذات يوم ذهبت إلى الصيدلية مع / آ / ، وهي عمياء ، ولكنها ككل العميان تعودت أن تعتمد على أذنها . وحينما اقتربنا من الصيدلية مدت / آ / أذنها حتى لاتخطىء الباب ، وكذلك حاولت أنا اكتشافه بالرائحة . كان عندي احساس بأنا تجاوزنا الباب فأعلمت / آ / بذلك ، ولكنها لم تصدقني وتابعت سيرها . وحينما أدركتْ أنها أخطأت الباب توقفت ومدت أذنها . وفي تلك اللحظة اقترب منا أحد العابرين ورافقنا إلى الصيدلية . وهكذا كنت محقة عندما أخطرتها بأنا تجاوزنا الباب .

٢٥ ــ ذات مساء كنت بحاجة إلى المناوبة الليلية في موعد قدومها . شعرت بأن أحداً عبر الغرفة فناديت . اقترب مني / ر ج / وحينما تحدثت اليها شممت رائحة الخبز تفوح منها فسألتها :

ــ أتأكلين خبزاً ؟

ــ وهل شممت رائحته ؟

ــ نعم .

٢٦ ــ ذات يوم تعرفت على الفاصولياء من رائحتها واليكم كيف تم ذلك .

في بداية تموز كنت أقيم في مدينة / ن / . وراح الناس يتحدثون بأن موسم الفاصولياء سيء هذا الصيف ، وأن أسعارها مرتفعة . وأولئك الذين أقيم عندهم قلما كانوا يشترونها . وذات صباح ونحن

نحتسي الشاي شممت رائحة السمك والبندورة ، وعلى الرغم من ذلك شممت رائحة الفاصولياء فسألت / ج / : هل اشتريت اليوم فاصولياء ؟

– نعم ولكن لم أغسلها بعد ، وهي ماتزال في طبق على الطاولة .

٢٧ – ذات يوم من أيام الصيف بينما أقرأ مع / آ ي / في الحديقة وكان الطقس حاراً سألتني :

– هل تسمحين ياأولغا بأن آخذ قليلا من عطرك ؟

– يمكنك ذلك فالزجاجة في الخزانة على اليمين .

راحت / آ ي / . ولدى عودتها شممت منها رائحة الخل وليس العطر فأضحكني ذلك .

– لماذا تفوح منك رائحة الخل ؟

– لأنك قدمت لي معلومات خاطئة .

– وكيف ذلك ؟

– في خزانتك خل وليس فيها عطر !

– صحيح ، لكن زجاجة الخل أبعد ، أما زجاجة العطر فهي أكبر وهي على الجهة اليمنى تماماً . أما استطعت أن تميزي رائحة هذا من ذاك ؟

– لم أدرك ذلك إلا بعد أن ضمخت جسدي كله !

٢٨ – يوماً ما استقبلت صديقة قادمة من بلدة / م / فلاحظت

أن رائحة عطر / الميموزا / تفوح منها . وبعد سفرها تلقيت رسالة عرفت أنها منها ؛ لأن الرائحة نفسها كانت تفوح من الرسالة .

٢٩ ــ ذات يوم دخلت غرفة / آ ي / وشممت رائحة البنزين فسألتها :

ــ ماذا تفعلين بالبنزين ؟

ــ لقد انقلبت السخانة دون أن أنتبه فسال البنزين على الأرض .

٣٠ ــ كنت عند إحدى صديقاتي ، ولدى خروجنا من بيتها عبرنا المطبخ فشممت رائحة نوع من السمك فصرحت بذلك لها ، فأجابتني بأن أمها تنظف سمكة منه .

٣١ ــ شممت رائحة الليلك في المطعم ذات يوم فسألت /ف س/:

ــ هل من ليلك على الطاولة ؟

ــ لا .

ــ فلماذا تفوح رائحة الليلك في المطعم إذن ؟

ــ أنا التي تعطرت به .

ــ أقصد أني أشم رائحة زهر الليلك .

نظرت / ف س / إلى الطاولة وقالت :

ــ لم ألاحظ وجود الزهر على الطاولة وإنما ظننت أنك تشمين رائحة عطري .

٣٢ ــ كنت أقرأ مع / آ ي / في المطعم قرب النافذة ، وكنت

أشم رائحة الأزهار التي أوشكت تذبل فسألت / آ ي / : من أين تأتي هذه الرائحة ؟

– لاأدري فليس من زهر هاهنا .

اقتربت من البوفيه فاشتدت الرائحة فأدركت حينئذ أن أزهاراً قد وضعت عليه .

ناديت / آي / فنظرت إلى البوفيه وقالت لي : حقاً هناك بعض الزهور القديمة وهي آخذة في الذبول .

٣٣ – كنت يوماً في البهو فشممت رائحة الطلاء فسألت/ ف م /: من أين رائحة الطلاء ؟ فأجابت : لقد أتى عمال الطلاء ولم يبدؤوا بالعمل ؛ وإنما عاينوا المكان فحسب .

٣٤ – بسبب الاصلاحات في قاعة المغاسل رتبت / آ ي / مناشف الأطفال ومعها منشفتي ، وحينما طلبت منها منشفتي لم تستطع أن تجدها فكل المناشف متشابهة . أعطتني واحدة منها فقلت لها : إنها ليست لي بل لفاريا ؛ وقد عرفتها من رائحتها . حينئذ قدمت لي كل المناشف فاستخرجت منها منشفتي .

٣٥ – كنت أريد معرفة الوقت . شممت رائحة الخبز والفواكه المجمدة وأنا أدخل المطعم ، فدهشت لسرعة مرور الوقت ، فنحن نتناول العشاء عادة في الثامنة وما كنت أتوقع أنها قد أزفت . نظرت إلى ساعة الجدار فلم تكن إلا السابعة والربع . ناديت / آ ي / وأنا مشوشة وسألتها : هل سنتناول عشاءنا باكراً أم أن الساعة مقصرة . أجابت : لا ، الساعة مضبوطة ؛ وإنما سأحضر العشاء قبل موعده .

٣٦ ـ راحت المدفأة ذات يوم تنشر غاز الفحم وشممت تلك الرائحة ولكن لم أعرف مصدرها . ولما اشتدت الرائحة سألت / آ ي / :

ـ لماذا تنتشر رائحة غاز الفحم في الغرف ؟

ـ لاأدري . . . أية غرف ؟

ـ في كل مكان .

ـ ربما هم يشعلون موقد الحمام .

ـ كلا فأنا آتيةٌ للتو من هناك ، وليس في الحمام أية رائحة .

ـ أنا ذاهبة لأرى .

وحينما توجهت إلى المخبر للعمل شعرت بأن الرائحة أشد ، فأعلمت / ت / بأن هذه الرائحة تثير عندي الصداع . أجابت / ت / :

ـ هل تشعرين حقاً بشيء ما ؟

ـ إنها على أشد ماتكون هنا .

ـ أنا استشعرها قليلا ولكنها لاتزعجني .

وفي المساء لم نعد نشم شيئاً ، ولكن الصداع لازمني حتّى الليل .

٣٧ ـ اقتربت مني / ر ل / فسألتها : لماذا تفوح منك رائحة النفتلين ؟ أجابت :

ـ لقد لبست قبعتي التي كانت محفوظة بالنفتلين ، وقد تشرب شعري برائحته .

٣٨ ـ بينما أتحدث إلى / رل / شممت رائحة الصابون فأعلمتها

بذلك قالت لي : منذ يومين غسلت رأسي . أجبتها : يخيل لمن يشم رائحتك القوية أنك اغتسلت منذ حين .

٣٩ ــ بسبب الاصلاحات في غرفة الحمام قلت في نفسي إنهم لن يسخنوا ماءه هذا اليوم . ولكن ما أن دخلت إلى الحمام حتى أدركت أنهم أشعلوا موقده .

٤٠ ــ حينما جلست إلى مائدة الغداء تعرفت من الرائحة على حساء الملفوف وفطائر الجبن الأبيض . ولم يخب ظني .

٤١ ــ لدى دخولي إلى غرفتي أدركت أن أرضها الخشبية قد غسلت ، وحينما لمستها كانت فعلا ماتزال رطبة .

٤٢ ــ ذهبت لاستحضار ثيابي الداخلية وردائي من المصبغة ، فقدموا لي رداء عرفت أنه لي من رائحته قبل أن ألمسه .

٤٣ ــ لدى دخولي إلى الحمام تعرفت من الرائحة على وجود غسيل مغمور بالماء . تلمست فعلا بيدي فاذا الغسيل في المغطس .

٤٤ ــ أتت / ف م / لتعمل معي فسألتها : لماذا تفوح منك رائحة البطاطا المقلية ؟ أجابت: انتهيت لتوي من قلي البطاطا في البيت وحضرت إليك .

٤٥ ــ استغرقت في النوم وقت القيلولة . وخلال نومي شممت رائحة التفاح فخيل إلي أني أحلم . وحينما استيقظت وجدت على المنضدة شيئاً من التفاح كانت / ف م / قد جلبته .

٤٦ ــ ذات يوم اقتربت مني / آ ف / فشممت رائحة التراب

والأزهار . دهشت وظننت أني مخطئة ، ولكن / آف / أخبرتني بأنها قطفت زهرة من الحديقة ، ثم قدمتها لي .

٤٧ ـ حينما تزهر الأكاسيا البيضاء في حديقة الجيران أشم رائحتها توا لدى دخولي إلى الحديقة .

٤٨ ـ شممت يوماً في المهجع رائحة الزنبق القوية التي دامت طول النهار . لكن لم أدرك من أين تنبعث . وكنت أحس أن رائحة الزنبق تشتد كلما اقتربت من النافذة . ولدى اقترابي منها وجدت باقة من الزنبق في مزهرية .

٤٩ ـ شعرت برائحة الأكاسيا وأنا أدخل إلى المطعم . وكنت أعلم أن على الطاولة بعض الأزهار ، وحينما نظرت إليها لم تكن من الأكاسيا . اقتربت من الطاولة لأعاين ثانية تلك الأزهار فوجدت بضعة أغصان من الأكاسيا البيضاء .

٥٠ ـ في يوم ربيعي حيث أزهرت أشجار / كرز الطير / كنت راجعة مع صديقة عمياء . وقد ظنت أننا لم نصل بعد إلى الباب . أما أنا فكنت أخالفها الرأي فقلت لها : أنا على ثقة من أننا وصلنا ، وتلك هي روائح زهر الكرز تفوح بالقرب من الباب . لكن صديقتي استمرت في السير ثم أدركت بعد أن تلمست الرصيف أننا تجاوزنا المدخل . حينئذ عدنا أدراجنا ، ولدى اقترابنا من الباب طلبت منها أن تغير اتجاهها فهنالك شجرة كرز ولهذا كنت واثقة من تجاوزنا للباب.

٥١ ـ لدى دخولي المرحاض شممت رائحة النعناع . فسألت

/ ل ي / : هل دخلت إلى هناك ومعك قطرات من النعناع . أجابت : نعم . ولاحظت حينذاك أن / ل ي / تفوح منها تلك الرائحة .

٥٢ ـ لا أظن أني أخطىء حينما أقارن حاستيْ الشم واللمس وغيرهما لدى العمي الصم البكم بحاستّي النظر والسمع لدى الناس الأسوياء . ومن المعلوم أنه حينما تضرب الأصوات العنيفة آذان الأسوياء أو تفجأ عيونهم تأثيرات بطريقة مزعجة فانهم يردون عليها بطريقة أو بأخرى . وكذا يفعل الأصم الأعمى حينما يثير شيء ما حاسة الشم عنده أو اللمس .

مثال ذلك انني حينما أشعر برائحة لذيذة أو مزعجة فسرعان ما أتأثر بها ولا سيما خلال دراستّي فيتعذر علي العمل بهدوء .

وذات يوم وبينما أقرأ مع / ل ي / غادرتني عدة مرات لتضع عطراً ذا رائحة قوية غير لطيفة تشبه رائحة العشب . ولأول وهلة أصابني الغثيان والصداع فطلبت من / ل ي / قائلة : أرجوك ألا تتعطري حينما نقرأ معاً ؛ فهذا يزعجني ويرميني بالصداع . وعدتني بذلك وشعرت بأنها لم تعد تستعمل أبداً تلك الرائحة .

٥٣ ـ بينما أقرأ مع / آف / شممت رائحة زيت الناردين فسألتها : هل تشكين شيئاً ؟

ـ لماذا ؟

ـ تفوح منك رائحة الناردين وقد خيل إلي أنك شربت منه .

ـ نعم كنت أعاني من المغص وقد تناولت منه شيئاً .

٥٤ ـ شممت رائحة توت العليق وأنا أقرأ ذات يوم مع / آ ي / ، فسألتها : من أين تفوح هذه الرائحة . أجابت : إن / ف / قد جلبت لك شيئاً من التوت وهي إلى جانبنا وسنتناوله بعد الانتهاء من هذه الجملة .

٥٥ ـ كنا في غرفتي أنا و / ن / . شممت رائحة الحساء وقلت : انها / ر ل / التي تصب الحساء في الصحون .

ـ هذا صحيح ، ولم أنتبه لذلك على الرغم من قرقعة الصحون .

٥٦ ـ أمضيت يومين عند صديقتي . ولدى عودتي شعرت حالا برائحة مجهولة في الحمام قبل أن أدخل إليه . وقفت لأتعرف تلك الرائحة ، وكانت تشبه رائحة الصمغ . وبعد دقائق قيل لي : إن شيئاً من الغراء يجفف على الفرن .

٥٧ ـ كنت عند صديقتي المبصرة . وهي تود أن تتعلم القراءة بطريقة (برايل) ، وكان علي أن أكتب لها الأبجدية ، فلا بد من رسم حرف عادي فوق كل حرف نافر . راحت صديقتي لتجلب الحبر وبدأت تكتب ، فشعرت برائحة عطر خفيفة فسألتها :

ـ هل تعطرت ؟

ـ لا فليس عندي عطر .

ـ من أين إذن رائحة العطر ؟

ـ لاأدري . وأنا لا أشم شيئاً .

وتابعت الكتابة وأنا مازلت أشم تلك الرائحة . وأخيراً أدركت

صديقتي سر ذلك فأطلعتني على زجاجة الحبر التي كانت فيما مضى زجاجة عطر فهي مازالت تحمل منه البقايا .

٥٨ — زارتني بعض الفتيات العمياوات وفاحت رائحة الفازلين من احداهن أورائحة مرهم لاأدري ماهي فسألتها :

— بماذا دهنت جسمك ؟

— لاشيء .

— ليس صحيحاً فأنا أشم رائحة غريبة .

— استعملتُ مرهماً معطراً .

٥٩ — يؤدي باب غرفتي إلى البهو الذي لابد للجميع من عبوره ليصلوا إلى الغرف الأخرى، وحينما أخلد إلى النوم أغلق الباب دائماً ، لأنه إذا ظل مفتوحاً فالروائح توقظني . وفي الصباح عندما يكون الأطفال لايزالون نائمين تفتح الخادمة مصاريع النوافذ في المطعم ، وإذا مافتح باب غرفتي فسرعان مايوقظني الهواء البارد .

٦٠ — اقتربت من المكتب وفتحت الباب قليلا ، فضرب الهواء الفاتر المختلط بدخان التبغ وجهي . قلت ل / ن / التي كانت في غرفتي : لعلهم يعقدون اجتماعهم الآن . وكنت على صواب فقد كان الاجتماع العام منعقداً .

٦١ — دعتني / ت / للقراءة ، وما كدنا نبدأ حتى استشعرت رائحة النقانق والخبز ، فسألتها : هل تتناولين فطورك ؟ أجابت : لا ، إن / ن / تأكل قطعة من النقانق على طاولتنا .

٦٢ — ذات مساء وبعد أن عملت بصحبة / ل ي / ، عدت في منتصف الليل إلى غرفتي ، ولدى دخولي إلى البهو شعرت برائحة تبغ قوية فأدركت أن / ك / ماتزال تعمل مع / ن آ / في الطابق العلوي في المخبر . رجعت إلى / ل ي / وسألتها :

— هل تظنين أن (ن آ) قد خرج ؟

— لاأعلم فلم أسمع شيئاً .

— أما أنا فيبدو لي أنه مارال هناك . هيا بنا لنرى إذا كان معطفه على المشجب .

ذهبنا إلى البهو ، وكان معطف / ن آ / معلقاًهناك. وهكذا أدركت من رائحة التبغ أنهما لم يخرجا بعد .

٦٣ — زارني أحد الأصدقاء يوماً وكانت تفوح منه رائحة الدخان فسألته :

— ألم تشعل المدفأة هذا اليوم ؟

— لا . . . ولماذا ؟

— لأن رائحة الدخان تفوح منك .

— لاأدرى لماذا . . . آ . لقد تذكرت فالفرن قد دخن طوال النهار وقد امتلأت الشقة برائحة الدخان ، ولهذا بلا شك تشرب جسمي تلك الرائحة .

٦٤ — ذات يوم وأنا أتناول الشاي شممت رائحة عطر . ولدى دخولي المكتب بدا لي أن الرائحة تهب من صوب الهاتف فذهبت إلى هناك ووجدت / أ . آ / .

٦٥ ـ ذهبت إلى غرفتي لأرى كم هي الساعة ، وكانت / أ . آ / جالسة أمام الطاولة . جلست بقربها فشممت رائحة المندرين أو البرتقال . ولم أشر إلى ذلك خلال حديثي مع / أ . آ / ولكن بعد بضع دقائق وجدت مصادفة على الطاولة قشور المندرين .

٦٦ ـ استيقظت من نومي في السادسة صباحاً ؛ ولما كان الوقت باكراً مكثت في سريري . بعد ساعة شعرت بحركة في قاعة اللعب فأدركت أن التنظيف قد بدأ . وبعد دقائق شممت رائحة الأرض المغسولة فتساءلت عن مصدرها إذ لم أشعر بالخادمة وهي تدخل غرفتي . وقد خيل إلي أن أرض المكتب قد غسلت وأن الرائحة قد نفذت إلى غرفتي مع أن الباب مغلق . وحينما نهضت من السرير وذهبت إلى المكتب تحققت بيدي أن الأرض قد غسلت حقاً . وهكذا لم أكن مخطئة حينما توقعت منذ حين أن الرائحة قد نفذت من المكتب إلى غرفتي التي لم تكن نظفت بعد .

٦٧ ـ لدى دخولي إلى المطعم وبينما كانوا يعدون مائدة الفطور أدركت من الرائحة أنه سيقدم لنا البطاطا المسلوقة والسمك . وقد صدق حدسي .

٦٨ ـ أخبرتني /آ ي / بأن زواراً في المؤسسة ، وكنت حينذاك في قاعة الألعاب أتحدث مع / ف / فشعرت من الرائحة بأن الزوار قد دخلوا الغرفة . بعد لحظات اقتربت مني /آ ي / وقالت : هاهم الزوار قد وصلوا .

٦٩ ـ ذات يوم بينما أنا متوجهة إلى المكتب شممت رائحة

الرز بالحليب ، قلت لنفسي : سيقدم لنا هذا المساء الرز بالحليب . وفي المساء تأخرت في قدومي للعشاء ؛ ولكن بما أن الأطفال قد تناولوا عشاءهم فان رائحة الرز بالحليب كانت ماتزال تملأ المكتب والمطعم .

٧٠ ــ ذهبت إلى متحف القوات المسلحة للاتحاد السوفياتي ، وبعد أن زرنا جناحاً من المتحف رحنا نستعد للعودة . ولما كانت يداي متسختين رافقوني إلى حيث أغسلهما. كنت أجهل تلك الغرفة ولكن ما أن دخلت إليها حتى شعرت برائحة ورق عتيق ومستحضرات كيمياوية ومخبرية ، ثم أخبرتني / م م / بأننا في الغرفة الخاصة بالباحثين.

٧١ ــ حينما حضرت / أ . آ / لتعمل معي شممت رائحة الكاوتشوك فسألتها : لماذا هذه الرائحة

ــ لأني علمت الأطفال معنى كلمة (طابة) ، وكنت أحمل بيدي طابة من الكاوتشوك .

٧٢ ــ ذات يوم وأنا عائدة مع / ك / من معهد الطب التجريبي شممت من جهة ما رائحة الخبز الطازج ، وعلى الرصيف اشتدت تلك الرائحه فسألت / ك / : ماهذه الرائحة ؟ أجابت :

ــ لاأدري فأنا لا أشم شيئاً .

ــ لكني أشم رائحة الخبز الطازج .

ــ نعم فهناك مخبز في زاوية الشارع .

٧٣ ــ كنت ما أزال مستغرقة في النوم حينما جاءت /آ ف/ لايقاظي وما أن وضعت / آ ك / يدها على كتفي حتى استيقظت وشممت

على الفور رائحة صباغ الأحذية ، فأدركت حالا أن / آ ف / قد صبغت أحذية الأطفال .

٧٤ ــ بينما كنت ذاهبة إلى معهد الطب التجريبي مع / آ ي / ، ولدى اقترابنا من المعهد شممت فوراً رائحة الحلوى فسألتها : هل تباع الحلوى هاهنا ؟ أجابت : نعم ، في الشارع محل لبيعها .

٧٥ ــ بينما أنا في الشارع بصحبة / ل ي / شممت فجأة رائحة مخزن ما فسألتها :

ــ هل من مخزن هاهنا ؟

ــ لافهذه بوابة .

ــ وما الذي يوجد خلفها في الساحة ؟

ــ مخزن للفواكه .

ــ كنت أشك في ذلك ، فقد شممت رائحة المخزن بينما لم تري أنتِ سوى البوابة .

٧ ــ اقتربت مني / ف م / ذات مساء وقالت لي :

ــ هيا نقرأ ، إذا رغبت بذلك .

ــ هل هناك نور ؟

ــ نعم ولماذا تظنين أنه لايوجد ؟

ــ لأني أشم رائحة شمعة مشتعلة .

ــ فعلا . إن / ل ي / قد أشعلت شمعة في قاعة الألعاب لتبحث عن لعبة صغيرة على الأرض .

٧٧ — ذات مساء وأنا أقرأ في المطعم شعرت بحمى خفيفة وبوهن شديد . وقد تلفعت حتى إن قسماً من وجهي وانفي اختفى تحت الوشاح . وفجأة شممت رائحة شمعة مشتعلة مما أثار فضولي فتوجهت إلى قاعة الألعاب وسألت / ل ي / :

— هل أنت التي أشعلت شمعة ؟

— نعم . أشعلت اثنتين مالك ؟

— شممت رائحة شمعة مشتعلة فجئت استقصي السبب .

— لقد انطفأ النور وأشعلت الشمع ، ولكن ما كنت أتوقع أن تشمي الرائحة وأنت ملفحة بالوشاح .

٧٨ — بينما أقرأ مع / آ ف / شممت فجأة رائحة عقاقير ، ولم أدرك مصدرها . ولكني أحسست بأنها قريبة مني ، وضعت يدي على الطاولة فوجدت عليها زجاجة (شامبو) كانت / ل ي / قد اشترتها من الصيدلية ووضعتها بالقرب مني . وكنت أصغي للقراءة بتركيز شديد بحيث لم أشعر بحضور / ل ي / ، ومع ذلك شممت الرائحة على الفور .

٧٩ — على العشاء نبهتني / ف م / إلى أنها وضعت لي صحناً صغيراً وراء صحني الكبير . سألتها :

— ما الذي يوجد في هذا الصحن ؟

— سترين بنفسك

وبعد أن تناولت السميد قربت الصحن الصغير ، وسرعان ما أدركت أن فيه (حلاوة)

٨٠ – ذات يوم وقعت في يدي مصادفة المنشفة التي تستعملها / ف / فعرفتها حالا من رائحتها ؛ ومنذ ذلك الحين رحت انتبه حتى لا أغلط بمنشفة / ف / . وبينما كنت أبحث عن منشفتي يوماً ما شممت منشفة / ف / وقدمتها إلى / آ ي / القريبة مني كي تشمها . ولكن / آ ى / أجابت : إني لاأشم رائحة خاصة ، وفي اعتقادي أن المناشف كلها ذات رائحة واحدة .

٨١ – على الفطور كنت أتناول الشاي بلا حليب . وبعد فراغي من شرب الشاي اقتربت من طاولة أخرى فوجدت عليها غلاية قهوة . سألت / آ ي / القريبة مني :

– الا حليب هذا اليوم ؟

– لا .

– وماذا في الغلاية ؟

وقبل أن تجيبني أخذت الغلاية وقربتها من وجهي وقلت وأنا أرجعها إلى الطاولة :

– آ . . . هذه قهوة

٨٢ – شممت يوماً رائحة الدهان في المعهد . وفي أول الأمر لم أكن أعرف مصدرها ، ثم تذكرت أن بعض الاصلاحات تجري في المكتب . وكنت على صواب فقد كان عمال الطلاءيعالجون الأرض الخشبية بالمعجون .

٨٣ – كنت في عرفتي فشممت رائحة الكحول . توجهت الى غرفة الأطفال فكانت الرائحة أشد فسألت / آي / . من أين رائحة الكحول ؟ فقالت : إنها دلكت / آ / به .

٨٤ — ذات يوم وخلال درس الكيمياء وبعد أن انتهى / ب / من شرح خواص الغازات والمعادن قلت له : إن القطع النقدية النحاسية والفضية لها رائحة خفيفة . أجاب / ب / ٠

— لا ، فقد شممت مرات عديدة هذه القطع فلم أجد لها أية رائحة . وأنا أعلم أن النحاس والفضة لارائحة لهما .

اقترحت حينئذ عليه أن نأخذ بعض القطع ونحقق فيها معاً . وهكذا أخرج / ب / بعضاً منها ورحنا نتشممها بتركيز قال / ب / بامتعاض :

— نعم . أنا أشم الآن رائحتها .

— ها أنت ترى صحة ذلك. وإذا فركنا القطعة قليلا قويت رائحتها .

٨٥ — بينما أمشي في الشارع مع / آ آ / شممت رائحة أوراق التبغ فسألتها : هل ترين شيئاً منها ؟

— نعم فنحن الآن نمر بالقرب من حديقة فيها الكثير من أوراق التبغ.

٨٦ — كنت في المكتبة ثم غادرتها قبيل الغداء . ومن أعلى الدرج شممت رائحة البطيخ الأصفر فحزرت أنه سيقدم لنا بعد الطعام .

٨٧ — كنت في الحديقة ونودي علينا للغداء . ولدى دخولي قاعة الألعاب شممت رائحة الشمام الذي كان يقطع في المطبخ . وبالفعل فقد قدم لنا الشمام بعد الطعام .

٨٨ — بينما أقرأ مع / آف / في الغرفة دخل شخص ما ، فأدركت من رائحة الأدوية أنها / ل ي / فناديتها :

— هل تعرفت علي من رائحة الأدوية ؟

— نعم .

٨٩ — كان يوم عطلة . وبعد تناول شاي المساء ذهبت / آ ف / للتنزه مع الأطفال في الحديقة وأخطرتني بأنه لاأحد في المعهد . كنت في غرفتي وفجأة ثارت عندي رغبة شديدة في التوجه إلى باب المدخل لأرى إن كانت / ن / ترن الجرس . وترددت على مدى عشر دقائق حتى لا أغامر بالخروج في البرد عبثاً . وأخيراً لم أملك نفسي عن التوجه إلى البهو ، ولدى اقترابي من الباب شممت رائحة عطرية ففتحت الباب دون تردد فاذا / ن / خلفه .

— هل ترنين الجرس من زمان طويل ؟

— نعم ، وكنت أفكر بالدخول من درج الخدم ، ولكن الباب هناك مغلق كذلك .

— على كل حال لا أحد في المعهد ولهذا فمن سيفتح لك الباب الآخر ؟ وقد رغبت في التوجه إلى الباب لأرى إن كنت ترنين الجرس ، ولكن خفت أن أخرج بلا طائل .

٩٠ — كنت في غرفتي حينما تسربت إلى أنفي رائحة سلطة الفواكه الصادرة من المطبخ . وخلال الغداء وفيما أنا أتناول منها اكتشفت فيها الاجاص والمشمش المجفف مع التفاح الطازج .

٩١ — ذات مساء خرجت في السادسة باتجاه الحديقة فشممت في الهواء رائحة الرطوبة وكأن المطر قد نزل . سألت / آ ف / :

– هل أمطرت ؟

– لا .

– ولماذا هذه الرطوبة في الهواء ؟

– لأن الريح تهب .

وأردنا الجلوس على أحد المقاعد ولكنه كان مرطباً قليلا فسألت / آف / ثانية :

– ولماذا المقعد مبلل إن لم تكن أمطرت ؟

– نسيت أن المطر قد نزل حوالي الساعة الرابعة ولكن لم يدم إلا قايلا .

– أترين لقد نسيت ذلك . وتريدين اقناعي ببساطة بأن رطوبة الجو من هبوب الريح

٩٢ – كنت أضرب على آلتي الكاتبة في غرفتي . ولفت انتباهي فجأة رائحة أعواد ثقاب منطفئة ، فاعتراني شيء من الخوف فهذا غير متوقع . نهضت وتوجهت صوب الباب فوجدت /T T/ وسألتها :

– ما الأمر ؟

–كنت آتية إليك . وبما أن النور مقطوع فقد أشعلت عود ثقاب .

٩٣ – ركبت الترام ذات يوم . وبعد موقف واحد شممت رائحة زهر كرز الطير فسألت الشخص الذي يرافقني .

– من أين هذه الرائحة ؟

– هناك فتاة صعدت الترام تحمل في يدها باقة من زهر الكرز .

٩٤ – أردت أن أملأ كأسي بالماء من القارورة ، وحينما رفعت الكأس إلى فمي شممت في الماء رائحة غريبة . ومرّ / ك / بجانبي فلاحظ أنني أتردد في شرب الكأس فاقترب قائلا :

– الماء صاف ويمكنك أن تشربي .

– لكن له رائحة غريبة !

– ولكن يبدو من منظره أنه نقي وشفاف .

– لابد أنه غلي وترك ليبرد في الجرة ، ولهذا مازال يحتفظ برائحتها .

٩٥ – يتفق لي غالباً أن أذهب إلى مدرسة العميان حيث تتابع إحدى صديقاتي دراستها . وكان من بين طلاب الصفوف العليا واحد يلبس سترة جلدية تفوح منها رائحة قوية . وحينما كنت في الممشى أدركت من رائحة الجلد أن ذلك الطالب مرّ إلى جانبي . وخلال قيامي بالمشي مع صديقتي في الممشى أو القاعة وحينما كنت أشم تلك السترة الجلدية كنت أقول لها :

– لقد عبر بنا / ر / .

– ياللغرابة ! كيف يمكنك معرفة ذلك ؟ حقاً لقد مر بنا وحيّانا ولكنك لم تسمعيه .

– أدركت من رائحة سترته أنه مر بجانبنا .

٩٦ – ذات يوم ذهبت لزيارة / ن / ، وكانت في الريف

فانتظرتها . وبعد ساعتين دعتني أمها لنستقبلها عند موقف الترام . خرجنا ، وبعد عشرين خطوة شممت فجأة رائحة العطر الذي تستعمله / ن / ، وإذا هي مقبلة وحدها .

٩٧ – كنت ألازم فراشي بسبب المرض وشممت رائحة النفتلين فتوجهت إلى البهو وكانت الرائحة هناك أشد . وبعد قليل اقتربت مني / أ ي / فسألتها :

– هل وضعوا السجادة على الدرج ؟

– كيف حزرت كذلك ؟

– شممت رائحة النفتلين فعرفت .

– أنت على حق .

٩٨ – في آخر الليل كانت تصدر من الشارع المقفر رائحة البنزين مختلطة بروائح أخرى . سألت / ل ي / :

– هل يعقل أن تمر السيارات في هذا الوقت ؟

– لا . إنها جرارات محملة بدود القز تنشر تلك الروائح المختلطة بالبنزين .

٩٩ – بينما أقرأ مع / آ ف / في غرفة الأطفال شممت فجأة رائحة / ر آ / . ولكي أتحقق من أني لم أخطىء التفت فاذا/ ر آ / واقفة فعلا خلف مقعدي . وحينما صافحتني قلت لها : عرفتك من رائحتك .

١٠٠ – في عيد رأس السنة وخلال تناول شاي الصباح قدم للأطفال ررم من الحلوى . وبينما كنت ما أزال أتناول الشاي راح

الأطفال يتناولون الحلوى التي قدمت لهم . شممت رائحة الماندرين وحزرت أن الرزمة تحوي شيئاً منها .

١٠١ ــ خلال الغداء شممت في المطعم رائحة زيت الناردين . ذهبت إلى غرفة الأطفال وسألت / ل ي / التي كانت هناك :

ــ أتعرفين من الذي تناول شيئاً من الناردين بينما كنت على الغداء ؟

ــ لا . سوف أستعلم عن ذلك .

راحت وسألت المربي المناوب وأخبرتني بعدئذ أنها / آ ف / .

١٠٢ ــ بعد الانتهاء من القراءة مع / آ ف / في غرفة الأطفال توجهت إلى غرفتي . ولدى وصولي شعرت بأن أحداً في الغرفة . اقتربت من الطاولة فاصطدمت بكرسي تجلس عليه / أ آ / . قالت لي : أنها شعرت بالبرد في الطابق العلوي فأتت تعمل في غرفتي .

١٠٣ ــ ذات يوم قمت بزيارة المربية في مدرسة العميان لأستعير منها بعض الكتب ، وقد مضى على مقابلتي الأخيرة لها قرابة شهرين . وحينما راحت / آ ي / التي كانت ترافقني تقرع على الباب ، جاء شخص ما ليفتح لنا . وطبيعي أني لم أعرف من يكون . ومن جهة أخرى شممت رائحة التبغ في الغرفة . ولما كانت المربية التي حضرت لمقابلتها غائبة فقد عدت ادراجي . وفي طريق العودة تساءلت : ترى من يمكن أن يكون عند / ف ف / ، وهي تسكن وحدها ولا تدخن ؟ !

قلت لنفسي فجأة : قد يكون أباها الذي جاء يزورها . ولم أخطىء في تقديري فلدى وصولي إلى المعهد أخبرتني / آ ف / بأن والد / ف ف / أتى لزيارة ابنته .

١٠٤ ـ شممت وأنا مستغرقة في النوم رائحة تفاح ، وشعرت بشيء بارد يداعب أنفي فاستيقظت ووجدت على المخدة تفاحتين أو ثلاثاً تدحرجت على غطاء السرير . وضعت / س / التي كانت بجانبي تفاحة على أنفي .

ـ لماذا أيقظتني ؟

ـ كي أطعمك من التفاح .

ـ أما كان يمكن تأجيل ذلك ؟

ـ لايهم ، فامكانك أن تعودي إلى النوم فالساعة مازالت السادسة صباحاً .

ـ إليك عني فأنا نعسانة .

ـ كلا . . . خذي تفاحة ثم نامي .

ولم تدعني / س / فقد كانت تريد لي أن آكل التفاح .

١٠٥ ـ راحت / آ ف / تتنزه ذات يوم في الحديقة بصحبة الأطفال ثم لحقت بهم . كان الثلج قد نزل خفيفاً مساء البارحة وطبقة رقيقة منه تغطي الأرض . قالت لي / آ ف / :

ـ كل ماحولنا أبيض ماعدا أقحوانة واحدة في مساكب الزهر .

قطفت / آ ف / زهرة وقربتها من أنفي فأدركت فوراً أنها ليست من الأقحوان بل من البابونج .

١٠٦ ـ بينما أقرأ مع / آ ف / شعرت بالعطش وخرجت

لأتناول كأساً من الماء ثم عدت إلى الغرفة فشممت رائحة برتقال لم تكن من قبل . سألت :

– من يأكل برتقالا ؟

– أنا التي أفعل .

١٠٧ – ذهبت إلى غرفتي وجلست على الكرسي قرب النافذة فشممت رائحة حلوى وبرتقال ، وخيل إلي أنها آتية من المطبخ . لكن الرائحة كانت قريبة فوضعت يدي بحركة غريزية على الطاولة لأجد علبة مدورة ملأى بالحلوى وصندوقاً صغيراً من البرتقال . إنها هديتي في عيد أول أيار .

١٠٨ – لدى دخولي غرفتي شممت الرائحة الخاصة بحافظة الأوراق الجلدية فاذهلني ذلك واقتربت من الطاولة لأتفحصها بيدي ، فلم أجد شيئاً . ظننت أن / ت آ / ربما حضرت إلى غرفتي ومعها حافظة الأوراق ، وكنت أحمل كتاباً بيدي . اقتربت من الديوان لأعيده إلى رف المكتبة فلمست مصادفة حقيبة على الديوان وقلت في نفسي : لعل / ل ي / تركتها هنا . ولما حضرت / ل ي / سألتها مازحة :

– أتعلمين ؟ لقد أهداني أحدهم حافظة أوراق .

– لا . . . إنها حافظتي وقد نسيتها هنا .

١٠٩ – انعقد اجتماع للمربين ولم أتمكن من حضوره إذ كنت أخلد للراحة . وخلال مروري قرب المخبر حيث ينعقد الاجتماع

شممت رائحة التبغ الذي يدخنه / د / . تساءلت ترى هل أتى / د / إلى الاجتماع ؟ وأجبت نفسي : لاأظن . وبعد نصف ساعة جاء / د / ليزورني .

– هل كنت تحضر الاجتماع ؟

– نعم ، ولكن وصلت متأخراً قليلا .

– لم يخبرني أحد باحتمال قدومك .

١١٠ – ذات مساء كنت عائدة من عند صديقاتي . فتحت / م ك / الباب فشممت رائحة الخبز ، وكانت تريد أن تعرف من يرافقني فاتجهت إلى الخارج . قلت لها :

– لماذا تخرجين وأنت تحملين الخبز ؟

– أشعر بالجوع ، وإذ لايتسع وقتي للجلوس إلى المائدة فأنا آكل (على الماشي) .

١١١ – كانت / ل ي / تعمل معي في غرفتي ثم ذهبتْ إلى المكتبة حيث يجري دهن الأرض وتلميعها . شممت رائحة الطلاء عبر الباب المفتوح ، وحينما رجعت / ل ي / سألتها :

– هل يقوم العمال بتلميع الأرض ؟

– نعم ، وهل شعرت بذلك ؟

– نعم ، شعرت .

١١٢ — بينما كنت في أحد أحياء خاركوف شعرت برائحة دخان في الجو وبروائح أخرى خيل إلي معها أني في قرية ولست في مدينة . سألت / ل ي / :

— ألا يذكرك هذا الحي بالقرية ؟

— نعم .

— إذن لم تخدعني أحاسيسي طالما أنك تشاطرينني المشاعر ذاتها .

١١٣ — بينما كنت مع / ل ي / في المدينة دخلنا إلى مخزن لم تخبرني مرافقتي بماذا يباع فيه . سألتني / ل ي / :

— ما الذي تشمينه هاهنا ؟

— إنها رائحة سمك .

— وماذا أيضاً ؟

فرحت أتشمم الروائح وأردفت :

— أشم رائحة الليمون ، فهل من ليمون هنا ؟

— نعم

١١٤ — تعودت أن أثق تمام الثقة بحاستي الشم واللمس لديّ ، حتى إن كل ما أدركه في العالم الخارجي يبدو لي مألوفاً ، وكأني أراه وأسمعه . ومع هذا فهناك حالات ترميني بالدهشة ؛ وهي أن الحواس يمكن أن تكون على مستوى كبير من التطور في بعض الظروف . وإليكم هذا المثال على ما أقول :

بينما أنا في غرفة الحمام أغسل رأسي ، والبخار الكثيف فيها

يضعف من قدرتي على الشم ، والباب المؤدي إلى البهو مغلق ، شممت رائحة تبغ خفيفة ففكرت باندهاش متسائلة : أيمكن أن يكون / د / هنا والساعة تشير إلى العاشرة مساء ؟ وفي هذه اللحظة مرت الممرضة المناوبة فاستوقفتها وأمسكت بيدها قائلة :

– من هنا ؟

– إنه / د / الذي أتى لمقابلة / م ك / .

– هذا تماماً ما توقعته . وكنت تساءلت : لماذا أيقنت بوجود / د / ولم أتوقع وجود / آ ي / التي تدخن هي الأخرى ؟ وهل يمكن التمييز بين رائحة دخان / د / من رائحة دخان / آ ي / ؟

١١٥ – استيقظت ذات صباح ونظرت إلى الساعة . كانت متوقفة . ماكنت أرى أي ضوء ، ولهذا ماكنت أستطيع معرفة الوقت ولو على وجه التقريب ، ومع ذلك شممت من خلال الباب المغلق روائح الطبخ . وهذا ما أتاح لي أن أعرف أننا في الصباح ، وحينما نزلت ونظرت إلى ساعة الحائط كانت تشير إلى الثامنة .

١١٦ – دخلت ذات صباح إلى غرفتي ففاحت منها رائحة ورد قوية . وقد قدمت لي بعض الورود خلال سهرة البارحة . ولكني أشم الآن بوضوح رائحة الورد الطازج . اقتربت من الطاولة فوجدت عليها باقة من الورد الغضة التي جلبتها / ل ي / منذ حين

* * *

الاهتزازات

١ ـ حينما أكون في الشارع أحس بمرور السيارات والحافلات والباصات وغيرها ، عن طريق اهتزاز أرض الشارع . وغالباً عندما أكون في غرفة قريبة من الطريق أشعر بحركة المرور . ويتفق لي أن أحد القادرين على السمع يحاول اقناعي أن الشارع يخلو من المرور ، ولكن حينما يصغي بانتباه يعترف قائلا : إن سيارة أو حافلة أو غيرها قد عبرت .

٢ ـ حينما أقرع باب مكتب / ك / أحس عبر الباب المغلق عن طريق اهتزاز الأرض الخشبية ، بنهوضه وبتحريك مقعده .

٣ ـ وبالطريقة نفسها اتعرف على بعض المربين من وقع خطاهم .

٤ ـ أحس دائماً بماريا وهي تعبر القاعة . وفي الصباح حينما أكون في غرفتي أشعر بها وهي تمضي في قاعة الألعاب .

٥ ـ عندما أقوم بزيارة (ن) أميز دائماً خطواتها من خطوات سائر أفراد أسرتها ، فخطوة (ن) العمياء تمتاز بأنها أكثر تمهلا وأقل وثوقاً حتى حينما تكون في منزلها .

٦ ـ بالسهولة التي أتعرف بها على الروائح أتعرف كذلك على الأصوات . وهكذا اتلقى هذه الحركات عبر اهتزاز الأرض . وذات

يوم كنت أعمل مع / ج / في المطعم حيث يوجد تقويمان كبيران من الخشب مصنوعان بحيث يتمكن الأطفال من توجيههما في شتى الاتجاهات ؛ وحينما يدور التقويم بصدر ضجة كانت إحدى المربيات تقوم بتعليم الأطفال استخدام التقويم إذ كنت أعمل مع (ج). أزعجتني الضجة التي أحسستها ومنعتني من التركيز ، ولكن لم أدرك على الفور أن الضجة صادرة عن التقويم فسألت ج :

ـ من الذي يباشر هذه الضربات ؟

ـ لاأسمع شيئاً .

أدهشني جوابها كثيراً فقد كنت واثقة من أنها لابد أن تسمع أية ضجة عن طريق الاهتزاز قبل أن أسمعها أنا . وخلال ذلك كان التقويم ،مازال يضج،وما عدت قادرة على التركيز في القراءة .انتظرت ريثماتستأنف الضجة متكررة لأسأل ج :

ـ ألم تسمعي هذه المرة أي شيء ؟

ـ بلى . إن التقويم هو الذي يحدث هذه الضجة ولكنه لايزعجني ، ولذا لم أعره انتباهاً .

قدرت حينئذ أن أولئك الذين يسمعون ويبصرون يتعودون ويألفون أنواع الضجيج حتى إنهم يخطئون حينما يحاولون اقناعي بأنهم لايرون ولا يسمعون شيئاً منها .

٧ ـ ومن الخطأ الظن بأن الشم واللمس وسائر الحواس لاتؤدي وظيفتها لدى الأصم والأعمى إلا خلال اليقظة ، وأننا خلال النوم نفقد كل استجابة للمؤثرات الحسية . وأنا أعلم من تجربتي الخاصة ،

أن كثيراً من الروائح الواصحة والأصوات القوية تنبهني غالباً من نومي . وإليكم هذا المثال :

ذات يوم راحت ضجة ماتقلقنى طول الليل ، فاستيقظت مراراً دون أن أتمكن من تحديد هذه الضجة ، وخيل إلي أن وقع خطوات في غرفتي هو الذي أيقظني وفي صباح الغد سألت المناوبة :

– من الذي كان يضرب طول الليل ؟

– إنهم العمال الذين كانوا يغذون المرجل بالفحم .

– وهل دخلتِ أنت إلى غرفتي ؟

– نعم . . . أتيت أنظر إلى العمال من نافذتك .

٨ – لما كانت / آ ف / على علم باني أميز بسهولة أية حركة في غرفتي ، خطر ببالها أن توقظني بالطريقة التالية : فهي إذ تفتح مصراع النافذة تحاول أن تحدث ضجة خلال مشيتها ، مما يجعل أرض الغرفة تهتز ، فاستيقظ على وقع خطاها حينئذ تقترب مني / آ ف / قائلة : لقد حان وقت استيقاظك . ويحدث أحياناً أن أشعر بخطاها وأنا لم أستيقظ بعد تماماً وفي هذه الحالة تضطر / آ ف / للامسة كتفي ، وحين أحس يدها أصحو تماماً .

٩ – ذات يوم بينما أجلس قرب النافذة في غرفتي منتظرة المربي الذي سيقرأ معي ، شعرت فجاة بخطى في الغرفة وأدركت أنها ليست خطوات الأستاذ المربي . بدات كل مافي وسعي من انتباه فتعرفت على خطوات صديقتي . وما كنت مخطئة فقد كانت هي

نفسها ولكن لأني لم أكن انتظر حضورها دهشت لتعرفي عليها ، في حين كنت في انتظار شخص آخر .

١٠ ـ بينما أقرأ مع / ت / في كتاب راحت ضجة ما تزعجني طول الوقت . وضعت يدي على الطاولة وأدركت في الحال أن الضجة يحدثها شخص يضرب على الآلة الكاتبة النافرة . سألت / ت / عن ذلك فأجابت :

ـ إنه / ب / يضرب على الآلة الكاتبة .

ـ ألاحظ أنه يضرب ببطء شديد .

ـ أتشعرين بذلك أيضاً ؟

ـ نعم فانا أشعر بكل حرف يضربه .

١١ ـ بينما أعمل مع / أ . آ / في غرفتي بجانب قاعة الألعاب كانت / م / تزعجني كثيراً بركضها في القاعة فراحت / أ . آ / لتهدئتها .

١٢ ـ أنا لاأشعر بمرور أحد في الغرفة فحسب ، وإنما أستطيع أن أحدد على وجه الدقة من وما يحدث هذه الضجة أو تلك ، وذلك بطريق الاهتزاز . ذات يوم وأنا أقرأ في غرفتي كانت (م) تتسلى في قاعة الألعاب بدحرجة الكرة ، فاخبرت (ت) بذلك فعلقت قائلة : من المدهش حقاً أنك تدركين كل شيء .

١٣ ـ عندما يتاح لي دخول مكان ما أحزر على الفور من أية مادة صنعت الأرض والأدراج . فاذا كان الدرج مثلا من الخشب أشعر بان رنين خطواتي أطول مما لو كان الدرج من الاسمنت .

وعندما قصدت لأول مرة معهد الطب التجريبي شعرت حالا بان أرض القاعة التي اجتمعنا فيها ليست من الخشب وانها من المادة نفسها التي صنع منها الدرج .

١٤ ــ حينما أقرأ مع (س) أضع في العادة رجلي على عارضة الكرسي . واتفقَ أن التفتَ (س) قليلا فصرَّ الكرسي على الأرض فشعرت حالا بصريره ، وبما أنه كان غير متوقع ارتعشت وتراخت يدي عن يد (س) . ولم يدرك (س) ما الذي حدث ، وبعد أن شرحت له الأمر قال لي : نعم . . لقد التفتّ فاحدث الكرسي ذلك الصرير الخفيف .

١٥ ــ اتفق لي أن قمت مرات عديدة بجولات بالباخرة في نهر الدنيبر . كان ذلك صيفاً ،، وكنت أحس بوضوح بحركة المركب ، وكان هدير المحرك يذكّرني بخفقات قلب ضخم متمركز تحت ظهر السفينة . وقد تولد عندي هذا الانطباع لأن مكاني على ظهرها كان ينقل لي بامانة اهتزازات المحرك .

١٦ ــ أحسب أن قلة من المبصرين يصدقون أن الأصم الأعمى يستطيع أن « يصغي » إلى الغناء والموسيقى . والحال أن الأصم الأعمى يحس جيداً رنين الصوت وعزف الآلة الموسيقية ويستمتع بذلك. ومفهوم أنه لايصغي باذنيه وإنما بيديه . وأنا يطيب لي أن أضع يدي على البيانو أو أية آلة أخرى حينما يعزف عليها عازف ، كما أحب أن أمسك بحنجرة ذاك الذي يغنّي أو يتكلم . وفي الغالب أتمكن من تحديد صوت الذي أصغي إليه وإليكم هذا المثال : كانت / ل ي /

و / ت / تتبادلان الحديث بحضوري ، وقد سمعت مراراً صوت / ل ي / ، وهو يروق لي ، ولكن صوت / ت / ماكنت سمعته من قبل وأردت التعرف عليه . وضعت يدي أولا على حنجرة / ل ي / ثم على حنجرة / ت / ، فشعرت بان صوت / ت / أعرض قليلا من صوت / ل ي / كما شعرت بان صوت / ت / له طابع مستحب . سالت حينئذ / ل ي / عما إذا كان صوت / ت / أخفض من صوتها فاجابت :

— لا على ما أعتقد ، وصوتها ليس أعرض ، وكل مافي الأمر أنها تتحدث بصوت أقوى من عادتها .

ومع ذلك بدا لي دائماً أن صوت / ت / هو الأعرض ، فقررت أن أستشير / ن / ذات الأذن الموسيقية . وفي الغد جمعت / ن / و / ت / وطلبت من / ن / أن تصغي لصوت / ت / فقررت بعد لحظة :

— نعم إن صوتها أعرض من صوت (ل ي) . والواقع أن لكل من صوتيهما طابعاً متميزاً ، ولا نستطيع الجزم فوراً بان هذا الصوت أعرض من ذاك . وعلى كل حال لم تكوني على خطأ .

١٧ — بما أني قادرة على الاحساس بالصوت عن طريق يدي التي أضعها على حنجرة المتكلم فانا غالباً ما ألجأ إلى الطريقة نفسها لأصغي إلى صوتي الخاص . وأنا أفعل ذلك لأني وأنا أحس بصوتي ، أتمكن من أن أكيفه إلى حد ما فأتحدث بصوت منخفض أو مرتفع ، وبصوت ألطف أو أقوى ، وبصوت أعنف أو أهدأ ، وإذا ما رأى أحد في هذه الطريقة مايدعو إلى الاستعراب أو الضحك فهو على خطأ ،

لأن يدي تحس بصوتي بدقة ، كما لو كنت قادرة على سماعه وأظن أنه من المفيد أن يضع الصم البكم أيديهم على حناجرهم حينما يتكلمون ، فصوتهم حينذاك سيكون محبباً وواضحاً . وهذا ما أفعل حينما أتعرف على شخص جديد .

١٨ ـ بما أني قادرة على تحسس طابع الصوت بيدي فانا أستطيع أحياناً تحديد الصوت الأكثر حلاوة لديّ . على سبيل المثال ، ومنذ وقت قصير سمعت صوت (ر . ل) بحضور (ن) ولم أكن أعرف صوتها . بعد أن أصغيت لها مدة عشر دقائق خاطبت (ن) :

ـ يبدو لي أن صوت (رل) ليس مستحباً ، وأنا أفضل عليه صوت (ت) .

ـ نعم فصوت (رل) عادي ، بينما صوت (ت) ممتع حقاً .

١٩ ـ أمضيت الصيف في أوديسّا بصحبة / آ ي / ، ولما كانت مصابة بالملاريا كانت تذهب غالباً إلى العيادة . وكنت أبقى خلال ذلك وحيدة في الحديقة أو الغرفة . وذات يوم أصابني صداع بسبب الشمس فعدت إلى الغرفة لأستريح . وخشيت أن أغلق الباب بالمفتاح فقد لاأسمع /آ ي / حينما تقرع الباب . وواتتني الفكرة التالية : أن أضع كرسياً خلف الباب يعلوه كرسي صغير ، فاذا دخل أحدهم فسرعان ما أشعر بذلك ، لأن الكرسي الصغير سينطرح أرضاً . وما كدت أستغرق في النوم حتى شعرت بالكرسيين يسقطان على الأرض بضجة عظيمة ، وبوقع خطوات كثيرة ، وقفزت من السرير وصحت بخوف : من هناك ؟ كان بعض التلاميذ في المعهد الذي

نقيم فيه يقتربون مني ويقولون : إن بعض الرفاق جاؤوا لزيارتي . ثم أخبرني هؤلاء بانهم حينما فتحوا الباب لم يتوقعوا شيئاً ؛ ولهذا فوجئوا بالكرسي وهو يسقط .

٢٠ — وأنا مستغرقة في العمل وكتابة وظائفي في الغرفة حضرت / آ ج / لتغسل أرض الغرفة ؛ وقد أحدثت ضجة عالية خلال مشيها مما أصابني بذعر بالغ ، لم أكن أتوقع تلك البادرة فخامرني الشعور باني سأصاب بالدُّوار إذا ما استمرت في ذلك . وفي العادة يزعجني جداً أن أفاجأ بلمسة أو ضجة عنيفة غير منتظَرة .

٢١ — بينما أقرأ مع (ت) شعرت فجأة بوقع خطى فارتعشت وفوجئت . قالت لي ت : إنه / ك / الذي دخل إلى الغرفة المجاورة .

٢٢ — كنت امارس القراءة مع (أي) موقتا في قاعة الألعاب كي تتمكن من مراقبة الأطفال،وخلال ذلك كانت (م) لاتكف عن الجري في القاعة أو تتسلى بدحرجة الكرات محدثة ضجة شديدة . وفي هذا الجو كنت أجد صعوبة بالغة في استيعاب ماكانت تقرؤه / ل ي / ، وهكذا كنت مضطرة لبذل أقصى الجهد في التركيز حتى لايفوتني شيء ، ومع هذا فقد فاتني فهم كلمة هنا وأخرى هناك . وأنا أملي هذه السطور أدرك أنه يندر أن تجد بين الأسوياء من يصدق أن الأصم يعاني من الضجة خلال العمل مثل مايعانون ، ولكنْ تلك هي الحقيقة .

٢٣ — في العادة حينما أقرأ مع / ت / في الغرفة يكون / س / بجانبنا يضرب على الآلة الكاتبة ويحدث ضجة بكرسيه عندما ينهض .

وهذا ما يشعرني بوجوده في الغرفة . وذات يوم بينما أقرأ مع / ت / لم أشعر باية حركة وظننت أن / س / ليس هناك . وبعد الانتهاء من القراءة سألت / ت / : أين / س / ؟ أجابت ٠ لم يحضر هذا اليوم .

وهكذا كنت على صواب حينما حزرت أنه لم يحضر ، لأني لم أشعر باية ضجة .

٢٤ ــ ذات يوم شعرت بوقع خطى في غرفتي وأنا أدخل إليها . توقفت لأتاكد من ذلك ، فاقترب مني / ك / وقال : جئت أزورك .

٢٥ ــ كنت أضرب على آلتي الكاتبة حينما دخل / ك / إلى الغرفة . تعرفت عليه من خطاه ؛ وعلى الرغم من أنه لمس كتفي فقد تابعت عملي إذ كان عليّ أن أنهي السطر الذي بدأته .

٢٦ ــ لدى وجودي بالقرب من البيانو أحس جيداً بأصواته ، لابوضع يدي عليه فحسب وإنما إذا حركته عن موضعه .

وليس هذا بعجيب ، فالاهتزازات تسري في الجهاز كله ، وإذ تلامس الأرض تنتقل عبر الأرض الخشبية فاحس بهذه الأصوات بقدمي ، ولا سيما حينما يعزف العازف أنغاماً قوية . كنت ذات يوم عند صديقتي (ن) . جلستْ إلى البيانو وتمددتُ على الديوان القريب منه ورحت نائمة ، ولكن سرعان ما أيقظتني اهتزازات عنيفة ، فقد كانت / ن / تعزف لحناً ذا أصوات في غاية القوة . وهكذا بدا لي وأنا متمددة أن آلة موسيقية تشبه البيانو كانت بالقرب مني على الديوان .

٢٧ ــ توجهت ذات يوم إلى نادي العميان لحضور محاضرة

فيه . وبعد أن انتهى المحاضر عزفت الفرقة النحاسية النشيد الأممي . وصحيح أن صديقتي أنبأتني بالمعزوفة التي قدمتها الفرقة ، لكني شعرت بوضوح بالاهتزازات عبر الأرض الخشبية والمقعد ، حتى إني كنت قادرة على أن أوقّع بيدي الايقاع نفسه ، فاخذت بيد صديقتي ورحت أماشي الايقاع ، ثم أخبرتني باني لم أرتكب أي خطأ في ذلك .

٢٨ — لي صديق يعزف على / الكلارينيت / . وذات يوم بينما كان يرافق الأوركسترا كنت إلى جانبه . لست أذكر الآن اسم المعزوفة ، وإنما أذكر أن صديقي كان يمسك بيدي بينما أقوم بحركات على ايقاع اللحن . وحينما انتهى العزف سألت صديقي :

— ما رأيك هل كانت حركات يدي صحيحة ؟

— نعم . تمام الصحة .

٢٩ — حينما أمسكُ بيد أحدهم فانا أحس به إذا ضحك أو سعل . و / آ ي / يسعل كثيراً ، وهو حينما يقرأ لي أطلب منه أن يخفف من سعاله قائلة : إن سعالك رهيب وهو يثيرني فكأنني أنا التي أسعل .

٣٠ — بينما أتحادث مع (ك) بدا لي أنه يسعل فسألته عن ذلك فقال : نعم .

٣١ — كنت في نادي العميان بصحبة / ن / . وكانت الجريدة تتلى علينا و / ن / تترجم نصها . شعرت فجأة بأنها تضحك ، فسألتها : لماذا تضحكين ؟ فاجابت : لأن / آ / قد نهضت أربع مرات متتالية لتشرب .

٣٢ ـ بينما كنت أقرأ مع / ل ي / لم أعرف أن (ب) يتحدث اليها ، وهذا ما أدهشني حينما شعرت بأن (ل ي) تضحك ، فأنا مستغرقة في القراءة وهذا مايزعجني .

سألتها غاضبة : لماذا تضحكين ؟ فليس في الكتاب مايثير الضحك . أجابت : إن (ب) هو الذي أضحكني .

٣٣ ـ كنت أقرأ مع / ت / فدخل أحدهم إلى القاعة فأجفلت لدى شعوري بخطاه ، ثم أخبرتني (ت) بان أحد العمال جاء ليعاين جهاز التدفئة .

٣٤ ـ جاءت رفيقة لي تزورني مع صديق لها . وخلال ترجمتها لأحد الأسئلة شعرت بها تضحك وسألتها : لماذا تضحكين ؟ فشرحت لي رفيقتي سبب ذلك .

٣٥ ـ بينما الأطفال يلعبون في الباحة كنت في غرفتي ، فبعد عودتهم من النزهة دخلوا قاعة الألعاب وشعرت بوجودهم من وقع خطاهم وضجيج الكراسي والطابات . سألت / ن / : هل عاد الأطفال ؟ فقالت : نعم .

٣٦ ـ قضيت عدة أيام في كييف . ولدى عودتي إلى خاركوف وأنا مرهقة من السفر استلقيت فوراً بعد أن اغتسلت . استغرقت في النوم ولكني شعرت وأنا نائمة بالأطفال يلعبون في قاعة الألعاب . وحينما استيقظت كان الهدوء يسود القاعة فظننت أن الأطفال ربما ذهبوا لتناول العشاء . انتظرت ولكن ما من صوت يقطع هذا الهدوء . نهضت وقصدت الغرفة المجاورة لأرى ساعة الحائط كانت تشير

إلى الحادية عشرة والنصف مساء والأطفال قد أخلدوا إلى النوم ، ولهذا كان الصمت يسود .

٣٧ ــ بينما كنت في قاعة الألعاب راح / ف / و / آ / يلعبان شوطاً بالكرات الخشبية . كنت أجلس على طاولة صغيرة و / ل ي / تكتب . ولم أكن قريبة من الأطفال ، ومع ذلك أحسست بحركة الطابات المتبادلة . سألت / ل ي / لأتأكد : إنها أصوات الطابات أليس كذلك ؟ أجابت : نعم .

٣٨ ــ ذات يوم كانت / ف آ / تضرب على الآلة الكاتبة ، وأنا على طاولة أخرى ويدي تلامس يدها . ولكني شعرت بأنها تضرب على الآلة فقلت لها :

ــ إنك تضربين ببطء .

اقتربت مني وقالت :

ــ كيف عرفت ذلك ؟

ــ شعرت بك تضربين على الآلة عبر اهتزاز الأرض .

ــ صحيح ، فأنا لا أضرب سريعاً .

٣٩ ــ بينما أقرأ مع / ت / في الغرفة الثالثة شعرت باهتزاز شديد في الأرض الخشبية . كان الاهتزاز مفاجئاً جداً فأجفلت . قالت لي / ت / :

ــ لقد وصلت (أ آ) مع البواب .

ــ أين هما ؟

ـ لاأدري ماذا يفعلان في الغرفة الأولى .

واستأنفنا القراءة فاذا شيء ما يسقط على الأرض فأجفلت ثانية .

قالت لي / ت / :

ـ سقط صندوق على الأرض .

وحينما رأيت / أ آ / سألتها :

ـ ماذا كنت تفعلين في الغرفة الاولى ؟

ـ كنا نرتب المؤن

ـ كنتم تحدثون مزيداً من الضجة . وعلى الرغم من بعد المسافة كنت أرتجف في كل مرة .

٤٠ ـ كنت بحاجة إلى / ل ي / ، وقبل أن أناديها قصدت المطعم لأشرب . وبينما كنت أشرب تعرفت من خطاها أنها آتية إلي . ناديتها فاقتربت مني .

٤١ ـ بينما أقرأ في غرفتي ذهب الأطفال في نزهة ، وشعرت باهتزاز خطاهم وهم قادمون من المطبخ . ارتعشت مرات عديدة ، لكن (ل ي) طمأنتني قائلة : إنها (ماري) أولا وتلك (بربارة) ثانياً .

٤٢ ـ لدى تناولي الشاي شعرت باهتزاز عنيف لم أستطع تحديد مصادره بدقة ؛ ولكني أدركت أن الضجة قريبة مني فناديت / آ ي / وسألتها :

ـ من يصدر هذه الضجة ؟

ـ متى صدرت ؟

ـ الآن تاوي .

ـ في الطابق الأسفل . . . في غرفة التدفئة

ـ أحس أنها هنا في المطعم .

٤٣ ـ بينما أنا أجلس على الديوان في المطعم شعرت بقدوم ماري من المغسلة ، وكانت الطاولة معدة للفطور فاحتلت ماري مكانها . شعرت بها تدفع الكرسي فاتخذت مكاني بدوري على الطاولة .

٤٤ ـ وأنا أدخل إلى الغرفة شعرت بأن أحدهم يدفع كرسياً فتوقفت . اقتربت مني / ل ي / فسألتها : من الذي دفع الكرسي ؟ أجابت : إنه (ف م) .

٤٥ ـ سافر (ك) في مهمة طويلة ، وذات يوم بينما أعمل في المطعم شعرت بوقع خطى (ك) فتوقفت فوراً عن العمل ، وأحسست بانه ذهب إلى قاعة الألعاب أولا ثم توجه إلي بعدئذ ، فالتفت نحوه مبتسمة وأنا واثقة أنه هو قطعاً .

٤٦ ـ سمعت صجة ما حينما كنت أقرأ مع / آ ي / في غرفتي فسألت :

ـ أين يحدث هذا الضرب ؟

أصغت / آ ي / بانتباه وقالت :

ـ يبدو أن ذلك من الطابق العلوي .

ـ ومن الذي يفعل ذلك هاهنا ؟

ـ ليس عندنا ولكن في المدرسة .

ـ مستحيل ، فالمدرسة في الطابق الثاني والضرب يصدر عن الطابق الأول . ويبدو لي أن الأطفال هم الذين يتبادلون الضرب في قاعة الألعاب .

ـ أظن أنك مخطئة .

ـ اصغي جيداً . ألا تسمعين ؟

أصغت آي ثم قالت :

ـ نعم إنهم الأطفال .

٤٧ ـ كنت خلال العطلة الصيفية مع صديقتي (ب) في أوديسة وراحت (ب) لتجاب بطاقات السفر فقد آن أوان العودة ، وهكذا تركتني وحيدة . كان باب غرفتنا لاينغلق تماماً ونوافذ الممشى مفتوحة فكان تيار هوائي يفتح الباب باستمرار ، وأردت تغيير ملابسي فقررت أن أضع الديوان خلف الباب . وحينما رحت أرتدي ثوبي شعرت بالديوان يتحرك فصرخت بقوة :

ـ انتظروا !

وبعد أن ارتديت ثوبي اقتربت من الباب وإذا أستاذ المعهد الذي نقيم فيه يقول لي وهو يكتب على راحة يدي :

ـ ها أنذا . إني أبحث عن صديقتك .

ـ لم ترجع بعد من المحطة ، وقد رجوتك أن تنتظر لأني كنت أبدل ملابسي .

٤٨ ـ كنت أتعشى ، وشعرت بوقع خطى (ل ي) و (م) تمران بجانبي فقلت :

– أهلا بكما .

اقتربت / ل ي / مني قائلة :

– من نحن ؟

– أنت و (م) .

٤٩ – كنت على المنضدة أقص بعض الورق .شعرت بوقع خطى عرفت منها / ك / فمددت له يدي فاقترب مني وراح يحدثني .

٥٠ – غالباً ما أتناول الماء (على الريق) . وذات يوم رحت إلى المطعم واقتربت من الطاولة حيث قارورة الماء . تناولت القارورة لأصب منها فنجاناً ، فشعرت حينذاك من حركة الكراسي بأن الأطفال يجلسون على الطاولات لتناول الشاي . أرجعت القارورة إلى مكانها دون أن أملأ فنجاني فاقتربت / آ ي / وطلبت مني أن أذهب لتناول الشاي .

٥١ – شعرت هذا اليوم بتوعك فلزمت الفراش واستغرقت في النوم نهاراً . وفجأة استيقظت بفعل هزات خفيفة على السرير . وبعد أن صحوت تماماً عرفت أن الخادمة التي تغسل أرض الغرفة هي التي هزت السرير مرات عديدة .

٥٢ – أصابتني وعكة ذات يوم فرحت لأنام قبل أن ينتهي الأطفال من اللعب ، ولكن لم أستطع أن أغفو إذ كان الأطفال يحدثون الضجيج وهم يدحرجون الطابات خلال لعبهم . وهكذا لم أستغرق في النوم إلا بعد أن انتهى الأطفال من اللعب .

٥٣ ـ كانت / آ ف / مناوبة هذا اليوم ، فكان عليها أن تمكث طوال الليل . وفي المساء حينما كانت تشرف على نوم الأطفال قالت لي :

ـ لابد لي من المرور على البيت بسرعة لأشرف على نوم طفلتي ، ولكن مفتاح الباب الرئيسي ليس معي ، ولا أدري كيف سأدخل إذا ماخرجت ، ثم فكرتْ قليلا وأردفت قائلة .

ـ لو سمحت . هل لك أن تمكثي قرب النافذة في قاعة الألعاب ؟ وسأخرج منها ثم تغلقينها أنت وتنتظرين عودتي ، وعندما أرجع سأضرب ثلاث ضربات على زجاج النافذة .

وهكذا نفذنا ما اتفقنا عليه فأحكمت اغلاق النافذة بعد رحيل / آ ف / ورحت انتظر.وبعد بضع دقائق شعرت بضربات ثلاث على النافذة التي أضع يدي عليها . فتحتها قليلا لتنفذ منها يدي وسألت :

ـ ها أنت ذي ؟

أجابتني بأصابعها :

ـ نعم . أنا .

٥٤ ـ قصدت منزل / أ آ / ، وحينما كنت أقرع الباب اشتبهت بأن أحدهم يقترب منه فقد اهتز قليلا فقلت :

ـ ها انذا .

فتحت / أ آ / الباب وقالت .

ـ ما الذي أدراك بأنني سألت حتى تجيبي ؟

– لابد أنك أمسكت بقبضة الباب فاهتز قليلا فأدركت أن أحداً اقترب منه ، ولذلك قلت : ها انذا .

٥٥ – حينما كانت صديقتي (ن) تقوم بدراستها في مدرسة العميان كنت أتنزه معها أحياناً في حديقة المدرسة حتى الحادية عشرة مساء . وكانت بعض المربيات المناوبات يخشين من فتح الباب في وقت متأخر ، إذ كان المشى مظلماً جداً وأنا لاأستطيع سماعهن حينما يسألن : من الطارق ؟ ولهذا اقترحت عليهن أن يقتربن من الباب عندما يسمعن قرعي ، ويهززنه بخفة . . فأعلمهن بوجودي . وهذا مارحنا نفعله منذ ئذ .

٥٦ – ذات يوم سألتني / آ ي / أن نخرج معاً إلى الحديقة . كنت مرتدية ثيابي ، أما (م) فلم تكن جاهزة . قالت / آ ي / :

– تستطيعين الذهاب وسألحق بك مع (م) .

وتوجهت إلى الحديقة وانتظرت نحو عشر دقائق فرحت عدة مرات إلى الباب لأتفقد (م) ولكنها لم تحضر . وحينما اقتربت من الباب للمرة الأخيرة وأمسكت بقبضته شعرت بخطى وراءه ففتحته فاذا هي (م) .

٥٧ – كانت (ن) عندي ثم خرجت لحظة . وبينما أنا على الديوان شعرت بأن أحداً قد أتى ، فدهشت لأن هذه الخطى تختلف عن وقع خطى (ن) . وكانت (آ) تبحث عني .

٥٨ – بينما كنت في غرفتي أعمل مع / أ آ / راح الأطفال يحدثون الضجيج بالكرات في قاعة الألعاب ، فلم أعد أفهم ما تقرؤه لي / أ آ / . (نرفزت) ورحت أجفل من كل ضجة جديدة .

قالت لي صديقتي :

– لاتهتمي بذلك .

– أحاول ذلك ولكني أحس بكل ضربة ، وهذا مايثير أعصابي .

٥٩ – مرت سيارة في الشارع وأنا عند الحلاق فأجفلت . سألتني (م ى) :

– ما الذي أخافك ؟

– شعرت بعبور سيارة مفاجيء ولهذا أجفلت .

– كيف عرفت أنها سيارة ؟

– أدركت ذلك من اهتزاز الأرض ومن رائحة البنزين .

– حقاً . . لقد عبرت سيارة .

٦٠ – خلال فترة ما قمت بترجمة بعض الكتب المطبوعة بأحرف نافرة مع / آ ي / وكان ذلك في اطار المباريات الاشتراكية .

بدأنا العمل في السابعة صباحاً فكان علي أن أنهض مبكرة جداً ، وكان النعاس أحياناً ينتابنا فنتبادل اللوم والتأنيب ، فتتهمني / آ ي / بضعف الاستيعاب واتهمها بسوء الاملاء . وكان ذلك مدعاة لمنازعات طريفة . وذات يوم كان إملاء / آ ي / مفرطاً في السوء مما جعل استيعابي سيئاً وكذلك ضربي على الآلة . قالت لي :

– ما أسوأ استيعابك هذا اليوم !

– لا . . لست أنا . . بل أنت التي لاتكاد أصابعك تتحرك .

عند ذاك غضبت / آ ي/ وكذلك أنا . وفي العادة أضرب على الآلة الكاتبة أسرع من المعتاد ولكن نظراً لاثارتي فقد زدت من

سرعتي في الضرب . وفجأة سمعت (آ ي) كما أحسست أنا بانفجار ما أو بما يشبه صوت بندقية تنطلق . أجفلنا كلانا وشدت كل منا على يد الأخرى ، وبقينا جامدتين خلال دقائق . كانت يدي على الطاولة وشعرت بضجة ما وعاد إلي هدوئي قبل صديقتي وفهمت ما الذي حدث فقلت :

– إنه نابض الآلة الكاتبة الذي طار . انظري فالبكرة الصغيرة تدور بسرعة قصوى .

أجابت / آ ي / :

– لم أدرك ذلك بادىء الأمر وانما خيل إلي أن انفجاراً قد وقع في غرفة أنطوان

وهكذا استغرقنا في ضحك عميق .

٦١ – بينما أقرأ مع / ت / شعرت بوقع خطى وبهبة ريح . قالت / ت / : إنه (ك) قادم إلينا . وهكذا استشرت وقع خطى / ك / قبل دخوله إلى القاعة .

٦٢ – ذات يوم كنت أقرأ في المكتبة فشعرت باهتزاز عنيف ، ولم أدرك في بادىء الأمر سر هذا الاهتزاز ، ولكن حزرت بعد قليل أن (ك) يعاين أحد الأجهزة . وكان الجهاز الذي يعمل بالكهرباء يحدث ضجة ، وكنت بعيدة منه في الطرف الآخر من الغرفة ، الكن ذلك لم يحُل دون سماعي الضجة . وقد استمر / ك / في العمل عدة ساعات ، وخرجت من المكتبة خلال ذلك مرات عديدة ، وفي كل مرة كنت أشعر بضجيج الجهاز مكثت في المكتبة حتى

الحادية عشرة مساء ثم توجهت لأنام دون أن أنتظر توقف الجهاز عن العمل .

٦٣ ـــ ذات مساء خرجت إلى الحديقة . كانت الساعة تجاوزت العاشرة بقليل . جلست على مقعد قرب السياج متكئة بظهري عليه ، وبعد دقائق أحسست بالسياج يهتز وكأن أحداً يريد عبوره . ونظراً لأني كنت وحدي في الحديقة فقد اعتراني الخوف فجريت راكضة ؛ وخلال لحظات كنت في غرفتي . أغلقت الباب بالمفتاح فشعرت بالطمأنينة . ومما لاشك فيه أن أحدهم كان في الباحة المجاورة وأراد أن يطلع على الحديقة فاضطر لصعود السياج لأنه كان عالياً .

٦٤ ـــ ذات يوم خلال العطلة في إحدى مراكز الاستحمام قررت البقاء في البيت لأني كنت متوعكة قليلا ذهبت / ب / وحدها إلى الشاطىء ، أما أنا فرحت أكتب . لم أغلق الباب بالمفتاح ولم أضع الكرسي وراءه فما كنت أتوقع حضور أحد . بعد ذهاب / ب / أحسست بخطى غريبة في الغرفة فسألت :

ـــ من هناك ؟

اقترب مني الأستاذ / ت / وقال :

ـــ ها أنذا ، وقد حضرت مع بعض الرفاق لزيارة المعهد وها نحن نمر بغرفتك . وكيف عرفتِ بوجودنا ؟

ـــ شعرت بأن أحداً يمشي .

٦٥ ـــ كنت مريضة فلزمت فراشي ، وبينما كنت أحاول النوم شعرت فجأة بهزة خفيفة فسألت :

– من هناك ؟

وإذ (ن) يمسك بيدي .

٦٦ – بينما أقرأ مع (ت) في القاعة أحسست بأن شيئاً ما سقط على الأرض فأجفلت . قالت لي / ت / : إن الكتاب قد سقط من يد (س) .

٦٧ – كنت أصغي إلى حفلة موسيقية من أحد الأجهزة في المخبر وتعرفت على صوت البيانو خلال لمسي لمكبر الصوت ، فوضعت يدي على جهاز آخر ورحت أصغي دون مكبر للصوت ، فأدركت بطريق الاهتزاز أن الجهازين ينقلان المعزوفة الموسيقية نفسها .

٦٨ – بينما أقرأ مع (ت) شعرت بخطى تقترب من الغرفة . وحيما أحسست بحركة الهواء قالت لي ت : إنها / آ ج / ، وكيف شعرت بوجودها ؟ أما أنا فلم أشعر بها لأنها دخلت علينا بهدوء مطلق .

٦٩ – ذات صباح كنت في غرفتي وشعرت بالأطفال يلعبون في قاعة الألعاب ، ثم خيم الهدوء فظننت أن الأطفال ذهبوا لتناول الشاي فتوجهت إلى المطعم . كان الأطفال جميعاً على الموائد قالت لي (آي) : كنت مشغولة بمراقبة (ب) ولهذا لم أتمكن من دعوتك .

٧٠ – كنت في المطعم مع (ت) وفجأة شعرت بخطى (ل ي) فدهشت لذلك لأنها كانت في إجازة ولم أتوقع حضورها في ذلك الوقت . التفتُّ صوب وقع الخطى فاقتربت مني (ل ي) فسألتها :

– لماذا أنت هنا ؟
– حضرت لأتفقد الأطفال .

٧١ – ذات يوم وأنا جالسة على الديوان في المطعم تعرفت على (ر ل) من وقع خطاها . وكنت ظن أني مخطئة لأن (آ ف) هي المناوبة هذا الصباح ، ولكني كنت مصيبة فقد حلت (رل) محل (آ ف) .

٧٢ – دخلت إلى قاعة الألعاب وكان (م) و (ب) يدحرجان الكرات . جلست إلى الطاولة وشعرت بدحرجة الكرات ولكن ساد الهدوء فجأة . نهضت لأعرف لماذا كف الأطفال عن اللعب ، وحينما اقتربت من (م) و (ب) وجدتهما ساكنين .

٧٣ – ذهبت يوماً ما لأنام مبكرة إذ كنت أشكو من الصداع ، ولكني كنت محتاجة لمقابلة / ك / فطلبتُ إلى المناوبة أن تستدعيه . وكدت أغفو حينما شعرت فجأة بخطى (ك) ففتحت عيني ومددت يدي له فاقترب مني .

٧٤ – حينما يظن بعض أصحاب السمع السليم أن الأصم الأعمى لايستجيب لوقع خطوات الآخرين فهم مخطئون في ظنهم ، وكم تثيرني خطوات بعض الناس . وعلى سبيل المثال فان مشية (آ ن) تثيرني خلال القراءة وذلك حين عبورها المتكرر للمطعم ، ولست أدري أي صوت تحدثه خلال مشيها ، ولكن بما أنني أدرك الأصوات بشكل متميز عن الآخرين فانه يبدو لي أن (آن) لاتمشي على رجلين بل على أربع إذ يحدث كل زوجٍ صوتاً يختلف عن

صوت الزوج الآخر . وهكذا تثيرني مشية / آ ن / ولا سيما حين أكون مهتاجة ، وحينذاك أجدني مدفوعة إلى أن أطلب منها الخروج . إن (آ ن) تمشي بهذه الطريقة لأنها لاتربط حذاءها فتروح تصفق بكعبيها .

٧٥ — جاءت (ر ج) ذات يوم تزورني في غرفتي ، ولاحظت أن طريقة مشيها قد تغيرت قليلا . سألتها :

— هل تلبسين حذاء جديداً ؟

— نعم . هو ذاك .

— لاشك في أن حذاءك له كعب عال ، ولهذا يصدر مثل هذا الصوت .

وعاينت حذاء (ر ج) ، فاذا هو عالي الكعب حقاً . ومنذ ذلك اليوم لم تنقطع مشيتها عن إثارتي . وحينما لبست (ل ي) حذاء جديداً بكعب مرتفع راحت مشيتها تثير أعصابي كماتثيرها مشية (ر ج) .

٧٦ — ذات يوم بينما كنت مع المناوبة أمام الهاتف شعرت بمرور (آ ن) في المكتبة من وقع خطاها ؛ وعلى الرغم من هدوئي فقد أجفلت من مشيتها .

٧٧ — كنت في القاعة التي يعمل فيها طلاب الحلقة الثالثة حينما شعرت باهتزاز عنيف في الأرض الخشبية . سألتني (ت) :

— مابك ؟

– شعرت بهزة عنيفة في الأرض .

– لم يدخل أحد إلى هنا ، وإنما انصفق الباب في الطابق السفلي .

٧٨ – كنت أعمل مع (أ . آ) فأضرب على الآلة الكاتبة ماتمليه عليّ . كانت الورقة ضيقة جداً بالقياس إلى الآلة ، وبسبب شرود بسيط نسيت إيقاف الآلة في نهاية السطر ، ولكني خلال ضربي على الآلة شعرت بأني قد ضربت في الفراغ عدة ضربات .

٧٩ – قصدت إلى المخبر يوماً ما حيث تعودت أن أقرأ مع طلاب الحلقة الثالثة فشعرت في العتبة بأن أحداً يدفع كرسياً قرب الطاولة فقلت في نفسي : لعله (س) الذي يقترح علي أنأجلس. اقتربت من الطاولة فمد لي (س) يده وقال . إنه هيّأ لي الكرسي للجلوس .

٨٠ – في الواحد والعشرين من كانون الثاني حضرت في المعهد الطبي التجريبي الاحتفال بذكرى وفاة لينين . كنت أجلس في الصف الثاني ، وحينما افتتح العريف الاحتفال راح أحد الموسيقيين يعزف المارش الجنائزي لشوبان على البيانو . نهضنا جميعاً ، وكنت أحمل بيدي قبعتي اللبادية . ومنذ بداية اللحن شعرت بالأصوات تصل إلي عبر القبعة ، وكانت على درجة من الوضوح بحيث شعرت (ل ي) و (ن) بها حينما اسندت يديهما على القبعة . وطوال السهرة كنت أمسك بالقبعة وأشعر ببداية العزف في كل مقطوعة جديدة . ولكن عندما أترك القبعة على ركبتي دون أن ألمسها فان احساسي بالأصوات كان يتضاءل ، فالأصوات الحادة واللطيفة ماكنت

استشعرها وإنما أحس بالأصوات الضخمة فحسب . ومن جهة أخرى لم تكن الأصوات لتتآلف باهتزاز موحد وإنما كانت تنسجم مع المقطوعة المعزوفة ، وهكذا حينما يعزف البيانو لحناً أضعف أو أقوى ، أو يؤدي نغماً أسرع أو أبطأ فانني أحس بذلك عبر القبعة .

٨١ – كنت أقرأ مع (ر ج) في قاعة الألعاب ، وكانت (م) تصدر ضجيجاً بألعابها بحيث لم أكن أستوعب ماتقرؤه علي (ر ج) ، أضف إلى ذلك أن قراءتها سيئة ، فاضطررت لمغادرة القاعة والتوجه إلى المطعم لأتخلص من إزعاج (م) .

٨٢ – بينما كنت في المطعم جالسة على الديوان وأنا أقرأ ، تعرفت على (رل) من مشيتها . وكانت قد جاءت لتتسلم دورها في المناوبة . وحينما أردت التأكد من أني لست مخطئة ناديتها عندما مرت بجانبي .

٨٣ – كان ذلك في الشتاء ، وكنت أجلس أمام باب الشرفة ، وكان يحيط بي عدد كبير من الأطفال ذوي السمع السليم . وبدا لي أنهم ينتظرون شيئاً ما ولهذا بقيت متحفزة ؛ وفجأة شعرت باهتزاز باب الشرفة وأقبل الأطفال راكضين إلى باب الشرفة . وفيما بعد علمت أن الأرض الخشبية اهتزت بفعل طلقات مدفعية خلال جنازة لينين . ولم يلاحظ الأطفال ذلك إلا عندما أطلقت صرختي ، فقد كنت أول من شعر باهتزاز أصوات الطلقات ، ولكن لأطفال ظنوا أني صماء . وبعد ذلك راحوا يجرون خلفي ويصرخون باستمرار ليعرفوا هل كنت أسمع أم لا . وطبيعي أني ماكنت أسمع شيئاً فاحتفظت بهدوئي ، وهذا ماجعل الأطفال يتحققون من أني لاأسمعهم .

٨٤ ـ خرجتْ (آ ف) لتصحب الأطفال إلى النزهة وطلبت مني أن أفتح لها الباب في الساعة السابعة ، فقلت لها :

ـ لكني سأكون حينذاك في غرفتي ولن أسمع قرعك على الباب .

ـ ماعليك إلا أن تذهبي إلى المكتب في الساعة السابعة وتشعلي النور ثم تتوجهين إلى البهو عند باب المدخل .

وفي تمام الساعة السابعة توجهت الى المكتب وأشعلت النور وقصدت إلى البهو . وضعت يدي على مقبض الباب منتظرة أن يقرع ، وبعد دقيقتين تقريباً شعرت بأن أحداً يقرع علي الباب بلطف. فتحت الباب قليلا وأمسكت بيد (آ ف) ، وبعد أن تعرفت عليها أكملت فتح الباب .

٨٥ ـ ذات ليلة أيقظتني ضجة ما فخيل إلي أنه طلع النهار وأن الخادمة ترتب الغرفة ، ولكن حينما نهضت ورأيت إلى ساعة الحائط كانت تشير إلى الرابعة صباحاً فقط . ولا شك في أن وقاد المرجل كان يمارس عمله ويحدث هذه الضجة التي تناهت إلى غرفتي . طار النوم من جفوني ، وفي الصباح سألت المناوبة عما إذا كانت سمعت ضجة ما ؛ فأجابت بالنفي وهي ترى أن الضجة لايمكن أن تكون إلا من المرجل الذي تقع غرفتي فوقه .

٨٦ ـ توجهت ذات مساء إلى مكتبتنا لآخذ كتاباً . اغلقت ب ورثباالي بالمفتاح ورحت أبحث عن الكتاب ، ثم شعرت فجأة بقرع على الباب فلم أعر لذلك انتباهاً ، فظننت أن أحد الذين يعملون على أحد الأجهزة يصدر تلك الضجة . ولدى خروجي من المكتبة

لامست يد باردة يدي فأجفلت من المفاجأة وكاد الكتاب يسقط من يدي ، وسرعان ماعدت إلى صوابي ، فقد كانت (ن آ) هي التي حضرت لتعمل على الجهاز . قالت لي :

– إفتحي الباب .

وحينما نزلتُ اقتربتْ (آ ن) مني وقالت :

– ضربت على الباب طويلا حتى آلمتني يدي .

– آ . . . إذن أنت التي كنت تقرعين على الباب ، لقد شعرت بالصوت ولكن ظننت أنه من الجهاز .

٨٧ – ذات مساء كنت أجلس على الديوان في المطعم ، وشعرت بوقع خطى تشبه خطى (ر ج) . وكنت أعلم أنها ليست هنا في هذه الساعة ، وقد عبّر وجهي عن دهشتي لأن (رج) اقتربت مني وسألتني :

– لعل قدومي فاجأك . كنت أريد أن أتحدث هذه الليلة مع المربية المناوبة عن رأيها في نوم الأطفال .

٨٨ – كانت (آ ف) تقرأ لي في غرفة الأطفال وهم في قيلولتهم . شعرت فجأة بأن أحداً يقرع الباب فسألت :

– من الطارق ؟

أجابت آ ن .

– إنها (م) التي تضرب السرير برجليها .

ولم تكن ضربات (م) قوية ، ولكن الصوت تناهى إلي واضحاً عبر الأرض الخشبية .

٨٩ — ذات يومٍ شتائيّ ذهبت مع صديقتي إلى معهد الموسيقى ، وجلسنا على الديوان في الممشى ؛ وكان كثير من الطلاب يمرون وكنت أشعر طول الوقت بوقع خطاهم . فجأة شعرت بأن أحدهم يمشي وكأنه ينتعل حذاء ضخماً من الكاوتشوك . قلت لـ (ن) :

— أتسمعين ؟ لعل أحدهم يجر حذاءه الضخم برجليه على الأرض . أجابت (ن) مندهشة :

— نعم . أنا أسمع ، ولكن ما أعرب أن تشعري أنت بذلك الصوت الذي يمكن أن يُسمع بالاذن ولا يمكن ان يُشعر به .

— كلا . . . إنه صوت يمكن سماعه والاحساس به ، ولقد شعرت به حالا .

أولدى عودتي إلى منزل (ن) نزعت معطفي وحللت رباط حذائي دون أن أخلعه ورحت أمشي على أرض الغرفة كما مشى ذلك الشخص .

قالت لي (ن) ضاحكة :

— لقد نجحت أيما نجاح في تقليد تلك المشية ، وأنت تحدثين الصوتَ نفسه مع ضجة أقل .

٩٠ — كنا نمشي أنا و (ن) في ممشى مدرسة العميان ، وفجأة هزت صدمة قوية الأرض الخشبية بعنف فقلت لرفيقتي :

ـ لعل شيئاً ما قد سقط .

ـ إنهما (ر) و (ت) يتلاكمان وقد وقعا على الأرض .

٩١ ـ رحت في نزهة بالسيارة مع أطفال المشفى بصحبة / آ ي / ، وكنت أشعر جيداً بالسيارة حينما تسير هادئة أو حينما تضطرب . وخلال عبورنا شارع (ليبنخت) حيث الطريق معبدة كان سير السيارة هيناً ، وفي بعض المواضع كنت أحس ببلاط الشارع وهو ينزل أو يصعد . ومن الصعب ادراك اللحظة التي تنعطف فيها السيارة إلى طريق آخر ، ولهذا لابد من ملاحظة الاحساسات الخاصة حينما تود السيارة أن تنعطف . وهكذا كنت أتابع بانتباه شديد كل هزة للسيارة وأدقق في كل تفصيلات حركتها . ولقد اكتشفت ان ضجيج المحرك يشتد والاهتزاز يزداد ، أضف إلى ذلك أن السيارة حين تنعطف تدور بمزيد من البطء وتنحني قليلا . ومن سوء الحظ أنه لايمكنني التأكد من تلك الاحساسات فكنت أخطىء احياناً لأن (آ ي) مشغولة بالأطفال ، ومع ذلك حينما كنت احس بتلك الحركات الخاصة التي اشرت إليها اتوجه إلى (آ ي) بالسؤال قائلة :

ـ هل انعطفنا ؟ وهي تجيب :

ـ نعم انعطفنا .

ولكن (آ ي) لم تكن تفهم سؤالي بدقة فتخطىء في الجواب .

وصلنا إلى الريف وراحت السيارة تهتز لأن الطريق لم يكن

مستوياً ؛ وأنا لاأحب ذلك فالهزات العنيفة تتعبني . وحينما شعرت بالسيارة تجري برفق سألت (آ ي) .

– هل عدنا إلى المدينة ؟

– نعم ، عدنا .

ثم شعرت بالسيارة تتباطأ وتقف ، فأدركت أننا وصلنا إلى البيت فنهضت ونزلت أول مَنْ نزل .

٩٢ – بينما انا في غرفتي حررت من قفزات (م) الطفلية أنها دخلت الغرفة . خطوت إلى الأمام فاصطدمت بي .

٩٣ – كنت أجلس في الغرفة قرب السرير على كرسي صغير وليس قرب الطاولة . كنت أنتظر (ل ي) أن تحضر لنعمل معاً . ولكنها لم تحضر . وأخيراً شعرت من وقع خطاها ومن صوت الكرسي أنها بجانب الطاولة . نهضت واقتربت منها لقد كانت / ل ى / هناك .

٩٤ – كنت أنقل رزمة من الكتب العادية من الطاولة إلى الديوان وعلى الرف العلوي صندوق فيه أحد الأجهزة. وضعت الكتب على الديوان فتبعثرتْ . . وفي الوقت نفسه شعرت بصدمة على الأرض ، فخيل إلي أن الصندوق هو الذي سقط . أزحت الديوان وتلمست الأرض بيدي فوجدت الصندوق عليها .

٩٥ – كنت أتحدث مع (ك) وأنا جالسة على الديوان في غرفتي . شعرت بوقع خطى فأمسكت عن الكلام . قال لي (ك) : إنها (ر آ) قد عبرت .

٩٦ ــ كنت أزور (آ ي) . نزعت معطفي وجلست على الديوان وسألتها :

ــ أين هي أمك ؟

ــ إنها في سريرها ، وأظنها نائمة .

بعد دقائق شعرت بخطى قادمة من صوب السرير فسأ ت :

ــ من يمشي ؟

ــ إنها أمي . لقد نهضت وهي قادمة لترّاك .

٩٧ ــ ذات مساء كنت أوشك أن أنام حينما شعرت بهزة عنيفة في الأرض الخشبية وكأن البيت يريد أن يقفز ويجري . ودام الاهتزاز بضع ثوان ، فجريت إلى المكتب وناديت (آ ف) وقلت :

ــ ألم تسمعي أو تشعري بأي شيء منذ حين ؟

ــ لقد سمعت . إنها شاحنة عبرت الشارع فأحدثت ضجة هزت أرجاء البيت .

ــ شعرت بذلك الاهتزاز عَبْر أرض الغرفة .

٩٨ ــ في العادة حينما أستقل الترّام أو القطار أو السيارة أشعر بحركاتها من اهتزازاتها القوية . وكان علي أن أذهب إلى المدينة ذات يوم بصحبة (آ ف) . صعدنا إلى الترّام ومرّت دقائق وهو واقف فدهشت وسألت (آ ف) :

ــ لماذا لايجري الترّام ؟

— هناك انقطاع في التيار .

٩٩ — ذات يوم سمحوا لي بأن أحمل بين ذراعي طفلا صغيراً . وبقي الطفل في أول الأمر هادئاً صامتاً ، ولكن بعد لحظات راح يتململ وشعرت بصرخة تهز جسده الصغير . قلقت عليه وسلمته لأمه قائلة : انظري فلعل طفلك قد بلل نفسه !

* * *

الاحساسات العامة

١ ــ لاأستطيع أن أعزو إلى حاسة اللمس أوحاسةالشم وحدهما قدرتي على تعرّفِ الأشخاصِ الذين أراهم دائماً أو الذين أقابلهم نادراً ؛ فهناك بلا شك أحاسيس أخرى تلعب هنا دوراً هاماً . منها على سبيل المثال ردود الفعل العضلية واستجابات بعض الأعضاء المستقبلة . وفي الحق أنه بفضل اللمس وحده أشعر بقوة أو بلطف اليد التي تصافح يدي . ومن جهة أخرى فاللمس يساعدني في التعرف على الناس ، فمنهم من تكون يده دافئة ناعمة ، ومنهم من تكون يده أقل دفئاً ونعومة .

٢ ــ إذا اقترب مني أحد المربين وكانت يداه مشغولتين فهو يلمس عادة كتفي ، وبهذه اللمسة على الكتف وحدها أتعرف على من يقترب مني . وبعضهم ذوو لمسات خفيفة مع أنها مفاجئة ، بينما لمسات الآخرين بطيئة ولكنها قوية ومرعجة . ومنذ أن بدأت أميز حركات المربين أصبحت أتعرف بثقة أكيدة على / ك / أو / آ ي / أو / ل ي / حالما يلامسني أحدهم .

٣ ـ وأنا أشعر بالارتياح حينما لايرافقني أحد خلال عملي أو نزهتي ، وهكذا أستطيع القيام بأي عمل أو بالتنزه في الحديقة أو البقاء في غرفتي دون أن أصطدم بشيء . ولكن سرعان ما أفقد

هدوئي إذا ماراح أحدهم يراقبني أو يربكني بوجوده ، فاذا ماكنت أقرأ فلا أستطيع التعرف على الكلمات ، وإذا كنت أضرب على الآلة الكاتبة رحت أخطىء ، وإذا كنت في نزهة مشيت بثقة أضعف وتعرضت للاصطدام بأية عقبة . وحينما يعمل الأصم الأعمى أو يتنزه أو يلعب أو يأكل . . . يشعر شعور الشخص السوي فترعجه كل انواع الصجيج والصراح . والاختلاف الوحيد أنمن يسمعون يدركون ذلك بأنفسهم ، بينما يحس الأصم الأعمى بكل كيانه ، بالمزعجات والمنغصات .

٤ ــ ذات يوم كنت عائدة إلى خاركوف بعد انتهاء العطلة، ركبت القطار مع عمتي التي كانت تقصد موسكو . وكان لابد أن يأتي من يستقبلني في محطة خاركوف ، ولكن لم يأت أحد ، والقطار الذاهب إلى موسكو لايتوقف في المحطة إلا أربعين دقيقة . وانقضى الوقت المحدد وكان لابد لعمتي أن تستقل القطار فقرروا حينئذ أن أبقى في مستوصف المحطة حيث أتلفن للمعهد . وهكذا رافقتني العمة إلى المستوصف وتركتني في البهو . وطبيعي أني عاجزة عن الاتصال بالهاتف وحدي فلابد من الاستعانة بأحد الناس لينوب عني ، وطالما أني لا أعرف أحداً في المستوصف مكثت في البهو وأنا أحس بالناس يمرون بجانبي . ولكن كيف السبيل إلى اعتراض الناس وأنا لاأراهم ؟ وعلى كل حال لايمكنني أن أبقى جامدة فلابد من أن أفعل شيئاً . نهضت وخطوت خطوات مهتدية برائحة قاعة أخرى ، وتوقفت لأتحقق من وجود باب يؤدي إليها . اقتربت بخطى واثقة من الباب المفتوح ودخلت منه ، وبدا لي في هذه اللحظة أن أحداً مر بالقرب مني فلممت أطراف شجاعتي وسألت ذاك الذي مر بي :

– من فضلك . هل من هاتف هنا ؟

اقترب مني رجل وأمسك بيدي ، ولا شك أنه تحدث إلي ولكن لم أسمعه ، فشرحت له أني لاأسمع ولا أرى فبامكانه أن يخط على يدي مايريد قوله ، فكتب لي أن هناك هاتفاً وسيعمل على تأمين المخابرة . وهكذا ساعدتني حاسة اللمس والشم وسائر الحواس على الخروج من هذا المأزق وأنا في مكان لاعهد لي به وبين أناس يرونني للمرة الأو . ولو لم استخدم إحساساتي ومكثت جالسة لكنت مضطرة إلى الانتظار طوال النهار .

٥ – حينما يتم تعرفي على شخص ماأشعر جيداً بارتباكه إذا كان يربكه الاحتكاك بي ؛ وطالما أني أشعر بالارتياح أكثر من محدثي فأنا أستطيع أن أساعده على الخروج من هذا الوضع المحرج . وفي العادة أتسلم زمام المبادرة في المحادثة . ومنذ فترة وجيزة قدمتني صديقتي / ن / إلى أحد رفاقها ، وكانت (ن) قد حدثته عني ، وعلى الرغم من ذلك شعر بالضيق الرهيب وهو يواجهني . وأنا أعلم أنه مهتم بالأدب ويحب الشعر كثيراً بل وينظم بعض القصائد رحنا نتحدث بيسر حول هذا الموضوع وأنا التي أحب الأدب والشعر ، وبعد حوالي عشر دقائق شعر رفيقي الجديد بالارتياح . وقالت لي (ن) بعد أيام أنه بعد حديثنا في الأدب كان صديقها مسروراً جداً لأنه قابل من يتحدث معه في الشعر والأدب وكل الموضوعات التي يهتم بها .

٦ – بعد اختتام المؤتمر الخامس عشر للفيزيولوجيا زار عدة مندوبين معهدنا ، وقد اتيحت لي فرصة الحديث مع من يتكلم الروسية من زوارنا . وقد شعر كثير من الزوار بالحرج والضيق حينما تعرفوا علي .

وكان منهم طبيب بولوني مسنّ رغب في الحديث معي ولكنه ارتبك في كلامه ، وفهمت ذلك حالا من يده فابتسمت لأشجعه وسألته : من أي بلد أنت ؟ وقد أدخل سؤالي السرور على قلب العالم الجليل الذي أجابني فوراً وبسرور : أنا قادم من فرسوفيا في بولونيا . وسألت من جديد :

– ما انطباعاتك عن الاتحاد السوفياتي ؟

– أحسن انطاعات .

هكذا أجاب محدثي وأردف متجرئاً على سؤالي

– ماذا تعرفين عن مؤتمر علماء الفيزيولوجيا ؟

وقد نالت إجابتي اعجابه ورضاه ، وافترقنا صديقين حميمين .

وإذا ماشعرت أنا بالضيق مع المعارف الجدد فمن الممكن إيقاف الحديث عند حد المجاملات البسيطة .

٧ – أنا أعلم جيداً أن العميان يثقون تمام الثقة بحاسة السمع لديهم ؛ فحيثما وجدوا يحاولون دائماً أن يصغوا إلى كل مايدور حولهم .

ومع هذا إذا مشيت في الشارع مع صديق أعمى فأنا لاأشعر بالارتياح الذي أشعر به مع المبصر ، إذ لاأثق تمام الثقة بحاسة السمع لدى الأعمى ، فهي في رأيي لاتكفي لتعصمه من السقوط . وهكذا حينما أمشي بصحبة العميان أوجه نفسي بنفسي وأحاول أن أتحسس الطريق : أين يبدأ بالصعود وأين ينزل وأين يستوي، اضف إلى ذلك أني

انتبه للروائح . وذات يوم بعد انتهاء زيارتي لمكتبة العميان كان علي أن أعود مع / T / . ولدى خروجنا من المكتبة لاحظت أن / T / قد دارت في الاتجاه المعاكس للاتجاه الذى يجب أن نتوجه إليه . وحينما نبهتها لذلك أجابت بأن اتجاهنا صحيح ، وراحت تسرع ماشية في الطريق التي اختارتها ، فقلت لها منبهة : لاتسرعي فلسنا في الاتجاه السليم ، وإلاّ تعرضنا للسقوط وما كدت أنتهي من ملاحظتي حتى سقطنا معاً ، وكانت المفاجأة كبيرة بحيث لم نعلم أين وقعنا ، ثم شعرنا بعدئذ بوجود درجات لعلها كانت ثماني أو أكثر ، ولكن بدا لنا أن الدرج طويل جداً . وحينما وقفنا أخيراً على الرصيف تبدد خوفنا وانفجرنا ضاحكتين

وقالت لي / T / :

— ما الذى أتى بهذا الدرج إلى هنا ؟

— أنا التي اتيت به عمداً لأنك ما كنت تصدقين أن اتجاهنا خاطيء !

— الآن أرى أننا قد ضللنا الطريق

٨ — في هذا الشتاء كان طلاب الحلقة الثالثة يقيمون في الغرف المشرفة على الممر المجاور ، وكنت أعرف بعضاً منهن ، وذات يوم قدمن لي واحداً من رفاقهن . وكان هذا يتصور أني لاأجيد الا الاحاديث التافهة ، ولهذا كان أول ما سألني :

— هل لك أسرة ؟ فأجبته :

— ولماذا لم تسألني عن مطالعاتي وعن اهتمامي بأحداث السياسة ؟ !

ولاحظت بعد هذا أنه ارتبك جداً واضطر إلى الاعتذار عن بدء حديثه بهذه الصورة المزرية . وأردفت أقول له :

ـ ربما كان حواني فظاً . . ولكني لاأشعر بأية متعة في الحديث عن أسرتي التي لاأعرفها فعلا ؛ وذلك لسبب بسيط هو أن أهلي قد ماتوا وأنا طفلة .

٩ ـ يظن بعض الناس حتى المقربون إلي أن باستطاعتهم إخفاء استيائهم أو ضيقهم عني ، وهذا مايحدث نادراً عندما أعاني من الغم أو أعجز عن ملاحظة ماحولي . أذكر ذات صيف عندما رحت أزور / ل ي / التي كانت تقضي عطلتها ولم أرها منذ عدة شهور ؛ فقد كنت أقضي عطلتي كذلك انني حينما وصلت إلى بيتها اقتربت منها ولاحظت فوراً أن وصولي لم يَرُقْ لها فقلت : لعلك مشغولة وعليك أن تستريحي . إذن لابد لي من الذهاب .

ـ لابأس . لست مشغولة . أمكثي .

ـ يبدو لي أن شيئاً ما يزعجك .

ـ كلا . . . كل ماهنالك أني لست على مايرام .

ومكثت عندها نزولا عند رغبتها . وبعد ساعة قالت لي :

ـ أنا منزعجة لأن ابنتي أثارت لي مشكلة ، فقد وعدتها بمرافقتها لزيارة عمتها .

ـ آ . . إذن هذا ماكان يزعجك منذ حين .

ـ نعم . لست أدري كيف أتصرف مع ابنتي .

ـ في هذه الحالة اذهبي معها ، وسأبقى وحدي ولا تنشغلي بي .

ولم تكن / ل ي / تريد الذهاب حتّى لأبقى وحدي ، ولكن لدى إلحاحي ذهبت مع ابنتها . وهكذا أمضيت النهار في الحديقة .

١٠ — كنت أقرأ مع / ل ي / كتاباً في تاريخ العلوم الطبيعية في الفصل الذي يصف طريقة ليوناردو دافنشي في العمل . وقد استمتعت بقراءة هذا الفصل فكنت أبتسم كلما سمعت اسم دافنشي

١١ — حينما انتهينا من الاصلاحات في الطابق الأرضي انتقلنا مؤقتاًإلىالمخبر في الطابق الأول ، وكان ذلك صيفاً.وذات ليلة قررت أن أنزل إلى الحديقة لأني لم أستطع النوم بسبب الحر ، ولكن سرير الممرضة المناوبة كان بجانب سريري ، فاذا ما استيقظتْ على حركتي فلن تسمح لي بالخروج ، فكان عليّ إذن أن أتحقق من أنها نائمة ، فنهضت واقتربت بهدوء من سريرها فلم تستيقظ . وضعت يدي على طرف السرير فلم تتحرك فاستنتجت أنها نائمة ، فنزلتُ دون أن أنتعل حذائي إلى الطابق الأرضي وأخذت مفتاح الباب الرئيسي متجهة إلى الحديقة ، ثم أغلقت الباب بالمفتاح خشية أن يدخل أحد إلى البيت .

كانت الليلة دافئة ، وكانت تهب بين الحين والحين ريح رطبة خفيفة ، والهواء مشبع بأريج أزهار التبغ . توقفت على بعد خطوتين من الباب ورحت استنشق مرات متوالية بعض الأنفاس العميقة . وفجأة سقطت خنفساء صغيرة على كتفي فارتعشت وكان علي أن أعود . اقتربت من الباب وتوقفت ثم درت حول نفسي ويدي ممدودة . وكنت أخشى أن يتسلل أحد معي ففتحت الباب بسرعة ودخلت راكضة إلى البهو . حينما وصلت إلى الغرفة اقتربت من الممرضة

التي كانت ماتزال نائمة . تمددت حالا ثم نمت . وفي صباح الغد سألت المرضة : هل نمتِ جيداً ؟ أجابت : نعم . قلت لها : أما أنا فلم أنم . قلت ذلك لأعرف هل سمعت شيئاً أم لا . ولكن كان واضحاً أنها لم تسمع ، وقد انتهزت ذلك لأخفي عنها مغامرتي الصغيرة .

١٢ – ما أكثر من يعتقد من المبصرين أن الأصم الأعمى عاجز عن الاستمتاع بجمال ليالي الربيع أو الصيف وسحرها ، وهذا غير صحيح . ومن المؤكد أن أمثالنا لا يستطيعون تملي جمال البدر أو لمعان النجوم أو غيرها . . . ولكن أليس هناك النسيم العليل وشذا الأزهار والندى على البراعم ؟ بلى . . فكل ذلك في متناول حواس الصم والعميان . وإذا كان مَنْ يبصر ويسمع قادراً على وصف انطباعاته فالأصم الأعمى بمقدوره كذلك أن يعطي صورة أدق من أمسية كهذه .

إليكم مقطعاً من مذكراتي :

« . . . كانت الأمسية رائعة ، ويبدو لي أنه ما من ليلة تشبهها من كل ليالي الصيف ، فهناك شيء ما لايقاوم شدني إلى الحديقة حيث أزهار التبغ وسائر أنواع الزهر تفوح بأزكى الروائح . أنا جالسة على المقعد أتأمل . . . ونسيم عليل يتهادى على وجهي ويدي . / آ ي / اقتربت مني فسألتها : هل طلع القمر هذا المساء ؟ أجابتني : نعم ، فالسماء صافية شديدة الزرقة ونجومها متألقة . مكثت فترة طويلة في الحديقة وحينما توجهت لأنام لم أقو على النوم ، فسحر هذه الأمسية قد طرد النعاس عن جفوني » .

١٣ — ذهبت إلى المدينة برفقة / ن / . وحينما انعطفنا لندخل شارعاً جديداً لاحظت ذلك فقلت لها : لقد انعطفنا منذ حين . أليس كذلك ؟ أجابت . نعم .

١٤ — كنت أقرأ مع (ت) حينما استشعرت رائحة صحيفة حديثة الطباعة فارتعشت قليلا . ثم شرحت لى (ت) أن (ب) قد وضع صحف اليوم على الطاولة .

١٥ — كنا ننتظر الترام في المدينة أنا و (أ و آ) . وفجأة شعرت باهتزاز الرصيف وشممت رائحة البنزين فأدركت أن سيارة عبرت منذ حين ، مما جعلني أجفل . وعندما لاحظ مرافقي ذلك كان علي أن أشرح له السبب .

١٦ — قبل أن أدخل مشفى العميان الصم البكم كنت أعيش في مدينة أخرى . وذات يوم كنت في الشارع مع صديقاتي وإذا بهن يبتعدن ويتركنني وحيدة على الرصيف . شعرت بوجود جدار قريب فاقتربت منه وأنا خائفة ولا أدري كيف أتصرف . ولم نكن بعيدين عن البيت ولكن ماكنت قادرة على العودة وحدي ، إذ لابد من عبور الشارع وفي ذلك خطر أي خطر ، فلربما طوحت بي سيارة أو ترام . جلست بجانب الجدار منتظرة أن يقترب مني أحدهم . وبقيت طويلا على هذه الحال إلى أن أقبل علي شخص فصافحني وعانقني ، وسرعان ماتعرفت على طباختنا من ثوبها ورائحتها الخاصة . شرحت لها قدر الامكان كيف تركتني رفيقاتي في الشارع ، فعبرت الطباخة عن غضبها بحركات عنيفة من يديها وقالت إنها ستضربهن .

١٧ – ذهب الجميع ذات يوم صيفي إلى النزهة ، وتركوني أنا الصماء ، وحيدة في البيت . أضف إلى ذلك أنهم أغلقوا علي الباب وأنا على الشرفة غير عامدين . رحت أضرب على الباب ما استطعت ولكن لم يأت أحد لإنقاذي . كانت الشمس محرقة وما من بقعة ظليلة . وانتابني الصداع ولم أكن قادرة على الاستمرار في البقاء على الشرفة . وكنت أعلم أن الشرفة تقوم على عمودين رفيعين ، ففكرت في النزول إلى الحديقة على أحد العمودين . كان ذلك خطراً ، ولكن كانت الحرارة لاتطاق ، وهذا مادفعني إلى اتخاذ ذلك القرار . خلعت حذائي وتركته على الشرفة وعبرت الافريز وقلبي يخفق بشدة وشعرت بصدري ينتفخ وبصدغي يضرب وبيدي ترتجف . وصلت إلى العمود وكان صقيلا ناعماً وبدأت أنزلق .

لامست قدماي الحاجز الحديدي الذي يحيط بردهة المدخل (فالشرفة تقع تماماً فوق باب الحديقة) ، وقفزت من الحاجز إلى الردهة . وكنت على غاية من الهياج بفعل نجاحي حتى إني عجزت عن المشي فجلست على ردهة المدخل . لكنها كانت بداية المغامرة فالباب المؤدي إلى البيت كان مقفلا بالمفتاح وسياج الحديقة شديد الارتفاع . وبكلمة موجزة كان لابد للوصول إلى البيت من عبور هذا الحاجز لأصل إلى الباحة عن طريق الممر الضيق فأدخل إلى البيت عبر الدرج الخلفي . اقتربت من الحاجز ورحت أتسلقه وقضبان الحديد تمزق ثوبي ، ولكن لم أسقط ، ثم قفزت من أعلى الحاجز ورحت أتقدم ببطء في الممر الضيق . وكانت قدماي تحسان بكل حصاة مما ساعدني على الاسترشاد السليم . وحينما وصلت إلى الباحة قادتني رائحة المطبخ إلى باب الدرج الخلفي حيث دخلت إلى البيت .

وفي الممشى شعرت بوقع خطى عديدة فاستنتجت أن الأطفال يعودون من النزهة . وجدت على الطاولة في الغرفة مفتاح باب الشرفة ففتحتها لأسترجع حذائي . وما زال هذا العمل الجبار يهزني طول النهار : إذ كان من الممكن أن أتعرض للأذى لو لم أستمسك بالعمود أو لم أحسن التصرف خلال اجتيازي للحاجز .

١٨ ـ ذهب الجميع إلى النزهة وأغلقوا الأبواب كلها ماعدا باب الدرج الخلفي ، وبقيت وحدي أعاني من الضجر . فكرت طويلا فيما يمكن فعله ، وتذكرت أن في الحديقة زهوراً من النسرين يمكن أن أقطف بعضها ، ولكن الباب المؤدي إلى الحديقة كان مغلقاً ولا يمكن الوصول إليه إلا بعد اجتياز السياج ، فنزعت حذائي وربطته بأحد جواربي ووضعته على كتفي ، إذ لابد من الذهاب إلى الحاجز وأنا عارية القدمين كي أتمكن من تمييز الطريق بينما يجب أن أنتعل الحذاء في الحديقة وذلك لوجود الحصى وقطع الحديد والمسامير . عبرت الحاجز دونما صعوبة بانفعال بسيط ، ولما صرت في الحديقة انتعلت حذائي ورحت أبحث عن زهور النسرين . وكانت الزهور محاطة بأدغال كثيفة اكتشفتها من رائحتها ، فرحت أتفحص الأغصان محاولة التعرف على براعم الأزهار الغضة الحريرية من بينها . قطفت باقة كبيرة والأشواك تدمي يدي . ثم خرجت من الحديقة سالكة الطريق نفسها .

١٩ ـ كنت محتاجة إلى شيء من الخل وأنا أغسل رأسي ذات يوم فتناولت أول زجاجة وقعت عليها يدي لأني كنت على عجلة من أمري . وحينما سكبت منها في الطشت أدركت من الرائحة أنه

لم يكن خلا وإنما كان محلول البورياك المصبوب في نفس النوع من الزجاجات .

٢٠ ــ كنت أتنزه مع الأطفال في الشارع ومعنا / آ ف / . سألتني / آ ف / :

ــ هل لاحظت شيئاً ما ؟

ــ نعم لقد مرت سيارة .

ــ بالضبط وبالقرب منا . كيف أدركت ذلك ؟

ــ شممت رائحة البنزين وشعرت باهتزاز بلاط الشارع .

٢١ ــ لست ادري كيف اشرح هذا الأمر ، وانا على الأغلب دون مساعدة أحد أحزر موضوع محادثة ما أو أذكر شيئاً يتصل بها . وقد يتعلق الأمر بمصادفة عادية أو يكون حصيلة تركيز وانتباه مضافاً إليهما حساسية مفرطة تجاه العالم الخارجي ؛ وهذا ما ساعد على تطوير ذكائي . وأنا أعتقد أن الفرضية الثانية هي الصائبة . مثال ذلك اني كنت أنزل على الدرج عندما شعرت برغبة لا تقاوم في التوجه إلى الباب وفتحه إذ بدا لي أن / ن / ترنّ الجرس . اقتربت من الباب وفتحته وإذا / ن / فعلا وراءه ؛ ولقد رنت الجرس حالما سمعت وقع الخطى على الدرج ودون أن تشك في أنني أنا التي أنزل ، وقد نزل (ك) ليفتح الباب حينما سمع الرنين ؛ ولكن كنت قد سبقته . وهذا مثال آخر : كنت أنوي الخروج مع (ن) وحينما وصلنا إلى الممشى انتظرنا لحظات لأن (أن) التي تنوي مرافقتنا كانت تتحدث مع (ف م) . استدرت فجأة وقلت :

ــ إلى اللقاء يا (ف م) وراحت ن تضحك ، فقلت لها :

— لماذا تضحكين ؟

— لأن ملاحظتك قد جاءت في الوقت المناسب ؛ فقد قالت لي (ف م) منذ حين : « كان بامكانك ياأوليا على الأقل أن تقولي وداعاً ، أما أنت فقد فعلت ذلك حالا وكأنك سمعت هذه الملاحظة » . وهاكم مثالا أكثر غرابة : كنت مع بعض الرفاق وكانوا يشركونني إلى حد ما في حديثهم ، وصرخت فجأة : كم أحب أن أضع يدي على البيانو عندما يعزف عليه .

دهش الجميع لأن رفاقي كانوا يتحدثون عن الموسيقى بالذات دون أن أدري بذلك . كنت جالسة حينذاك وأمسك بيد إحدى صديقاتي ، ولا أدري لماذا خطر موضوع الموسيقى على بالي .

وهذا مثال آخر ، فبينما كنت أقرأ في غرفتي مع (ت) اقتربت (آ ف) ثم راحت . قالت لي ت :

— أخبرتني آ ف بأنها راحت في نزهه .

سألتها :

— هل طلبت منك أن تشعلي النور في المكتب وتفتحي لها الباب في الساعة السابعة ؟

— نعم . هذا ماقالته لي على وجه الدقة .

وهناك أمثلة أخرى مشابهة ؛ ولكن لسوء الحظ لم أدونها جميعاً ، فلم أعد أتذكرها .

٢٢ — كان علي ذات يوم أن أحضر درساً في الجغرافية ، ولكن

لارائحة (ر ج) المكلفة بالعمل معي ولا وقع خطاها أعلمتني بوصولها .
اقتربت من آ ي وسألتها :

– ألم تصل (ر ج) بعد ؟

– لا . لم تصل .

٢٣ – ذات يوم فحصني الأطباء ليتحققوا من سماعي للأصوات أو شعوري بها ، وحينما وضعت السماعة كنت لاأسمع شيئاً

وفجأة شممت رائحة من يميني فالتفت إلى تلك الجهة فسألتني (آآ) :

– هل سمعت شيئاً ؟

– لا ، ولكني شعرت برائحة ، ولذا التفت .

– إنه الطبيب الذي اقترب منك .

٢٤ – منذ عدة سنوات زرت (ل ي) صيفاً . وفي الحديقة أزهار كثيرة وكانت (ل . ي) تنتقل بي من حوض إلى آخر لتطلعني على الأزهار . وصعدت بعد ذلك إلى غرفتها كي تتفقد ابنتها وتركتني في ظل الخمائل . أكلتُ تفاحة ثم غادرت الخميلة لأقطف تفاحة أخرى : إنها المرة الأولى التي أتجول فيها في حديقة (ل ي) ، ومع ذلك كنت أتقدم بجرأة دون أي خوف ، وهكذا قمت بجولة غريبة إذ وجدت نفسي وسط أشجار الورد ولم أعد أستطيع الخروج منها ، والأشواك تخمش يدي ، لكني لم أيئس ورحت أفتش عن مخرج بين الأحواض . وخيل إلي أني لن أخرج من هذه المتاهة في الوقت الذي شعرت فيه بتفاحة تحت قدمي تساءلت قائلة : « طالما أن على

الأرض تفاحة فهذا يعني أن الممشى المزروع بالتفاح ليس ببعيد » ثم اخترت الاتجاه المناسب مهتدية بالتفاح الذي يتدحرج تحت قدمي . وأخيراً شعرت بممشى مفروش بالرمل فخطوت بضع خطوات فاذا غصن تفاح يلامس وجهي . وهكذا قادتني التفاحات التي كانت على الأرض حتى الممشى وأتاحت لي التوجه السليم .

وحينما رجعت (ل ي) كنت جالسة على أرجوحة ومعي بعض التفاح . قصصت على (ل ي) قصة (سفرتي) الأولى في حديقتها ومغامراتي التي جعلتنا نغرق في الضحك معاً . ورحت بقية النهار وكذلك في صباح الغد أتنزه وحدي في الحديقة مستمتعة بذلك .

٢٥ — قضيت بضعة أيام عند (آ) ، وكان الفصل شتاء . استيقظت ذات صباح فسألت عن الوقت فأجابتني (آ) : إنها السابعة وانها ستنهض حالا ، أما أنا فيمكن لى البقاء في السرير . بعد ساعة ذكّرتُ (آ) بذلك وإذا (م) تقترب مني وتقول : إن (آ) ليست هنا وقد ذهبت لقضاء بعض الأعمال . ولست أدري لماذا لم أصدق (م) فالتفت نحو الجدار دون أن أنهض . وبعد بضع دقائق شعرت بأن (آ) تجلس على سريري وتدير لي ظهرها . قلت في نفسي : إنها لبست معطفها وجلست عامدة وظهرها إلي حتى أرى أنها في المعطف . وبقيت غير مكترثة بها ، ثم لامست كتفي فأخرجت يدي من تحت الغطاء . سألتني (آ) وهي تحرك يدها بحيث يلامسني كم معطفها :

— هل أنت نائمة ؟

— لا ، فأنا مستيقظة من زمان .

ـ لقد رجعت توآ بعد أن جلبت الخبز . والطقس جميل . والشمس ساطعة . . .

ومع ذلك لم أتحسس منها برودة الهواء وإنما شممت فقط رائحة الصابون الذي اغتسلت به شرعت ألبس ثيابي ، أما (آ) فخلعت معطفها وراحت تساعدني في العثور على حوائجي التي كانت رتبتها . وتصنعت عدم الاكتراث بها ، ولكن لاحظت أنها لاتلبس إلا ثوبها البيتي فسألتها متعمدة .

ـ لماذا تبدلين ثيابك من لحظة لأخرى ؟

ـ لا . كنت أرتدي المعطف والآن نزعته .

وخرجت بعد ساعة مع (آ) وشعرت بأنه لاشمس ولا دفء ، بل إن الثلج يتساقط . قالت (آ) وكأنها تريد أن تبرىء نفسها :

ـ من المؤسف أن الطقس أصبح سيئاً .

ـ ما أظن أن الطقس كان جميلا . ولقد أخطأتِ حينما حاولتِ إقناعي بأن الشمس ساطعة .

ولم تجب (آ) ووقعت في ارتباك عظيم

٢٦ ـ في الشقة التي كنت أسكن فيها موقتاً غرفة مشمسة أحب أن أمكث فيها أمام النافذة حينما تكون الشمس ساطعة في الخارج . وذات يوم بينما كنت أجلس على طرف النافذة شعرت من الرائحة ومن حركة الهواء بأن أحدهم يقترب مني . مددت يدي فاصطدمت برجل يرتدي سترة صوفية . وأنا لاأعرف أحداً يلبس مثل هذه

الستّرة فاستنتحت أنه غريب فسحبت يدي . اقترب مني الرجل وبقي على وضعه داك بضع دقائق . سألني شيئاً ما دون أن يدري أني صماء عمياء . وحينما لم يتلق أي حواب ابتعد منسحباً

٢٧ — ذهبت دات صيف إلى آوديسا مع / آ ي / يرافقنا ابنها (س) ، وهو صبي في عمري . نزلنا في المشفى وأقمنا في الطابق الأرضي . وكان لابد للدهاب إلى عرفة الحمام من أن أعبر ممشى طويلا ثم انعطف إلى ممشى قصير يؤدى إلى باب الحديقة . وفي العادة يبقى هذا الباب مفتوحاً طوال الليل ، وقبل النوم نقفل باب غرفتنا بالمفتاح . ودات ليلة كان الطقس حاراً وكنت أعاني من الصداع ، ولم أكن أريد ازعاج / آ ي / فخرجت بهدوء لأبلل المنديل وأضعه على جبيني . وبعد أن رحعت إلى الغرفة أغلقت الباب بالمفتاح واقتربت من سريري لأنام . شعرت بأحدهم يقترب مني وهو حافي القدمين فاذا (س) يمسكني بقوة ويقول لي بأصابعه

— ماذا تفعلين ؟

ولاحظت أن مزاجه مكدر فأدهشني ذلك . أجبته بهدوء :

— لاشيء . عندي صداع ذهبت لأبلل منديلي .

— قد أخفت أمي ؟

— كيف داك ؟

— لم يجبني (س) فدفع يدي بعنف ففهمت أنه مستاء جداً لاستيقاظه مجملا . ولكنني لم أفهم كيف أزعجت / آ ي / من نومها .

وفي الصباح وضح الأمر ، فلا الأم ولا ابنها سمعا ضجة خروجي من الغرفة . ولكن عندما عدت وأغلقت الباب استيقظت / آ ي / وسألت : من هذا ؟ وبديهي أني لم أسمع سؤالها فلم أجبها بشيء ، بل لم يخطر ببالي أنها أفاقت من نومها وصرخت ، وإذ لم تتلق جواباً وكانت تظن أن (أحداً) يقترب من سريري ، أصابها الذعر ونادت ابنها فاستيقظ هذا وصرخت به أمه : هناك لصوص في البيت . قفز (س) من سريره متهافتاً علي ، ولما تعرف علي قال لأمه : إنها أولغا وقد نهضت من نومها .

روت لي (آي) ذلك المشهد وأضافت : « كدت أقفز من النافذة ».

أما أنا فسخرت منها .

٢٨ — كانت / آي/و/ل ي/تلقيان دروساً على أطفال العمال في أحد المصانع . وفي ذات يوم اصطحبتني (آ ي) وقدمتني لطلابها الصغار . وتعلق بي هؤلاء حتى إنهم طلبوا إلي بعيون دامعة أن أعود إليهم . ومنذئذٍ صرت أزورهم غالباً لأحكي لهم الحكايات وهم يصغون بهدوء . قالت لي / آ ي / :

— لعلهم يصغون إليك أحسن من إصغائهم لنا .

وقد تعلق بي تعلقاً خاصاً أحد الصبيان ، وكان قد فقد أمه منذ حين . وحينما انقطعت عن الحضور فترة قال ذلك الصبي ل / آ ي / :

— إذا لم تحضر أولغا فوراً فلن أحضر دروسك بعد اليوم !

كان ذلك في شهر آذار والثلج آخذ في الذوبان ومدرسة الأطفال

تقع في (جورا فلفكا) وكنا نتوجه إليها مشياً على الأقدام أنا و / آ ي / . والشوارع ليست نظيفة والماء يملؤها . وفي شارع لايبعد عن تلك القرية شعرت بانحدار في بلاط الشارع وأحسست بأني أهبط من تلة صغيرة . كانت (آ ي) تروي لي مايضحك ، ولكنها صرخت فجأة :

ـ هذا حصان .

ـ أي حصان ؟

ـ حصان يجر عربة من ورائنا . علينا أن نسرع في النزول .

ـ لاأستطيع الركض ، فقد أنزلق والطريق منحدرة جداً .

ـ هيا أسرعي ، وإلا دهسنا الحصان .

ـ كلا . . . لاأستطيع الركض ، وإلا فاني سأسقط .

ـ أسرعي .

ـ كلا فأنا أكاد أسقط .

وركضنا ضاحكتين وكنا نتعثر في كل خطوة . وفجأة سقطت في حفرة ماء وأسقطت معي رفيقتي ؛ ورحنا نغرق في الضحك حتى إننا عجزنا عن النهوض ؛ وشعرت من اهتزاز أرض الشارع بأن العربة تتقدم . بعد أن نهضنا قالت لي آ ي :

ـ مرت العربة بجانبنا ولم تدهسنا لحسن الحظ . وإنها لخطيئتك فما كان عليك أن تسقطي .

ـ بل ما كان عليك أن تثيري ضحكي في مكان خطر كهذا .

ولقد تبللنا وغطانا الوحل ، ولكن ذلك لم يفسد مزاجنا المرح

٢٩ ــ كان علي ذات مرة أن أرافق صديقتي / ن / إلى العيادة العينية حيث يجري زرقها بالابر ، وعبّرت لي عن رغبتها في ألا تذهب وحدها .

وفي يوم ماطر ذهبنا إلى العيادة وقال الطبيب لصديقتي · إنه لا أمل في شفائها بزرق الابر . وكانت / ن / تعلم منذ زمن طويل أنه مامن دواء يمكن أن يعيد إليها بصرها ، ومع هذا فقد أحزنها جداً كلام الطبيب . وحينما غادرنا العيادة كان المطر قد انقطع ولكن أرض الشارع موحلة . وكانت / ن / غارقة في الحزن بحيث ماعادت تتذكر الطريق التي سلكناها إلى العيادة ، بالاضافة إلى أنها لاتعرف تلك الطريق جيداً . وعيت اللحظة التي غادرنا فيها الرصيف وأدركت أن صديقتي فقدت توازنها فركزت كل انتباهي على الطريق وصرت أنا الدليل . وفي أحد المواضع التفتت (ن) فجأة وسقطت من الرصيف دون أن أنجح في تداركها . ساعدتها على النهوض وأمسكت بذراعها وعدنا إلى الرصيف . حاولت أن أتحسس الطريق بقدمي ، ولدى وصولنا قالت لي (ن) :

ــ أعذريني فلقد كنت في غاية الحزن أطاشت صوابي ، ولو لم تكوني معي لما استطعت أن أعود ؛ ولكن من المدهش حقاً أنك نجحت في ارشادي وأنت لاتسمعين ولا تعرفين الطريق . أجبتها :

ــ كنت أتحسس الطريق بقدمي . وفي كل مرة توشكين فيها على السقوط كنت أوقفك .

٣٠ – بمناسبة عيد ثورة اوكتوبر ، تلقيت بعض الهدايا مثل سائر الأطفال . وجدت تفاحة غريبة من بين التفاحات التي قدمت لي ، فرائحتها مختلفة . قلت لنفسي إنها متميزة وسأحتفظ بها لأتلذذ بأكلها . وحينما رحت آكل تلك « التفاحة » وجدتها قاسية . ومن أول عضة شعرت بمرارتها وحموضتها . سال العصير من تلك (التفاحة) ؛ وحينما ضغطت عليها بيدي صرّت صريراً خاصاً فظننت أنها متجمدة فحملتها إلى المطعم وتركتها على الطاولة . توجهت إلى غرفة الأطفال لأرى (م آ) وقلت لها :

– على الطاولة في المطعم تركت تفاحة كبيرة لأنها متجمدة .

وراحت (م آ) لترى تلك (التفاحة المتجمدة) ثم قالت :

– ليست تفاحة بل هي سفرجلة .

– هذا مستحيل فأنا أعرف السفرجل تمام المعرفة وأعرف رائحته .

ولكن (م آ) كانت تريد اقناعي بأنها سفرجلة فقالت :

– ذوقيها وسترين .

– لكني ذقتها منذ حين وهي مرة المذاق بينما السفرجل ليس كذلك .

– ليست المرارة إلا في القشرة ، وأما في اللب فهناك حبوب حلوة المذاق .

وصبت (م آ) في أحد الصحون كثيراً من حبات (السفرجل) ، فضحكت وقلت :

– ماهذا ؟ وهل للسفرجل حبوب ؟ ثم إنها ليست حلوة بل حامضة .
هلاّ ذقتها !

وذاقت / م آ / فوافقتني على أنها ليست سفرجلة . وفي صباح اليوم التالي علمت أن تلك (التفاحة المتجمدة) ، (السفرجلة) لم تكن إلا في الحقيقة رمانة . وإذ لم أذق رماناً من قبل لم أتعرف عليها .

٣١ – كنت في غرفتي قرب النافذة أعاين زهرة . اقترب أحدهم مني ووضع على كتفي برعماً عرفت من رائحته وشكل أوراقه أنه من زهر (الفوانيا) . ولدى مروري بالمطعم للتوجه إلى الحديقة شممت رائحة ذلك الزهر . اقتربت من الطاولة وعاينت ماعليها فلامست آنية مملوءة بتلك الأزهار .

٣٢ – رحت إلى المطعم لتحضير وظائف الفيزياء . اقترب مني / د / وأمسك بيدي بهدوء فنظرت إليه مندهشة ، وأنا أعرف يده جيداً ، ولكن كانت تفوح منه رائحة العطر ، وهذا مالم أتعوده منه أبداً . مما جعلني لاأتعرف عليه لأول وهلة . سألت قائلة :

– من ياترى أنت ؟

وشد / د / على يدي مرة أخرى فتعرفت عليه فابتسمت واعترفت له صادقة بأني لم أعرفه حالا . (ولم أجرؤ على الاشارة إلى موضوع العطر) .

٣٣ – حينما مات الأكاديمي (فوروبييف) أردت أن أودعه مكرمة . وأرسل لي معهد الطب التجريبي سيارة لأشارك في حفلة احراق الجثة . كانت / ل ي / تجلس بجانبي وتحدثني عن الأكاديمي ؛

ولكن كنت على درجة من الاضطراب بحيث لم أفهم شيئاً من كلامها . ولما نزلنا من السيارة ووصلنا إلى حيث يتم الاحراق شممت رائحة أكداس من الورد . ولست أدري لم صدمتني تلك الرائحة ؛ وخيل إلي أن الورود تفوح لا على هذه الصورة إلا قرب الأموات وبدا لي كأن الأقحوان يفوح برائحة جنائزية .

لم نستطع الاقتراب من النعش فوقفنا بحيث تستطيع / ل ي / مشاهدة الميت فتحدثني عنه . ولا أدري هل بفعل رائحة الأزهار القوية أو بفعل الوصف الذي قدمته / ل ي / ، شعرت بأني قريبة من النعش ، وهذا ماهزني في أعماقي ، فلم أعد أقوى على الوقوف وشعرت بالدوار فبذلت جهوداً مضنية كي لاأقع مغشية .

وفي طريق العودة لم أكن أعي ماكانت تقوله / ل ي / . ولكني وأنا أصعددرج المنزلتذكرتبوضوح عجيبرائحةتلكالأرهار وكأنها في المعهد . وفي لحظة شعرت أن درجات المنزل تهرب من تحت قدمي ، والصمت الرهيب يجتاح كياني . اقتربت من (ل ي) حتى لاأسقط فقادتني إلى غرفتي وأنا أكاد يغمى علي .

وفي الخامس من تشرين الثاني خلال سهرة أقامها معهد الطب التجريبي أطلعتني / آ ي / على باقة كبيرة من الاقحوان في الصالة فسرعان ماذكرتني رائحتها بموت (فوربييف) .

٣٤ ــ قرأت منذ فترة في مجلة (حياة العميان) أن طالباً صغيراً أعمى اقترح صنع أباريق خاصة في داخلها علبة صغيرة تتسع لكأسين من الماء ، مما يتيح للعميان أن يتجنبوا إراقة الشاي خارج الفنجان .

ولا شك في أنه اقتراح جيد ولكني شخصياً لا أرى ضرورة لصنع أباريق كهذه ؛ فانا حينما اسكب الماء من الأبريق في فنجان أو كأس. (سواء كان الماء بارداً أو حاراً) لاأمسك الفنجان بجمع يدي كما يفعل المبصرون ، وإنما أمسكه بحيث تستشعر أصابعي درجة حرارة الماء وتقدر كميته في الوقت نفسه ؛ فعندما أسكب الماء الحار فان أصابعي تقدر المستوى الذي وصل إليه . وبالطريقة نفسها أسكب الماء البارد . ومن النادر أن يفيض الماء من الفنجان ، وهذا مايحدث عادة حينما أفكر بشيء آخر أو حينما أكون شاردة الذهن . وقد حدث أن / آ ن / المبصرة أحرقت لي يدي عندما كانت تريد معاونتي في سكب الماء من الابريق ، وقد تكرر ذلك حتّى صرت أرفض بحزم مساعدتها ، ورحت أفعل ذلك وحدي .

٣٥ — ذات يوم بينما كنت أزحزح الطاولة عن موضعها في غرفتي ،وعليها تمثال صغير لـ (بوشكين)،شعرت فجأة بشيء يسقط على الأرض وفي التو أدركت أنه التمثال فارتميت على الجهة التي صدر منها الصوت فوجدت التمثال محطماً . وحزنت لذلك ورحت ألملم قطع الجبس . وكان رأس التمثال منفصلا عن الجسد فحاولت إعادته إلى مكانه ، ولكن انفعالي الشديد وارتجاف يدي حالا دون ذلك . وأخيراً نجحت في ربط رأس التمثال بشريط ووضعته على المنصدة ، وفيما بعد تمكنت من إلصاق الرأس .

٣٦ — كنت أقرأ في غرفتي ، ودون أن أشعر بوقع خطى ، أدركت من حركة الهواء أن أحداً يقترب مني وشممت رائحة أزهار ، وعندما مددت يدي لامست باقة من النرجس .

الاحساسات الخادعة

١ ـ عندما أعاني من ألم عنيف غير متوقع ويواجهني شخص في هذه الحالة فقد لاأنجح في التعرف عليه . وعلى سبيل المثال بينما أنا أمر في المطعم كانت إحدى المربيات بجانب التقويم ولم تنتبه اقدومي فاصطدمت بها وتلقيت على عيني ضربة من مرفقها دون قصد منها . شعرت بألم شديد جعلني أرمي مابيدي . اعتذرت مني المربية دون أن أعرف من تكون .

وتجدر الاشارة إلى أن وعيي لما يدور من حولي يحفّ ، حينما يتركز انتباهي على شيء ، فلا أشعر للتو باقتراب آحد مني ولا أتعرف حالا على مَنْ يصافحني .

٢ ـ ذات يوم تلقيت ثلاث رسائل بالحرف النافر دفعة واحدة ، وكانت مغلفاتها مألوفة لدي . أردت قراءتها وجريت بالسرعة القصوى إلى غرفتي . وفي الطريق صادفت (ك) الذي حياني فلم أتعرف عليه إذ كنت أفكر بالرسائل . وصلت إلى غرفتي وقلت في نفسي : لابد أن أعرف مَنْ حيّاني فعدت إلى الحديقة حيث كان (ك) هناك . فسألته : هل أنت الذي سلمت علي ؟ قال : نعم ، أنا .

٣ ـ حينما يخلّف كتابٌ ما أثراً قوياً في نفسي فان أفكاري تشرد بي بعيداً عن الواقع . إليكم مثالا : كنت أقرأ في كتاب حينما

اقتربت (ل ي) مني وقالت لي شيئاً لم أفهمه . ظننت أنها طلبت مني الذهاب إلى المستوصف : (وكان ذلك صباحاً)

وفي تلك الفترة كانت ذراعي تؤلمني وأداوم على الذهاب إلى المستوصف لعلاجها .

تركت كتابي واتجهت نحو المستوصف ، لكن (ل ي) لم تكن هناك : فجلست أنتظرها . . . ولم تأت ، ومرت عشر دقائق نفد صبري بعدها . وفجأة وصلت (ل ي) فسألتني : لماذا أنت هنا ؟

– ولكنك طلبت مني الذهاب إلى المستوصف !

– كلا . لقد طلبت منك أن تحرسي (ف) ليبقى هادئاً .

وبدأنا نضحك .

– لم أستوعب ماطلبتيه مني . . وأتيت إلى هنا حسب العادة .

– أخبرني (ك) أنك تنتظرينني في المستوصف بينما أكدت له أنك تحرسين (ف) .

٤ – كنت أقرأ رواية (الحرب والسلام) لتولستوي . وبعد الانتهاء منها قصدت إلى (مدرسة العميان) لأرافق صديقتي (ن) . وكنت أمشي تقريباً بحركة آلية وذلك بتأثير ماكنت أقرأ . كان علي أن أصعد إلى الطابق الثاني ثم انعطف في ممشى ثم في آخر إلى اليمين ، وهذا مافعلته فقد انعطفت يميناً ودخلت في الممشى ، وفجأة شعرت بدرجة تحت قدمي وبعدها وجدت نفسي في ممر آخر طويل على جانبيه أبواب . توقفت لأحسن التوجه ، وأنا أذكر أن ممرات الطابق

الثاني ليس فيها أدراج ، ففهمت أخيراً ماحدث لي : حينما كنت امشي كان تفكيري مشغولاً بشيء آخر فاتخذت طريقي في الطابق الأول بدلا من الثاني .

وقد تعرفت على الدرج أخيراً ,وصلت إلى الدرس بسلامة .

ه ـ طلبت مني (أ آ) أن أحمل مفتاحاً إلى غرفة (ك) . وكنت مرهقة بالعمل طوال النهار فأحسست بالتعب بل بالدوار وأنا أصعد الدرج . ولدى وصولي إلى باب المكتب قرعت فلم يفتح أحد ضربت ثانية فانفتح الباب بهدوء . مددت المفتاح دون أن ادخل وقلت · طلبوا مني تسليم المفتاح . وتسلمت يد ما المفتاح ودخلت إلى المكتب . ودهشت لأن (ك) لم يتعرف علي فيده ليست كما أعرفها ، ومن ياترى في مكتبه إذن ؟ وقلت بخجل وتردد (لقد انتهيت من ضرب إحدى وعشرين صفحة على الآلة الكاتبة . .)

وفجأة أدركت أن (ك) لم يكن هناك فشعرت بالارتباك وغادرت المكتبة راكضة . وناداني (ك) بعد بضع دقائق وشرح لي أن ماحدث لي كان مع أحد المهندسين . وهكذا في حالة التعب أو في حالة الشرود فان ادراكي وفهمي لما حولي يضعف . ويمكن تعليل ذلك بضعف الحساسية الفيزيولوجية وقصور الانتباه الناجم عن التعب الجسدي الشديد . وهذا مايعانيه كذلك مَنْ يبصرون ويسمعون ، فغالباً ما يخطئون في انطباعاتهم حينما يشعرون بتعب كبير ، وقد يحسب أحدهم شخصاً مجهولا صديقاً له ، وقد لاينجح في التعرف على صوت مألوف ، وإذا شرد به خياله بعيداً عن الواقع فانه ـ كما فعل هيكل ـ سيلبس جواربه بدلا من ربطة عنقه ، أو ينسى وضع قبعته قبل أن يتوجه إلى الريف للنزهة كما كان يفعل بيتهوفن .

وأنا أعرف مما يرويه أولئك الذين يسمعون ويبصرون أنه طالما خدعتهم عيونهم وآذانهم ، فقد تلتبس لديهم الاشياء ، وقد لا ينجحون في التعرف على أحد الأصوات . وهذا مايحدث لي كذلك . مثال ذلك أنه ذات مساء بينما كنت في المخبر خيل الي أني شعرت بنغمات صادرة من (الهارمونيوم) الذي كان (ك) يعزف عليه بعض الأحيان . أدهشني ذلك لأن (ك) قال لى إنه لن يعود الى المشفى قبل العاشرة مساء ، والسّاعة ماتزال تشير إلى التاسعة .

نزلت وسألت (آ ف) التي كانت تلعب : ألم تسمعي (ك) وهو يعزف ؟ قالت : كلا ، فهو لم يعد بعد . وأنا أفسر هذا الخطأ بفعل احساسي بالاهتزازات الصادرة عن الشارع عبر الأرض الخشبية.

٦ — ذات يوم بينما أنا مستغرقة في نومي العميق خيل الي أني شعرت بالممرضة المناوبة تلمس كتفي استيقظت ظناً مني أن وقت النهوض قد حان . اغتسلت ثم رجعت إلى غرفتي فلبست ورحت أرتب سريري . وفي هذه اللحظة اقتربت مني الممرضة المناوبة وسألتني :

— لماذا استيقظت باكرة ؟

— ألم توقظيني ؟

— لا . إنها السادسة صباحاً فقط !

— أنت التي أيقظتني .

— كيف حدث ذلك ؟ ومع هذا شعرت بوضوح أنك لمستني .

أنجزت ترتيب غرفتي ورحت أقرألأنيلمأكن راغبةفي معاودةالنوم.

٧ — وصلت ذات يوم متأخرة إلى شاي المساء ، وقد خرج مناوب الخدمة مع الأطفال إلى الحديقة ، وليس هناك من يناولني

قدحاً آخر من الشاى . وكنت أهم بالنهوض لأخدم نفسي بنفسي حينما تناول أحدهم فنجاني . أمسكت بيد ذلك الشخص وظننت أنه (آ ن) . وفي الحق أني لم أكن واثقة فبعد برهة ظننت أنه (ك) . ولكن لم يخطر ببالي أن يقدم لي (ك) الشاي فقررت أن الذي فعل ذلك (آ ن) ، وهي ذات يدين كبيرتين كأيدي الرجال . وهكذا بدأت أوجه بعض الكلمات إلى من زعمتها (آ ن) ، ولكن ما أن سلم علي (ك) بأصابعه حتى أدركت أنه هو لاغيره

٨ – تعلمت أن أتعرف من وضعية القاطع الكهربائي أن غرفتي مضاءة أم لا . وذلك بالطريقة التالية : يكون القاطع على اليسار إذا كان النور مضاء ، أما إذا كان النور مطفأ فيكون القاطع على اليمين .

زارني ذات يوم صديق أعمى بصحبة رفيق ضعيف البصر ، وما كنت أعرفه ، وحينما وصلا لم أكن في غرفتي ، وقد قادهما مناوب الخدمة إلى غرفتي وأعلق مصاريع النافذة وأشعل النور . عدت إلى غرفتي بعد دقائق ، ونظراً لعجزي عن رؤية الضوء فأنا لا أعرف إن كانت الغرفة مضاءة أم لا . اقتربت من القاطع الذي ظننته مفصولا وقلت : « سأشعل النور » ثم أدرت القاطع .

أمسكتني صديقتي العمياء بيدي قائلة :

– تقول (م) إنك أطفأت النور .

وارتبكت كثيراً حتى احمرت وجنتاي ، وأدرت القاطع ثانية فاشتعل النور وحينما اقتربت صديقتي قالت لي :

– تقول لك (م) إنه لاداعي للخجل فكل الناس يخطئون .

٩ — ذات يوم خرجت من المخبر إلى الطابق الأرضي ، ولدى عبوري البهو اقتربت مني صديقتي وكنت غارقة في أفكاري فلم أعرها انتباهاً . وحينما سألتني : هل أنت حرة ؟ أجبتها ذاهلة : نعم أنا حرة وتساءلت : ترى من تكون تلك التي تجيد الحديث بالأصابع ؟

ودعوتها بلهجة ودية ولكنها متحفظة (وأنا مازلت أجهلها) إلى أن تخلع معطفها وتدخل إلى غرفتي . وسألتني وهي تخلع المعطف : « هل قابلت (ن) منذ فترة » أجبتها : كنت أنوي زيارتها هذا اليوم ، وتساءلت ثانية : من تلك التي تعرف (ن) كذلك ؟

قررت أنها لابد أن تكون رفيقة من معهد الطب التجريبي كنت علمتها الحديث بالاصابع ولكن حينما دخلنا إلى الغرفة عرفت فجأة أنها (ل) ، ولم أصرح لها بأني لم أتعرف عليها حالا ، فقد كان لابد لي من بضع دقائق لأعود إلى طبيعتي . ومن الغريب حقاً أني لم أتعرف على (ل) ، تلك التي أميزها حتى في الطريق ، وسبب ذلك الخطأ ، كما أرى ، انني كنت أفكر بشيء آخر حينما قابلتني ، حتى كدت أنسى أين أكون . وحينما أمسكت (ل) بيدي تولد عندي إحساس بأني عدت إلى الواقع بعد ذلك الشرود العميق .

١٠ — كنت مع (ن) ذات يوم في حديقة المدرسة وهي تحدثني عن أحد الطلاب ، وفي هذه اللحظة اقتربت والدة (ن) وصافحتني وكتبت على كفي : صباح الخير . لم أتعرف عليها وظننتها الطالب الذي كنا نتكلم عنه ، فأجبتها بغير اكتراث : صباح الخير .

سألتني (ن) .

— ألم تعرفي أمي ؟ !

— كلا . إنها أمك ؟

— نعم .

واعتذرت من الوالدة عن لهجتي الفاترة .

١١ — استيقظت ذات ليلة ورحت لأرى ساعة الجدار ؛ وكنت أتوقع أنها السابعة إلا ثلثاً . اقتربت من سرير الممرضة المناوبة وهممت بايقاظها وبذلت جهداً لأفتح لها عينيها لأنها كانت تغط في النوم ، قلت .

— إنهضي فقد قاربت الساعة السابعة وأنت مازلت نائمة ، وإذا مارن الجرس فلن تسمعي .

ونهضت الممرضة بسرعة خائفة لأنها نامت طويلا ، ثم نظرت إلى ساعتها وقالت :

— الساعة ماتزال تشير إلى الرابعة إلا ثلثاً !

وكم كان خجلي شديداً لايقاظها عبثاً ، ورحت أعتذر إليها .

١٢ — كنت أعاين ذات يوم ثوبين جديدين لـ (ف) و (م) وكان ثوب (ف) مكوياً خلافاً لثوب (م) . وكنت أحس أن نسيجهما مختلف . قدرت أن ثوب (ف) من نسيج هندي وأن ثوب (م) من نسيج قطني . فقد كان أكثر طراوة لأنه لم يكن مكوياً . وحينما كوي الثوبان أدركت أنهما من قماش واحد .

١٣ . كنت أقرأ أمام الطاولة في المكتبة . وخيل إلي أني أشم رائحة العطر الذي تستعمله (ل ى) . تلفت إلى جميع الجهات دون أن أتمكن من تحديد مصدر الرائحة . قررت أن أنزل لأسأل (ل ي)

عما إذا كانت قد عبرت . . وفي صالة الألعاب اقتربت من (ل ي) لأتحقق من أن الرائحة تفوح منها ، ولكن لم نفح منها تلك الرائحة فسألتها :

ـ ألم تعبري منذ حين ؟ أجابت بالنفي . وحينما غادرتها ادركت فجأة لماذا شعرت بتلك الرائحة ، فقد خلفت (ل ي) شيئاً من رائحة عطرها على يدي حينما كانت تقرا لي ، ثم غسلت يديها ، ولكن رائحة العطر تشبثت بيدي . وهذا ما أوقعني في ذلك الوهم .

١٤ ـ تكدر مزاجي طوال النهار لأني كنت أشعر على الدوام برائحة عطر (ك) وحينما كنت أغتسل في الحمام شممت فجأة تلك الرائحة غير المبررة . فتساءلت مستاءة : ما الذي أتى بـ (ك) إلى الحمام ؟

وطوال النهار كانت تؤرقني المسألة التالية : لماذا يلاحقني (ك) في كل مكان .

وفي المساء عندما رحت أنام (وأنا واثقة من أني وحيدة في غرفتي) أدركت لماذا لاحقتني رائحة العطر الذي يستعمله (ك) ، فقد وضعت في الصباح شيئاً من عطره على شعري وهكذا كلما حركت رأسي فاحت الرائحة وقد نسيت تماماً ذلك الأمر .

١٥ ـ كان لابد لي من مقابلة (ر آ) ، وكان بعضهم يدخن في البهو ، وظننت أن (ر آ) في مكتبها . اقتربت من المكتب فوجدت امرأة ترتدي قميصاً وهي تكتب . وضعت يدي على ذراعها منتظرة أن تنتبه إلي ، لكنها استمرت تكتب . أخيراً بادرتها بالحديث عما

أريده . أمسكت المرأة بيدي ففهمت حالا أنها ليست (ر آ) وإنما موظفتنا الادارية الجديدة .

١٦ - بينما أكتب رسالة في عرفتي على الآلة الكاتبة وأنا مستغرقة لم أنتبه حينما دخل أحدهم وشد على يدي مصافحاً . لم أتعرف عليه مع أن يده مألوفة لدي . قلت له بارتباك متسمة .

- لم أتعرف عليك

-- شد هذا الشخص على يدي مرة أخرى دون أن أعرفه . وأمسك شخص آخر بيدي حين داك فهتفت حالا :

- إنك (ب) .

وأراد (ب) أن يخط على يدي اسم ذاك الذي لم أعرفه ، وفجأة بدا لي أن هذا الرجل ذا اليد المألوفه هو (د) ، فصحت باسمه بدهشه

وتفسير دلك أن (ب) كان قد أخبرني بسفر (د) إلى منطقة موسكو محدداً لي تاريخ عودته ولهذا فوصول (د) كان مفاجئاً لي . وهكذا فان رد الفعل عندي شديد على كل مايفاجئني .

* * *

الإحساسات الحرارية

١ – في بداية الخريف كان الطقس بارداً جداً وجهاز التدفئة لم يعمل بعد . ولكن عندما استيقظت ذات صباح شعرت بشيء من الدفء في غرفتي . اقتربت من المشع فوجدته فاتراً بعض الفتور . وخلال النهار صار الجو حاراً جداً وحميت أجهزة التدفئة بحيث لايمكن لمسها . وحينما حضرت / ف م / قلت لها :

– هل تشعرين بشيء ؟

– كلا .

– أنت متأكدة ؟

– أبداً . . لاشيء .

– أليس الجو حاراً ؟

– كلا . . .

قربتها من المشعّ فلمسته وقالت :

– من الواضح أن جهاز التدفئة راح يعمل الآن .

وقد دهشتُ من أن / ف م / لم تشعر بالاختلاف الكبير في درجة الحرارة .

٢ – حينما أفتح المصراع الداخلي لنافذة الغرفة أشعرُ حالا ببرودة أو حرارة الجو في الخارج وعندما فتحت اليوم مصراع النافذة شعرت بأن الجو حار مع أن المصراع الخارجي مازال مغلقاً ؛ وقد كان الطقس حاراً فعلا والثلج يذوب .

٣ – وضعت / ل ي / مصباحاً على طاولتي وأشعلته في الوقت الذي لمست فيه اللمبة وحينما اشتعل النور شعرت بذلك حالا لأن اللمبة سخنت تواً .

٤ – كنت أعمل مع / ك / في مكتبه ، وشعرت فجأة بأشعة الشمس تعبر من زجاج النافذة إلى وجهي، سألت قائله :

– هل تدخل أشعة الشمس إلى هذه الغرفة ؟

– نعم .

٥ – ملأت المغطس لأستحم . كان الماء محرقاً والحرارة عالية بجانب المغطس .

وشعرت فجأة بتيار هوائي بارد فحزرت أن أحدهم فتح باب الحمام الخارجي حيث الحرارة منخفضة هناك . اقتربت من الباب فوجدته نصف مفتوح فسألت : مَنْ هناك ، اقتربت مني / ل ي / فقلت لها :

– هل أنت التي فتحت الباب ؟

– نعم .

٦ – أخبرني / ك / بأن النور قد انطفأ ، وبعد ساعة أردت أن

أعرف هل عاد التيار أم لا . توجهت إلى غرفتي ولمست اللمبة فوجدتها باردة واستنتجت أن التيار لم يعد بعد .

٧ — نادتني / ت / لنقرأ معاً ، وحينما وصلت إلى القاعة جلست على كرسي وشعرت بأنه فاتر فسألت :

— منْ كان يجلس على الكرسي ؟

— إنه / س /

٨ — كنت أريد مقابلة (ك) فذهبت إلى المكتبة واقتربت من الديوان لعلي أجده عليه ، ولم يكن هناك . ولكن كان موضع من الديوان فاتراً فاستنتجت أنه كان هنا ونهض . ناديته فاقترب مني وسألته :

— هل كنت تجلس على الديوان منذ حين ؟

— نعم وقد غادرته للتو

٩ — كان علي أن أذهب إلى المدينة بصحبة / ر ج / ، ولم أكن أعرف حال الجو . وشعرت بالدفء على وجهي حينما خرجت فأدركت أن الشمس ساطعة . سألت رفيقتي : كنت أظن أن الطقس سيء مع أن الشمس ساطعة .

١٠ — ذات يوم شتائي والثلج يذوب توجهت إلى المدينة . كان الهواء فاتراً وكأننا في الربيع حينما خرجت لم أشعر بأشعة الشمس ، وبعد ساعتين وأنا في المدينة شعرت فجأة بشعاع الشمس الدافىء على وجهي .

سألتني / آ ف / :

ـ هل تشعرين بالشمس ؟

ـ نعم شعرت بها تواً .

ـ أدركت ذلك من تعبيرات وجهك . ولذا سألتك .

* * *

الرحلات

في قصر الطلائع

إنها زيارتي الثانية لقصر الطلائع : عبرنا عدة قاعات وصعدنا ونزلنا كثيراً من الأدراج ، ثم دخلنا في قاعة ذات أرض رخامية حيث الجو فيها أقل دفئاً والهواء رطب ، ولم تعلق / آ ي / بشيء . أما أنا فقلت لها :

– هل نحن في حديقة الشتاء ؟

– نعم . وكيف عرفت ذلك ؟

– سبق لي أن كنت هنا منذ سنتين .

وقادتني (آ ي) إلى حيث النباتات فرحت أعاينها بيدي فتعرفت منها على أشجار النخيل والصبار ولاحظت أن كمية النباتات أقل مما كانت في زيارتي الأولى ، فقد عاينت بعضاً منها حول المسبح والآن لاشيء منها .

وفي قصر الطلائع عاينت كذلك بعض النماذج لطائرات صنعها الأطفال إذ ألصقوا الورق الرقيق فوق الهياكل . ومن بين النماذج العديدة استهواني نموذج بشكل خاص : فقد كان مصنوعاً بعناية

ودقة ، وهو يبدو على درجة من الرشاقة سحرتني فحيل إلي أنه سيطير بلا محرك ، وقد أفضيت بذلك إلى / آ ي / فأجابتني : إنك على حق فهو أجمل النماذج .

نحن الآن في القاعة التي يمارس فيها الطلائعيون النحت ، وأتاحت لي رفيقتي أن أعاين وجه رجل ذي شعر أجعد وسالفين طويلين فقلت لها :

— إنه بوشكين . وقد أطلعتني / آ ي / على تمثال صغير آخر لبوشكين وهو مائل الجسم وفي يده مسدس ، وعلى الرغم من أني لم أر تمثالا لبوشكين وهو يبارز فقد أدركت ماذا يمثل التمثال وقلت :

— إنه بوشكين في وضعية المبارزة ، وهذا مسدسه ، ولكن أين خصمه دانيتز ؟

وفحصت الطاولة بيدي دون أن أجد الخصم . وسألتني/ آ ي /:

— وكيف عرفت هذا ؟

— لقد قرأت هذا المشهد في أحد الكتب ، وها هو ذا التمثال يطابق وصف المشهد .

وأتاحوا لي بعد ذلك الاطلاع على تمثال صغير لرأس فتاة فعاينته ، وكان يعلو رأسها قبعة اسبانية ، وقد سبق لي أن عاينت مثل تلك القبعات على رؤوس أطفال اسبان ، وهكذا حينما رأيت القبعة نفسها على رأس ذلك التمثال أدركت أنه يمثل فتاة اسبانية .

وقادتني / آ ي / بعدئذ أمام سجادة تمثل (لينين) عند وصوله إلى مدينة (بتروغراد) في نيسان عام ١٩١٧ . تفحصتها بيدي فأدركت

أن لينين يقف على شاحنة وقد رفع يده اليمنى ، وعاينت كذلك صور الأشخاص المحيطين بالشاحنة فاكتشفت أنهم بحارة وجنود وعمال . وتمثل لي بقوة ووضوح ذلك اليوم البعيد ، وبدا لي أني أرى بعيني العاجزتين الوجوه الجادة المشدودة صوب لينين ، والشمس الربيعية في السماء تشع كراية عملاقة حمراء ذهبية . ورحت أتصور هتاف أولئك الذين زحفوا لاستقبال لينين بالتهليل والترحاب ، والريح الدافئة تدفع بهم وكأنهم يحلقون صوب السماء الزرقاء حيث تسطع الشمس . قربتني / آ ي / من أحد التماثيل وهمت أن تقول لي ماذا يمثل ، فأوقفتها باشارة مني وقلت :

– لاتذكري شيئاً . أريد أن أحزر ذلك وحدي .

– مَنْ هذا إذن ؟

– إنه موزارت الطفل .

– وكيف عرفته ؟

– لقد سبق لي أن عاينت ذلك التمثال ، وقد راق لي كثيراً وما زلت أتذكره .

– وماذا يحمل بيديه ؟

– في يد يحمل الكمان وفي الأخرى يحمل قوسها .

خلال زيارتي الأولى منذ عامين اطلعت على تمثال / ديانا / (١) . وفي هذه الزيارة حينما أطلعني الدليل على التمثال شعرت بأصابعي

---

(١) ديانا إلهة الصيد عند اليونان .

أن تقاطيعه مألوفة لدي ، على الرغم من أني لم أتذكر بوضوح ذلك التمثال . ولدى ملامستي لشعر ديانا المبلل التي كانت تعصره تعرفت عليها . وفي المشفى التابع لمعهدنا نسخة من تمثال / فينوس مديتشي / وحينما اطلعت في المتحف على تمثال آخر لفينوس لاحظت أن ملامح وجهه أكثر تعبيراً وقوة وأن قوامه أقل رشاقة من نسخة تمثال المشفى .

أطلعتني / آ ي / على تمثالين لراقصتين فرنسيتين . وكانت تسريحة شعر التمثال الأول جميلة لكني فضلت الثاني ، فقد كانت الراقصة تقف على رؤوس الأصابع وتميل برشاقة بقوامها النحيف ، أما صدرها فألطف وأجمل ، ووجهها أحلى من راقصة التمثال الأول . قلت ل / آ ي / :

ـ يخيل إلي أن تلك الراقصة أجمل من الأولى .

ـ أنت على حق .

ولدى معاينتي لساقيْ الراقصة الثانية لاحظت بوضوح بنطالها القصير تحت تنورتها المزركشة حيث تتشكل على الساقين طية لا تكاد تُرى ، ولكنّ أصابعي كانت (ترى) تلك التفاصيل .

وكان هذا التمثال الجميل المتقن رائعاً بحيث استطعت بلمسة فحسب ، أن أصف ساقي الراقصة للمربية التي سألتني عما شاهدته في المتحف ، وذلك بعد عودتي إلى المعهد .

وكنت منذ عامين عاينت تمثالا في هذا المتحف ، وقد أرادت / آ ي / أن تتحقق من تذكري له . لمست التمثال وعاينته بسرعة ، وتعرفت فيه على / مفيستوفيلس / من لحيته التي تشبه ذيل السمكة ومن ساقيه النحيفتين كقوائم عنزة ، وقد احتفظ بقبحه طوال تلك الفترة !

واتفق أن عاينت تمثال دون كيشوت سابقاً ، وحينما أطلعتني عليه مرافقتي للمرة الثانية هتفت حالا :

– إنه دون كيشوت .

– وكيف عرفت ذلك ؟

تذكرت أن له لحية اسبانية وفماً نصف مفتوح وقبعة تعلو رأسه . أما حذاؤه فذو مهماز .

طلبت من / آ ي / أن تطلعني على تمثال / دافني / فقالت :

– أنا لاأعرفه . وأين يمكن أن يكون ؟

– سأشرح لك ذلك : إنه تمثال نصفه إمرأة ونصفه شجرة ، تنبثق الأوراق من بين أصابع اليدين والرجلين لتتحول إلى جذور ، ومن خلفها أبولون يضمها بين ذراعيه .

– ومتى رأيت هذا التمثال ؟

– منذ عامين .

– تذكرين ذلك جيداً . . ترى ألسنا الآن أمام تمثال دافني ؟

عاينته وصرخت بفرح عظيم :

– نعم إنه دافني وآبولون .

وأرتني / آ ي / تمثالا آخر كل مارأيته فيه أنه ذو لحية ، ولكن ترى من يكون ؟ وقلت :

– يالها من هيئة شنيعة !

– لماذا ؟

– إن أنفه أنف طير كاسر ، وعيناه مدورتان ، وجبينه ضيق .

– إنه تمثال راهب . وفي رأيك ما المادة التي صنع منها ؟

– يبدو لي أنه من الخشب .

وعاينته / آ ي / بعناية وقالت :

– هذا صحيح ، ولكنه خشب مطلي .

– يالروعة العمل ، فلا يمكن اكتشاف أنه من الخشب .

وكنت رأيت منذ عامين في المتحف تمثالا نصفياً لجان جاك روسو ، ولكن من المدهش أنه لم يخلف أي أثر في ذاكرتي . وأطلعتني مرافقتي على تمثال نصفي ووصفته لي بعض الوصف ، وبقيت عاجزة عن تسميته فهمت / آ ي / بلفظ اسمه قائلة :

– إنه رو . . .

– نعم . . نعم . . إنه جان جاك روسو ! وقد تعرفت عليه من ثيابه لامن وجهه .

– انظري . من هذا ؟

سألتني / لي / ذلك وهي تطلعني على رأس تمثال امرأة ، فعاينته وقلت :

– إنه رأس سيدة من بلاط لويس الرابع عشر .

– وكيف عرفتِ ذلك ؟

سبق لي أن عاينت هذه الرأس التي تعلوها فروة اصطناعية ، وفيها أنف قبيح معقوف .

* * *

في المتحف التاريخي

أطلعتني / آ ي / على تمثال يمثل إنسان / النياندرتال / ، ولم تكن معالم التمثال واضحة وهو لا يبوح لمن يمسه بالشيء الكثير ومع ذلك تمكنت من معاينته : فذراعاه الطويلتان كذراعي قرد ، وقفص صدره وجبينه المحدب المقطب ، أوحت لي بصورة كائن مرعب حقاً ، ثم قادتني مرافقتي إلى تمثال من حجر وسألتني : من هذا ؟

ولم أتمكن من الجواب على الفور ، ولكن حينما امعنت في فحصه تذكرت حالا أني قرأت بعض الكتابات عن / نساء من حجر /فقلت:

— يبدو لي أنها امرأة .

— وهل رأيتها فيما سبق ؟

— لم أرها مطلقاً ، ولكني قرأت أنه في القديم كانوا يضعون على القبور نساء من حجر .

وعاينت تمثال / حفلة الخطبة / وهو تمثال صغير يصور حياة الشعب الأوكراني . وكان المشهد شائقاً : فبالاضافة إلى الجالسين على الكراسي كان تحت أقدامهم دجاجة وديك وأوان منزلية .

تعرفت على كل ذلك ودللت رفيقتي على / الخطيبة وأمها / وقد عرفت الأم من وجهها المجعد ومنديلها الذي على رأسها .

وأوقفتني / آى / أمام تمثال نصفي فتعرفت من شعره الاجعد أنه بوشكين . قالت رفيقتي :

ـ لقد توقعنا أنك ستحرزينه لا محالة .

وشممت رائحة السخرية في كلامها فشعرت بالضيق ورجعت إلى التمثال أتفحصه بعناية بالغة حتّى احمر وجهي بفعل الجهد الذي بذلته ، وقد لاحظت / آ ي / ارتباكي فقالت :

ـ لماذا أنت ساكتة ؟

ـ أنا مصرة على أنه بوشكين .

ـ أنت على حق بكل تأكيد فهو بوشكين لاغيره .

عاينت طاولة يونانية كبيرة فوجدت على قوائمها تزيينات غريبة : فهناك أولا رأس وجسم لايمكن أن يكونا إلا لامرأة ، أما الجذع فلا أستطيع نسبته إلى أي حيوان ، فقد كان له حوافر حصان وذيل طويل . سألتني / آ ي / وهي تضع يدها على شي ما : أنظري . ماهذا ؟

وشعرت تحت يدي برأس من الشمع يمثل امرأة ذات شعر غريب .

ورحت أتفحص هذا الوجه ذا التجاعيد العميقة فاكتشفت أنه لامرأة عجوز ، وتعرفت أنها فلاحة من ثيابها البسيطة الخشنة ، وهي تمسك بيدها عصا علق بطرفها كرة من الصوف ، وفي اليد الأخرى مغزل . وقد سبق لي أن رأيت تلك الاشياء منذ طفولتي البعيدة ، ومع هذا فأنا أتعرف عليها الآن بيسر وسهولة . وكانت تجلس فلاحة أخرى بجانب تلك التي تغزل ، وهي ذات وجه مستدير خال من التجاعيد : إنها شابة ، ثيابها بسيطة تلبس تنورة ومشداً نسجتهما آلة يدوية ، وشتان مابين اللباسين فلباس الشابة أجمل . كانت الشابة منحنية على آلة بدائية لم أر مثلها في حياتي ولكن تعرفت عليها من خيوطها الممدودة على هيكلها .

في متحف الحيوان

« بصحبة ل ي »

لم يسبق لي أن رأيت أبداً الثعلب الفضي ، ولا بَوّاً (١) له .

وقد أتيح لي في متحف الحيوان أن أطلع لأول مرة على بَوٍّ لثعلب فضي . لم تقل لي / ل ي / شيئاً ؛ وإنما وضعت يدي عليه ، فوجدته لطيف الملمس ، وقد ذكرني وبره الكثيف الحريري وشكل رأسه المشبه لرأس الكلب بأوصاف الثعالب التي قرأتها في الكتب . قلت في ثقة :

– إنه الثعلب الفضي !

– نعم .

– ياجماله ! أتمنى لو تركت يديّ عليه .

أما سائر الحيوانات والطيور المحشوة بالقش من ثعالب ودجاج فهي مألوفة لدي ، لأنه طالما عاينتها في الطبيعة وقرأت عنها في الكتب ، فأنا مثلاً ، أتعرف على بوٍّ لأرنبٍ بري لأنه سبق لي أن عاينت أرنباً برياً حياً . أما الثعلب فأميزه من ذكريات مطالعاتي .

وقد تفحصت كثيراً من البط والدجاج في المتحف وعرفتها حالا .

دلتني / ل ي / على عظام ضخمة فترددت قليلا قبل أن أتذكرها فقلت :

---

(١) جلد الحيوان المحشو بالقش .

– إنه سن الماموث ، وتلك عظامه . ألا تذكرين أني رأيتها سابقاً في متحف آخر ؟

وما كدنا ندخل متحف الحيوان حتى شممت رائحة النفتلين تفوح من الحيوانات المحشوة بالقش ، وهي رائحة تزعجني وتسبب لي الصداع وتحول بيني وبين تمييز التفاصيل والدقائق .

* * *

في قرية

لوجني

منذ الصباح كان الجو يوحي بأنه سيكون حاراً . . . وأخيراً كنا جاهزين واتجهنا صوب موقف الترام . كانت الشمس تلسعنا بشعاعها المحرق .

وفي المحطة جمع غفير من الناس وكنت أتشمم روائحهم وأحس بهم يدفعون بي . . . وصعدنا مسرعين إلى القطار ، وبعد دقائق شعرت بالاهتزاز فلقد تحرك ، وبعد قليل أحسست بالقطار يبطىء في سيره ثم يتوقف . إنها المحطة الأولى . كان انطوان بجانبي على المقعد فقلت له بأصابعي :

ـ توقف القطار ، فقد وصل إلى المحطة ثم عاود سيره .

وكنت أشعر بالقطار كلما توقف وأخطر أنطوان بذلك .

وصلنا إلى محطة / لوجني / وأسرعت أنا و / آ ف / لننزل أول النازلين ، لأن القطار لايمكث إلا دقيقتين في المحطة .

سبقتني / آ ف / في النزول ولحقت بها مسرعة ، وفجأة اختفت ولكني قفزت من سلّم القطار مجازفة وكدت أسقط ، وكانت العربة

بعيدة عن الرصيف ، والسلّم مرتفع ، ولم يتوقع أحد مني تلك الجرأة فهرعوا إليّ بعد أن كنت قفزت .

اتجهنا نحو القرية ولا حظت على الفور أن الطريق يستمر في الصعود على مدى عشر دقائق ، وكانت الحرارة لاتطاق وبدأت أحس ألماً في القلب إذ صاق نفسي . . واضطررت مراراً للتوقف كي أستعيد أنفاسي . . وأخيراً انتهى الصعود ورحنا نسلك طريقاً يعج بالحفر والمستنقعات وآثار العجلات . وكنت أمشي بصعوبة وانزلقت قدماي على العشب . وبعد نصف ساعة شممت رائحة الدخان فقلت لرفيقيّ :

– هل نحن في القرية ؟

– نعم دخلنا فيها ، ونحن نتجه إلى (دار الاستراحة) .

وقريباً من ذلك المنزل توقفنا نستريح بعض الوقت ، وتمددت على بطانية ، وفجأة استرعت انتباهي رائحة الشيح الحادة فمددت يدي فوجدت شجرة شيح . وعندما رحت أعاين الأعشاب اكتشفت شجرة الخنشار فقلت لنفسي : نحن الآن في شظل شجرة جذعها يابس .

وبعد أن استرحنا قمنا بنزهة في الغابة استغرقت عدة ساعات ، وكدت أموت عطشاً . وحينما شممت رائحة الخبز واللحم والخيار التي أخرجها المربون من سلالهم للغداء كنت أشعر بعدم الرغبة في الطعام وصحت أقول :

– الماء . . . الماء . . . قبل الطعام .

وبدأت أتناول غدائي بعد أن شربت كأسين من الماء . وقررنا

بعد قيلولة طويلة أن نتوجه إلى البحيرة . وقد رافقتنا / آ ف / طوال السفرة ، وبفضلها توجهت مع بربارة إلى البحيرة . ولاحظت فوراً أن الطريق يهبط ، وفي البداية كان ذلك ممتعاً ، فالنزول أسهل علي من الصعود ، ولكن حينما اشتد الانحدار كدنا نسقط ، وبربارة عجزت عن المتابعة وراحت تتعثر في كل خطوة . وفي أول الأمر كنت أساعد / آ ف / ثم استغرقت في الضحك لأني كدت أسقط كذلك .

وأخيراً شعرت تحت قدمي بطريق شبه سوي وقلت :

ـ لكن أين هي البحيرة ؟

ولم تكد /آ ف / تهم بالجواب حتى شممت رائحة الماء ، وصحت وأنا أمد يدي إلى اليمين :

ـ تلك هي البحيرة . أين أنتم ؟

ـ نعم تلك هي .

وشعرت أني أدوس على أرض خشبية فسألت :

ـ هل هذا جسر ؟

ـ نعم هو ذاك .

ـ لقد عبرناه إذن .

قلت ذلك وأنا أشعر بالأرض الصلبة تحت قدمي .

مضى علي عدة سنوات دون أن أستحم ، ويسرني الآن أن أنتهز هذه الفرصة . . وأنا لاأجيد السباحة وإنما رحت استمتع بالغطس

وأفلتّ نفسي تماماً من يديْ / ل ي / التي خافت أن أبتعد عنها كثيراً ، وقد نادتني مرات عديدة ، ولكن ماكنت راغبة في مغادرة الماء . قالت (ل ي) وهي تجرني صوب الضفة :

– لقد لبس الجميع ثيابهم .

وهربت منها وتوجهت وحدي وكنت أشعر في كل لحظة بأن الماء يصبح أضحل فأضحل . وهذا يعني أني اتجه نحو الضفة ثم أحسست بملمس الرمل تحت قدمي . توقفت وناديت / ل ي /

ووصلنا دون عناء إلى / بيت الراحة / لأننا لم نمر بالغابة .

جلسنا على مقعد . . . واستشعرت رائحة الرطوبة في الجو . قلت ا / ل ي / : ستمطر عما قريب . وراح المطر فعلا ينهمر بغزارة بعد دقيقة . دخلنا / بيت الراحة / ومكثنا قرابة ساعة . وحينما عدنا إلى الباحة شعرت بالماء تحت قدمي ، ورذاذ خفيف ما يزال يسقط.

وفي نهاية السهرة سلكنا الطريق إلى المحطة ، والمطر مازال ينزل . أخبرتني / آ ف / بأن الرعد يقصف وفجأة دوّى رعد عنيف حتى أني شعرت به فأجفلت .

وكنا نعاني من صعوبة المشي ، فأقدامنا تنزلق على العشب المبلل ، وتقدمت / ف / مني ومن / آ ف / وأسندتنا .

وصلنا أخيراً إلى المحطة ، ولكن ماكدنا نجلس على أحد المقاعد حتى أسرعت / آ ف / إلى جهة ما . وفجأة هبت ريح عاصفة ولفّتنا زوبعة من الغيوم والتراب والرمل . وخيل إلي أول الأمر أنه اعصار ، ولكن شعرت بالأرض تهتز فأدركت أنه القطار ، (وقد كنا على

الرصيف قرب الخط الحديدي) . وكنا نحس بأن القطار ينقض علينا فارتميت إلى الخلف وخبأت قدمي تحت المقعد ودفنت رأسي في البطانية التي أتدثر بها ومر القطار واقتربت (آ ف / و / ل ي / منا وقالت إحداهما :

ـ لقد كان القطار السريع . هل أخافك ؟

ـ جداً وقد دفنت رأسي كالنعامة .

وراح الجميع يسخرون مني ، وبعد لحظات أخبرتني / ل ي / بأن قطاراً سريعاً آخر سوف يعبر ، وكنا على مقربة من مدخل المحطة . سألتني / ل ي / :

ـ أتريدين أن تقتربي لتشعري به على نحو أفضل ،

ـ نعم أرغب في ذلك .

واقتربنا من السكة ، لكن ماكادت الريح تعصف والأرض تهتز حتى انكفأت بعنف . وأرادت / ل ي / أن تبقيني حيث أنا ، لكني ابتعدت عن السكة وأنا أريد إضحاك الآخرين ، صارخة :

ـ كلا . . . كلا . . .

وراحت / ل ي / تضحك قائلة :

ـ كم تجيدين تمثيل دور الجبان .

ـ وكيف لا ؟ فأنا لست مستعدة للموت دهساً تحت عجلات القطار السريع !

وراح المطر ينهمر فتوجهنا إلى بوفيه المحطة ، وقدم لي أحدهم بعض الأزهار فعاينتها واكتشفت من تويجاتها أنها أزهار الأضاليا .

وأخيراً وصل / قطارنا / إلى المحطة ، وحينما صرنا في العربة راحت / آ ف / تعدد لي أسماء المحطات التي سنمر بها قبل الوصول إلى خاركوف ، وكلما توقف القطار في المحطة كنت أشعر بذلك واذكر اسمها لـ آ ف وكانت تجيبني بأني على حق . ووصلنا في العاشرة مساء متعبين مبللين بالمطر .

* * *

في لينينغراد

كنت أحلم منذ زمن بعيد بزيارة أصدقائي في لينينغراد والتفرج على متاحف المدينة . وتحقق الحلم أخيراً في أيار عام ١٩٥٠ : وها أنذا متوجهة إلى لينينغراد وليس لي من هاجس سوى رحلتي هذه ، فأعددت لنفسي برنامجاً للاقامة في تلك المدينة التي عاش فيها بوشكين وليرمنتوف ونكراسوف وبيلنسكي وغيرهم من كتاب وشعراء وثوار روسيا .

ولدى وصولي إلى لينينغراد توجهت برفقة / م ن / و / ن ب / إلى / فيلا / بالقرب من خليج فنلندا . وكان يسكرني هواء الضواحي ورائحة البحر الذي تهب منه الأنسام العليلة . وفي صباح اليوم التالي عدنا إلى المدينة وزرنا ، على الرغم من المطر الشديد ، قلعة القديسين بطرس وبولس . وراح الدليل يروي لنا تاريخ المتحف واقترح علينا أن نزور داخل السجن الرهيب . وفي الممشى الضيق الذي تشرف عليه أبواب الزنزانات شعرت ببرودة ورطوبة نفاذة وارتعشت حينما فكرت بأن هذه المواضع شهدت آلام خيرة أبناء الشعب الروسي التي كانت القيصرية تسحقه . وقد سمح لي بدخول أحد الزنزانات وكنت قرأت خلال مطالعاتي أن المعتقلين كانوا يقضون السنين الطويلة وربما طول حياتهم في تلك الزنزانات التي كنت أتصورها باردة رطبة كئيبة . ولكن مارأيته من واقع السجن كان أكثر هولا ، فالزنزانة

التي زرناها تقع في الطابق الأرضي ، وقد تجولت فيها بحذر ، وهي ضيقة ولكنها طويلة ، وشعرت تحت قدمي بالأرض الحجرية الباردة . أما جدرانها الباردة فكانت قد طرشت بالكلس على عجل ، وفيها سرير معدني أصابه الصدأ ضيق طويل منخفض مثبت في الأرض بالبراغي أما فراشه فرقيق جداً ، وقضبانه المعدنية كأنها أضلاع لهيكل عظمي مخيف . وكل ماهنالك من أثاث مقعد مثبت في الأرض وطاولة صغيرة أشبه ماتكون بصحيفة معدنية سيئة الصنع . وهي مثبتة في الجدار بلا قوائم . وعاينت كذلك كوة الباب الصغيرة والقفل الضخم ثم النافذة العالية التي لاتطال إلا بالوقوف على رؤوس الأصابع والتي استطعت لمسها بصعوبة بطرف الاصبع . وشرح لنا الدليل ان الزنزانات جميعاً متشابهة ، ثم قادنا إلى زيارة نوع آخر من الزنزانات . وفي الحق أني كنت قرأت وصفاً لتلك الأنواع من السجون الانفرادية ، لكن ماأراه الآن يفوق كل تصور • دخلنا من الممشى الرئيسي إلى معبر شديد الضيق يوصل إليه بباب ثقيل سميك . وهناك باب مماثل يؤدي من الممر إلى فسحة متناهية في الضيق لايمكن وصفها ، أرضها حجرية وجدرانها رطبة ولا نوافذ لها . وتلك الزنزانة من الصغر والضيق بحيث لايمكن للمرء أن يخطو فيها إلا بضع خطوات طولا وعرضاً والسجين فيها لايستطيع أن يتمدد إذا ما أراد النوم . أما هواؤها فخانق خرش حنجرتي ، بالاضافة إلى البرد الذي ثلّج أطرافي بالرغم من معطفي السميك وشالي الصوفي . وسرعان ماوليت هاربة من هول تلك الزنزانة ووحشتها وقلت لرفيقتي :

— يالفظاعة .

ولست أبالغ ، فأنا أصف ماشعرت به فحسب .

وعدنا إلى الطابق الأول ودخلنا في ممشى آخر تشرف عليه كذلك زنزانات ، واقتربنا من تلك التي سجن فيها غوركي . وقيل لنا إنه كتب مسرحيته / أطفال الشمس / في هذه الزنزانة . ورحت أفكر : ترى هل كان يتسرب إلى هذا المكان شيء من النور حيث كان يفكر غوركي ، وهو سجين ، بالمستقبل ، ويحلم بالشمس الحديدة التي ستضيء بأشعتها الساطعة حياة الانسانية جمعاء ؟

ونزلنا متجهين إلى كاتدرائية القديسين بطرس وبولس حيث زرنا قبور القياصرة الروس منذ أيام بطرس الأكبر . انتهت الزيارة وسيبقى منقوشاً في ذاكرتي إلى الأبد كل ماشاهدته . وصحيح أني لم أر الأشياء التي يراها المبصرون ، ولكني مع ذلك شعرت بكل مايمكن للفكر أن يشعر به ، وتحسست بكل مايمكن للحواس أن تحس به . وكانت انطباعاتي الخاصة بي ، من القوة بحيث ولدت عندي أفكاراً جديدة راحت تغريني بأن أروي للآخرين كل ما / رأيته / في السجن .
وفي الغد اشفقت علينا سماء لينغراد ، ومع اننا احتفظنا بمعاطفنا على أجسامنا ، لكن المطر ماعاد يبللنا . واتجهنا صوب (قصر الشتاء) ومتحف / الإرميتاج / القريب منه ، ولكن لسوء الحظ كان قسم من المتحف مغلقاً بسبب الاصلاحات ، أضف إلى ذلك أننا زرنا القسم المفتوح بسرعة مما حال بيني وبين معاينة محتوياته بيدي ، والتماثيل المشهورة التي دلوني عليها كانت معروضة في مواضع عالية فلم أتمكن من لمسها إلا من أرجلها . وما أكثر اللوحات في المتحف ، لكن ضيق الوقت ومرورنا السريع لم يتح لصديقتي أن تشرحا لي تلك اللوحات . وفي بعض القاعات عاينت بعض الأثاث القديم الذي كان

سابقا في ابهاء قصور القياصرة ، والذي ما زال كما هو حتى أيامناهذه. ولو أني اكتفيت بما قرأته من أوصاف ذلك الأثاث لما كان باستطاعتي استيعابه وإدراكه إلا بعد معـــاينته باليدين ، أضف إلى ذلـــــك أن / م ن / و / ن ب / كانتا تشرحان لي ألوان الخشب والسجف.

وأعجبني كثيراً منظر النوافذ والقاعات بأبعادها وزجاجها وإطاراتها ومحاريبها . وعاينت بيدي رخام الجدران والأبواب وكل ما أستطيع لمسه . وبعد أن عبرنا القاعات المتلاحقة قادونا إلى (حديقة الشتاء) وكانت فيها تماثيل واعشاب خضراء لعلها كانت اغزر فيما مضى . واتيح لي أن اطلع على تمثال بديع يمثل احدى حوريات البحر متكئة على ذراعها وتسترّيح وسط صدفة كبيرة تفيض بالماء . عشقت ذلك التمثال الرشيق الشاعري المطمئن . زرنا كذلك (المتحف الروسي) الواقع في قصر (ميشيل) القديم والذي بني خصيصاً ل /غريغوري اورلوف/(١)في عهد كاترين الثانية ، وقد مات هذا الكونت قبل انجاز البناء ، فأهدته كاترين إلى حفيدها .

وإذا لم تكن زيارتنا لمتحف الارميتاج قد نجحت فقد حالفنا الحظ في المتحف الروسي إذ كان دليلنا محافظ المتحف الذي سمح لي بمنتهى اللطف أن أعاين بيدي أشياء كثيرة . وإذا لم تخنّي الذاكرة فقد زرنا اثنتين وعشرين قاعة على مهل ، وعاينّا لوحات عديدة وتماثيل لم يسبق لي أن رأيتها . واليوم يصعب عليّ تذكر كل شيء ؛ ولكن لابد من القول أني نجحت وحدي في التعرف على بعض

(١) الكونت غريغوري أورلوف – ١٧٣٤ – ١٧٨٣ أحد المقربين من كاترين الثانية .

التماثيل لأني كنت قرأت أوصافها ، فقد تعرفت مثلا على تمثال (هرقل في المهد) والأفاعي تهاجمه ، تلك التي أرسلتها عليه الإلهة الغاضبة / جينون / وتعرفت بنفسي كذلك على تمثال المعركة بين هرقل وانتيه . وقد عرفت هرقل بدليل أنه يحمل بين دراعيه / آنتيه / الذي انتزعه من أمه الأرض (جيا) .

وكنت قرأت قصة بروميثيوس المقيد إلى الصخرة والنسر ينهش كبده ، وقد تعرفت على تمثال بروميثيوس ، ولكن وجدت أن الطائر الجارح يفترس طحاله لاكبده، ترك هذاالتمثال في نفسي من أثر !

وقد شدهت كذلك بتمثال (سقراط) (وقد أكدوا لي أنه يمثله حقاً) وهو يحتضر على فراشه بعد أن تجرع سمّ الشوكران : كان فمه مفتوحاً وذراعاه الممدودتان متشنجتان ، أما تعابير وجهه فرهيبة حتى كأني أقرؤها بيدي . وأذكر بكل وضوح تمثالا صغيراً يمثل رجلا من القوزاق مع زوجته على صهوة جواد يعدو بهما . عاينت رأسيهما وتعرفت على وجه الرجل والمرأة من ملامحهما .

مكثنا طويلا في قاعة المتحف الروسي حيث شاهدنا لوحات عديدة وتماثيل وأشياء أخرى تحتاج إلى صفحات طوال للحديث عنها . وأظن أن ماذكرته من أمثلة للقراء تكفيهم ليدركوا كيف استطيع بفضل اللمس معاينة التماثيل واللوحات الأخرى ، وكيف تثيرني المتاحف بغنى معروضاتها . وكما هو الحال في الارميتاج ، فقد لفتت نظري هنا أبعاد النوافذ والمحاريب وسجف الجدران وأبواب القاعات .

ولدى مغادرتنا المتحف الروسي شكرنا ، من صميم القلب ، دليلنا وأهديته أحد مؤلفاتي .

وكانت رحلتنا ممتعة كذلك إلى (القصر الصيفي) حيث عاش بطرس الأكبر بعد أن غادر موسكو إلى سان بطرسبورغ . والواقع أن هذا القصر ذو مظهر بسيط في داخله وخارجه ، فليس فيه أي رخام ، وجدرانه وسقفه مطروشة بالأبيض ، وأرضه خشبية والأثاث في جميع القاعات متواضع ، لكنه متين ، وقد سمحوا لي بأن أعاين الرداء البيتي لبطرس في مكتبه ، وكان نسيجه مهترئاً ، لكنه ضخم وثقيل الوزن ، مما جعلني أتصور القامة العملاقة لهذا القيصر الذكي ذي البصيرة . وعلى طاولة المكتب وجدت محبرة ثقيلة من الحديد ، كما خيل إلي ، وقد ربطت بها مسكة ريشة ضخمة للكتابة بسلسلة صغيرة ، ولم أفهم كيف يمكن حمل هذه الريشة بثلاثة أصابع ، ثم أطلعوني كذلك على (العصا الخفيفة /١/) التي كان يحملها بطرس الأول في نزهاته : وهي متينة ثقيلة مهيبة جداً .

وفي غرفة طعام القيصر شاهدت بعض الأقداح على (بوفيه) عتيق ، وقيل لي إن بطرس كان يقدم إلى ضيوفه في هذه الأقداح النبيذ أو مشروب (ماء الحياة) الروسي الشديد . وبعض هذه الأقداح من النوع المسمى / النسر الكبير / الذي يسع لتراً أو أكثر من ذلك المشروب . وقد قيل لي / كما قرأت ذلك / أن بطرس الأول حينما كان يغضب على أحد من الحاشية يجبره على أن يتجرع تلك الكأس الضخمة من الخمرة دفعة واحدة .

---

(١) تقصد المؤلفة إلى السخرية من وصفها لعصا بطرس الأول بأنها خفيفة (المترجمان).

وقد استمتعت بزيارة هذا المتحف مثلما استمتعت بزيارة المتحف الروسي ، حيث سمح لي المحافظ الدليل بأن أعاين بيدي كل شيء . ولقد زرنا حتى المطابخ فى الطابق الأرضي حيث شاهدنا الفرن القديم والقدور والمكواة العملاقة وسائر الحاجات المحفوظة حتى أيامنا هذه ، والتي تدل على تلك البساطة المميزة لحياة بطرس الأول العائلية . صعدنا بعد ذلك الى الطابق الأول حيث حجرات كاترين الأولى ، وكان كل شيء فيها يتميز بالبساطة والمتانه . دلونا على المدفأة التي كانت تشعلها كاترين الأولى عندما يزورها مع أولادها بطرس ، كانت كاترين تسخن الطعام وتقدمه بنفسها إلى القيصر . وفي حجرة نومها رأيت سريراً عتيقاً كأنه مهد ، فهو ذو عوارض خشبية على جانبيه ، وفحصت كذلك غطاء السرير وفراشه ، إنهما مهترئان وبسيطان :

وأتيح لى أن أرى العرش الصغير لكاترين الأولى ، وهو متين ، وما تزال السجف المخملية تعلوه وقد ارتقيت سلم العرش وسمح لى بأن أجلس على عرش أول قيصرة روسية بعد أن أستأذنت طبعاً ، من الدليل / بالاستراحة قليلا / . وهكذا انتهت زيارتنا الشائقة الممتعة للقصر الصيفي لبطرس الأكبر .

عاهدت نفسي أنه إذا ماتوجهت يوماً إلى ايننعراد فسأزور حتماً منزل بوشكين ، وها قد تحقق ذلك .

ذات يوم حار مشمس قمنا برحلة جديدة ، ومررنا عابرين بحديقة الكسندر التي لم يتح لى رؤية تماثيلها ، ثم اتجهنا صوب شارع / مويكا /

حيث منزل بوشكين ، وهنا عاش ومات الشاعر . نزلنا عدة درجات فشممت رائحة الرطوبة وكأننا في قبو ، فدهشت وسألت :

هل عاش بوشكين حقاً في هذا البيت ؟ ثم دعينا لصعود الدرج ولم يكن في الطابق الأرضي إلا المدخل والمطبخ . أما بوشكين وأسرته فكانوا يسكنون في الطابق العلوي ، وقد طمأنني هذا بعض الشيء إذ كانت الشقة على الرغم من مساحتها الصغيرة ، ذات غرف عديدة . ولسوء الحظ لم يكن في الشقة إلا أشياء قليلة كان يستعملها بوشكين : فهناك بعض الأثاث وساعة جدارية على صورة عربة تزينها تماثيل آلهة الحب ، بالاضافة إلى بعض الكتب والأشياء الصغيرة . وهذا كل شيء . وفي متحف المنزل عدد كبير من الصور تمثل زوجة وأصدقاء بوشكين ، ثم اطلعت على العصا التي كان يحملها بوشكين خلال نزهاته في القرم والقوقاز . أمسكت بالعصا وقلت لنفسي : « إن يد بوشكين كانت تلمسها ، ومن المؤسف أن يموت ! »

زرنا جميع غرف المنزل وشرح لنا الدليل عن كل غرفة خلال حياة بوشكين . وحينما دخلت الغرفة التي سجي فيها جثمان الشاعر بعد موته رحت أمشي متمهلة بطيئة وكأنني أخشى أن أوقظه . وتذكرت قول بوشكين في معرض وصفه للزيارة التي قام بها لأطلال قصر ملوك / البخشيسرايا / : « إنه أحسّ في جناح الحريم بروحيْ ماريّا وزاريما تحوّمان حوله » .

وفي اليوم نفسه ، وكان عندنا متسع من الوقت ، قررنا زيارة كاتدرائية القديس إسحق حيث تضم متحفاً صغيراً كذلك . وشاهدت

في المتحف أشياء قليلة وأعجبتني بوجه خاص الوجوه البارزة على الايقونات وجدران الكاتدرائية وأبوابها ثم عاينت الأجساد المحفورة للكهنة والأطفال والنساء على تلك الايقونات . وهذه المجموعة المحفورة تمثل حفلة التعميد ، وقد عرفت الآن كيف تجري مثل هذه الحفلات (ذات الأسرار) ؛ ففي مكان ما يحمل الكاهن الطفل فوق جرن المعمودية ثم يحمله إلى مكان آخر خارج الجرن والمقص في يده فوق رأس الطفل . ودلتني / م ن / على وجه بارز قائلة إنه وجه المسيح المصلوب ، فالصليب على الأرض ورأسه متدلية إلى الأسفل على الصليب ، واستطعت تلمس رؤوس المسامير على رجليه ويديه المثبتتين على الخشب . وقد أحزنني ذلك كثيراً ، وعلى الرغم من أني لست مؤمنة فأنا أتصور بكل بساطة كم كانت آلامه رهيبة .

وبعد زيارة الكاتدرائية كان الطقس باردا جداً وقررنا الصعود إلى البرج . وفى أول الأمر كان كل شيء على مايرام ، ولكن الدرج راح يضيق وميله يشتد ويصبح لولبياً يدور حول دعامة معدنية . وحينما وصلنا إلى منتصف السلم خرجنا إلى الشرفة لنتنفس بعض الهواء . كان الناس يمرون بجانبنا وكنت أحس بخطاهم وباهتزاز الدرج الحديدي ، وهذا ما أرعبني فقد خيل إليّ طول الوقت أن السقف سيتداعى فوق رؤوسنا واننا سنتدحرج إلى الأسفل ، ثم عاودنا صعودنا . ولكن من شرفة إلى أخرى كان الدرج يزداد ضيقاً وميلا . والناس يصعدون ويهبطون وأنا خائفة من أن أقوم بحركة خاطئة تودي بي إلى الهاوية . أضف إلى ذلك أن / م ن / أخبرتني بأنها راحت تحس بالدوار ، وأن قلبها يضرب بشدة ، ولم يكن أمامنا إلا شرفة

واحدة نعبرها حتى نصل إلى القمة ، لكن الهواء راح يعصف بشدة والناس يتدافعون في الممر الضيق . واشتد الألم بـ / م ن / ورفضت بعناد وتصميم أن تتابع الصعود ، وقد خجلت من نفسي حينما أصابني سلوكها بالعدوى فعدنا ادراجنا هابطين . وانتابني شعور غريب ، فبعد كل شرفة بل بعد كل درجة ننزلها كنت أتنفس الصعداء .. وراح خوفي يتطامن كلما أمعنا في النزول . وفي أسفل الدرج استرجعت هدوئي مع إحساسي بشيء من الخجل لأني تخليت عن تلك المغامرة ، لكني كنت مرتاحة لنجاتي من السقوط ومن الإصابة بالدوار . ورحت أضحك لأني لم أتمكن من معرفة مدى الارتفاع الذي وصلنا إليه ، ولا من تذكر المسافة التي قطعناها صاعدين ، فقد اعدتني / م ن / بخوفها منذ أن أصابها الدوار والخوف . ويبدو لي أن في تلك الواقعة تجربة نفسية قيمة .

قمنا بعد ذلك بجولاتٍ عديدة في المدينة فتسكعنا على أرصفة نهر (النيفا) ورحت أغطس يدي في الماء (لأحيي) ذلك النهر ، ثم تنزهنا في الحديقة الصيفية وفي ميدان / مارس / . وقد وفرت لي هذه الرحلة إلى لينغراد متعةً أية متعة ، وأنا ما أزال أذكرها كما أذكر قصةً رائعة !

* * *

كيف أتصور العالم

بفضل اللمس والشم

كيف أتصوّر الألوان ؟

ما أكثر الذين يسألونني عن مدى قدرتي على تصور الألوان . وبعض الناس يسألون كذلك عن مدى قدرة الأعمى على تمييز الألوان بفضل اللمس .

وجوابي على هذين السؤالين بالنفي ؛ ولكن طالما أني أتحدث باللغة التي يتكلم بها المبصرون فأنا أستعمل العبارات المستخدمة ذاتها للدلالة على الألوان ودرجاتها .

وكنت دائماً أحاول تصور الألوان ؛ وفي صباي كنت أسأل أصدقائي غالباً أن يشرحوا لي تعدد الألوان . على سبيل المثال لبست ذات يوم فستاناً جديداً من الصوف وُصف لي على أنه من لون (القهوة بالحليب) ، وكنت معجبة بتفصيلة هذا الثوب وأرغب جداً في معرفة كنه هذا اللون ، وكان الجواب : إنه بالضبط لون القهوة بالحليب !

وصحيح أني أتصور بوضوح فنجاناً ساخناً من القهوة بالحليب فأشم رائحته وأتذوق طعمه ولكن أنىّ لي تصور لونه ! ؟ وقد عوضت عن ذلك بتصور الفستان الذي أتحسسه بعناية مدركة في الوقت نفسه عجزي عن رؤية لون القهوة بالحليب بأصابعي .

سألت مرة أخرى عن لون منديلي فقيل لي بأن لونه لون الرمل . فأردفت : وكيف يكون ذلك ؟ وكان الجواب : تماماً مثل الرمل . ألا تتصورين ذلك ؟

وتصورت بوضوح رمل حديقتنا حيث يلعب الأطفال برفوشهم وسطولهم الصغيرة ، ثمّ تصورت ضفة النهر ورملها الرطب البارد ، كما تصورت شاطئ البحر برمله الجاف الساخن حيث تغوص فيه الأقدام ، أما لون الرمل فما استطعت تخيله . وقد حاولوا كذلك أن يشرحوا لي اللون الأخضر فقارنوه بالعشب أو بأوراق الأشجار . ولقد تصورت العشب والأوراق ، أما لونها فهيهات !

وكذلك الأمر حينما حاولوا أن يشرحوا لي لون المشمش فكنت أتصور جيداً لون المشمش الذي ذهّبته الشمس ، برائحته العطرة حينما كنت أقطفه من أغصانه ، ولكن كل ذلك لم ينجح في مساعدتي على تصور لون المشمش .

* * *

زهرة المانوليا والورد

تثير كلمة (المانوليا) في ذاكرتي دائماً المشهد التالي : صباح صيفي ونافذة الغرفة مفتوحة وأشعة الشمس تتخلل الهواء الرطب ، وأنا أرتب غرفتي .

وهذا اليوم تذكرت كل شيء بوضوح . دخلت الغرفة حيث السرير على اليمين وفوقه على الجدار تمثال صغير لبوشكين والساعة الجدارية الخاصة بالعميان ، وصور ذات أطر تمثل مشاهد من القرم والقوقاز . أنا لا (أرى) إلا الإطار ؛ أما الصور فلا يمكنني الحكم عليها إلا بما يقوله الآخرون عنها . ومن بين الصور نسخة من لوحة (الصخرة) للرسام (ايفازوفسكي) التي أتصورها بوضوح وكأني استشعر بيدي صلابة الصخرة وخشونتها ، وأتصور نفسي جالسة على الصخرة المرتفعة المشرفة على البحر ، والأمواج تتكسر عليها دون انقطاع وتغمرني برذاذها . أتذكر كذلك صخرة على شاطىء البحر في أوديسا كنت أحب الجلوس عليها وبخاصة خلال العاصفة إذ تكاد الأمواج تصل إلى رأسها . كنت أمد ذراعي وأنا منبطحة لأضم البحر الهائج . . . والآن وأنا أكتب هذه السطور أتذكر بجلاء وقوة تلك الصخرة والبحر وروائحه . آه كم أتمنى أن أعيش ثانية كل ذلك . . ولكن لابد لي من أن أتابع وصف غرفتي .

وراء السرير خزانة ، ثم يليها الجدار والنافذة المفتوحة ، وعلى طاولة صغيرة ، كما على إفريز النافذة بعض النباتات . وبين الطاولة ومكتبي تمثال نصفي لبوشكين ، وإلى جانب المكتب مقعدان ، وعلى المكتب آلة كاتبة وأوراق وكتب وتمثال نصفي لغوركي ، ووراء الطاولة إلى اليسار باب يؤدي إلى المكتبة ، يلي ذلك ديوان ذو مسند مرتفع .

يبدو لي أني أقترب من تلك الأشياء واحداً إثر واحد ، وهي مألوفة لديّ ، ويكفيني أن ألمسها أخفّ لمسة حتّى أتجنبها حالا . والأرض الخشبية أتصورها مفروشة بسجاد القنب الذي رسم عليه محدبات ومربعات صغيرة نافرة .

أتخيل أن أحدهم يقرع الباب (وبينما أكتب هذه الأسطر أتصور أن هناك من يضرب على الحائط من الخلف ، ويصل ذلك إلي عبر الأرض الخشبية ليزيد من وهمي) ، فتحت الباب . . . وها هي ذي (إيغوروفنا) تسلمني باقة كبيرة . إنها ليست أزهاراً ولكنها أغصان ذات أوراق وكأنها أوراق التين . عاينت الباقة فوجدت فيها براعم كبيرة طولانية ، ولم أدرك ماذا تكون تلك الباقة . قالت لي ليديا :

— لقد عادت الكسندرا هذه الليلة من (توابسي) وقد جلبت لك أزهاراً مبرعمة من المانوليا .

— وهل للمانوليا إذن أوراق كبيرة كهذه ؟ كنت أظن أن أوراقها صغيرة وذات شكل متميز . وها هي ذي براعمها طولانية وأزهارها كأنها كؤوس ذات أعناق ، كالزنابق .

دهشت قليلا إذ كان قد قيل لي إن للمانوليا أزهاراً كبيرة تفوح برائحة قوية ، وكنت أتصور أوراقها غضة شبه مستديرة ، وأزهارها كأزهار النرجس ؛ أما رائحتها فأعرفها ، وهي تشبه رائحة النرجس ولكنها أقوى وألطف . وتفتحت البراعم بعد بضعة أيام ، ففتنت لمنظر أزهار المانوليا وسحرني أريجها الشهيّ .

ومنذئذ أتصور المانوليا ورائحتها بوضوح ، وبعد عدة ساعات ، خلال العطلة الصيفية ، وفي أحد بيوت الراحة في (توابسي) أطلعوني على غصن مزهر فتعرفت على المانوليا من رائحتها وقبل أن ألمس ذلك الغصن .

* * *

وما أكثر ذكرياتي عن الورد ، وقد لايكفي كتاب كامل لاستيعابها . . . عندما كنا نمر البارحة ببائعة الورد أطلعتني ماريا نيكولايفنا على بعض الورود ، فانتصبت في ذاكرتي تواً صورةٌ ما ظلت عالقة بها طوال النهار .

وبينما كنت أقرأ في غرفتي ذات مساء صيفي قرع الباب أحد الأصدقاء ثم دخل وقدم لي باقة رائعة من الورد . وقرب صديقي الباقة من وجهي ، لكني دفعت بها بحركة عشوائية فانصبّ شيء من الماء على ثوبي .

وما زلت أتذكر بوضوح مشهداً آخر : كان علي أن أرافق صديقي حتى ردهة المدخل كي أغلق الباب وراءه . والذي أذكره أني كنت

علقت المفتاح على مأخذ الكهرباء فوق الطاولة ، وحينما اقترب صديقي المبصر من الطاولة ليأخذ محفظته وقفت في منتصف الغرفة على وجه الدقة وحددت مكان المأخذ والسلك الكهربائي والمأخذ نفسه ، ثم اقتربت من الطاولة بخطى واثقة دون أية حركة لالزوم لها ، وما كنت بحاجة للمس الطاولة فأنا أعرف مكانها المحدد ثم مددت يدي نحو المأخذ بسرعةٍ وبدون تردد .

ذهل صديقي لدى رؤيته لحركاتي الدقيقة الواثقة . . ولست أرى في ذلك مايدعو إلى الدهشة ؛ ففي أي محال أعرفه وأدركه تتجه حركاتي نحو الشيء أو المكان المحدد الذي أتصوره في كل لحظة ، ومهما كانت المسافة فأنا استوعب الغرفة وما فيها من دقائق استيعاباً كاملا .

زهرة الميموزا

قيل لي إنَّ (شيئاً) يسمى بهذا الاسم ، وذلك قبل أن تتاح لي رؤيته بزمان طويل .

وفي أول الأمر ماكنت أتصور شكل هذا النوع من الزهر ، أهو من نباتات السياج أم شجر عادي . ومع ذلك كنت أتصوره نباتاً كثيفاً ذا أوراقٍ تشبه أوارقَ (عنب الثعلب) ؛ أما أزهار الميموزا فتبدو لي كبراعم الورد الصغيرة .

وحينما قدم لي غصن مزهر من الميموزا (وكنت أعرف سابقاً رائحته الطيبة من عطره) لم أكن أريد أن أصدق أنه هو زهر الميمورا حقاً . وظننت انهم يريدون مازحين إيقاعي بورطة . رأيت أغصاناً صغيرة وأزهاراً متناهية في الصغر ، وهي متواضعة حقاً إذا قيست بالأغصان

الرائعة التي كنت تصورتها . ولكن لست أدري لماذا بدا لي هذا الزهر مألوفاً . . . وارتسمت في ذهني أول الأمر صورة ضبابيةلنسيج العنكبوت وقد تحول إلى تطريز ناعم ثم إلى شبكة ثم إلى عود صغير أخيراً.وبعد ذلك راحت مخيلتي تولّد الأغصان ثم الشجرة كاملة . وأنا أذكر خلال طفولتي حينما كنت أعيش في الجنوب أني تسلقت ذات يوم سياج حديقة لأني شممت رائحة طيبة ، وكنت أجهل كنهها . ولست استطيع أن أحدد زمان ذلك : أكان ربيعاً أم صيفاً ، إذ كنت مازلت صغيرة ولذا أعجز عن التمييز بين الربيع الجنوبي الحار وبين فصل الصيف ؛ وكل ما أذكره أن الجو كان حاراً .

واليوم أتمثل نفسي في هذه اللحظة ، بُنَيّةً تبذل جهدها وتمزق ثوبها وهي تتسلق السياج لتلمس الأغصان السفلى لشجرة ذات أوراق صغيرة وزهور أصغر ، وهي تفوح بأحلى الأريج . ولقد عشقت تلك الشجرة واحتفظت منها بذكرى أثيرة لدي ؛ ولقد كانت من الميموزا ، ولا شك،لأن الغصن الذي قدم لي اليوم يشبه ذلك الغصن الذي كنت عاينته فيما مضى على تلك الشجرة .

لاأستطيع أن أتذكر دائماً أين كنت أعيش حينما رأيت تلكالشجرة، ولاكم كانت سني آنذاك . . . ولكن عندما يخطر(الجنوب) على بالي أتذكر شجرتي تلك .

ذات يوم في نهاية آذار ، والعواصف الثلجية في إبان حدتها جاءت صديقة تزورني في موسكو وكنت آنذاك متعلقة بها ، وأتصورها بارعة الجمال ، طيبة القلب ، مرهفة الحس . قدمت لي هذه الصديقة باقة من زهر الميموزا ، وكنت مريضة ألازم فراشي فأثرت في نفسي تلك

اللفتة تأثيراً خاصاً إذ أثارت كثيراً من الذكريات . كنت أرى شجرتي الأثيرة والرحلات التي قمت فيها في الجنوب . . . ولكي أعبر لها عن امتناني للهدية أرسلت اليها قصيدةً اليكم مطلعها :

قدمتِ لي تلك الباقة
من الميمورا ذاتِ الأريج .
وعربونُ الصداقة هذا .
جعلني أحلم كأني في الربيع . . .

ومازلت أذكر خاتمتها :

باقتك الطافحة بالوداد .
أيقظت ، على بعد المسافة
ذكريات الجنوب ، حيث ولدت
مع أحلام طفولتي .

* * *

بم تذكرني تسريحة شعر (ر. م) ؟

ذات يوم كانت (ر م) أمام المرآة تجرب نماذج من التسريحات في شعرها . اقتربت منها وسمحت لي بمعاينة ما صنعته في شعرها من أنواع (التضاريس) ، وكنت قرأت قصصاً لدوماس وكتابِ آخرين تصف تسريحات وزينات سيدات البلاط . ولدي معاينتي تسريحة (ر . م) الجديدة تصورت حالاً مروة مستعارة لم أر لها مثيلاً ، وتسريحات عفّى عليها الزمن فقلت لها :

— أنت تشبهين الآن سيدة من بلاط لويس الرابع عشر .

أضحكها قولي وقالت :

— لماذا فكرتِ بذلك ؟ وهل تعرفين سيدة من سيدات ذلك البلاط ؟

— كلا . ولكن يمكن أن تكوني في عداد سيدات بلاط الملك ، دون ريب .

* * *

الأسئلة التي أواجهها

كثير من المبصرين ممن لم يعرفوا عمياناً يطرحون علي أسئلة كهذه : من يختار لك لون ثيابك وتفصيلها ؟ ومَنْ ينصحك بشراء هذا الفستان أو ذاك ؟ مَنْ يختار لك الأثاث والمفروشات لغرفتك ؟ مَنْ يرتب لك الأثاث في الغرفة ؟ لماذا رتبت موجودات غرفتك على هذه الصورة أو تلك . ؟

وعندما أجيب قائلة : إنني أختار كل ذلك تقريباً بنفسي فهم ينظرون إلي ، كما يقال لي ، باندهاش وبشيء من الإنكار غالباً ، ومع هذا تلك هي الحقيقة .

وإذا ما اشتريت فستاناً جاهزاً فأنا أتفحصه وأقرر مدى صلاحيته لي وإعجابي به ، وأنا أصل إلى ذلك عن طريق يدي . أما مايتعلق باللون فلا شك أن المبصرين هم الذين يوحون به لي . وأنا أعرف من زمان طويل الألوان التي تناسبني ، وأحاول ارضاء أذواق الأصدقاء الذين أثق بهم . ويتفق أحياناً أن من يرافقونني إلى أحد المخازن يشيرون علي بأن لوناً ما يناسبني وبأن ذلك الفستان يليق بي ، ومع هذا إذا بدا لي أن فستاناً ما لا يلائمني فأنا لاأشتريه على الرغم من رأي المبصرين ، فقد يكون ضيقاً أو فضفاضاً ، قصيراً أو طويلا . ولكن من سوء

الحظ أن لكلٍ ذوقه الخاص ، فاذا أصغيت إلى جميع الاقتراحات فقد لا أشتري شيئاً ، وهكذا أستشير ذوق شخصين أو ثلاثة ، فاذا اتفقت غالبية الأذواق حاولت ، قدر الامكان ، التقيدّ برأيهم .

حينما أرتب أثاث غرفتي فأنا أستفتي ذوقي الخاص متوخية مايريحني عملياً ؛ وهكذا أدرس وضع الغرفة بكل عناية قبل القيام بترتيبها ، وهذا مايجلب لي الراحة . وإذا زارني بعض المبصرين وغاب عن بالهم أنني عمياء فانهم يزرعون الفوضى ، كأن يتركوا كرسياً وسط الغرفة أو يضعوا كأساً في غير المكان المخصص لها ، وهذا مايثير أعصابي . ولست أفهم لماذا يحب المبصرون الفوضى ذلك الحب ! ذات يوم شربت صديقة لي كأساً من الماء وتركتها على طرف الطاولة وكنت على ثقة من أنها في مكانها المعهود ، فحينما رحت أمسح الطاولة أسقطت الكأس فانكسرت . أمسكت بصديقتي وقلت لها :

— ألا تريدين أن تفهمي أنه لم يكن بمقدوري توقع وجود الكأس على الطاولة ؟ ! . . . وأنا أعهدها في مكانها المألوف فأمد يدي إلى حيث يجب أن تكون ، لا إلى حيث وضعتها أنت .

أجابت صديقتي بعفوية :

— يجب عليك أن تألفي أني سأترك الكأس حيث يروق لي !

— أنسيتِ أنك تتعاملين مع عمياء ؟ وما أسهل عليك أن تجولي ببصرك لترى كل ماتحتاجين إليه . أما نحن — معشر العميان — إذا لم نجد متاعاً في مكانه المعهود، فكيف لنا أن نتصور المكان الذي يستقر فيه؟ ونحن (نرى) كل شيء في موضعه ، فاذا افتقدناه فكم من جهودٍ تلزمنا للبحث عنه .

كيف أتصور بعض الظواهر الطبيعية

العاصفة والغيوم

حينما أكون في غرفتي ويقال لي إن العاصفة قد هبت ، اقترب من النافذة وأتلمس زجاجها لأحس بقصف الرعد .

حاولوا أن تتصوروا معي المشهد التالي : هبت العاصفة وأنا قرب النافذة وراحتي على الزجاج ، وأنا أحس باهتزازات هدير الرعد . وإذا لم أفتح مصراع النافذة لأحس بالمطر والريح مكتفية باستشعار قصف الرعد ، بدا لي عملاقاً ذا قوة خارقة يهز الزجاج . وهذا العملاق بعيد عن الأرض ، لا المبصرون بقادرين ، ولا أنا ، على رؤيته أو لمسه . وفي الحق أني أعرف تماماً علة الرعد والبرق ؛ لكني أتصور الرعد حين يزمجر كائناً جباراً لا شكل له ، لا أحس إلا بقوته العملاقة خلال اهتزاز الريح على زجاج النافذة ، وحينما تشتد هذه الاهتزازات وتتوالى يخيل إلي أن هذا الكائن قد أصبح قريباً جداً من النافذة ، أما إذا كانت الاهتزازات ضعيفة ومتقطعة فأشعر بأن هذا الكائن قد ابتعد .

ولكن حينما أفتح النافذة وأنحني لأحس بالمطر والريح واهتزازات الزجاج فأنا لا أشعر بتلك الأحاسيس منفصلة بل مندمجة كظاهرة عادية مألوفة ، ومع ذلك إذا أخبرني أحد المبصرين بأن البرق يلمع فأنا لاأستطيع تصور ذلك طالما أني لاأملك أي تصور عن ضوء القمر ونور النجوم .

وذات يوم فعلت عاصفة شديدة فعلها في نفسي فأوحت إليّ بكتابة قصيدة سميتها (العاصفة) أشرت في نهايتها إلى البرق لأن أحد أصدقائي الذي يسكن في ضواحي موسكو والذي رأى تلك العاصفة نفسها ، كتب لي يقول : (أكتب إليك والعاصفة تهب ، وأظن أنك ترين ما أراه . هدير الرعد يتوالى والبرق يلمع كشفرات السيوف العريضة المصقولة اللامعة . . . وقد قتل ليرمونتوف في تموز خلال عاصفة عنيفة . وأوستروفسكي يصف عاصفة مماثلة في مسرحيته « العاصفة »

وقد ساعدني تشبيه البرق بشفرات السيوف على تصوره كشيء يمكن لمسه ، وليس لمعاناً ضوئياً تراه العين فحسب .

وهكذا بفضل الاستعارات أتصور غالباً الأشياء غير القابلة للمّس ، ولكن يبدو لي أن الأعمى لابد له من الالمام بالهندسة قبل أن يشرع بتصور العالم الخارجي بمساعدة الاستعارات ، فبدون الالمام بأوليات الرياضيات والهندسة لايستطيع الأعمى تصور الأشياء وأشكالها وحجومها ولا الجبال وقممها المخروطية ، ولا الشواطىء المتعرجة للأنهار العريضة ، ولا الأفق البعيد .

وبودي كذلك أن أشرح لكم كيف أتصور الغيم الذي وصفه بوشكين في قصيدته : « السحابة »

« أيتها السحابة المتخلفة عن العاصفة الهاربة
تتهادين وحيدة في السماء الصافية .
لتنشري ظلال الكآبة
وتحوّلي أفراح النهار إلى أحزان »

حينما أقرأ هذا المطلع أتخيل أني أرى أشعة الشمس الحارة بعد العاصفة ومثلثاً كبيراً من الظلام (كما يصفه المبصرون) يموج في الهواء كتلة كثيفة بعيداً عن الشمس ، وتقترب تلك الكتلة من الشمس لتحجب حرارتها أما إذا كنت في الطريق والغيوم تحجب الشمس فسرعان ما أشعر بذلك من الهواء الذي أصبح رطباً ، وهذا التحول من الحرارة إلى البرودة يعطيني فكرة عن (ظلال الكآبة) التي « تحول أفراح النهار إلى أحزان » .

ويتابع بوشكين :

منذ قليل كنت تملئين السماوات
والبرق ينفذ منك مسرعاً
والهدير الخفي ينطلق
والأرض العطشى تتغذى بأمطارك .

أتخيل دائرة كبرى وسط السماء (والسماء نفسها تبدو لي فضاء لاحد له) وعلى محيطها خطوط البرق المتعرجة المتوهجة الحارة ، ثم تنفصل قطع كبيرة عن الدائرة وتتحرك بصورة عشوائية ويصدم بعضها بعضاً لتحدث قرقعة عظيمة أو كما قال بوشكين :

« هديراً خفياً » .

وعند اصطدام هذه القطع تتحطم إلى جزيئات صغيرة تسقط على الأرض مطراً بارداً

وأتابع القراءة :

إختفي ياسحابة الآن : يكفيك
فالأرض قد ابتردت والعاصفة عبرت .
وعندما تداعب الريح أوراق الأشجار
تطردك من السماوات الهادئة الراضية .

وأنا لا أتمثل رجلا واحداً يأمر الغيوم أن تبتعد بل أحد الجبابرة يسخّر قوى الطبيعة ويطلب إليها أن تُرجع إلى الأرض نور الشمس . . وها هي ذي السحابة المطيعة تختفي مسرعة في أعماق الفضاء الرهيب . . والشمس تعود لتسطع بفرح وتدفىء الأرض ، والهواء الآنَ نقيٌ عليل ، ونسمة خفيفة تهز أوراق الأشجار والأزهار التي بللها المطر .

النيازك :

لديَّ صورتان في ذهني عن سقوط النيازك : أولاهما ناجمة عن قول المبصرين لي ان في السماء نجوماً كثيرة . وفي اللغة الدارجة يقال خلال الحديث عن النيازك : « سقطت نجمة » فأتخيل نجمة صغيرة كتلك التي أشرت إليها ، وهي تسقط على الأرض من ارتفاع غير محدود ، ثم يزداد حجمها كلما اقتربت من الأرض ثم تسقط وتختفي بالنسبة لي ، فأنا لاأستطيع تصور نجمة على الأرض .

أما الصورة الثانية فأتصور فيها النيزك جسماً متماسكاً ذا حجم غير واضح المعالم فلا هو مدور ولا طويل ولا مربع ، إنه ببساطة ، بريق خاطف ضخم لجِرمٍ حجري عملاق أو أية كتلة أخرى صلبة .

وحينما يتحدثون عن الذَّنب فهذا يبدو لي شاعرياً جميلا ، بينما ليس النيزك بالنسبة لي ، سوى بريق خاطف يهوي من السماء .

الدب الأكبر والأصغر :

في البداية كنت أتصور الكواكب على النحو التالي : في مكان ما من السماء نجمة كبيرة على صورة حيوان عظيم ومن حولها يتناثر عدد كبير من النجوم الصغيرة ذات الأشكال والأبعاد المتباينة .

فيما بعد عرفت الأساس الأسطوري لتسمية (الدب الأكبر) :

حينما تخلت إلهة الصيد ديانا عن صحبة كاليستو مسخها (جينون) دبةً ، فأقام كبير الآلهة جوبيتر (كاليستو) وابنه (أركاس) في السماء يشكلان مجموعة الدب الأكبر والدب الأصغر . وبعد أن قرأت هذه الأسطورة رحت أتصور تلك الكواكب على صورة أخرى : ففي أعالي السماء حيوان كبير متطاول يشبه الدب المحشو بالقش الذي كنت عاينته ذات مرة ، وبالقرب منه شبح دب صغير يلعب ، وحولهما نجوم على هيئة دائرة

ولكن حينما أسمع أحياناً حديثاً عن مجموعتي الدب الأكبر والأصغر أتخيلهما على نحو مغاير .

قرأت ذات يوم أن أعداء غوركي ، قبل الثورة ، كانوا يسمون ،

ساخرين ، الحلقة الأدبية التي كان يديرها « مجموعة مكسيم الأكبر » وقد أعجبني ذلك . ومنذ ذلك الحين أتصور غوركي كائناً عجيباً يشع فرحاً وطيبةً يجلس إلى الطاولة ومن حوله فتيان ذوو وجوه ناضرة مصغية ، يؤلفون مجموعة من النجوم الصغيرة ذات البريق الخفيف ، وغوركي يروي لهم مايروي وهم يصغون إليه بشغف وامتنان .

نهر المجرة (درب التبانة)

أنا أعرف ماهو (نهر المجرة) ، ولكني لاأتصوره أبداً على الصورة التي يشير إليها المبصرون . حينما أقرأ في الكتب عن نهر المجرة أتصوره قطعة من حرير الموسلين طويلة ضيقة ناعمة طرية مضيئة ممتدة في أعالي الفضاء . ولست أدري مدى جمال نهر المجرة ، ولكن يبدو لي أن الموسلين الأبيض على سماء زرقاء شيء جميل حقاً .

وحينما أقرأ عن المجرة البيضاء في أحد الكتب أتصور الحليب «١» في بادىء الأمر واستشعر طعمه في فمي . والمبصرون يصفون الحليب بالبياض ، فلا بد أن يكون الموسلين أبيض صافياً .

النجوم

طالما أني عاجزة عن الاحساس بضوء النجوم فطبيعي أن لا أعرف بريقها : أقويٌ هو أم ضعيف ؟ وفي الحق أني عرفت من علم الفلك ماهية النجوم ، ولكني لاأتصور أشكالها وأبعادها .

---

(١) نهر المجرة يسمى في الفرنسية : الطريق الحليبية La Voie Lactée

وقد سبق لي أن رأيت نجوماً مطرزة وشعارات على هيئة نجوم الخ . . . وهكذا توحي إلي نجوم السماء بتلك النجوم ولما كنت أتخيل النجوم من ذهب فأنا أراها تلمع كما يلمع هذا المعدن . أما بعدها عن الأرض فلا أقوى على تصوره ، ولكن حينما أصف النجوم في قصيدة لي أستخدم طبعاً مفردات المبصرين .

وعلى سبيل المثال كتبت أقول في قصيدة عن القفقاس :

في عتمة الأفق البعيدة

تطلع النجوم واحدة واحدة . .

وطبيعي أني لاأتصور أبداً (عتمة الأفق البعيدة) ، ولكنني أستخدم فقط تعابير المبصرين ، مع أن هذه (العتمة البعيدة) يمكن أنتوجد في الطبيعة على صورة مغايرة لتلك التي أتصورها.وفي قصيدة لي عن مدينة (سوتشي) أقول : « أضواء سوتشي في الأسفل كأنها نجومعلىالأرض». وقد شبهت الأضواء بالنجوم لأن المبصرين يقولون : إن أضواء المدينة تلمع في المساء ، وإن أضواء النجوم تسطع في السماء المظلمة . وأنا مضطرة إلى أن أعيد القول : إني أستخدم دائماً لغة من يبصرون ويسمعون ، وليس من لغة خاصة بالعميان والصم البكم .

وفي الغالب تهرب أفكاري مني حتى أكاد أفقد السيطرة عليها ، ومع هذا أحاول وصف الصور كما أحفظها في ذاكرتي وكما تبدعها مخيلتي ، وذلك بفضل التحليل والاستبطان المستمرين . وأنا لاأحاول أبداً إقناع نفسي بأن صورة العالم الخارجي تطابق تلك الصورة التي أتمثلها لنفسي عن ذلك العالم . .

وقد ساعدتني دراستي (للمادية الجدلية) أيما مساعدة في تكوين مفهوم صحيح عن العالم ، فعندما أتحدث عن تصوراتي لا أعتمد – كما يفعل بعض العميان غالباً – على الغريزة ولا على (الأفكار الفطرية) أو على أي مفهوم مثالي آخر لدراسة الفكر البشري .

القمر :

كم يتحدث الناس عن القمر ، وكم تناوله الأدباء بالوصف في مؤلفاتهم .

والكتب القديمة تصف القمر بأنه (الكوكب الليلي) أو (قنديل الليل) . وعلى غرار مايفعل المُبصرون الذين يشبّهونالقمر بالقنديل أحاول تصور هذا النجم مصباحاً ضخماً مضيئاً ، ومع هذا فالقمر لايبدو لي أبداً كمصباح معلق بالسلاسل في كنيسة .

وأتذكر حينما كنت ما أزال صغيرة في الريف أني عاينت قنديلا من قناديل الكنيسة دون أن أعرف أسمه أو وجه استخدامه ، فلماذا لاأرى القمر إذن على أنه قنديل ؟

وأنا أتمثل القمر كرة مفرغة من الخزف المجوف وأحس بملمس سطحه الصقيل ، وهو يبدو لي كذلك حينما يكون بدراً في التمام . وإذا ماوصفت القمر بأنه مضيء فليس معنى ذلك أني أملك القدرة على التصور البصري للمضيء والمظلم ، ولكني إذ أحس بالحرارة والبرودة على بشرتي أربط بالتالي بين هذين الاحساسين وبين إحساسي بالضياء والظلام . ويقول المبصرون : « إن القمر يسطع » وأنا أصفه إذن بأنه (كرة مضيئة) .

وفي المساء حينما يتاح لي وأنا في الطريق أن أشهد غروب الشمس فأحس برطوبة الليل الذي يخيم ، أتمثل السهام الطويلة المحرقة لأشعة الشمس وهي تلامس سطح هذه الكرة الكبيرة التي ترسل بدورها أشعة واهية لا أشعر معها بأية حرارة . وفي الحق أني أستطيع تصور القمر وهو يستمد نوره ليبعث به أشعة مضيئة باردة تستهوي مَنْ يبصرها ، ومع هذا فأنا عاجزة عن الاحساس بضوء القمر ، فهو لايبدو لي ممتعاً مبهجاً ، منعشاً كضوء الشمس . وفي الشتاء أو في بداية الربيع ، حينما استشعر على وجهي أشعة الشمس فسرعان ما ابتسم ، ولكني لاأبتسم أبداً إذا قيل لي : « يا للقمر الساطع » ، فهذا النوع من الانبهار لايعني لي شيئاً . وحينما أتذكر وصف (أوجين أونغين) لفتاة اسمها أولغا : « مستدير وجهها كهذا القمر البليد » أتمثل القمر وجه امرأة تبتسم بخبث وغنج .

وأنا قادرة دائماً على تصور ابتسامات الآخرين لأني أبتسم كما يفعلون ، وأعاين أحياناً وجوه القريبين مني عندما يضحكون أو يبتسمون ، ولهذا أفهم جيداً أبيات ليرمونتوف المقتطفة من قصيدته « الشيطان » .

لكن شعاع القمر
الذي يلعب مع الأمواج ويداعبها
لايضاهي تلك البسمة
المتدفقة حياة وشباباً .

ولكن القمر ليس بدراً دائماً ، فحينما يوصف لي الهلال أتصوره قطعة رقيقة من اليقطين طرفاها رفيعان متجهان إلى الأعلى .

أما المسافة بين الأرض والقمر فلا أستطيع تصورها .

إحساسي بالفضاء ـ انفعالاتي
تصوري لما لم أره أبدًا

نزهاتي في الحديقة العامة

خلال حياتي في خاركوف كنت أتنزه غالباً في الحديقة العامة بصحبة دليل ، وكنا نجوب أول الأمر الممرات كلها حتى أتمكن من تصور الحديقة كاملة . وكنا نمر خلال أشجار الزيزفون والسرو والكستناء وغيرها ودليلي يساعدني في التعرف على روائحها .

وبعد عدة نزهات كونت فكرة واضحة عن معالم الحديقة وممراتها ، وما عاد المرافقون بحاجة إلى الاشارة إلى الممر الذي نعبره أو الذي نتجه إليه . كنا نتجول في كل مكان ونتحدث ، وكان يخيل الى مَنْ يرافقني أني لاأعير انتباهاً للطريق التي نسلكها ؛ ولم يكن هذا صحيحاً ، فأنا أعي الاتجاه وأتنبه لكل ممر ، فأميزه برائحته : فهنا رائحة الزيزفون والبتولا الصغيرة ، وهناك رائحة السرو الصمغية ، كما أتنبه في كل ممشى إلى خصائص أرصه ومعالمها .

وكان أستاذي سوكوليانسكي يرافقني أكثر من غيره ويحاول

دائماً أن يعرّف لي بدقة كل الأشياء وأشكالها ، ومفهوم المسافة وغير ذلك . . .

وكنا نحب بخاصة ممشى السرو ، وكان يتركني جالسة على المقعد ويروح ليقطف لي الأزهار البرية التي تنمو على الأعشاب ؛ وقد يغيب أحياناً خمس دقائق أو عشراً ، فكنت أحس بالوحدة التامة وبأني لست في حديقة عامة يرتادها الناس ، وإنما في حقل لا إيراني فيه إنسان ، فاذا ماطرأ طارىء ولم يرجع أستاذي فما الذي سأفعله حتى أعود ؟ هل سأطلب النجدة ؟ لا فقراري ألا أستنجد بأحد . . بل أنهض وأسير في الممر بهدوء ، وفي نيتي الاسترشاد بالروائح وبتعرف الطرقات المعروفة والمجهولة بواسطة القدمين . هكذا تصورت نفسي وأنا أعود وحيدة متمثلة طريقي ممشى ممشى وشارعاً شارعاً ، وكنا نسكن بالقرب من الحديقة العامة فما كانت بنا حاجة إلى الترام .

وقد استغرقت تماماً في رحلتي الخيالية حتى تمنيت حقاً أن يطرأ طارىء ويتركني الأستاذ وحيدة فأضطر للعودة بوسائلي الخاصة . ومع ذلك فأنا على يقين من أن أستاذي لن يتركني وحيدة في الحديقة .

وأخيراً عاد مالئاً قبعته بالزهور الصغيرة ، فرحنا نعاينها وندرس تويجاتها وأعناقها وأنا أحدثه خلال ذلك بما دار في خلدي أثناء غيابه ، وكان يقول لي مازحاً :

– كان عليكِ حقاً أن تتناسي أنك في حديقة عامة .

– وكان عليك أن تتظاهر بنسياني وتعود إلى البيت .

وأجابني قصد تخويفي :

ـ وماذا ستفعلين لو داهمكِ ابن آوى ؟

ولكني كنت على درجة من الشجاعة بحيث لاأخاف ابن آوى ، أضف إلى ذلك أني أعلم أن لاوجود لذلك الحيوان في الحديقه .

وفي الغالب كنا نترك الحديقة العامة قاصدين الحقول البعيدة والغابة والطريق المؤدية إلى أقرب كولخور ، وكان أستاذي يصف لي الحقل والغابة والناس المتجهين إلى الكولخور . كنت أستشعر النسيم العليل ورائحه الحقول التي يحملها النسيم . وأحاول تصور الفضاء البعيد الأغبش ، كما أحاول تصور الغابة التي ماقصدتها من قبل ، لكني لم أكن أستطيع ذلك فانطباعي عن الغابة أنها مجموعة من الأشجار المبعثرة المعزولة المتباعدة .

وفي الوقت نفسه ومع هذه الانطباعات المحفورة في الذاكرة كنت أرحب كثيراً بالتنزه في الحديقة ، وكنا ننزل بعض الأحيان إلى وهدة لنجلس على العشب ونقرأ ، ومن قلب الوهدة تنتشر برودة خفيفه تجعل جوها رطباً ولا سيما في الأيام القائظة . وكانت روائحها قويه ، ويبدو لي أننا لسنا جالسين على سفح الوهدة وإنما على صخرة تشرف على البحر ، ولم يكن لرائحة البحر وجود ، ولكني كنت على درجة من الارتياح بحث خطر البحر على بالي على الرغم مني ، فعلى شاطىء البحر وحده كنت أعاني مثل هذه الأحاسيس وأشعر بمثل تلك المتعة

وسألت أستاذي

ـ ألا تشعر بأننا نجلس على صخرة تشرف على البحر ؟

ـ لا أشعر بذلك ، وأنا أرى من حولي الخضرة والحديقة التي أعرفها . وكل هذا لايمت إلى البحر بصلة .

ـ نعم . . ولكني لا أشم سوى روائح تذكرني بالبحر . وأنا أعلم أنه لابحر هنا ، وإنما يخيل إلي أنه هناك وراء الحديقة وأحس بالأمواج العنيفة التي تتكسر على الشاطىء وتناديني .

ـ أتحبين البحر هذا الحب ؟

ـ أوه . . . نعم ولا أستطيع العيش بدونه . .

كيف أقيم في غرفة جديدة وكيف أتعرف متاعها .

طالما غيرت مكان إقامتي خلال حياتي ، وطالما سكنت وحدي حسب مزاجي . وقد يقول قائل : إن ذلك لا أهميه له ولا يستحق الذكر . وطبيعي أن لايكون لتغيير المسكن عند من يبصر ويسمع أهمية خاصة ، ولكن ذلك عندي حدثٌ أيُّ حدث ، وما على المبصر إلا أن يلقي بنظره على الغرفة الجديدة ليقدر طولها وعرضها ، والأعمى القادر على السمع بامكانه أن يتصور أبعاد الغرفة من رجع الصوت ووقع الخطى ، زد على ذلك أنه يجول ويدور فيها ويعاينها بيديه .

أما الوضع فيختلف عندي ، فأنا محرومة من كل تلك النعم وعلي أن أدرس الغرفة جميعها بمنتهى الدقة لأتعرف طولها وعرضها وأدرك كونها مربعة أو مستطيلة . . . وعلي كذلك أن أتعرف على الباب أين يقع أمام أي جدار أو أية نافذة . . .

وبعد كل ذلك الفحص الدقيق الحذر يمكن لي تصور أبعاد الغرفة الجديدة ، لأعمل على ترتيب الأثاث في ذهني .

وفي الحق أني لاأتصور قطع الأثاث مجملة ، بل أتصور كلاً منها على حدة ، من الكرسي والطاولة والخزانة إلى السرير والديوان وغيرها . . . زد على ذلك أني لاأرى تلك الأشياء مصغرة أو مجسمة وإنما كما هي في الواقع ، والأشياء المألوفة لا أتصورها في تفاصيلها ودقائقها (كرجل الكرسي ثم الرجل الأخرى ثم المسند . . .) بل أتصورها بتمامها ، ولكن حينما أقوم بدراسة جزء من شيء مجهول أو غير مألوف فأنا أتصور ذلك الجزء الذي ألمسه فحسب .

وإذا ما قُدمتْ لي ، مثلا ، أطرافُ قرونِ وعلٍ لأتلمسها ، وسئلت : أتتصورين الآن قرون الوعل المتشعبة والوعل كاملا فان جوابي بالنفي ، ولكني حينما ألمس رافعة سريري أستطيع القول أني أتصور السرير كاملا .

وأنا أذكر ذلك لأن الناس والباحثين المهتمين بدراسة نفسية العميان وقدراتهم على العمل ومدى تلاؤمهم مع العالم الخارجي ، طالما سألوني عن كيفية تصوري للأشياء : هل أتصورها مكتملة أم منفصلة مصغرة أم مكبرة

ويخيل إلي أني أتصور كرسياً بعيداً بتفاصيله ، ولكن ليس بحجمه الطبيعي ، فقد أكون مخطئة حينما اقترب منه فأخلط بينه وبين أى كرسي آخر صغير أو كبير ، سليم أو محطم ومع هذا ، إذا درست تفاصيل ذلك الكرسي وكونت عنه فكرة مشخصة تماماً فأنا أستطيع التعرف عليه ، لافي مكانه المعهود فحسب ، بل في أي مكان آخر .

وحينما أطلع على بعض الألعاب المنزلية أتصورها كما سبق لي أن رأيتها ، فكرسي اللعبة عندي لايمكن أن يشبه الكرسي العادي .

وبعد أن أدرس إحدى الغرف الجديدة وأقدر أبعادها يمكن لي أن رأيتها ، فكرسي اللعبة عندي لايمكن أن يشبه الكرسي العادي

وبعد أن أدرس إحدى الغرف الجديدة وأقدر أبعادها يمكن لي أن أقيم فيها دون أية مساعدة ، وأرتب أثاثها حسب ذوقي ، ثم أبدأ بوضع المخطط ، وإذا عدّلت ذلك المخطط في بعض الأحيان فذلك لتوفير مزيد من الراحة لي ، إذ ليس عملياً بالنسبة لى ، أن أضع الطاولة وسط الغرفة فقد أتعرض للاصطدام بها

وبعد ترتيب الأثاث أعود لأتفحص الغرفه كي أعرف كمية الفراغ الباقية والحيز الذي يشغله كل متاع ، والمسافة الفاصلة بين السرير والطاولة وغير ذلك ، وهكذا بعد دراسة ومعاينة كل شيء أستطيع تصور الغرفة كلياً والتنقل فيها بيسر .

وحينما يسود الترتيب بصورة دائمة في الغرفة أتعود لاشعورياً على أن ألائم بين حركاتي وبين وضع العرفة ، فاذا ماكنت على الديوان مثلا ، وأنا محتاجة لورقة أو قلم ، فلا أمد يدي عشوائياً وإنما نحو الطاولة الصغيرة حيث الورق والأقلام ؛ وإذا ما أردت الاقتراب من الخزانة فأنا أخطو الخطوات اللازمة فحسب حتى لاأصطدم بها . (وطبيعي أنه لاحاجة بي إلى عدّ تلك الخطوات) .

وقد اتفق لي أن انتقلت من غرفة صغيرة إلى غرفة أكبر ، أو على العكس من ذلك . وفي مثل تلك الحالة لا أشعر بالراحة في أول الأمر ، فاذا ما وجدت نفسي في غرفة كبيرة بدت لي طويلة جداً فأقف في وسطها آلياً دون أن أصل إلى الطاولة أو الخزانة ؛ أما إذا كانت

الغرفة أصغر فاني أصطدم بالأمتعة في البداية ، وذلك لأني أقدرها بعيدة عني ، وهذه الأمتعة لاتبدو لي أصغر أو أكبر مما هي فأنا لا أخطىء في تقدير أبعادها . ولهذا كان من غير المعقول الظن بأن العميان إذا كانوا على مسافة ما من كرسي أو طاولة أو غيرها مألوفة لهم ، فهم يتمثّلونها أصغر أو أكبر مما هي عليه ، ولو كان الأمر كذلك لما استطعنا نحن العميان ، التعرف على الأشياء المألوفة .

وأنا أكتب هذه الأسطر أحاول تخيل كرتين : كبرى وصغرى ، فاذا اقترب أحدهم مني الآن وقدم لي الكرة الصغيرة المتخيلة ، فأنا سأتعرف ، بلا شك ، على أنها هي الصغرى . أليس هذا برهاناً على أن العميان يملكون تصوراً حقيقياً مجسداً عن العالم الخارجي ، يضاهي ادراك المبصرين ؟ وكل مافي الأمر أن المبصرين يتصورون الأشياء بعيونهم ، بينما يصل العميان إلى دلك بأصابعهم .

وإليكم هذا النقاش الدي دار بيني وبين سيدة مهذبة حقاً : كانت تريد إقناعي بأن العميان عاجزون عن تصور الأشياء بحجمها وشكلها الحقيقيين . ولست أدري لماذا تعتقد بأن العميان يتصورون الأشياء أكبر أو أصغر مما هي عليه ، وكانت تلح إلحاحاً على الاحتمال الثاني. وقد طرحت علي أسئلة حول هده المسألة قائلة :

— إذا قدم أحدهم لك تفاحة أو خيارة تم استرجعهما منك فكيف تتصورينهما ؟ صغيرتين أم كبيرتين ، مدورتين أو مستطيلتين ؟

وكان جوابي :

— أتصور التفاحة كما هي ني حجمها الطبيعي مستديرة قطعاً ،

ولها ذيل صغير ، أما الخيارة فهي عندي مستطيلة ومن الطبيعي ألا أخلط بينها وبين التفاحة .

– ولكن إذا عاينت شيئاً ثم ابتعدت عنه فهل بمقدورك تكوين صورة كاملة عن ذلك الشيء أو صورة جزئية فحسب ؟

– أنا أشعر الآن بيدك في يدي ، أما وجهك فلا أعرفه إذ لم أعاينه ، ولهذا لا أستطيع أن أتصور أنفك وعينك ، بل يدك فحسب . ومع هذا ، ومع أني أجهل ملامح وجهك فأنا أعرف أن كل مخلوق له وجه . . . فلا بد إذن أن لك عينين وأنفاً وفماً . وإذا لمست طرف أنفك تصورت هذا الجزء منه وتأكدت من وجوده . . . وتصوري معي المشهد التالي : إذا أخفيت وجهك تحت شيء ما أو اختبأت وراء حاجز ، ولم تحجبي إحدى عينيك أو جزءاً من ذقنك سهواً ، فان أحد المبصرين يمكنه أن يرى مالم تنجحي في إخفائه ، وهو لن يتصور بعد أن يتحول عنك ، الا عينك أو جزءاً من ذقنك وهو على يقين من أن لك وجهاً كاملا .

ولست أدري إن كانت أجوبتي قد أرضت محدثتي ، فقد ارتبكت قليلا وهي تشكرني على هذا الحديث الممتع . أما أنا فرحت بعد هذه المحادثة ، أحلل بدقة تصوراتي تلك ، وكنت أريد أن أقطع بخطأ أو صواب اجاباتي لتلك المرأة ، وأنا أقارن ادراك العميان بادراك المبصرين . وحاولت طوال النهار أن أتذكر الأمثلة الخاصة بالاحساسات والادراكات التي كنت قرأتها أو سمعتها وقد تذكرت مما تذكرت قصيدة ليرمنتوف الرائعة . « تحت القناع السحري البارد » حيث

؛ستطاع الشاعر بمقدرته على التخيل وحده ، أن يخلق من خصلة شعر وعينين وسمات أخرى ، صور امرأة رائعة لكنها هيولية .

وأنا أفهم هذه القدرة الخلاقة للخيال ؛ فكم من مرة وأنا ألمس يداً جميلة معبرة ، حاولت أن أبدع صورة رجل جميل أنيق بنظرته المضيئة وصوته الجذاب ، ثم أضفي عليه أجمل الشيم وأنبل الطموحات ، ولكن فيما بعد ، وحينما تصدمني الحقيقة المرة ، أكتشف بيدي أن هذا الرجل أبعد مايكون عن الجمال وأن تلك الصورة التي ابتدعها خيالي قد تبددت وتمزقت شظايا ، وأنه لم يبق لي إلا الأسف ليقيني أن ذلك لم يكن إلا حلماً .

حقاً إن الحقيقة الظالمة تصفع الناس ، فكم تخيب الصورة المبتدعة آمال العميان ، وكذا تفعل في المبصرين أحياناً ، فالعقل والارادة ليس بوسعهما أن يجابها أو يتلاءما مع حقيقة الوجود الانساني ، هذه الحقيقة التي لاتستقر على حال . وأنا أعلم أنه لايمكن لنا محاربة مانرتكبه من أخطاء في حياتنا إلا بالفهم السليم للواقع ، وبالوعي الصحيح العلمي للنفس البشرية ، ذلك الوعي المبني على التجربة ، والمدعوم بمعرفة قوانين الديالكتيك .

وقد تعمل الانفعالات أحياناً على إضعاف الارادة ، ولكن ماعلى العقل البشري إلا أن ينير وجه الحقيقة ساطعة ، فيجنّبنا التصورات المغلوطة عن العالم والأشياء .

« كيف أمشي على الوجه الأمثل »

من المعلوم أني لا أمشي وحيدة أبداً في الشارع . وإذا ما رافقني مبصر أمسكت بذراعه ومشيت على يمينه ، وسبب ذلك أنه اذا أمسك مرافقي بذراعي عوقني هذا عن تتبع خطواته الذي لا أستغني عنه في تحسسي لتغير الاتجاهات وتصور الطريق التي نسلكها . وحينما ننزل من الرصيف أو نصعد إليه ألاحظ ذلك من حركات مرافقي فأحاول تقليده ، وعندما يخطو خطوة كبيرة ليتفادى حفرة ماء أو أية عقبة أخرى ، أشعر بذلك وأفعل مايفعل . ومن المؤكد أني لاأشعر دائماً باتساع خطاه إذا كانت الحفرة عريضة ، ويصعب علي أن أعتمد على حركات مرافقي وحدها لأحدد المكان الدقيق الذي يخطو إليه مرافقي ، وتزداد الصعوبة حينما أسير مع شخص قليل التجربة غير معود على مرافقتي

ومن المؤكد أن لدينا وسائل أخرى (للتلاؤم) ، كأن أطلب من مرافقي مثلا ، أن يبسط ذراعه إلى الأمام كي يرشدني إلى المكان الذي عليّ أن أطأه ؛ فاذا كان مستنقع الطريق كبيراً يستلزم القفز فان رفيقي يعبره أولا ، وحينما يجتازه يخفض لي ذراعه كي أعتمد عليها . ولكن قبل أن أقفز أحاول تقدير مدى قدرتي على ذلك ، وليس هذا متيسراً دائماً . وطالما أني لاأملك قدرة المبصرين على القفز فالأصدقاء الطيبون يساعدونني فيحملونني على الأذرع .

وذات يوم كان علي أن أذهب إلى الريف بالقطار . وكان بين المحطة والقرية مسافة أربعة كيلو مترات لابد من مشيها . وفي منتصف

المسافة شاهدتْ رفيقتي جدولا يعترض سبيلنا ، فوقفت حائرة لاتدري كيف تساعدني على عبوره ، فالجدول عميق ولابد لعبوره من السير على خشبة ضيقة . والمبصرون يعبرونه محاولين الاحتفاظ بتوازنهم ، وهذا علي مستحيل ، فكان علي إذن أن أبذل جهد المستطاع ، ولكن كيف السبيل ورفيقتي لا تقوى على مساعدتي وحملي .

ــ ماذا سنفعل يا أولغا ؟

ــ أصغي إليّ . أعبري الجدول ثم مدي لي يدك وضعي أصابعي بدقة حيث يجب أن أضع قدمي وسوف أقوم بالقفز .

ــ ولكن قد تسقطين في الماء !

ــ ولماذا ؟ فلست راغبة في البلل .

وعبرت رفيقتي الجدول ونفذت كل ماطلبته منها فتماسكنا بالأيدي ، وتريثت مترددة ثواني قليلة ثم حاولت أن أتصور عرض الجدول مقارنة عرضه بمدى خطواتي . . . ثم قفزت بسرعة . وعندما عبرت الجدول لاحظت أن يديْ رفيقتي ترتجفان بشدة إذ خافت من أن أسقط في الماء ، فالأرض هشة وأنا على حافة الماء . ولكن الأزمة مرت بسلام ، وكم كان سروري عظيماً لأني وفقت إلى حل هذا الموقف العصيب واجتزت تلك العقبة .

وفي الريف تتشكل بعد المطر غالباً برك مائية يزيد عرضها على عدة أمتار ، ويمكن لمن يرافقني أن يقفز من حجر إلى حجر ، أما أنا فأفضل أن أعبر المستنقع خوضاً إذ يتعبني أن أقفز قفزات عديدة

متتالية . والمبصر باستطاعته القفز بيسر وسرعة ، أما أنا فلا بد لي وأنا أستعين باليد الممتدة نحوي ، من تقدير المسافة الفاصلة بين حجر وآخر أولا ، ثم لابد من المطابقة بين قفزتي وتلك المسافة ؛ وبديهي أن ذلك عسير علي .

حينما أصعد إلى الترام أو الباص ويشدني مرافقي أو يدفع بي إلى الأمام دون أن يشير إلى الباب ، فمن العسير علي أن أهتدي إلى درجة الصعود . وفي حالة كهذه لاأستطيع الاهتداء فتصطدم ساقي بالدرجة بعنف . وكل الذين يقودونني يعلمون أنه لاموجب لدفعي إذ يكفي أن يضعوا يدي على الدرابزين من أية جهة كانت فأهتدي عندئذ إلى موضع الباب وأصعد بكل ارتياح .

لي صديقة تتصف بشدة الذهول ، فعندما ترافقني تنسى دائماً أني عمياء ، فتتلفت هنا وهناك ، وعليّ أن أجد طريقي وحدي . وهكذا حينما أكون برفقتها أمشي بهدوء وأجر نفسي محاولة أن أستشعر وحدي كل عثرة في الطريق حتى أستفيد من ذلك خلال العودة . وإذا صعدنا إلى الترام دفعت بي بقوة وتنسى أن ترشدني إلى حيث يوجد الباب ، ويمكن القول إنني أسبب نوعاً من الفوضى في الترام حينما أكون معها .

وذات يوم اصطحبت برفقة تلك الصديقة ، فتاة عمياء إلى الترام ، ولدى وصوله أسرعت صديقتي لتجد مكاناً للصبية وتركتني وحدي ، ولم يكن لدي أية فكرة عن المكان الذي نحن فيه ، وإنما استشعرت بفعل الاهتزازات من حولي ضجة مرور كبيرة . ولدى تذكري

طيش صديقتي اعتراني القلق فأنا حتماً في موضع خطر ، وخطر ببالي أن اقترب من الجدار أو أصعد إلى الرصيف ، ورحت أتراجع مفترضة أن الرصيف ورائي ، وشعرت فجأة بجسم مرتفع صاب يلامس ظهري فطمأنني ذلك لأني استنتجت أنه أحد البيوت ولا خطر إذن يتهددني . هرعت صديقتي نحوي وهزت ذراعي بعنف وهي تصرخ غاضبة .

ــ أتبتغين موتي ؟

ــ ولماذا ؟ أنا لاأعرف أين تركتني . وقد تولد لدى الاحساس بوجود السيارات أمامنا فتراجعت .

ــ لقد اتكأتِ على الترام ! وأنا أمنت موضعاً للفتاة ثم ركضت نحوك .

ــ الترام ؟ ! إنه كان واقفاً . .

ــ كلا . . وقد تحرك لتوه .

ولست أريد أن أقول إني دعرت ، ولكن ذلك أخافني بعص الخوف . فبينما كان الترام واقفاً خيل إلي أني أعتمد على حدار بيت أو على أحد الحواجز . فلو لم تهرع صديقتي إلي لتحرك الترام دون أن أتنبه لما قد يصيبني ، ولا أحد يعلم كيف تكون العاقبة .

كيف أتكلم بالطريقة المثلى

يتفق لي أن أكون في الغرفة مع شخص غير أصم . ويبتعد ذلك الشخص عني ويطلب إلي أن أستمر في الكلام . ومن العسير علي في

هذه الحالة أن أتابع كلامي لأني لاأعرف على أية مسافة مني يوجد محدثي وأحس بأني لاأمارس الكلام بصورة طبيعية فصوتي يصبح قوياً مجهداً ، أضف إلى ذلك أني أروح أتكلم بطريقة غامضة سريعة وكأني أسرد أمثولة مملة أحفظها عن ظهر قلب . ولذا كان من المهم جداً أن أعرف على أية مسافة يوجد أولئك الذين يصغون إلي . وكم أرتاح لمحدثي إذا كان قريباً مني فيمسك بيدي فألاحظ أبسط حركات يده أو أي اصبع من أصابعه ، ولا يقل ذلك أهمية عندي عن رؤية المبصرين لوجوه مَنْ يحدثونهم .

وإذا كنت في غرفة مألوفة كغرفتي مثلا ، وابتعدت عن محدثي ، فأنا أستطيع متابعة حديثي بطلاقة وبصوت طبيعي ؛ وسبب ذلك أني أعرف الغرفة جيداً وأتصور كل مافيها كما أعرف المكان الذي يحتله محدثي ، وبالتالي المسافة التي تفصلني عنه ، ومع هذا فلا أستطيع البقاء طويلا بعيدة عمن أتحدث إليه ، فعندما لاأحس بيده في يدي يراودني الظن بأنه لايهتم بما أقول ولا يصغي إلي . وهكذا يزعجني بوجه خاص الكلام أمام عدد غفير من الناس .

ومن العسير علي أن أبقى وحدي مع الناس في مدرج فأنا أعجز عن تصور الحضور فيعتريني الخوف ، ولكن حينما يبقى إلى جانبي من أعرفه ويمسك بيدي استشعر الهدوء وينتفي عني الاحساس بالوحدة . وهكذا يشد ذلك الشخص أحياناً على يدي بخفة عندما أطرح سؤالا على الملأ ، أو يقوم تلقائياً بحركة خفيفة ، لكني أستشعرها وأفهم منها ما أريد .

إذن لاغنى لي عن تصور المسافات والناس الذين يحيطون بي ، والأستاذ سوكوليانسكي وماريا نيكولايفنا يعرفان ذلك تمام المعرفة ويصفان لي دائماً جمهور النظارة الذين أقف أمامهم ، ويشرحان لي متى أخفض صوتي ومتى أرفعه ، وأين يجلس الجمهور وكيف يصغي إلي .

خواطر شتى

يتفق أن أبقى وحيدة في البيت طوال النهار والمساء ، وأنا لا أسمع في غرفتي أية ضجة صادرة من خارج المنزل ، ولا أرى ضوء النهار أو ضوء المصباح يلفني الصمت والظلام . ولكن ذلك لا يعني أني استغرقت في العدم ، بل على العكس من ذلك ، فأنا أعلم أن نهر الحياة يجري مستمراً سواء أدركته أم لم أدركه . وأحاول أن أتصور حياة الناس وحركة المرور في المدينة ، وأتمثل الضجيج والأصوات الناجمة من الاهتزازات المتتابعة التي أحس بها لدى عبوري الشارع أو صعودي إلى الترام . . أتخيل الناس الذين أعرفهم ، وبمقدوري تصور الناس منعزلين أو مجتمعين كما يكون في المترو ، ولكني أعجز عن تصور أصواتهم فيخيل إلي أنهم صامتون أو نادراً ما يتكلمون أو كأنهم الأسماك . وحينما أريد في الوقت نفسه تصور الصوت البشري أسمع ذلك الصوت بأطراف أصابعي فأنا عن طريقها أصغي إلى صوتي وأصوات أصدقائي . أتخيل الأطفال يلعبون في الشارع راكضين ضاحكين ، أما أصواتهم فلا أقدر على تصورها ؛ وكل ما أستطيعه فقط أن أفترض أن الأطفال يضجون ويصرخون خلال اللعب . وكل ما يجري في الخارج

مما لا أقوى على (رؤيته) بيدي ، ولا أعرفه إلاّ من خلال ما يُذكر لي عنه ، يبدو لي على صورة باهتة ضعيفة . وعلى العكس من ذلك فكل ما أستشعره مباشرة باللمس ، كركوب الباص ومعاينة حاجه ما وعبور الشارع والصعود إلى المترو ، أتمثله في حجمه الطبيعي .

وإذا خطر لي أن أعبّر عما أتصوره بأسلوب شعري فهكذا أعبر : الحياة التي تجري من حولي يفصلها عني « جدار زجاجي » .

وأولئك الذين يرون العالم الخارجي قادرون بلا شك أن يصفوه لي ، ولكن حينما أريد الاحساس المباشر بالحياة بمعزل عن مساعدة من يبصرون ويسمعون ، أصطدام بهذا (الجدار الزجاجي) الرهيف الذي هو (سورٌ صيني) حقيقي بالنسبة لي . وهكذا أعرف الحياة بمظاهرها المختلفة دون أن أراها أو أسمعها .

كيف أتصور الليل

عدت إلى البيت هذا اليوم مع (م ن) حوالي السابعة مساء ، وليس هذا بالوقت المتأخر على سهرة ربيعية ، لكن عبير المساء الذي يموج في الهواء استولى علي . وأنا لا أرى الظلمة وضوء النهار ولا أملك إلا الإحساس بالحرارة والروائح . وفي هذه الأمسية لو لم أعرف كم هي الساعة لظننت أن الليل قد خيم منذ زمن . . . وأنا أمشي في الشارع دون أن أدري أني في المساء . ولو عرفت ذلك لاغتبطت . . . ويلذ لي أحياناً أن أتجول في الطريق حينما يكون الليل لطيفاً دافئاً متصورة أني وحيدة . كل مافي الكون هادىء من حولي ، والحياة قد سكنت

في البيوت ، والناس نيام ، والنوافذ المعتمة لاترسل بنورها إلى الشوارع ، وما من أحد يدري أنني خارج المنزل وحدي ، ولا شيء يخيفني . وحينذاك أتمثل الليل امرأة وحيدة ، وهي تطوف حول الأرض بعد أن تسللت خلسة من بيت منعزل وقد تدثرت بوشاح أسود . . وراحت تجوب المدينة ووشاحها الطويل يفوح برطوبة الليل وبرودته . وها أنذا أتذكر أبيات جوكوفسكي :

ببطء وصمت
يزحف الليل على الأثير
وهسبير تطير أمامه
بصحبة نجمتها الرائعة

ذات يوم عاينت تمثالا (لهرمس) وهو يجلس متأملا ، وقد انتهى حذاؤه بأجنحة ، ومنذ ذلك وأنا أتصور هسبير كأنه (هرمس) الطائر وقد أمسك بيده نجمة لامعة معلقة على طرف رمح ، وأكاد أحس بنور النجمة على يدي وأديم وجهي . أما يده الأخرى فتمتد فوق الأرض وكأنه يريد أن يحرس الناس النيام من كل ضيق .

وقد يسأل سائل : لماذا استشهد غالباً بالشعر وأنا أروي ما أروي . وجواب ذلك سهل ، فأنا أحب القصائد التي تصف الطبيعة وتتيح لي تصور الظواهر الطبيعية التي أعجز عن رؤيتها وسماعها لاتصوراً شعرياً فحسب بل تصوراً أقرب إلى أن يكون مجسداً . أحب مثلا تلك القصائد التي تصف العاصفة التي لا أستطيع ملاحظتها إلا إذا وضعت يدي على زجاج النافذة أو على أي شيء آخر يهتز ، وإذا

ما أتيح لي أن أقرأ باليد الأخرى قصيدة عن العاصفة أحسست حينئذ بمتعة حقيقية ، لأني أتصور العاصفة بكل عظمتها .

وهكذا فالشعر عندي ليس موسيقى لفظية ، بل هو شيء فوق ذلك . وبفضل الشعر أتصور غالباً مالا أستطيع رؤيته أو سماعه كما يفعل أولئك الذين وهبوا نعمة السمع والبصر ، وبفضله أعاني مايعاني الآخرون من انفعالات ؛ وهكذا فقصائد الليل تتيح لي أن أكوّن لنفسي في الوقت نفسه مفهوماً مجسداً وشعرياً مجرداً عن الليل .

وأنا لاأتصور الليل على طريقتي الخاصة فحسب ، بل أعشق علاوة على ذلك هدوءه وصمته واستشعر فتنته وجماله الربيعي .

ما الذي أتصوره ليلا

قد يصيبني الأرق ليلا . . فأحاول بشتى الوسائل أن أنام ولكن هيهات . . . فأعدّ من الواحد إلى المائة وبالعكس ، ولكن دون جدوى ، وأبقى مستلقية دون حركة ودون أن أفكر بشيء ، لكن الأفكار تغزو رأسي ملحة . وفجأة تجتاحني الرغبة في تصور دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس ، وطبيعي أني عاجزة عن تصور حجم الكرة الأرضية مثلما يتصورها المبصرون ، ولكني أعلم أن كوكبنا هذا كبير جداً .

وإليكم كيف أتصور الأرض وهي تدور حول الشمس :

أرسم بخيالي دائرة كبيرة في الهواء أو إهليلجاً ، وفي داخل هذا الاهليج أضع بعض الكرات الوهمية ثم أغرز إبرة وهمية في طرف

الكرة لتخرج من طرفها الآخر ، على أن ذلك يمثل محور الأرض وقطبيها ، ثم أدفع بهذه الكرة فتبدأ (أرضي) بالدوران حول محورها . وهي تدور بسرعة كبيرة . . . وحينما تدور الأرض الحقيقية على هذه الصورة توحي إلي بأعاصير ذات طاقة هائلة في الأجواء الفضائية . ويبدو لي أني أحس بضجيجها البعيد وزئيرها . . و (أرضي) يجب أن تدور لاحول نفسها فحسب ، وإنما حول الشمس كذلك ، وهكذا أحضر كرة أخرى فأضعها على مسافة محددة من الاهليلج . وتلك هي (الشمس) . و(أرضي) في هذه اللحظة بعيدة عن (الشمس) ، لكنها تبدأ تقترب منها تدريجياً . . . و (شمسي) تنتقل بدورها ، وحينما تقترب (أرضي) منها فان الشمس لاتهرب ، لأنها إذا فعلت فلن تنجز (أرضي) دورتها حولها ، وهي ترسم تدريجياً دورة حول فلك الشمس لتبتعد عنه من جديد .

أما سائر الكرات الأخرى فتمثل الكواكب المختلفة في النظام الشمسي ، وهي تدور جميعاً في مداراتها كما تدور حول نفسها وحول الشمس .

وقد يصف بعضهم كلامي هذا بالسذاجة ، فأنا لاأدعي المعرفة العميقة بعلم الفلك ، وكل ما أملكه أني قرأت بعض الكتب التي أتاحت لي تصور حركة الأرض والشمس وسائر الكواكب . . وفي تصوري أن حركة الكواكب الأخرى في المجموعة الشمسية تخضع لتلك القوانين نفسها .

حفلة موسيقية في نادي العميان

دعيت ذات يوم شتائي إلى حفلة موسيقية أقيمت في نادي العميان بمناسبة عيد الجيش السوفياتي ، وكان برفقتي (س ا) و (م ن) . ولدى وصولنا شعرت بشيء من خيبة الأمل إذ علمت بأن في الحفلة مغنين لاأقوى على سماع أصواتهم . ولكن سارت الأمور كما أشتهي فقد كانت (م ن) تترجم لي بعض الأغاني والقصائد الملحنة ، أما (س ا) فكان يمسك بيدي الأخرى وينقل إلي بحركات من يده إيقاع الموسيقى .

ومن المؤكد أني لم أكن أسمع اللحن الأساسي ، لكن الإيقاع كان متوافقاً مع الشعر مما وفر لي متعة عظيمة . وقد أدرك (س ا) ذلك تمام الادراك ، لأنه ، كما أخبرتني (م ن) فيما بعد ، إتخذ سمة الجدّ لرجلٍ قام بأمر عظيم يدعو إلى الفخر . وكان يلذ له أن ينقل إليّ ما لاأقوى أبداً على سماعه .

وفي اليوم التالي رحت أمشي في الغرفة على الايقاع ذاته الذي استشعرته بيدي في الحفلة .

اهتمامات (ذات مستوى واحد)

أود أن أنبه القارىء إلى أنه سيرد في هذا الكتاب مقاطع أشبه فيها بعض الأشياء بالمكعب أو الكرة أو المخروط أو الدائرة أو المربع أو المستطيل . . . ومن المؤكد أنه لو لم أكن على معرفة سابقة بتلك الأشكال الهندسية لما استطعت أن أقوم بمثل هذه التشبيهات . وعلى

وجه العموم لو لم أكن أعرف أو أتصور الأمتعة لما أتيح لي أن أشبهها بغيرها أو أدرك الاستعارة .

وقد عبرت بي فترة ماكنت فيها قادرة على فهم التعبيرات المجردة والتشبيهات المجازية ، بل كنت أفهم كل شيء بمعناه الحرفي الحقيقي ، وهذا ماكان يرهقني خلال تصوري لما يقال لي ولما لاأستطيع (رؤيته) بيدي .

وفي أحد الكتب قرأت الجملة التالية : (اهتماماتهم ذات مستوى واحد) فما الذي يمكن أن يعنيه هذا الاصطلاح ؟ كنت أتصور على وجه الدقة سطح طاولة أو أرض أو مقعد كرسي وبكلمة ، كل ماهو مسطح مصقول . وكنت أرى كل هذه الأشياء على مستوى واحد دون أن يشوه أي شيء هذه السطوح الصقيلة وبخاصة(تلكالاهتمامات).

وما يبدو لي الآن واضحاً وبسيطاً كان قد أقلقني بعض الوقت ، ورحت أفكر وأحاول الاحاطة بجميع جوانب هذا السطح الذي جعلته (هذه الاهتمامات) ملغزاً وانتهيت إلى تصور أرضية مخبرنا الصقيلة اللماعه بمناضده ذات السطوح الناعمة ، وكراسيه وأجهزته المختلفة ، وباختصار ، تصورت أشياء كثيرة ذات أهمية حلت عندي محل (تلك الاهتمامات) وراحت تلك الأشياء تندلق على (مستوى) أعجز عن إدراكه .

المسرح

حضرت ذات يوم أمسية في نادي الصم البكم . وفي العادة يقدم هناك تمثيليات و (اسكتشات) . وفي هذه الليلة كان من بين ماقدموه

(اسكتش) بعنوان (قواعد السلوك الأمثل) . وقد ترجمتْ لي (م ن) الحوار وبذلت جهدها في أن تصور لي حركات الممثلين واشاراتهم مما ساعدني على تمثل الحركة المسرحية ، فقد نقلت إلي مثلا ، حركة الرجل الذي يعلمّ قواعد السلوك الأمثل ، وقد قلب كأس الشاي على الطاولة ثم أخرج منديله وبدأ يمسحها ثم عصر المنديل . وقد استعملت (م ن) يديها لتمثل لي ذلك المشهد ، ورحت أضحك مع الناس ، ومما زاد متعتي أنها نقلت لي (السكتش كاملا) .

وبعد مدة طويلة حضرنا أمسية أخرى للصم البكم في (دار النقابات) . وقد قام بالتمثيل في المسرحية المقدمة امرأتان فحسب . وقد تحاورتا طوال الوقت فيما بينهما ، وكان الدور الذي تمثلانه يقوم على اداء الانفعالات المرافقة للحوار بالتعبيرات والايماءات الأخرى ، وقد اكتفت (م ن) بنقل الحوار لي فحسب ، مما رماني بعدم المبالاة التامة .

وهكذا لم أتصور المشهد ولا الممثلين وتولد عندي الاحساس بأني أمام فراغ ، وكأن (م ن) تروي لي شيئاً مملا أو تقرأ لي بسرعة في كتاب يضجرني فأغلقه . . .

ورحت أتبادل بعد انتهاء السهرة الرأي مع صديقة لي ، وقد وافقتني معترفة بأن الضجر كان سيعتريها هي كذلك ، لو لم تشاهد صورة الممثلتين ، وقد لخصت لي رأيها قائلة « كان الايماء رائعاً ، وهو الذي أعطى المسرحية جاذبيتها » .

السينما

نادراً ما أرتاد السينما ؛ ومن المؤكد أنه يلذ لي ذلك ، وقد أكون أكثر دقة حينما أقول إني أفضل الاصغاء إلى من يروي لي حكاية أحد الأفلام ، لا خلال العرض بل بعد انتهائه . وقد يسأل سائل : « ولكن ما الفائدة من ذلك ؟ » .

حينما يشرح لي (أحدهم) الفيلم أثناء العرض فمن الطبيعي أن يشرع في وصف مايراه ، وهو ينقل لي تقريباً كل شيء بصورة آلية . وهكذا ينصب انتباهي على فهم الكلمات فأعجز عن تصور الشخصيات والمواقف والديكورات . وكم أعاني من الصعوبة حينما يعرض على الشاشة مالم يتح لي أبداً معاينته بيدي ، كالجبال والبحر والصحارى والحيوانات الغريبة ، وعلى العكس من ذلك إذا راح ذلك الشخص يروي لى حكاية الفيلم في البيت فهو ليس مضطراً للعجلة ويمكنه أن يعيد لي مرات عديدة مالم أفهمه أو عانيت صعوبة في تصوره .

منذ فترة وجيزة رحت إلى السينما لأشاهد فيلم (ميتشورين) وقد شرحت لي (م ن) بسرعة فلم أنجح في أن أتصور بوضوح ميتشورين وزوجته وسائر الشخصيات . ولكن عندما قالت لي (م ن) أن على الشاشة حديقة ملأى بالزهر ، تصورتها جيداً كاملة بأشجارها ، وخيل إلي أني أشم شذى الأشجار المثمرة وهي مزهرة . وذلك أنه حينما كنت في مستشفى خاركوف ، كان لاحدى معلماتنا حديقة ذات أشجار متمرة ، وفي كل ربيع كنت أزورها وأتجول حول الحديقة وأعاين أوراق وأزهار كل شجرة .

ومن المؤكد أني لم أستطع تصور اتساع حديقة ميتشورين ، فصورتها لنفسي ببساطة وكأنها على بعد أمتار مني ، حديقة مسيجة ذات أشجار مزهرة وعساليج ورد عاطر . وهناك رجل يروح من شجرة إلى أخرى يحمل فرشاة وسطولا صغيرة ومقصاً ، وقد تصورت هذا الرجل عجوزاً طيباً يقظاً وقوراً يتلمس الأشجار بيديه وكأنه يخشى أن يفسدها بحركات عنيفة .

وفي الغد أتمت (م ن) حكايتها ، فاستطعت أن أتمثل ذاك العجوز الطيب على أنه إيفان ميتشورين .

كيف أتصور مايجري في مشهد أو عرض

أحضر أحياناً بعض الحفلات الممتعة الخاصة بالصم البكم في (دار النقابات) . وهذه الحفلات تختلف عن تلك التي تقدم لمن يبصرون ويسمعون فليس فيها مغنون أو موسيقيون أو رواة .

وفي الغالب يحتوي البرنامج ألعاباً بهلوانية إلى جانب العاب الخفة والشعودة والرقص . وإذا كنت لاأستوعب هذه الألعاب فانها تروق لي بعض الشيء

وتوصف لي عادة ألعاب المهارة ، وإذا استطعت أن أتتبع حركات مرافقي فالمشهد لايبدو لي خاوياً . ومن الأفضل لى أن أجلس في الصف الأول قريبة جداً من ساحة العرض ، فأحس باهتزازات خطى الراقصين وأتصور الناس على حقيقتهم مألوفين ، ليس فيهم مايدعو إلى الغرابة أو التنفير ، ويوصف لي كذلك أشكال وألوان ثياب اللاعبين والراقصين

أما الألوان فلا أراها أبداً ، وأما أشكال الثياب فأستطيع تصورها إذا كانت تشبه ماألفته منها .

وأنا أتذكر هذه الحادثة : أعلن عن راقص يرتدي زيه التقليدي ليؤدي رقصة من القوقاز ، وما كنت رأيت أبداً الثياب القوقازية ، ولكن حينما شرع الفنان يرقص أحسست ، وأنا في الصف الأول ، بضربات قدميه القوية ، وخيل إلي أني اراه حقاً . وقد تصورت قامته المتوسطة (مع أنه لم يُذكر لي شيء عن ذلك) . ووجهه الضاحك وحركاته السريعة الواثقة . ولم انجح أن أتصور بوضوح الجزء العلوي من زيه لكني تمثلت اكمامه العريضة وهي تنبسط خلال الرقص ، أما الجزء السفلي من ريه فقد بدا لي بنطالاً مفرطاً في العرض . وقد نجحت في تصور هذا الراقص القوقازي المتدفق حركة وحيوية بفضل احساسي بنغمات البيانو وضربات قدمي الراقص العنيفة .

وقد أدار رأسي اداؤه (لرقصة النار) وحاقت وأنا اكاد اقسم على أني أراه يرقص ، وأني أعاين بيدي قامته وسترته القوقازية وأكمامها الفضفاضة ، ووجهه الذي يشع بحرارة الرقص ؛ وتولد عندي الاحساس بأنه لم يدركه التعب أبداً ، وانما يبتسم كاشفاً عن اسنانه الرائعة .

ولم يصف لي أحد كل ذلك ، لكني تصورت ذلك الراقص بفضل اهتزازات الموسيقى البهيجة وضربات قدمية العنيفة .

وجينما انتهت الرفصة دوت الفاعة بالتصفيق وضربات الأرجل . وصفقت بدوري دون أن اضرب بقدمي فقد ارعجني أن يفعل الجمهور ذلك . وصفقت طويلاً وهذا ليس من عادتي . . .

وكنت على غاية من السرور في هذه الأمسية لحضوري ذلك العرض ، وعدت إلى البيت بمزاج رائع .

كيف أتصور اللوحات

حينما أزور المتحف ويروي لي مرافقي ما يراه في لوحة ما ، أصغي باهتمام . ولكني لا أتصور دائماً تلك اللوحة على حقيقتها .

وإذا كانت اللوحة تمثل اشياء سبق لي أن عاينتها كالأشخاص والأشجار والممرات والعصافير والحيوانات المألوفة ، كونت عنها فكرة تقريبية . أما إذا كان الرسام يصور شروق الشمس أو غروبها ، أو مناظر طبيعية ، أو بحراً هائجاً ، أو زورقاً يغرق ، فأنا اتمثل سطح اللوحة صقيلا جداً وامسه مسا رقيقاً بيدي ولكن الشمس والبحر يبدوان لي منفصلين عن اللوحة كما هما في الطبيعة : فأشعة الشمس تدفئني ، ومياه البحر تتواثب على قدمي و ترشني برذاذها فأكاد أشم رائحتها .

وحينما أغادر المتحف استطيع تذكر اللوحات وتصورها كما رأيتها تماماً وراء الزجاج مؤطرة باطار صقيل أو منقوش ، ولكن بلا مناظر ولا ألوان . وكل ما أتذكره موضوع اللوحة وما تعنيه ، وكل ما احتفظ به الاحساس بشيء ما يستعصي على الفهم ، ولهذا أفضل النحت فهو أكثر استجابة عندي (للرؤية) اللمسية المؤدية بي إلى حسن الإدراك .

ولكثرة ما استخدمت لغة مَنْ يبصرون ويسمعون وقرأت من مؤلفات أدبية ، استطعت اجادة وصف لوحة لم أرها من قبل ، وصفاً لا يقل دقة عن الآخرين . وطالما أني ألم بموضوع اللوحة وما تمثله فأنا قادرة على وصفها بمفردات وعبارات القادرين على السمع ؛ ومَنْ يصغي

إلي خلال ذلك يصعب عليه الاقتناع بأني لم أشاهد تلك اللوحة من قبل . ومع هذا فأنا لا أصف إلا الحقبقة ولا أريد أن أنتحل لنفسي القدرة على وصف مالم أره أو أتصوره .

الألعاب النارية

راحت (م ن) تصف لي جمال الأسهم النارية التي أطلقت تكريماً لانتصار ٩ أيار . صورت لي السماء الزرقاء الصافية والأشعة الزرقاء الشاحبة المنبعثة من أجهزة الإسقاط والنيران ذات الألوان المتعددة التي ترسلها الأسهم النارية ومن سوء حظي اني عاجزة عن تصور هذا المشهد الذي يقتضي القدرة على الصور البصرية . ولدى ملاحظتها أن وصفها لم يحدث عندي الأثر المطلوب ، لجأت إلى صور أكثر (تجسيداً). وراحت بالحركات تمثل لي السماء على صورة قبة تعلو الأرض ثم رفعت ذراعيها مباعدة ما بين اصابعها لتمثل لي الأشعة الصادرة عن أجهزة الاسقاط ، ثم رسمت في الهواء دائرة كبيرة وقالت :

أنظري ، هذه هي القبة التي تمثل السماء ومن حولها أشعة لا تحصى .

ومن المؤكد أني لا أستطيع تصور الوان السماء والاشعة ، ولكن أحاول تكوين فكرة تقريبية عنها بأن ارسم دائرة وهمية فوق رأسي واشعة على صورة اسهم طويلة في مجال تلك الدائرة (وهكذا أتصور الأشعة دائماً) . وأنا أتخيل هذه الأسهم اللامتناهية في الطول وهي تشق الفضاء على ارتفاع شاهق جداً ، واستطيع تصور فرقعة الأسهم النارية من اهتزازات الهواء عندما امسك بيدي شيئاً يهتز .

الكواليس ـ النباتات المتسلقة ـ الصواعد والنوازل

حينما بدأت بمطالعة الكتب صادفت فيها كلمات كثيرة كانت على درجة من الصعوبة بحيث لم أستطع سؤال أساتذتي عن معانيها ، وكنت أخمن معاني بعضها من سياق الكلام وتعودت ببطء على معاني كلمات أخرى ، وشيئاً فشيئاً تعلمت استخدامها بصورة سليمة .

وقد بدت لي الكلمات مفهومة تماماً وكنت على ثقة من استخدامها الصحيح ، ولكني لاحظت اني اقع في الخطأ أحياناً : كنت اتصور مثلا (صورة) كلمة دون مدلولها ، أو اتصور ما تعنيه على وجه خاطىء .

وهذا ما وقع لي مع كلمة (كواليس) . . . فقد قرأتها أول مرة في كتاب لبوشكين في هذه العبارة « رجل الكواليس المحترم » . وفيما بعد وقعت على جمل أخرى كقولهم : « مشى في الكواليس » و « هم في الكواليس » وغير ذلك . وكنت أظن أن الكواليس لاتعني سوى الجزء الخلفي من المسرح المفصول عن المشاهدين ؛ أي أنها ليست إلا حاجزاً بسيطاً ، أضف إلى ذلك أن (كواليسي) ذات بابين يعلّق الديكور فيما بينهما . وكنت قد الفت جداً (كواليسي) حتى انني حينما قرأت ما قاله عنها (ستانيسلافسكي) وعرفت المعنى الحقيقي لهذه الكلمة اعترتني دهشة عظيمة . وخلال وصفه لاخراج مسرحية (فتاة الثلوج) لأوستروفسكي يروي لنا (ستانيسلافسكي) كيف كان الممثلون يصممون الكواليس بأنفسهم بصنع الجبال الصغيرة والعساليج والأشجار وغيرها .

هذا إذن ، ما كانت تعنيه كلمة (كواليس) . وقد أصبت بشيء من خيبة الأمل ففي بداية الأمر كان لي مفهوم مزدوج عن تلك الكلمة : مفهومي أنا ، ومفهوم ستانيسلافسكي .

ولا بد من الاعتراف الصادق بأن (كواليسي) كانت تعجبني أكثر ، فقد ألفتها وصنعتها بخيالي ونظرت اليها خلال أعوام طويلة على انها شيء حقيقي وفي الحق أن كواليس ستانيسلافسكي هي أكثر متعة وأقرب إلى الواقع ، ولكن ، لكي أتصور مفهومه عن الكواليس اضطررت إلى تنحية مفهومي الخاص عنها وخلق صور جديدة ، محاولة تصورها كما هي في الواقع . أضف إلى ذلك أنه بعد رمن قصير اتيح لي تكوين فكرة صحيحة عن الكواليس الحقيقية .

* * *

إن الأوصاف الدقيقة البارعة التي قرأتها في الكتب ، هذه الأوصاف الخاصة بالاشياء ، والحيوانات والطبيعة . أتاحت لي غالباً أن اتصور ظواهر عديدة من العالم الخارجي ، كما اتاحت لى أن اتمثل بطريقتي الخاصة المحيطات والجبال والغابات الكثيفة والصحارى .

ومنذ عهد بعيد قرأت كتاباً لا أذكر الا وقائعه وغاب عني عنوانه . وأنا مازلت أذكر بوضوح الظروف التي رافقت قراءتي ذلك الكتاب . وقد ورد في الجزء الأول وصف الغابات الاستوائية حيث تخنق النباتات المتسلقة الاشجار وهي تلفها بعنف وكانت تعصف بي الرغبة في تصور الساق المرنة لتلك النباتات المتسلقة وهي تلف حول جذع شجرة متين ، فكنت أتناول خيطاً والفه على ذراعي . وقد خطر ببالي ، والفصل فصل صيف ، أن الكروم البرية قد تعطيني فكرة أكثر وضوحاً عن النباتات المتسلقة فكنت اعاين كل العرائش البرية في حديقتنا ، وبدا لي منذ ذاك أن تلك النباتات ذات أوراق تشبه أوراق الكرمة ، لكنها أكبر منها .

وقد شدني ذلك الكتاب حتى اني نسيت المكان الذي كنت فيه خلال قراءته .

وإذا ما اقترب أحدهم مني ولمسني صرخت وأنا اقفز من المقعد متوهمة أن حية سامة تزحف نحوي (وقد سبق لي أن عاينت مرة حية محشوة بالقش ، وحينما اريد تصور الصّلّ أو الثعبان كنت أضخم حجم الحية في ذهني فاتمثلها زاحفة نحوي بهدوء) .

وفي تلك اللحظات كان خوفي من الأفاعي لا يقل عن خوفي من النباتات المتسلقة .

ويصف الجزء الثاني من الكتاب المغاور الصغيرة والكبيرة مع الصواعد والنوازل . وفي بداية الأمر كان من الصعب علي أن أدرك ما الذي تعنيه هاتان الكلمتان ؛ وأصعب من ذلك أن أتصورهما ، ومع هذا فالموضوع كان يثيرني . ولكي أتخيل الصواعد والنوازل كنت اتصور الجليد يتدلى من السقف صغيراً وكبيراً ، وأجعله بخيالي على الأرض أو (آعلقه) في السقف .

وكان الكتاب يصف الجموديات الهائلة ، وهي قصور حقيقية في باطن الأرض يزينها الجليد اللامع . ومن المؤكد أن مفهوم (اللمعان) عندي مفهوم مجرد كلياً ، ولكنه يرتبط بمخيلتي بسمة (الجمال) .

وقد شغفني الوصف الرائع للصواعد والنوازل كما شغفني تصويري لها؛وأذكر اني خلال قراءتي ذلك الكتاب وأنا أجلس أمام نافذة المطعم ، نهضت ورحت أعاين بيدي النافذة والفسحة ما بين النافذة والمكتب ، واتصور نفسي وسط الثلوج افتش عن تشكيلات الجليد ونقوشه .

أمسيات الربيع

كانت أمسية رائعة من أمسيات أيار . خرجت إلى الشرفة لأرى إذا كان ممكناً أن أقرأ في الهواء الطلق كان الجو جميلا فأخذت كتابي فوراً ورحت أقرأ .

كانت البراعم تفوح مع رطوبة المساء . وكان موضوع الكتاب جاداً بحيث لا أقوى على التركيز ، فالنسيم اللطيف الذي يحمل إلي روائح عبقة شتى كان يشغلني . هجرت القراءة واستغرقتني أفكاري . كانت حالي حال من يريد أن يتذكر أو يتصور شيئاً ما . وطالما أني لا أدري ماذا أتذكر أو أتصور فقد رحت أفكر بقلق قائلةً: ما عساني أريد ؟

وفي أول الأمر لم أتبين إلا أفكاراً مبهمة وصوراً غائمة وكلمات لا رابط بينها رحت افكر فيها بعض الوقت ، ثم تولد عدي انطباع تدريجي بأن يدي تلامس سطح جرس نحاسي كبير بارد . . وانتصبت أمامي فجأة صورة الجرس كاملة . . وها هو ذا الجرس يعبر أمامي بطيئاً ثم تحل محله نافذة مفتوحة تجلس وراءها امرأة صامتة . .. وتساءلت من تراها تكون ؟ . . . إنها تذكرني بـ « الكسندر بلوك » .

وأرى الآن رجلاً يمشي وحيداً في حقل مقفر من الناس حيث تلمع الأزهار بين العشب الكثيف . . . والرجل يبتعد قليلا قليلا . . . وأخيراً أتذكر مقطعاً من قصيدة « عروق الأشجار الوردية » .

وفي هذه اللحظة استوعبت اللوحة كاملة دون أصواتها وألوانها ، بل بصورها الملموسة مستوحية إياها من هذه الأبيات :

أسمع صوت الأجراس ، وإن الربيع لقادم
وقد أشرعتِ نوافذكِ البهيجة
وها هو ذا النهار الضاحك يتلاشى
وأنتِ تشهدين وراء الأفق .
اختفاء عروق الأشجار الوردية .

ولهذا كنت تصورت الجرس والنافذة المفتوحة والمرأة . والبيتان الآخران من القصيدة يصفان ذلك الرجل الشارد في الحقل :

أغوص الآن في الغابة الوردية
وكما صفحتِ عني ستغيب عن بالك ذكراي .

* * *

الحيـــوانات

زارا وديمار

زارا قطتي وديمار ابنها .

نافذة غرفتي مفتوحة ، وديمار يجلس على طرفها ، ولست أدري لماذا يموء ، وأنا أحس بذلك لأني أمسك برقبته الصغيرة . إن عمره شهران فهو مازال غرّاً ويخاف الخروج ، ومع ذلك يحب التطلع إلى الباحة ويموء متحسراً .

ولكن لماذا يصر على المواء ؟ ولمادا يرغب مصمماً في الوصول إلى نهاية الأفريز من الطرف الأيسر ؟ والنافذة تشرف على الباحة وليس على الغرفة .

لاحظت بعد لحظات ما فعله (ديمار) ، وتصورت فحأة المشهد التالي : أنا أعلم أن على يسار النافذة ردهة مهجورة فيها مدخل كان مستعملاً وهو الآن مغلق ، و (زارا) أتصورها جالسة على إحدى درجات الردهة أو ربما على طرف الجدار . ولما كان المصراع مفتوحاً إلى الخارج فهو لا يسمح بالدخول إلى طرف النافدة من حهة الأفريز ، ولكن ديمار الذي يلح على الوصول إلى هناك مازال يموء . وشعرت بأن زارا تجيبه وهي تموء بدورها . ولكي أتحقق من ذلك اغلقت مصراع الجهة اليسرى مما يسر الدخول وناديت : زارا زارا تعالي .

وقد استجابت زارا لندائي فاندفعت نحوي وهي تعبر الأفريز ، وهاهي ذي قد وصلت إلى الطرف . وكف ديمار عن المواء وارتمى عليها وراحا يلحس أحدهما الآخر فرحين ، وكأنهما يتعانقان .

في هذه اللحظة حيث أصف ذلك المشهد يجلس ديمار على مكتبي ويمسك بقوائمه أصابعي حيناً ، وحيناً بعض الأوراق ، وكأنه يريد أن يعترضني ليقول لي : لماذا تتحدثين عني لكل الناس ؟ بل تسخرين من حماقتي كذلك ؟ والذنب ليس ذنبي فأنا حتى الآن ما استطعت اقتناص فأرة واحدة . . وكم أود ذلك ! ولكن ما حيلتي وغرفتك تخلو من الفئران ؟ وأنت لا تسمحين لي بالخروج ولو إلى الممشى !

سطح الماء المتجمد والدببة

قرأت كثيراً عن البحار القطبية والجموديات والدببة التي تقطع مئات الأميال على سطوح الماء المتجمدة .

وأنا أتصور تلك الكتل الجليدية الصغيرة والكبيرة لا على شكل المكعب أو متوازي المستطيلات ، بل على العكس من ذلك أرى أطرافها غير المتساوية مسننة خشنة من جهة ، ومن الجهة الأخرى تبدو الكتلة ناتئة مستوية نسبياً . وأنا أفترض أن الجزء الأعظم من الكتل الجليدية العائمة مغمورة بالماء ، بينما يطفو جزؤها الأصغر فوق الماء ؛ أما الجزء الأعلى من الجمودية فأتخيله مغطى بالجليد . وهذا دب على الماء الجامد ، ولقد سبق أن رأيت دباً محشواً بالقش وكان ضخماً جداً ، بينما الدببة التي تسرح فوق الجليد تبدو لي أصغر . وها هو ذا « المسافر دو الفرو » يجلس وسط الجليد ينظر حوله والجبل العائم يطوّح به إلى البعيد .

وها هي ذي الجمودية تنزلق وتتأرجح ومياه بحر الشمال تغمر سطحها ، لكن كل ذلك لا يزعج الدب الذي ألف ذلك .

كم أحب أن أتصور هذا الضرب من المشاهد ويؤسفني أني عاجزة عن رؤية مثل هذه الصور .

وذات يوم بينما كنت أختار زجاجه من العطر في أحد الحوانيت قدموا لي زجاجة اسمها « عطر الشمال » ، وقد راقت لي لأن عليها وشماً يمثل دباً صغيراً على سطح جليدي .

واليوم حينما أقرأ كتباً عن المناطق والبحار القطبيه أتصور غالباً ذلك السطح الجليدي المرسوم على الزجاجة مع الدب .

مع بعض الحيوانات

قرأت في بعض الكتب الخاصة بالأطفال أوصافاً عديدة للحيوانات · ومنها وصف الأسد وفي هده المناسبة أتذكر المشهد التالي :

قدموا لفتاة صغيرة عمياء صماء بكماء إسمها ماروسيا بعض الألعاب التعليمية كالأسد والخنزير والحصان والبقرة . وأنا ألعب معها وعلي أن أذكر لها أسماء تلك الحيوانات . أتناول الأسد وأحاول مقارنته بما قرأت من أوصافه . عاينته بيدي بعناية واكتشفت لبدته . ثم أدركت أنه أسد من خلال لمسي لجسمه وخياشيمه ، وبلهجة واثقة قلت للتلميذة المبتدئه · إنه أسد . هذه لبدته وتلك رأسه المستديرة وذلك خيشومه المسطح . . .

أما الخنزير والحصان والبقرة فقد سبق أن عاينتها لحماً وعظماً ، ولذا تعرفت على الدمى التي تمثلها حالاً . وفي الحق أن للحصان فروة

على رأسه ، ولكن قوائمه دقيقة ، ولا يمكن الخلط بين رأسه ورأس الأسد . أما الخنزير فتعرفت عليه من شدقه كما تعرفت على البقرة من قرنيها

وكنت قرأت وصف السنجاب ، لكني لم أعاينه محشواً بالقش ، ومع هذا فقد شكلت مرة سنجاباً بحجمه الطبيعي من المعجون المطاوع ؛ وكان رأي الاساتذة أني نجحت في ذلك فكانت مكافأتي سنجاباً محشواً ، ثم قارنته بذاك الذي شكلته بالمعجون فأدركت أنهما على درجة ٍ كبيرة من الشبه ، مع فارق بسيط هو أن السنجاب البوّدو جلدٍ وبرى ، وسنجابي صقيل الجلد .

ولم يسبق لي أن رأيت البجع ، ولكني أتمثله من أوصافه طائراً على غاية من الجمال والرشاقة . وحينما قدمت لي لأول مرة دمية تمثل البجعة تعرفت عليها بسهولة من عنقها الطويل ورأسها .

وقرأت كذلك وصف التماسيح ولكني لا أحسن تصورها وليست عندي حيواناً مجسداً أو سمكة كبيرة ، وإنما هي (شيء) قبيح مشوه الخلقة وأجساد التماسيح تتألف من فقرات يغطيها هيكل عظمي صلب ، وأنا أتصورها ذات رؤوس كبيرة وأشداق واسعة وقوائم قوية قصيرة ذات أصابع ملتحمة أما الذنّب الطويل الذي يتلوى فيكمل (جمال) هذا الوحش ! ويبدو لي التمساح وهو يتلوى وينتفض في اتجاهات شتّى مما يحول بيني وبين تحديد شكله .

شجر الأكاليبتس والدب الصغير

قرأت كثيراً من الكتب عن شجر الأكاليبتس ، ولكني أتصور

مدى ارتفاعه أتخيل شجرة مألوفة لديّ ثم أضاعف ارتفاعها إلى خمسة أو عشرة أضعاف . . .

وطالما أن هذا الشجر ينمو في البلاد الحارة وأوراقها تختلف ولا شك عن أوراق الأشجار عدنا ، وهي لا بد أن تكون صيقة جداً وتبلغ في الطول عشرة سنتيمترات أو خمسة عشر ، أما ملمسها فصلب ، وتحيط بها أشواك مؤدية ، وهي تنتصب على الأغصان كالشموع

وأتصور تلك الأوراق حينما تفرك قليلاً فتفوح من صمغها رائحة عطرة ممتزجة بشيء من رائحة الشمع

زار استاذ أوسترالي من ملبورن عام ١٩٣٥ الاتحاد السوفياتي لحضور مؤتمر عالمي للفيزيولوجيا . ورغب هذا الاستاذ في أن يعرفني ببعض حيوانات أوستراليا فأهداني دميتين تمثل الأولى دباً أوستراليا ، والثانية تمثل الكونغرو . وقد شرح لى الاستاذ أن هذا النوع من الدببة ينتمي إلى فصيلة خاصة تتسلق اشجار الأكاليبتس وتمكث فوقها حامدة كأنها الدمى . وفي الحق أن (الدب الدمية) كان يشبه دباً حقيقياً ، فهو يقعي على ذنبه وقوائمه الصغيرة مطوية على صدره ، أما رأسه فمرفوعة مع أنف صغير بارز مما يضفي عليه سمة الخبث .

ورحت أجسد في خيالي صورة ذلك الدب الصغير ذي الفراء ، ونصبته في ذهني على غصن من أغصان الأكالبتس . وهكذا تصورت الدب الاسترالي الحقيقي متسلقاً الشجرة العملاقة ، ولكنه يختلف عن دب بلادنا بأنه (نباتي) ، فهو لا يتغذى إلا بقشور وأوراق الأكاليبتس .

أضف إلى ذلك أنّ ذكر وصف (النباتي) يثير في ذهني مختلف

أنواع الخضرة كالبطاطا و السبانخ . . . وهذا ما يستدعي إلى ذاكرتي كلمتي (فصيلة نباتية) و (نباتي) .

المحاكاة .

قرأت في أحد الكتب شرحاً لاصطلاح (المحاكاة) يقول الشرح : إنها خصيصة عند بعض الحيوانات والحشرات تغير بها لون جلدها بما يلائم البيئة .

وفي بداية الأمر جعلتني هذه الكلمة ، ولست أدري لماذا ، أفكر بدودة القز الضخمة . وكيف حدث ذلك ؟ لقد حيرتني هذه المطابقة بعض الوقت فحاولت ألا أتطرق لدودة القز . . . وأخيراً فهمت الأمر . ذات يوم وجدت دودة قزٍ على غصن لشجرة (ليلك) فرميت بها متقززة . لكن أحدهم التقطها وأخبرني بأنها حشرة ذات لون أخضر جميل ، ولما كنت أعلم بأن أوراق العساليج والأشجار ذات لون أخضر ، رحت أقارن فى ذهني لون دودة القز بلون تلك النباتات ، (وطبيعي أني عاجزة عن تصور ذلك اللون) .

وبعد زمن نسيت كلمة (المحاكاة) ، ولكني مازلت أذكر معناها وأقرنه دائماً بدودة القز . سألت مرة ليديا ايفانوفنا :

— ألا تذكرين تلك الكلمة التي تشبه دودة القز الكبيرة الخضراء؟ وظنت ليديا أني أمزح وأجابت :

— لست أذكر ذلك . وربما كانت تلك الكلمة تشبه شيئاً آخر عندك ؟

— نعم . تشبه الحقل كذلك .

ـ ،لحقل ؟ !

ـ نعم . . . طبعاً . . حقل فيه حيوانات وحشرات .

وحاولت ليديا المسكينة طوال النهار أن تجد تلك الكلمة (المعقدة) التي تشبه حيناً دودة القز ، وحينا آخر أرضاً مزروعة ، ورجعتْ إلى بيتها دون أن تحقق شيئاً .

وما عدت أفكر بذلك ثم قفزت تلك الكلمة تلقائياً إلى ذهني مجردة غير مقرونة بالصورة الملحة لدودة القز اللزجة .

وفي صباح الغد نهضت وارتديت ثيابي مسرعة وهرعت إلى باب الحديقة لأستقبل (ليديا) وعوضاً عن تبادل التحية هتفنا كلانا في الوقت نفسه :

ـ إنها (المحاكاة) ياليديا !

ـ إنها (المحاكاة) يا أولغا !

ورحنا نضحك معاً .

قالت ليديا :

ـ لم يغمض لي جفن طوال الليل إذ كنت أفكر بتلك (الكلمة) التي ربطتها بدودة القز ، وما وجه الشبه بينهما ؟

ـ كنت عثرت ذات يوم على دودة قز خضراء فوق شجرة (ليلك) ، ولما كانت أوراقها خضراء اللون فقد ربطت كلمة (المحاكاة) بدودة القز الخضراء . . .

كان أحد أصدقائي ذات يوم يقوم بأبحاث في علم الحياة ، وحينما علم أني أحضر دروساً في ذلك العلم راح يمتحنني مازحاً فسألني عدة مرات عن معنى كلمة (محاكاة) وضقت ذرعاً بذلك فأجبته :

– لماذا تكرر دائماً سؤالك نفسه ؟

– أوه . . . لاتغضبي فأنا أسألك عن ذلك لأن الطلاب ممن يبصرون ويسمعون لايستطيعون استيعاب هذه الكلمة .

– ألاتذكرهم الكلمة بشيء ؟

– أبداً . . . بدون شك . . . طالما أنهم ينسونها .

– قل لهم على لساني : إن (المحاكاة) ترتبط بدودة قز كبيرة خصراء ، ولسوف يستوعبونها . وأما أنا فلا تسألني عنها أبداً ، إذ لاأدرك (المحاكاة) عند الحيوانات والحشرات فحسب ، بل أدرك التلون الفكري عند الانسان كذلك .

* * *

العظماء والناس العاديون

طفل رائع

أتيح لى ذات يوم في أحد المخازن أن أعاين تمثالا ، فهناك إلى جانب طاولة عليها بعض الكتب صبي جميل الوجه مدوره ، دو شعر أجعد ، فقلت وأنا واثقة مما أعاين : ياله من صبي رائع !

أجابت (م ن) :

— إنه لينين في الثالثة من عمره .

ولقد دهشت لأني تعودت أن أتصور لينين رجلا بالغاً دا ملامح قاسية ورأس صقيلة تنتهي بعيون . ومن المؤكد أني قرأت كثيراً من الكتب عن لينين ، ومن بينها عن طفولته وشبابه ، ولكني كنت أتصوره دائماً ناضجاً جديَّ السمات ممعناً في التفكير .

وأنا أملك في غرفتي تمثالا نصفياً للينين ؛ ولكن كلما لمسته الآن تصورت أولا هذا الصبي الصغير الجميل بشعره الأجعد ، الذي كان يتشيطن أحياناً ثم ينتحي زاوية ليتأمل فيها . وبعد دلك أتصور لينين رجلا ناضجاً وهو يغمز بعينيه الحادتين اللتين تشعان غبطة بينما تفترّ شفتاه عن سمات الفرح والدهاء .

غوركي الحي

« . . . في اللحظات التي يتعب فيها الفكر وتنبعث في الذاكرة ظلال الماضي التي تلف قلبي بنفحة باردة ، وحينما يروح فكري الواهن كشمس الخريف ليضيء التخبط الخطر في الواقع الراهن ويحوم يائساً فوق فوضى الحياة ، وهو عاجز عن التحليق في الأعالي أو الاندفاع إلى الأمام ، في هذه اللحظات العصيبة ألوذ إلى صورة (الإنسان) العظيمة » .

على مكتبي تمثال نصفي (لغوركي) ، وفي العالم ، حينما أروح أكتب ، أتلمس برفق تمثال صديقي الخالد وكأنه مازال حياً . وربما طلبت منه النصيحة ، لاشعورياً ، أو التمست منه العون . . . نعم إن غوركي عندي مازال حيا : فملامح وجهه منقوشة على تمثاله ، وأفكاره النبيلة المؤثرة الانسانية العميقة تتضمنها رسائله التي بعث بها إلى . وتلك الرسائل المعدودة معين لاينضب من التشجيع وشد الأزر وأنا أستمد منها قوة الحياة والقدرة والخلد والنصائح الحكيمة ، وما أظنني بحاجة إلى قراءتها فهي محفورة في الذاكرة .

وفي اعتقادي أن فرح الانسان يجب ألا يكون لنفسه ولنجاحه الذاتي وإنما لكل الناس ، ولكل ماينجزه الآخرون من حسنات . وكان غوركي يعاني ذلك الضرب من الفرح حينما يرى مواطنيه الموهوبين الشجعان وهم ينجزون المعجزات إذ يبدعون من فوضى الطبيعة سمفونية الخير الشامل لجميع البشر .

وكما يلاحظ غوركي الأحداث الكبرى ، يلاحظ (الوقائع

الصغيرة) ويعرف كيف يفرح بها وما زلت أذكر كم مس شغاف قلبي فرحُه بنجاحاتي المتواصعة ، فقد كتب إلي يقول : « . سررت بالغ السرور من إيمانك العميق بقوة العقل ، ومن تصميمك على تكريس حياتك للبحث العلمي . وأنت على حق حينما تقولين إن الفكر البشري ينمو وهو يصارع (فكر الطبيعة) » .

ومن الصعب علي أن أعلل مقدار حبي وتقديري لـ غوركي ، فأنا عاجزة عن إيجاد كلمات معبرة لأترجم المشاعر والأحاسيس والحماسة التي يلهمني إياها غوركي . إنه يجسد الطموحات التاريخية للشعوب المسحوقة المتطلعة إلى انتصار العقل على الطبيعة العدوة ، وتحقيق العمل المتحرر ، والحياة الجميلة النقية . إن روح غوركي تستوعب أفكاراً وعواطف على مستوى من الكمال والغنى الخارق ، تلك الأفكار والعواطف الدافئة المشعة كالشمس .

وكم أود أن أنصح كل الناس قائلة : ألا اقرؤوا وادرسوا مؤلفات غوركي وسيكون بمقدوركم أن تنهلوا منها أنبل العواطف والأفكار ، إلى جانب الحمية والحيوية التي لعلها ماتزال تكمن في أعماقكم . ومن أراد أن يبني الاشتراكية ويخلق باخلاصه ونشاطه المجتمع السوفياتي فما عليه إلا أن يجعل من أعمال غوركي (كتبه المفضلة)

قرأت منذ عدة سنوات الأجزاء الأربعة لكتاب : (حياة كليم سامغين) (مصغية) لترجمة كتاب عادي بالأحرف النافرة ، وقد استغرق هذا وقتاً طويلا ، ولكن الكتاب شدني من الغلاف إلى الغلاف .

اضف إلى ذلك أن قراءتي ذلك الكتاب وفرت لي بعض المعلومات عن علم النفس والفيزيولوجيا ، واطلعت على حياه المثقفين قبل الثورة وتعرفت بالأحداث الثورية وبأشياء أخرى كثيرة لم يسبق لأحد أن رواها لي بمثل ذلك الوضوح . وأذكر أني قلت حينذاك : « يخيل إلي أني لاأقرأ في (حياة كليم سامغين) كتاباً واحداً بل عدة كتب في آن ٍ معاً » .

قرأت أكثر من مرة بالأحرف النافرة ثلاثية : (الطفولة) ، و (كسبا للخبز) و (حياتي في الجامعات) ، وكم كان تأثيرها علي وكان يبدو لي أني أراقب عن كثب حياة الكاتب وأشهد حياة معاصريه .

وفي قصيدة (الانسان) يحاول غوركي أن يصف بأسلوب شعري تطور الانسانية منذ (الانسان الحيوان) حتى انتصار العقل البشري على الكون .

ولا بأس في أن أنهي حديثي عن غوركي بمقطع من قصيدته تلك :

« الانسان يتقدم وهو يروي بدم قلبه طريقه الشائكة ، فخوراً وحيداً ، ومن جمرات دمه المحترق تولد زهور الشعر تتحدى الفناء . وهو يجسد عن يقين في موسيقاه صرخة الحنين في روحه المتمردة ، ومن تجاربه تولد العلوم خالعاً في كل خطوة على الحياة رداء الجمال كما تصب الشمس على الأرض شعاعها الكريم . إنه يسير على الدوام محلقاً متقدماً كنجم يضيء طريق الناس . . . » .

متحف ليون تولستوي

كنت أود من زمن طويل زيارة هذا المتحف ، وهو ليس بعيداً عنا كما قيل لي وقد رافقتني (م ن) إليه في ساعة من ساعات الفراغ .

وكنت أرغب في الذهاب مشياً حتى أكون فكرة عن مدى بعده . ولكن ما أن خرجنا حتى راحت السماء تمطر بغزارة فلم أتراجع لأني كنت مصممة على زيارة هذا المتحف بأي ثمن .

وركبنا الترام كحل أفضل من العودة ، أضف إلى ذلك أني أستطيع وأنا في الحافلة تقدير المسافة بتعداد المواقف .

ودخلنا إلى (أملاك) تولستوي من باب الحديقة ثم سلكنا طريقاً صغيرة باتجاه الردهة ، ولدى وصولنا عاينت الباب والجرس العتيق . وبعد أن وقعنا في سجل الزوار رحت أعاين المقاعد والمعجن الكبير ، وقد سبق لي أن قرأت وصفاً للمعاجن ، ولكني كنت أتصورها مختلفة عن داك الذي رأيته في المدخل . كنت أتمثل المعجن صندوقاً عالياً بلا غطاء مملوءاً بالطحين . وشاهدت كذلك ديواناً كبيراً من الخشب ، لعل قاعدته كانت عطاء لصندوق . وأنا أعلم أن تولستوي كان يحب البساطة في حياته اليومية ولكني على الرغم من ذلك دهشت لما لمسته من بساطة متناهية فى بيته . ومس سوء الحظ أن الدليل لم يسمح لنا بارتياد حميع القاعات ومعاينة كل الأمتعة (وقد أتيح لي ذلك في زيارتي الثانية) . ومع هذا نححت في تفحص نعض الأشياء إذ مددت يدي من فوق الحبال الحاجزة ، ففي غرفة الطعام ، مثلا ، عاينت الطاولة كاملة والكراسى وأواني المائدة : ويظهر أن أفراد أسرة تولستوي كانوا يستعملون الأواني ذاتها ، وقد دلوني على الكرسى الذي تعود تولستوي الجلوس عايه وأطلت الوقوف إلى جانبه قائلة لنفسي : « هاهو ذا الكرسي شاعراً . وهو الذي كان الكاتب العبقري يحلس عليه » . وابتعدت بهدوء عں المائدة وكأني أختى ارعاج تولستوي وهو يتناول

غداءه . ولم يسمحوا لي بالدخول إلى غرفته الخاصة ؛ لكني نجحت في التسلل إليها من فوق الحبل وعاينت الأسرّة والمنضدة حذرة خائفة من أن أزعج أحداً كذلك .

ورحنا نجوب سائر الغرف متلبثين عند الأبواب المفتوحة ، وكانت (م ن) تصف لي محتويات القاعة وتقرأ لي الملصقات المعلقة إلى جانب كل باب ، ومع ذلك لم أكون فكرة واضحة عن الأثاث واتساع القاعات . وهكذا انتهينا من الطابق الأرضي وصعدنا إلى الطابق الأول حيث يحتوي على قاعة وبهو كبير وآخر صغير ؛ بالاضافة إلى مكتب تولستوي وغرف أخرى . ولم أستطع معاينة شيء في هذا الطابق إذ لم يسمحوا لي بالدخول إلى قاعاته .

وإلى جانب باب المكتب لوحة تشرح كيف كان يعيش ويعمل الكاتب الكبير ويخيل إلي أنه كان دائماً وراء مكتبه يكتب « الحرب والسلام » أو « آنا كرنينا » وأنا أرى الآن أبطال هذه المؤلفات أمامي وكأنهم أحياء . . . وأتمثلهم أصدقاء طيبين بعد بهم العهد . . وأحياناً يبدو لي أن تولستوي يغادر مكتبه ويتجه نحونا ويسألنا مبتسماً بطيبة ودهاء : « أنتم قادمون لرؤيتي . . أليس كذلك ؟ » .

وكنت مستغرقة فأجفل كلما وقف زوار آخرون بجانبنا .

وفي الحق أنه لو أتيح لي أن أعاين بيدي كل شيء لكان تصوري للبيت ومحتويات القاعة أكثر وضوحاً وانطباعاتي أكثر عمقاً . (وخلال زيارتي الثانية زرت مكتب تولستوي وشعرت بمهابة أعظم من شعوري في زيارتي الأولى التي لم أتجاوز فيها باب المكتب) .

وعلى الرغم من كل شيء غادرت المتحف وأنا سعيدة محاولة أن أكمل الصور التي لم تشرحها لى (م ن) بما فيه الكفاية .

وقد حلمت في الليلة التاليه للزيارة بأن تولستوي ينزل من الدرج ليستقبلني على عتبة البيت · قامته متوسطة وبنطاله رمادي اللون ، وسترته بنفس اللون محزومة بحزام ضيق . وفكرت في حلمي أن هذه السترة هي ذاتها (سترة تولستوي الشهيرة) .

وعلى الرغم من كبر سنه فشعره كثيف أجعد ولحيته طويلة كثة وهو يتقدم متمهلا نازلا درجة بعد أخرى بهدوء ، يجر خفيه برفق ، ثم وصل إلى نهاية الدرج ووقف قليلا لينظر إلي ثم مد نحوي يديه فاقتربت ومددت يدي كذلك . وهو مبتسم دائماً ويداه الصغيرتان الجافتان اللطيفتان تشدان على يدي بقوة . . .

أنا أملك تمثالا نصفياً لتولستوي ، وملامح وجهه مألوفة لدى ، وهي الآن ماثلة أمامي وأنا أكتب هذه الأسطر

بايرون

قبل أن أقرأ قصيدة « إلى البحر » لبوشكين كنت على معرفة بـ (بايرون) مما قرأت عنه في الكتب . ولكن بعد قراءتي لقصيدة بوشكين رسخت صورته في ذهني أيما رسوخ ، ودون أن أعلم مَنْ كان يعني بوشكين بـ (سيد الأفكار) حزرت أنه يعني بايرون من قراءتي هذه الأبيات ·

. . . إنتحبْ أيها القبر وارأر وتململْ

ويا أيتها العاصفة تغنيْ بمن كان لكِ نِدّاً

فهو من طينكِ مجبولْ

ومسيّرٌ بما أنتِ به مسيّرةْ

وعميقٌ متمرد متوحشْ

وشموسٌ جموحٌ كما أنتِ !

كنت أتصور رحلا موهوباً فتاناً ولكنه لأول وهلة يبدو عنيفاً فاتراً ذا ملامح متناسقة وشعر كثيف أجعد . وفي أعماق نفسه يتدفق حياة وهو على استعداد دائم لنجدة الناس ، أما مظهره الخارجي فيبدو متعجرفاً كثيباً نزقاً غضوباً . وحينما أتذكر البحر أتمثل بايرون ، وبفضل قصيدة بوشكين تقترن صورة بايرون بصورة البحروحركته الأبدية .

وحينما قرأت فيما بعد (أسفار تشيلد هارولد) كونت فكرة مغايرة عن بايرون إذ تصورته انساناً تستغرقه الأفكار منذ زمن بعيد، ووجهه يحتفظ بآثار الألم ، وكم عانى في حياته وفهم كل شيء ، ونظرته الثاقبة تشق حجب المستقبل وكأنه يريد أن يبدع من أفكاره اللاهبة أثراً يستعصي على الفناء . . هكذا أتصوره عندما أقرأ هذه السطور : « . . . نحن نجسد من نزواتنا صوراً كي نبدع كائننا أكثر ديمومة مما نحن البشر فنحل فيه ونمتلك الحياة التي ننشدها ، كما أفعل أنا الآن . من أنا ؟ لا شيء ! أما أنت ياجوهر الفكر فلست كذلك ؛ إذ بك سأحلق فوق الأرض حيث أرى مايجري عليها

ولا يراني أحد . وسأذوب في الطاقة الحيوية لأولد ثانية مهوراً مما أدركته منك ، وأحس كما تحس ببؤس مشاعرى وتفاهتها » .

إن ماوردفي هذا المقطع من الأفكار المأخوذة من (تشيلدها رولد) قد نقش في ذاكرتي ، فرحت أفكر بكتّاب آخرين وما أبدعوه في ملفاتهم من « كائنات أكثر ديمومه » يبعثونها ويدعونها إلى الحركة والكلام والتأمل .

ويموت الكاتب ، لكن أبطاله التي أبدعها تحيا على مر القرون . ومن منا يجهل أبطال هوميروس وشكسبير وبايرون وشيلر وبلزاك وبوشكين وغوغول وتولستوي وغيرهم ؟ نحن نحتفظ بهم في الذاكرة ونعيش معهم حين نقرؤهم ونناقشهم ناسين أنهم (الأبناء الروحيون) لأولئك المبدعين الذين مضوا .

بوشكين وغوغول

تُلي علي ذات يوم بعض القصائد المرتجلة والهجائية للشاعر غيليياروفسكي المنشورة في إحدى المجلات . وقد أعجبت ببعضها وحفظت منها مايلي :

هاهو دا غوغول يجلس محدودب الظهر
وبوشكين ينظر كما ينظر (١) .

وأنا أعلم أن في موسكو تمثالين لبوشكين وغوغول وأنهما ليسا

(١) في البيتين بالروسية تلاعب لفظي لا يمكن ترجمته (المترجم الفرنسي) .

متقاربين ولو كانا في شارع واحد ، لكن بعد أن قرأت الأبيات السابقة تصورت التمثالين متقابلين

وفي الحق أني أعرف ملامح وجه كلٍ من بوشكين وغوغول وذلك من تماثيلهما النصفية ، مما يتيح لي بسهولة تصورهما جنباً إلى جنب وقد أثرت في نفسي قصيدة غليياروفسكي ، وعندما أتذكرها أتصور المشهد التالي :

غوغول يجلس مستاء أو مهيناً وهو خافض الرأس كعصفور كبير جمده البرد وبلله المطر في يوم خريفي . وهذا العصفور مثبت على قاعدة وجناحاه ساكنان خفيضان ؛ وربما كان غوغول غافياً أو غير مبال بما يجري من حوله . وتهب ريح باردة ويسقط رذاذ ناعم كأنه من منخل ، وغوغول هذا العصفور الكبير لا ملجأ يحميه ، وكل مايستطيع فعله أن يخفض رأسه ويستغرق في التأمل . وإلى جانبه (كما أتصور) ينتصب تمثال بوشكين مستعداً رشيقاً وقد علت رأسه قبعته المعروفة . وبوشكين ينظر إلى غوغول فرحاً ، ووجهه وجه طفل بريء مع شيء من التحدي والدهاء . وكأني به سيتوجه واضعاً يديه على الخاصرتين ، بابتسامة عريضة ، إلى غوغول سائلا إياه : لماذا أنت على هذه الدرجة من الحزن يانيقولاي غوغول ؟ لقد ضحكت من أعماق القلب وأنا أقرأ مسرحيتك (المفتش العام) . انظر إلي يا نيقولاي .

ويجيب غوغول حزيناً قائلا : طبعاً ، نعم دون أن يرفع رأسه .

وما تزال الريح تعصف ناشرة الرذاذ الحريفي الناعم ، وبوشكين يتطلع دائماً إلى صاحبه بفرح ، لكن غوغول مازال غافياً ولعله يفكر باعادة كتابة (النفوس الميتة) على وحه أفضل .

وبعد فترة رأيت تمثال بوشكين وعرفت كيف ينتصب على قاعدته . وذات يوم بينما كنت متوجهة مع (م ن) لزيارة النصب التذكاري للشاعر أتيح لي أن أعاين الجزء السفلي منه ، فقد درنا من حوله وصعدنا درجات القاعدة وتمكنت أن ألمس بيدي شيئاً من الكتابة المنقوشة عليها . ومن سوء الحظ أن الشارع كان يغص بالناس مما اضطرنا للنزول حتى لانسترعي انتباههم .

ويخيل إلي أني أتمثل بوشكين تماماً كما هو على قاعدة التمثال ، وأنا اليوم أعرف أنه يمسك بقبعته في يده المثنية إلى الوراء .

كيف أتصور هرزن

عرفت (هرزن) من كتابه (الماضي والتأملات) ومن مصادر أخرى ، ولهذا لم يكن رأيي فيه ثابتاً دائماً . وأنا أستطيع تصوره رجلا راشداً مثلما أتصوره صبياً صغيراً .

قرأت يوماً أن (هرزن) في طفولته كان يحب أن يتماوت إذا لم يستجيبوا لنزواته ، فتمثلت حينئذ قاعة كبيرة مفروشة بسجادة سميكة قد تمدد عليها هرزن ساكناً وعيناه مغلقتان ويداه متصالبتان على صدره ، وهو يلبس بنطالا قصيراً وسترة من الفرو . وبينما هو (ميت) ينهض فجأة ويغادر القاعة صارخاً لأن أمه أعلنت قائلة : « لقد مات شاسا ، خذوه فادفنوه » . . .

وأنا لم أقرأ وصفاً للقاعة التي (يموت) فيها ساشا ، لكني بكل بساطة أتصوره كما وصفت لكم . ولم يسبق لي أن عاينت التمثال النصفي لهرزن ، ولم يصف لي أحد ملامح وجهه ، وإنما بفضل كتابه (الماضي والتأملات) تصورته متأملا جاداً لطيفاً في الوقت نفسه .

منذ زمن بعيد قرأت قصيدة لـ (نادسون) بعنوان (ضريح هرزن) :

على القاعدة الرخامية المنتصبة
كان يمثل أمامي ينبض حياة
في ظل أشجار الزيتون
ملامحه نبيلة وانفاس الآلهة ترفرف عليه
نظرته ساكنة ملأى بالأفكار
ويداه متصالبتان ثابتتان على صدره البرونزي .

تمثلت قاعدة الضريح الذي ربما كان في مقبرة (نيس) حسب ماجاء في القصيدة على صورة مكعب ضخم من الرخام يرتفع مترين ، وهو صقيل أكاد أحس بيدي نعومة سطحه الرخامي الأملس البارد ، والتمثال البرونزي ينتصب على القاعدة . ولقد سبق لي أن عاينت تماثيل من البرونز وما تزال أصابعي تذكر ذلك .

أما ملامح هذا الرجل البرونزي فلا تبدو لي ضخمة أو خشنة ، فأصابعي لا تستشعر حواشيه بوضوح بل تتحسس خطوطاً منتظمة ناعمة . والشفتان مزمومتان ، ومن حولهما تجاعيد ، تعبران عن الغمّ ، والعينان نصف مفتوحتين مما يضفي عليه سمة التأمل ؛ والوجه

في مجمله يعبر عن حزن لطيف . ولو أتيح لي معاينة هذا التمثال لما ترددت عن القول حالا : إنه هرزن . وفي الحق أنني قد أخطىء، وإنما تلك هي الصورة التي أتمثله عليها . وأكاد أحس صادقة بهبة الهواء الحارة التي يصفها نادسون بقوله : « . . وريح الشمال المحرقة تدمدم وتتنهد » . . . نعم أكاد أحس حقاً بأمواج ريح الشمال الحارة وهي تلف تمثال هرزن البرونزي .

كنت أتصور هرزن دائماً رجلا سوداوياً ، ولذا كانت دهشتي عظيمة حينما علمت من كتاب الأستاذ تيبلوف أن مزاج هرزن كان دموياً .

كيف أتعرف الناس

يرى الناس الأسوياء وجوه الآخرين ويسمعون أصواتهم فيحفظون ملامح تلك الوجوه وطوابع هذه الأصوات . وبعد أن يغيب عنهم أحد الأشخاص يحاولون إعادة صياغة صورته وهيكله ومشيته وهيئة ثيابه . ولا يستطيع أولئك الذين يبصرون ويسمعون دون مساعدة الذاكرة والخيال أن يتذكروا طويلا مظاهر وأصوات الآخرين .

ومع ذلك إذا رأى أحد المبصرين مجموعة من العابرين دون أن يعير انتباهاً لهم ، فلن يتذكر أحداً منهم ولن يستطيع أن يعيد تكوين ما رآه في ذاكرته وفكره .

وأنا أعاني صعوبة في تعرف الناس لأني لا أستطيع معاينة شخص يبادرني من رأسه إلى قدمه ، ولا سيما في اللحظة التي يجري فيها التعارف . وحينما يتقدم إلي الناس للتعرف فهم يمدون لي يدهم كما هي

العادة المألوفة ، وهكذا عندما أشد على يد ممتدة فلابد لي من أن أنتبه وأحفظ خصائص الجلد من نعومة وخشونة ورطوبة وجفاف إلى جانب شكل اليد والطريقة التي تصافحني بها . ولا نكران أن لكلٍ منا طريقته الخاصة في المصافحة ، فبعضنا يصافح بقوة وحرارة ، وبعضنا بتّراخ ولا مبالاة ، أو حسب تعبيري الخاص بدون طابع متميز ، وفريق ثالث يصافح برقة ولطف مما يترك أثراً طيباً في النفس ويحببهم إليها .

وعندما أغادر صديقاً جديداً ، ولاسيما ذاك الذي يخلف انطباعاً عميقاً سواء أكان حسناً أم سيئاً ، أحاول أن أحفظ وأتصور شكل يديه والتفاصيل الدقيقة التي استطعت استيعابها منه ، فأتمثل على سبيل المثال ، طريقة مصافحته هل هي عنيفة أم لطيفة ، سريعة أم بطيئة ، خلال كتابته على راحة يدي بأصابعه ، كما أتصور كيف يحرك أصابعه حينما يخط الحروف ، وكيف تهتز يده مع الحديث ، وكيف يشير وكيف يسحب يده . . .

وهكذا ، فبدون الدراسة المفصلة للناس الذين أعرفهم لا أستطيع تحديد هويتهم حالا من شكل اليد وخصائص الجلد فحسب ، فأيدينا تكون باردة أو فاترة حسب حرارة الجو والظروف المحيطة بنا (وبعضنا تبرد أيديهم أثر انفعال شديد بينما يخلف الانفعال نفسه الدفء في أيدي الآخرين) .

وقد تكون الأيدي ناعمة ولكن سرعان ماتصبح خشنة بتأثير العمل ، فاذا ماغسلت زميلتي ثيابها مثلا أو رتبت غرفتها خشنت

يداها في اليوم التالي حتى أكاد أحسها شخصاً آخر لولا معرفتي بطريقتها الخاصة بالمصافحة

وإذا تعرفت بشخص لم يخلف أثراً في نفسي ولم أعره أي انتباه وحدثته بغير اكتراث دون استخدام الذاكرة ودقة الملاحظة ، فسرعان ما أنسى ذلك الشخص فلا أتصور يديه وأصبح عاجزة عن التعرف عليه في لقاء آخر على الرغم من حفظ اسمه .

* * *

الأحلام

أحلامي

١ :

أتذكر حلماً حلمت به في صغري : رأيت في المنام أني أسمع أصواتاً ، ولست أدري لماذا خيل إلي أن أحداً يغني . لكن الصوت لم يكن لرجل بل كان صوت عصفور ، وكنت أسمع غناءه بوصوح إد يصدح فوق رأسي بصوت رائع موزون مما أشعرني بمتعة عظيمة . وما كنت أخاف إلا أن يتوقف هذا الغناء وما زلت أردد في نفسي متسائلة . « ترى من يقدر على مثل هذا الغناء » ؟ وأجيب « إنه عندليب » .

وفي اليقظة لم أكن سمعت أبداً عندليباً أو أمسكت به في يدي ، وفي النوم كان هذا الغناء يبدو لي أجمل فأجمل وكأنما أمواجه القوية تقترب مني ، ثم راح الغناء يبتعد شيئاً فشيئاً ليتدرج في الخفوت قبل أن ينقطع في النهاية . وكنت على غاية من التأثر والاحساس بالخيبة من أن هذا الحلم الرائع لابد أن ينتهي . واستيقظت وأنا تحت وطأة الانفعال وسألت نفسي . ما الذي يحدث في الواقع ؟ كل ما في الأمر أن صوتاً مازال يرن في أذني ليلا ونهاراً ، وقد يخفت أحياناً بل يضمحل

تماماً ، ولكنه قوي في الغالب . وإن كنت آسف على شيء فعلى تلك الحفلة الموسيقية البالغة الروعة في الليلة الفائتة .

ولكن لماذا خطر على بالي العندليب وليس عصفوراً آخر ؟ من السهل كما أرى ، أن يفسّر ذلك : فطالما ردد أولئك القادرون على السمع أمامي أن العندليب يجيد الغناء ، كما قرأت ذلك في الكتب ، وعرفت كثيراً من القصائد والأغاني عن العندليب أكتفي منها بهذه الأبيات :

من البعيد يأتي تغريد العندليب الساحر
وأنا أصغي إليه بحزن عميق .

أو بهذه :

تغرد البلابل دون انقطاع
فرحةً فوق النهر

كل ذلك يزودني بفكرة خاصة عن البلابل وغنائها ، ومما لاشك فيه أن ذاكرتي تبقى مستيقظة حتّى وأنا نائمة .

٢ :

والحلم التالي يعود كذلك إلى أيام الصبا ؛ فقد حلمت بأني طفلة صغيرة ذات سبعة أعوام أو ثمانية ، وأني مع أمي في القرية والمنزل الذي ولدت فيه . ويخيل إلي أني أرى وأسمع كل مايجري من حولي . وكنا نتناول الفطور حينما سمعتْ أمي فجأة أحدهم يضرب على الباب برفق ، فتوجهت إلى المدخل وعادت حالا ومعها رجل يلبس بذلة

سوداء (هكذا رأيته في الحلم) ، وهو ذو وجه أنيس لكن شيئاً يشغل باله ، ومن الواضح أنه على غاية من القلق . ثم همس بشيء إلى أمي التي أصغت إليه باهتمام وهي تهز رأسها ، ثم شرحت لي تقول : هذا الرجل ملاحق . . ولابد من إخفائه ، ولكن عليك ألا تبوحي لأحد . اتفقنا ؟ فأجبتها : لا لن أبوح وراح أحدهم يضرب على الباب ثانية ، ولكن الضربات هذه المرة كانت عنيفة صاخبة ، فما كان من الرحل الغريب إلا أن صرخ قائلا : إنهم هم فلنهرب . واتجهنا نحن الثلاثة إلى المدخل وفتحنا باب الحجرة الأخرى ، واقترب صاحبنا من النافذة راكضاً ، وبضربة واحدة خلع النافذة (ولقد سمعت صوت الزجاج المحطم) ، وقفز أول مَنْ قفز وصرخ بنا . أسرعوا . وتسلقت أمي النافذة ، أما أنا فبقيت مبهورة حائرة وسط الغرفة . وسمعت الباب يتهاوى تحت الضربات كما سمعت صوتاً آخر فقلت لنفسي : « إنها قرقعة السلاح » . . . وأخيراً خرّ الباب وهجم الرجال على المدخل

وشدتني أمي بيدها بعنف وجرتني نحوها واحتضنتني بين دراعيها ، ثم تجاوزت إفريز النافذة المحطمة وأسرعت خلف الرجل الغريب إلى الباحة وهناك بئر تحت الجدار الذي كانت فيه حفرة طازجة . وقفز الرجل المجهول أولا وتبعته أمي التي كانت تضمني دائماً بين ذراعيها . نزلنا الدرج لنجد أنفسنا في رواق (تحت أرضيٍ) ضيق وطويل . والرجل الغريب يتقدم مسرعاً . أمي أنزلتني إلى الأرض وأسرعتْ في إثره ، بينما رحت (أخبّ) من خلفها بخطواتي الصغيرة الطفلية .

وراح الرواق يتسع ويهبط أكثر فأكثر ، وساد الظلام ، ومشينا

طويلا ، ثم انعطفنا فجأة لندخل في رواق آخر . وشاهدت قنطرة ينبعث منها ضوء كهربائي قوي (في اليقظة لم أر قط ضوءاً كهربائياً) ، وظننت أول الأمر أنه نور الشمس ولكن بعد لحظات من اجتيازنا القنطرة وجدنا أنفسنا في قاعة عظيمة (تحت الأرض) فأدركت أنه نور الكهرباء . ونظرت حولي فوجدت القاعة واسعة لاأكاد أميز جدرانها المتقابلة ولم يكن في القاعة أعمدة أو أثاث بل أشجار ورد نامية . تطلعت إلى الفضاء فرأيت في الأعالي القبة السوداء التي تتدلى منها مصابيح كهربائية تشع بسطوع قوي . وفجأة سمعت صوت موسيقى رائعة لطيفة كأنها صادرة من الأعلى ، ثم أصواتاً نسائية عديدة تغني كذلك بعذوبة وروعة .

ولم تكن أمي إلى جانبي ولا الرجل الغريب بل كنت وحيدة تحت شجرة ورد أبيض تفوح برائحة عجيبة ، وإذ ذاك راحت تحلق فوق الورود فراشات أو عصافير . . لا ، بل صبايا جميلات يرفرفن بالأذرع وكأنها أجنحة . . وراحت أصوات الموسيقى والغناء تشتد وتقوى .

كنت مسحورة بهذا المشهد ، وإذ استولى علي شعور طاغٍ بالبهجة رحت أغني وأضحك وأهز ذراعي لأطير مع الصبايا الحسان . . . ثم غطى ضباب كثيف أبيض كل شيء وانتابني الهدوء . . . واستيقظت .

٣ :

حينما بدأت معركة خاركوف في شباط عام ١٩٤٣ تركت غرفتي (الفردية) والتحقت بسائر البنات الضّريرات في المهجع .

وفي الصباح الباكر من السادس عشر من شباط رأيت كابوساً . فقد حلمت بالموت وأحسست به واضحاً بيدي . وقد اتخذ الموت مظهر امرأة يغمرها البياض ، وهي شفافة كأن جسمها من الغاز . وقد وثبت علي تريد الامساك بخناقي ودافعت عن نفسي أول الأمر بقبضتي ، ثم انهلت على (الموت) بطعنات من سكين عظيمة لست أدري أين وجدتها ، وانغررت السكين حتى المقبض في أنحاء شتى من جسم (الموت) ولكن دون جدوى ، فكأن السكين كانت تغوص في القطن ! وقد دام هذا الكابوس مده طويلة وكان (الموت) يلاحقني في جميع أرجاء البيت ، واستنفدت هذه المعركة قواي . .

وحينما أرادت الفتيات إيقاظي حسبت أنهن (الموت) ورحت أقاتلهن بعناد . . وشعرت بعد أن استيقظت تماماً بالألم في يدي ، وقالت لي رفيقاتي إني كنت أضرب أعمدة السرير بقبضتي ، وعندما انحنت المربية عليّ ناولتها لكمةً إد حسبت أنها (الموت) .

وليس مايدهش في أن أحلم بالموت ، فقد كنا نعيش آنذاك أوقاتاً عصيبة ، وتوترنا العصبي كان بلا شك ، قد تجاوز الحدود .

٤ :

حلمت أني أعيش في مدينة صغيرة لطيفة نظيفة تغمرها الحدائق الكثيرة ، وأنا أسكن في بيت جميل مع آناس طيبين وادعين . واتّصل الود بيني وبين إحدى الفتيات .

وذات يوم وصل جندي ألماني وقادنا إلى نهر الدينيبر وأجلسَنا في زورقٍ دفع به بعنف بعيداً عن الشاطىء . لم يكن معنا مجاديف

والزورق يدفعه التيار . كان صوت الجندي النازي يصل إلينا من الضفة وهو يصرخ لرجل يدعي أنه والدي ويقول : لابد من موتهما وسوف يبتلعهما دوّار النهر

كنت على غاية من الرعب وكنت أجلس داخل الزورق وصديقتي على مقعد في الطرف الآخر . حاولت مراراً أن أنحني لأجذف بيدي وطلبت من رفيقتي أن تفعل ما أفعله ، ولكن دون جدوى .

وراح التيار يجر الزورق نحو الدوّار ، وشعرت كأن محركاً يعمل في مؤخرة المركب . . . ثم راح الزورق يدور حول نفسه متسارعاً . . . واشتد بي الفزع . . وتمنيت لو أتعلق بأي شيء . . لكن الماء مازال يرغي ويزبد من حولنا . .

فجأة رأيت زورقاً آخر يتجه نحونا . . إنه أبي الذي جاء ينجدنا ، وسمعت صوته المطمئن يقول عبر الماء : تمسكوا يا أولاد لاتخافوا . . سأرمي لكم بحبل وكلابة حاولوا أن تعلقوها بحلقة الزورق لأشدكم بعد ذلك بالحبل .

رمى والدي الحبل الطويل ذا الكلابة . . لكن زورقنا مازال يدور سريعاً ومن حوله الماء المزبد وسط الدوار وكأننا في قِدْرٍ عملاقة . هاهو ذا الحبل مع الكلابة في الهواء ، لكن فرقعة قوية في الوقت نفسه تضج في الماء ، وخُيل إلي أن الدوار نجح في التهامي .

واستيقظت أخيراً تحت وطأة ذلك الانفعال الشديد .

٥ :

حلمت بأني في قاعة مجهولة مع امرأتين . تمسك الأولى بيدها ثلاث لوحات ذات أطر وكأنها أيقونات ، وهي تمثل طيور الإوز كما تقول المرأة الثانية ؛ وصاحب اللوحات يصرح بأنه يهدينا إياها . تناولت إحداها وعاينت بأصابعي صورة الاوزة البارزة ، وأعجبت بها كثيراً ورحت أفكر في المكان الذي سأعلقها فيه . وفجأة لاحظت شيئاً غير طبيعي : فقد بدأت الأوزة تتحرك وانفصل الأطار عن القماش واختفيا معاً ، وبرزت أمامنا إوزة جميلة تتمايل على قوائمها القصيرة . لست أدري لماذا بدت لي تلك الأوزة عدوانية فهي تنفخ وتمد رقبتها الطويلة إلى ساقي . . حاولت الهرب ، لكنها لحقت بي وعضتني في ساقي عضة مؤلمة . انتابني الغضب فأمسكت بها من قائمتها وربطتها برجل السرير ، لكن الحبل كان طويلاً إذ تمكنت الأوزة من الوصول إلى منتصف الغرفة وعضتني عضات أخرى بمقارها . ظننت أنها تفعل ذلك طلباً للطعام فأحضرت لها حبّاً ووضعت لها صحناً مملوءاً بالماء .

هزت الأوزة رأسها وقالت بصوت بشري وبلهجة ساخرة هازئة :

— أتظنين أني اتناول من هذا الحَبّ المقرف ؟ لا . . أبداً .

أجبتها مندهشة :

— وماذا تريدين أن تتناولي ؟

— أنا لا آكل إلا الذرة البيضاء المسلوقه . ولا بد من أن أحضّر بنفسي حساء الذرة .

هذا ما صرحت به الأوزة بلهجة مهيبة .

واستيقظت على هذا الحلم المضحك .

٦ :

حلمت بأني أمشي فى شارع إحدى القرى ، ثم انعطفت لأدخل في باحه ولست أدري كيف وجدت في يدي رشاش ماء ، ورحت أتسلق الحاجز لاسقي غراس البندورة في البستان . لكن رجلين يقتربان مني ليطرداني بفظاظة مماحرح شعوري فوددت لو أرد لهما الإهانة . وحينما غادرت الباحة سمعت احدهما يقول :

– لاتعودي إلى هنا . فليس لك الحق في ذلك .

انفجرت حينئذ وأجبته بخشونة .

– أتظن أني سأعود لأرى وحشين مثلكما ؟ لن أعود أبداً . ولكن إياكما أن تأتيا إلى موسكو .

أجاب الرجلان بسخرية :

– أوه . ستزور موسكو عندما يحلو لنا .

– لا . . . سأطلب إلى الجميع أن يمنعاكما من ذلك .

ابتعدت عن الباب ورحت أفكر بعبور الشارع دون أن تدهسني العربات التي تعبره باستمرار . (وأصغيت) بقدمي لأستشعر اهتزاز الأرض وقلت لنفسي : « حالما ينقطع الاهتزاز سأعبر الطريق مسرعة ، ولكن لابد من التوجه المباشر إلى البيت ، لأنني قد أجد نفسي على شاطىء البحر إذا ما انحرفت قليلاً ، ولن اتمكن من التعرف على الطريق المؤدية إلى البيت » .

وبقيت في حيرتي حينما اقتربت مني فتاة عمياء تبلغ العاشرة من عمرها ، واخبرتني بأنها ترى قليلاً وتستطيع مساعدتي في عبور الشارع ..

ولكني لاحظت أننا بدلاً من أن نسير إلى الأمام ، انحرفنا يميناً فقلقت لذلك إذ خشيت من السقوط في البحر . . . وها أنذا أشم رائحته واستشعر اهتزاز أمواجه الصاخبة ؛ ومع ذلك جرينا طويلاً فلا البحر بلغنا ، ولا البيت . وأفضيت بذلك إلى الفتاة الصغيرة فاجابتني : نعم لقد ضللنا طريق البحر والبيت وعلينا أن نعود ادراجنا ونرجع إلى حيث انطلقنا . . .

وهذا ما فعلناه إذ عبرنا الشارع ثانية ونحن نتحسس الحواجز بالايدي ؛ ورحنا نبحث عن الباحة التي طردوني منها بغلظة . . ومشينا طويلا ومررنا بباحات كثيرة دون أن نهتدي إلى الباحة المنشودة . . . ثم رفضت متابعة السير فقد كنت منهكة . . جلسنا لنستريح ثم أستأنفنا المشي . . .

وقد دام الحلم طويلا ، ولست أذكر كيف انتهى .

٧ :

حلمت بادىء الأمر باني ذهبت مع (م ن) إلى معهد المعوقين حيث طلبت من الموظفين هناك أن يرسلوني بمهمة إلى خاركوف . وكان في المكتب كثير من الناس ، وكنت كأني اسمع أصواتهم وارى ظلالهم ، فاحساساتي السمعية والبصرية كانت على درجة من الضعف بحيث اشعر باصوات الناس وأحس بوجودهم بكياني الجسدي لا بحواسي .

وقد أجاب الموظفون على طلبي (وهم يتحدثون بصوت مرتفع و (م ن) تترجم بأصابعها) بأنهم لا يستطيعون ارسالي بمهمة طالما أني أني ذهبت إلى خاركوف في العام الماضي لكن الرفيق (ز) اقترب مني وصافحني وراح يكتب على راحة يدي : سألبي رغبتك ، وقد

كان عليك أن تذهبي عام ١٩٤٦ إلى هناك ، لكنك لم تفعلي . وعلى كل حال فالمبلغ المخصص لتلك المهمة مازال جاهزاً ويمكنك استلامه في أية لحظة . . .

سررت من ذلك وعدت إلى البيت لأحزم حقائبي . . . وهكذا وبقفزة في الذاكرة لم أر نفسي وأنا أرحل إلى خاركوف ، بل وجدتني فجأة في هذه المدينة في البناء الذي كان مخصصاً لمستشفى الصم البكم حيث تقع مدرسة العميات في الطابق الثاني . والبناء لم يجدد بعد الحرب ، ورحت أفتش عن مخرج انزل منه ، فاقتربت من الردهة التي كانت تؤدي إلى الدرج فيما سبق ، وبدأت بحذر شديد أتلمس الدرج بقدمي فوجدته أخيراً ، ولكنه كان عارياً بلا جدار على جانبه أو حاجز ؛ وعلى جانبي الدرج هوة تؤدي إلى أول طابق . خفت من نزول هذا السلم فقد انحرف عن الوسط لأزل وأهوي . وراحت رأسي تدور خوفاً واهتياجاً فقررت أن أحبو على يدي ورجلي لا تحسس الطريق جيداً .

وخيل إلي أن زمناً طويلا مضى علي وأنا أنزل ، وان البلاط المتدحرج إلى الأسفل في كل حركة من حركاتي يعيق تقدمي . . . وانتابني الذعر من أن يهوي الدرج في أية لحظة . . . وهكذا كلما امعنت في النزول كان بلاط الدرج يهوي : ففي بداية الأمر لم يكن البلاط يتداعى إلا أمامي . ثم شعرت بأنه يسقط من فوقي ، وسمعت في الوقت نفسه وقع خطى لبنات صغيرات ضريرات ينزلن من خلفي على هذا الدرج المرعب ، وقد لحقن بي عندما وصلت إلى الطابق الأرضي . . وتوقعت أن أجد أرضاً حجرية كما هو الدرج ، لكنها أدهشتني بأنها صقيلة مبلطة نظيفة .

وخيل إلى الفتيات الضريرات أني ضللت طريقي إلى البيت فأمسكن بذراعي وتوجهن بي إلى الباب الذي كنت أعبر منه سابقاً للذهاب إلى المدرسة . كان الباب مغلقاً . . ولكن وجدت مفتاحه في جيبي ففتحته ، وبعد أن عبرت العتبة شعرت تحت قدمي بتلك الأرض الحجرية المزعجة.

انحنيت لأعاين الأرض بيدي ، فلم تكن مثلما كانت عليه سابقاً إذ وجدت نفسي ثانية على سلم حجري فقلت في نفسي . « لعل قنبلة مزقت الأرض خلال القصف »

ورحت أنزل برفقة الفتيات الضريرات ، ولكنهن كن يسرعن جداً حتى انهار السلّم وطوح بنا إلى القبو . . تسلقنا على ركام من البلاط الكبير واتجهنا حيث كان الباب المؤدي إلى بهو المستشفى فيما سبق . وحينما وصلنا إلى المكان الذي كان يحوي ثماني درجات خشبية لم نعثر عليها . . . واكتشفنا بدلا منها أرضاً خشبية صقيلة منحدرة . . ووصلنا إلى الباب بعد أن تزلجنا مراراً على تلك الأرض . وجدت مفتاح الجرس الكهربائي فضغطت عليه دون أن أسمع صوته . وجاء أحدهم بعد لحظة وفتح الباب على البهو . . دخلت وانعطفت شمالا وصعدت الدرج راكضة . . ووجدت كل شيء على حاله ، فالدرج والبهو لم يصبهما أيّ تغير . وصلت إلى ردهة الطابق الأخير ثم انعطفت ثانية إلى اليسار ودخلت في قاعة كان يشغلها المخبر فيما مضى . وكان فيها عدة أساتذة هرعوا جميعاً لاستقبالي مسرورين لرؤيتي . وحاول كل منهم أن يحدثني بأصابعه ، لكني كنت عاجزة عن استيعاب مايقولونه جميعاً في الوقت نفسه .

وفي صباح اليوم التالي لم أعد أذكر إذا كان هذا المشهد نهاية الحلم أم أني نسيت تتمته .

٨ :

رأيت فيما يرى النائم أني أعمل مع (م ن) في مكتبي ، وأنا أريد أن أشرب الشاى . وكان في الابريق ماء ، وما علي إلا أن أصل التيار بالسخانة وأضع الابريق فوقها . تناولت السلك ، لكنه كان ذا أربعة فروع بدلا من اثنين ؛ ومن المستحيل ادخال السلك إذن في المأخذ . ففككت فرعين عن السلك ولكن السخانة لم تعمل مع أن (م ن) راحت تجرب وضع السلك في كل المواضع . ضغطت حينئذ على المأخذ ومددت يدي نحو السخانة لأتحقق من عملها فاذا هي ساخنة ، ولكنها مغطاة بملاءة فنزعتها بسرعة مندهشة من أن (م ن) قد تركتها على السخانة ، ومن حسن الحظ أنها لم تحترق .

وقد هزني هذا الحلم فاستيقظت .

٩ :

حلمت بأني أعاني من الصداع ، واصطحبوني إلى الطبيب في المستشفى الجراحي حيث تركوني هناك ، ولا بد لي من اجراء عملية . قادتني الممرضة إلى غرفة العمليات وأجلستني على كرسي وراحت تقص لي شعري .

كتب الجراح الذي كان يعرفني على يدي : سوف نفتح لك الجمجمة .

ولم أشعر بأدنى ألم خلال العملية ، وإنما شعرت بالوهن وبدأت أفقد الوعي ومكثت طويلا على هذه الحالة . . . ثم عدت إلى وعيي وقلت للطبيب : إن حالتي تحسنت فأجابني بأنه يمكن لي أن أغادر المستشفى .

ذهبت لأستحم قبل العودة ، وما عدت أذكر كيف وصلت الى البيت . . لكني وجدت نفسي في غرفتي وأنا أرتب المنزل وقد ارتديت ثوب البيت . اقتربت عدة مرات من الباب لأتحقق من أن أحداً لايقف خلفه ، وعندما لمسته بيدي أحسست بأن هناك من يقرع عليه . فتحت الباب وإذا رجل متوسط الطول يدخل فظننت أني أعرفه عندما صافحني ، فقد كانت يداه مألوفتين لدي . بذلت جهدي لمعرفة من يكون ذلك الرجل ، لكني لم أنجح وذلك ما أقلقني . . ومع هذا اقترحت عليه أن يجلس آملة أن يعرّفني بشخصه . جلس الرجل إلى جانبي دون أن يذكر اسمه وسألني عن حالتي بعد العملية . أجبته مضطربة بأني لاأعرف مسّ أحدّث . وأخيراً اغتنمت أول فرصة لأسأله عن حاله آملة أن أتمكن من تحديد هويته من جوابه . أجابني بأصابعه قائلا : أنا على مايرام ، وشكراً لك وأنا أعمل كثيراً ، لكني منزعج من . . ثم ذكر اسم فتاة أعرفها فسرعان ماتعرفت حالا على زائرى هذا الذي لم أكن رأيته فيما سبق إلا مرة واحدة .

١٠ :

حلمت بأني في الصباح قد رتبت غرفتي وتناولت فطوري وتهيأت للعمل ، وفي الحين نفسه شعرت بأني مريضة فاستلقيت على الديوان لأستريح قليلا

غفوت . . ثم سمعت فجأة ضربات على الباب . نهضت قافزة حافية القدمين وشعري غير مصفف وهرعت إلى الباب ففتحته قليلا ومددت يدي (لم أكن أريد فتح الباب كاملا فقد كنت في ثياب النوم وعارية الرجلين) . اصطدمت بجسم ما وعرفت أنه رجل من السترة التي لمستها .

انتظرت أن يحدثني أو أن يكتب بأصابعه على راحة يدي ، ولكنه لم يمد يده وإنما انحنى علي وبدأ يقول شيئاً ما بصوت مرتفع . لم أشعر برنين صوته بل بأنفاسه على وجنتي وهو يتكلم . ولقد أدركت بعض تلك الأحرف من تلك الأنفاس وهي ب . ت . ج .

وحاولت أن أفهم ما الذي يعنيه . . ولعله سألني : لماذا أنا وحدي وأين هي (م ن) ؟ فقررت أن أجيبه بعفوية : أنا أعمل عادة في الصباح وحدي ثم تنضم (م ن) إلي فيما بعد .

وشعرت بأن الرجل غضب إذ راح يلقني بأنفاسه التي بدأت تشتد على أذني وخدي فارتجلت في جوابي أقول : تسألني عن موعد حضور (م ن) ؟ بعد ساعة . والساعة الآن الحادية عشرة وما عليك إلا أن تعود بعد ساعتين .

وشعرت بأن صاحبنا قد تملكه الغضب حقاً إذ انحنى بجسمه كاملا على أذني وراح يلقنها بعنف . ظننت أنه يودعني فأجبته باللهجة نفسها وأغلقت الباب في وجهه .

وما كدت انتعل حذائي وأصفف شعري حتى سمعت قرعا جديداً على الباب ، ففتحته وإذا امرأة تمسكني من يدي وتحدثني بأصابعها

قائلة : « هناك باحث من أكاديمية العلوم التربوية قد مر عليك منذ لحظة ، وهو يلح في التحدث إليك . أترغبين في النزول إلى الباحة ؟ وسأفتش عمن يتولى الترجمة فأنا مشغولة جداً » .

ولحقت بالمرأة في الممشى ، وخيل إلي أنها معلمة في مدرسة الصم والبكم وانني أعرفها . لكني لم أنجح في تذكر اسمها . وصلنا إلى الردهة ثم إلى الباحة وكنت خجلة من أني في ثياب النوم وأن شعري غير مصفف . أوصلتني المعلمة إلى جانب امرأه لطيفة محببة راقت لي كثيراً . سألتها عما إذا كان أحد من الجهار الاداري شاهدني على هذه الصورة . وكانت تلك المرأة تحدثني بسرعة وبصوت مرتفع وفي الوقت نفسه بأصابعها فطلبتْ إلي ألاّ أهتم فما من أحدٍ شاهدني ، ولو حدث ذلك فليس فيه مايضيرني .

١١ .

كان هذا الحلم الذي سأرويه على درجة من الوضوح حتى بدالي أنه من عالم الواقع . حلمت بأني ذهبت ذات ليلة إلى غرفة الحمام وشعرت بالريح تعصف من النافذة . اقتربت منها فوجدت مصراعها مفتوحاً فأصابني الذعر من أن لصاً قد يكون تسلل إلى المدرسة . ومن الممشى ناديت الاستاذة المناوبة فاقتربت مني لأصطحبها إلى غرفة الحمام قائلة لها :

— مصراع النافذة ، كما ترين ، مفتوح ، والجميع نيام . . وهذا ما يخيفني .

— أوه . . لا مبرر لخوفك فهاهم العمال يركبون زجاج النوافذ .

— ولماذا يعملون ليلا ؟ .

— إن نوبة عملهم في الليل .

ـ لعلهم أخطؤوا فالزجاج المكسور في غرفتي ـ وليس هنا .

وسمع العمال ما دار بيننا فطلبوا من الاستاذة أن تخبرني بأنهم لم يخطئوا فهم سيركبّون زجاج النوافذ ، وعما قريب سيصلحون نافذتي .

ورجعت إلى غرفتي ورحت أنتظر العمال . بعد دقائق استشعرت من هبة الهواء البارد أن النافذة مفتوحة . اقتربت منها فاذا العمال هنا ولوح الزجاج يهتز بخفة بين أيديهم . كانوا عدة عمال يتكلمون بصوت مرتفع ولا أفهم عنهم ما يقولون فأنا لا أسمع إلا ضجة أصواتهم . ودخلت فتاة إلى غرفتي ، وهي طالبة ولاشك ـ وقالت لي إن عاملا يريدني أن اقترب من النافذة ، ثم مد لي ذلك العامل كتاباً عادياً وقدمه لي هدية .

رحت اتصفح الكتاب فسقط منه كتاب آخر ذو حجم أصغر . وطلبت من الفتاة أن تقرأ لي العناوين فاجابت :

ـ إنها مؤلفات لينين . الأول منها هو كتاب « المادية والنقد التجريبي » . وهو مطبوع بحرف صغير ـ ولذا يبدو رقيقاً . والثاني بعنوان : « خطوة إلى الأمام وخطوتان إلى الوراء » .

كيف أفهم العالم

معلوماتي الأولية

عن العالم المحيط بي

قبل أن أفقد حاستيْ البصر والسمع ، وذلك قبل الخامسة أو الرابعة من عمري كنت أعرف طبعاً أنّ لي أباً وأماً وجدّاً وعماتٍ وأعماماً ، إلى جانب أصدقائي من صبيان وبنات . وكذا كان لأصدقائي أمهات وآباء وأقرباء آخرون . ومع هذا فحينما كنت صغيرة لم تكن تشغل فكري التساؤلات القائلة : ما هي الأم ؟ ما هو الأب ؟ ما هو الجد ؟ لماذا لا يمكن لأمي أن تكون أماً لصديقتي ؟ ولماذا لا يمكن لوالد صديقتي أن يكون أباً لي إذا غاب هذا ؟

وكنت أعتبر أمي (أمّاً لي) لأنها كانت تعيش دائماً معي ولأني أَلِفْتُها هي نفسها دون النساء الأخريات ، تهتم بي فتداعبني وتقدم لي الألعاب وتصنع أثواب الدمى ، وبكلمة ، كانت لي أماً طيبة رؤوماً . ولكن إذا ما سئلت عن مفهوم (الأم) ولماذا أنادي أمي : (يا ماما) لأجبت بدون شك : لأنها (الماما) التي تخصني . . .

وكان أعز فرد لديّ من الأسرة بعد أمي جدّي لأبي ؛ وكان يحبني كثيراً ويدللني مثل أمي لكن ذكراه عندي غامضة فقد مات قبل أمي برمن طويل

وقد تعودت على أن تكون أمي وحدها القيّمة على شؤوني دون الآخرين ؛ فاذا ما رغب أحد الاصدقاء في مداعبتي رفضت ذلك ولاسيما إذا كنت اقابله لأول مرة .

وحينما يقدم لي من لم آلفهُم بعد شيئاً فأنا أرفضه بل أشعر بالخوف أو الارتباك الشديد . وعندما كان أبي يأتي إلى البيت في اجازة جالباً لي معه الألعاب الجميلة من طابات أو خيول خشبية أو دمى منوعة أو حلوى . . . لم أكن أتجرأ على تسلمها منه فكان لابد لأمي أو جدي من من تقديمها إلي . ومن السهل تفسير ذلك بأني حينما فقدت السمع والبصر شعرت بالضياع الكامل حتى في الاجواء المألوفة لديّ ، وفي هذه الفترة كانت أمي الكائن الوحيد القريب إلى نفسي .

ومن السهل أن ندرك أن تعلقي بأمي في مثل تلك الظروف ، وحاجتي الماسة إلى وجودها وعونها كانت على درجة من الأهمية والالتصاق بالذات بحيث لم أسمح لأحد خلال فترة طويلة أن يحل محل أمي (وهذا ما وعيته الآن) ، وإذا اتفق أن غابت اعتراني الخوف الشديد وكدت أفقد قدرتي على التعرف عليها .

وإذا ما اضطرت أمي إلى الغياب كانت تتركني عند اقربائي الذين يسكنون في البيت المجاور .

وذات يوم ذهبت أمي لترى عمتي التي كانت تُحتضَر (هذا ماعرفته فيما بعد) وتركتني عند أقربائي . مكثت طوال النهار جالسة صامتة أكاد لاأتحرك ، وكانوا يقدمون لي الألعاب والحلوى ، لكني رغبت عن كل ذلك فقد كنت أنتظر بصبر نافد أن تحضر أمي لتأخذ

بي ، ولكنها ماعادت . وكان عندي شيء من الاحساس بالزمن إذ قدموا لي طعام الغداء فرفضته ، وكذلك فعلت حينما حان موعد العشاء ومع ذلك راح القلق ينتابني إذ خطر على بالي أنه لابد من النوم بعد العشاء (وقد تعودت أن آوي إلى الفراش في مثل هذه الساعة ، وأعتقد أن جميع الناس يفعلون ذلك) ، وهذا يعني أنني سأنام دون أمي بل وخارج البيت وهكذا جرى تحضير سريري ولابد من أن أنزع ثيابي ، ولم أنزع إلا حذائي وجوربي وفستاني ، وأبقيت البطال والقميص ، وسألتهم أن يدلوني على مكان معطفي وقبعتي .

ومن الصعب علي اليوم أن أتذكر لماذا لم أكن راغبة في نزع ثيابي ، وما الذي كنت أنويه . كل ما أذكره أني دفنت نفسي تحت الغطاء مذعورة من أن أمي لن تعود أبداً . وراح شعور باحتمال فقدان أمي ، كما فقدت جدي ، يرعبني حتى إني لم أقو على البقاء في السرير ، فنهضت بحذر . . وأدركت بالغريزة أنه لابد أن أتصرف بهدوء . . وجبت أنحاء الغرفة وأنا أتلمس الأسرّة . . ولم يتحرك أحد فأدركت أنهم نيام وجدت ثيابي . . ولكني لم ألبس إلا جواربي وحذائي والمعطف والقبعة . . ثم خبأت فستاني تحت المعطف وبحذر شديد خرجت إلى المدخل وتلمست السلسلة والمزلاج ففتحت الباب وصرت في الردهة . كان هذا البيت قريباً من بيتنا فلا صعوبة عندي في التنقل بينهما . . كانت الليلة ماطرة فسقطت فوراً في بركة ماء كبيرة وأنا أغادر الردهة . لكني كنت أعرف أني أتجه إلى (بيتي) وأن أمي ربما كانت هناك ، وهذا مابعث في نفسي الشجاعة

وقد بدت لى هذه المسافة بين بيت الجيران وبيتنا كبيرة حافلة

بالحفر والأحجار والمستنقعات . وحينما وصلت إلى ردهة دارنا كان الخوف قد أعياني ، وأدركت بصورة غامضة أني أسأت التصرف إذ غادرت البيت دون استئذان وتركت الباب مفتوحاً في الليل . وكنت أعرف أنه ماكان يجب أن أقوم بما قمت به ، فأمي كانت دائماً تغلق الباب ليلا .

ولم أعد أتذكر كيف اكتشفت أن باب بيتنا لاقفل له ، وكيف قرعت الباب . وكل ما أذكره أن الباب فتح وأن أمي احتضنتني في ذراعيها وأني صرت في بيتي .

في تلك الفترة كنت أعي حياتي مع أمي على هذه الصورة : أمي لي وهي ملكي كما أنا ملك لها فهي وحدها ، إذن ، القادرة على أن تهتم بي ؛ ومنها وحدها كذلك اتقبل العناية والمداعبة . . . ولهذا كنت أرفض أن يهتم الآخرون بي أو أن تهتم أمي بهم . وكان يحز في نفسي أن تؤدي خدمة للناس فأكون مضطرة حينذاك لالتزام الأدب والانتظار ريثما تعود إلى الالتفات إلي . . وكنت أحرد من أمي لأقل بادرة ، ومما لاشك فيه أني كنت في تلك الفترة أعاني من الغيرة ، ولكني لا أعي ذلك الشعور ؛ وكان يؤلمني ، ولا أستطيع الخلاص منه .

واكتشفت فيما بعد أشياء كثيرة كانت تقلق طفولتي : كنت أحرد من أمي حينما كان أبي يعود إلى البيت وتهتم به . وكنت مخطئة في ذلك فوالداي كانا يهتمان بي قبل أن يتبادلا الاهتمام . كان يصعب علي أن أفترق عن أمي فأتبعها أينما راحت ، وأنام معها دائماً . وهكذا أغضب لدى انشغال أمي عني بالزوار وكذلك حينما تعود والدتي

من السوق حاملة معها الحلوى ، ليس لي وحدي بل لصديقاتي معي . وما كان غضبي لأني كنت أستأثر بالحلوى التي أتقاسمها مع صديقاتي ، وإنما كان يخيل إلي أن أمي إذا أعطت الصديقات الحلوى والألعاب فهذا يعني أنها تحبهن مثلما تحبني ، مما لا أرغب فيه وأخشاه .

وينتابني الغضب نفسه حينما يجلس أحدهم إلى جانب أمي ، ولا سيما إذا كان رجلا . وأنا أتعرف على الرجال من ثيابهم ورائحة السجائر وأدرك بالغريزة أني لا أحب أن يقتربوا من أمي ، وذلك دون أن أستطيع تفسير هذا لنفسي أو للآخرين .

ذات يوم ، خلال الحرب الأهلية زارنا رجل غريب . وقد عرفت أنه رجل بعد أن عاينت ثيابه ، كما أدركت من رائحته أنه إعسكري . ورحنا لنتناول الغداء إذ دعته أمي إلى ذلك ٥، وعرفت بيدي أنه يشاركنا الطعام على المائدة . وقد بقي ضيفنا على الطاولة يتحدث مع أمي ، وأدركت بذلك بتلمس حنجرتها وشفتيها لأحس باهتزازات حبالها الصوتية . وخيل إلي أن أمي أطالت حديثها مع ضيفنا دون أن تعيرني انتباهاً ، وكلما طال حديثهما كنت أزداد ضيقاً وألماً . ورحت أحاول بشتى الطرق إفهام أمي أنه حان لضيفنا أن ينصرف ، فأشدها من فستانها أو أدفعها برفق أو أهز كرسيها . ووصل بي الأمر إلى أن رفست الضيف من تحت الطاولة ، لكن جميع مناوراتي لم تجد نفعاً . عند ذاك واتتني فكرة شيطانية ، إذ رحت إلى المدخل وتناولت من الفرن إناءً فارغاً ، ووجدت كيساً من الطحين خلف الحاجز فملأت الإناء طحيناً . وطبيعي أني كنت أعي بغموض سوء ما أنا مقدمة على فعله ، ولكنها الطريقة الوحيدة التي أستطيع

بها طرد الضيف غير المرغوب فيه . وتوجهت بسهولة بالغة إلى الغرفة وكنت أعرف ترتيب محتوياتها . اقتربت من الطاولة ، وقبل أن تدرك أمي ما أنوي فعله قذفت بخبث بالإناء المملوء طحيناً على رأس الضيف !

وأتذكر أن ضيفنا قد غادرنا بعد حين وأن أمي راحت تكنس الغرفة دون أن تقترب مني فاستنتجت أنها غاضبة علي .

وانزويت جانباً مع ألعابي دون رغبة في اللعب ، وبعد انصراف الضيف (المغضوب عليه) فلا داعي بعد الآن للغضب ، بدأت أدرك أني أسأت التصرف تجاه أمي وتجاه الضيف ؛ فما كان أحد يسيء معاملتي خلال زياراتنا للناس ، أو يوجه لي إهانة أو يطردني أو يقذف وجهي بالطحين . ورغبت في أن أسترضي أمي التي أحبها أشد الحب ولا أرغب في الاساءة إليها طالما لست غاضبة عليها .

أتذكر أني وجدتها أمام النافذة تبكي وتمسح دموعها بطرف منديلها ، وما كنت أعي أنها تحس بالخجل مما فعلت ، وبالاشفاق علي ، وأن شعورها بالألم له مايبرره ؛ ولكني رجعت إلى نفسي فأشفقت على أمي وأفهمتها ببعض الحركات أني أستحق التأديب ولكنها لم تفعل . حينئذ أخذت بيدها وقدتها إلى المدخل حيث كيس الطحين وقلت لها أن تربط الكيس بالحبل ، ووعدتها بأني لن أملأ الأناء طحيناً بعد اليوم .

أما فيما يخص أبي فلم أكن أغضب عليه إذا أدى بعض الخدمات للآخرين أو حينما يلاعب صديقاتي على ركبتيه ، ولم أكن أخشى أن يحبهن كما يحبني ، وما كان يضيرني أن يلعبن بألعابي التي أهداني

أبي إياها . وعلى كل حال فلا يظنن أحد أني لا أحب أبي ولا أخشاه ، بل على الضد من ذلك كنت أنتظر والدي بعفوية إذا ماشعرت بغيابه غياباً طويلا . ويخيل إلي أني كنت أغضب منه بعض الأحيان وفي الوقت نفسه أشعر تجاهه شعوراً آخر ، إذ لم آلف أبي كما ألفت أمي ، وغيابه الطويل لم أكن أخشاه كما أخشى عياب أمي التي تسهر على راحتي سواء أكان أبي حاضراً أم غائباً ، ولذا كان إحساسي بوجود أمي أقوى وأمتن ، فكل الأشياء التي تستعملها أعز علي وأقرب إلى نفسي من الأشياء الغريبة التي يجلبها أبي .

وفي الحق أني حينما كبرت فهمت على وجه أفضل ماذا يجري من حولي على صعيد الحياة وعلاقات البشر ، وأصبحت أحسن تقدير اهتمام أبي وتقديمه الهدايا الي كنت أفتخر بعرضها على صديقاتي .

كنت أعرف أني البنت الوحيدة لأهلي دون أن أعي ذلك ، وكنت ألاحظ أن بعض الأسر لها أطفال كثيرون .

وكان الملل ينتابني حين أبقى وحيدة في البيت وأمي في عملها ، وكنت أرفض أن يتركوا معي ابن الجيران وأعبر عن ذلك بحركات تنم عن وجوب اعادته إلى أمه . ولمّا كنت أزور الجيران أو الأقارب مع أمي وألعب مع أطفالهم استنتجت أن لهؤلاء طبعاً آباء وأمهات ، وعلى هذا فلا يجوز أن يمكثوا عندنا فلهم (بيوتهم) التي يجب أن يعيشوا فيها كما أعيش في بيتي .

أما لماذا كان لبعض الأسر أطفال كثيرون فهذا مالم يشرحه لي أحد ، بينما أنا وحيدة أمي . كنت أرغب إليها أن توجد لي طفلا

آخر من أي مكان ، من حفرة أو ضفة نهر ، طفلا لاأب له ولا أم ، ولكن أنى نجد ذلك الطفل على الرغم من مرافقتي لأمي في (تفتيشها) عن طفل في الحفر وعلى ضفاف الأنهار . وكنت أدرك تماماً لماذا يجب البحث عن أطفال في مثل هذه المواضع ، إذ طالما رافقت أمي لنفرغ القمامة في حفرة ما ، حيث يُحتمل أن يوجد طفل لقيط .

ومن جهة أخرى يسبح الأطفال في النهر صيفاً ، فربما نجد من بينهم طفلا يبكي فنحمله إلى بيتنا . . ومع ذلك كانت الأيام تمر ولم نعثر على أي طفل !

وحينما كان أبي يعود إلى البيت يخيل إلي لقوته وضخامته أنه قادر على أن يجلب لي طفلا من مكان ما ، ولكنه لم يفعل ذلك ، وما كانت الطابات والدمى التي يجلبها لي لتحل عندي محل الطفل أو الطفلة المنشودة .

وقد حمل إلي بعض العزاء الحادث التالي : فقد رزق عمي وعمتي الساكنان بجوارنا طفلا ؛ ورحت أقضي منذ ذلك الحين كثيراً من الوقت عند عمتي فألاحظ بيدي كيف كانت ترضع الطفل وتغسله وتلفّفه وتهدهده . تعلقت بالطفل كثيراً وأصبحت من ذلك الوقت مولعة بالصغار . وحينما راح هذا الصغير يمشي وقد اشتد عوده بدأت أمد له يداً وأمسك بالأخرى عصاً أتحسس بها الطريق ، وكنا نتنزه معاً في الباحة أو الشارع المجاور . كنت أدرك تماماً أني أنا التي أقود الطفل ، ولذا ماكنت أجرؤ على الخروج بدون عصا فاصطدم بحاجز ما فيسقط الطفل ويتألم ويبكي .

وكبر الطفل وأصبح يعي أنني عمياء . . ثم حان الوقت لاستغني عن العصا إذ راح هو يقودني . وقد استمرت هذه الصداقة الرائعة مع ابن العم سنوات عديدة .

كنت أزور أحياناً مع أمي بعض الأسر المحرومه من الأولاد . وحينذاك كنت أظن سبب حرمانهم من الأطفال راجعاً إلى أنهم لم يحسنوا التفتيش عن الأطفال كما فعلت أمي . كانت إحدى تلك الأسر تحب ابن عمي كثيراً فيقدمون له الفواكه والحلوى ويلاعبونه فيركبونه على ظهورهم . وهناك امرأتان تحبانني ، وهما أم وابنتها : أما الأولى فيداها نحيلتان مجعدتان ، وأما الثانية فيداها ناعمتان صقيلتان . ومن السهل علي في تلك الفترة أن أدرك حبهما لي : فقد كانتا تحسنان معاملتي فأشعر بالراحة التامة بصحبتهما وكأنني في بيتي . كانتا تقدمان لي الألعاب والدمى ذات اللباس الجميل ، وكنت أزورهما كثيراً وأرفض المبيت عندهما فأطاب إليهما أن ترافقاني إلى البيت حينما تتأخر أمي في القدوم لاصطحابي .

واليوم لم أعد أذكر هوية تينك المرأتين . . وكل ما أذكره أني كنت أفضل أمي على سائر الناس وأرغب في العودة إلى صحبتها ولو كنت عند من يعاملونني أحسن معاملة .

ومن الملاحظ أن المرأتين لم تكونا تسلكان مع الأولاد سلوكهما معي فلا استقبال ولا هدايا ولا ألعاب . . وفيما بعد عرفت سر ذلك الموقف : فالمرأة الشابة كانت فقدت طفلة في الخامسة من عمرها تحمل اسم (أولغا) .

ولدى مرافقتي لأمي إلى الجيران والأقارب كنت ألاحظ غالباً وجود أطفال جدد يقدمونهم إلي ويسمحون لي بمعاينتهم بيدي ويشرحون لي كيف يجب إمساكهم وإطعامهم . وهكذا أدركت في سن مبكرة نسبياً معاملة الصغار باللطف والحذر ، ومع ذلك ماكنت أطيق أن يعاملني البالغون على أني طفلة صغيرة أو أن يداعبوني ، فهذا مايغيظني بدل أن يسرني . ولم أكن أداعب إلا صغار القطط والعصافير حينما توضع بين يدي ؛ ولدى مداعبة الناس لي كما تداعب صغار القطط والعصافير كنت أغضب وأزجر أولئك الذين يعبرون عن مشاعرهم نحوي على تلك الصورة . ولا أنكر أن تلك المشاعر صادقة لكنها ليست مبررة لدي ؛ أضف إلى ذلك أني كنت أكره أن تساء معاملتي أو معاملة الأطفال الآخرين .

وفي الحق أني كنت عاجزة عن التعبير عن ذلك لمن حولي ، وكانت ردود أفعالي إما إيجابية أو سلبية تجاه المداعبات أو المضايقات .

ولم يكن مسلكي تجاه البالغين كما هو تجاه الأطفال ، فما كنت أرغب أبداً بتقبيل أو مداعبة أشخاص (ذوي شأن) ، بينما أداعب الأطفال عن رغبة ، وأعانقهم ، وأقف منهم موقف الرعاية والحماية كما يفعل البالغون معي ، وهكذا أحس بالندم والألم إذا آذيت طفلا صغيراً بحركة طائشة أو غير مقصودة . وأنا أذكر في هذا الصدد واقعتين :

لعلي كنت في السابعة حينما طلبت مني إحدى الجارات أن ألعب مع ابنتها وهي طفلة ذات أشهر معدودة . وراحت الصغيرة تبكي في سريرها دون أن تلتفت إلى الضجة التي أحدثها بالملاعق كي أسليها .

وقررت أن أصحبها إلى الباحة حتّى تكون على مرأى من أمها . واستطعت حملها بين يدي على الرغم من وزنها الثقيل ، لكني لم أستطع تلمس الطريق فيداي مشغولتان ، ولم أشعر باقترابي من الباب المشرف على الباحة . . وكان الباب مفتوحاً فتعثّرت بالعتبة وسقطت مع الصغيرة ، ثم سقطنا في القبو عبر الباب المفتوح المشرف على المدخل . . . ويعلم الله كم صرخنا . وكل ما أذكره أنهم آخرجونا من القبو . . وأنا أبكي بشدة على الرغم من أني لم أشعر بما يؤلمني . كنت أبكي من أحل خوفي على الطفلة ومن يأسي وغمي الذي اجتاح كياني ، بالاضافة إلى إحساس الذعر والهلع الذي طغى علي .

لست أدري كم يوماً أو شهراً أو سنة مضت حتّى جاءت الواقعة الثانية التي هَمّتني وغَمّتني : فقد عهدت إلي إحدى الجارات بأن أتولى هدهدة بنت صغيرة فأجلستني على مدفأة عالية ممسكة بحبل معلق بالسرير . وكنت أتلمس الطفلة بين الحين والحين فأشعر ببكائها المتزايد وإذ ظننت أني أسكتها إذا ما هززتها بقوة أمسكت بطرف المهد بكلتا يدي وبدأت أهز بسرعة وعنف . وبعد قليل أدركت أن أمراً رهيباً قد حدث ، فالسرير أصبح أخف وزناً ، فعاينت داخله فلم أجد فيه الطفلة ! ولم أفهم في الحال ما الذي حصل وأين اختفت . ومكثت لحظات جالسة على المدفأة دون حراك وقد شلني الخوف . . ثم غمرتْ موجة حارة من الهياج وجهي ورأسي إذ أدركت أن الطفلة سقطت من المهد الذي هزرته بمنتهى الحماسة .

قفزت إلى الأرض وبدأت أبحث عن الطفلة بيدي . كانت ممددة على الأرض وقد هدها البكاء . وما كدت أهم برفعها حتّى

اقترب أحدهم مني راكضاً فدفع بي بعنف وأخذ الطفلة ، فرحت أبكي من ألمي وإحساسي بالهوان . وانقطعت مدة طويلة عن زيارة تلك الجارة ولو برفقة أمي . وأنا اليوم أدرك أني كنت أعاني من تأنيب الضمير وأخجل من أني لست كسائر الناس الأسوياء ، مما يجعل مهاراتي ضعيفة على الدوام .

ومن حسن الحظ أن تلك الصغيرة لم تصب بأذى فقد لقيتها فيما بعد وقد أصبحت فتاة مكتملة النمو دون أي أثر لأي جرح .

وإليكم أمثلة أخرى عن موقف الصغار والبالغين تجاهي وعن ردود أفعالي على ذلك .

كانت أمي تصحبني في طفولتي إلى أسرة مثقفة جداً يروق لي كل ماعندها (وهذا ما أدركه الآن) : كنت أحب أفراد هذه الأسرة كما أحب غرف بيتهاوروائحها المستحبة وأحواض حديقتها بأزهارها المنوعة . وتضم هذه الأسرة بالغين ويافعين فحسب .

ولم يكن أحد يشاركني اللعب ، ومع ذلك فالبالغون يهتمون بي ، واليافعون يقدمون لي الألعاب التي ماعادوا يحتاجون إليها . ولم يكونوا يمنعونني من معاينة الأثاث وأواني المطبخ . وهنا ولأول مرة شاهدت شيئاً غريباً يصدر أصواتاً لدى ملامستي أصابعه الطويلة الغريبة : إنه البيانو .

وكانت أمي ترغب في أن تتركني عند هذه الأسرة ، لكني كنت أرفض ذلك مع أن مستوى حياتهم أفضل من مستوى حياتنا ، فكان يخيل إلي أنه ليس بمقدوري التوجه إلى أي مكان دون صحبة أمي .

ولمّا كان أولاد تلك الأسرة كباراً فقد اعتبرتهم بالغين ورحت أعاملهم بجدية محاولة تجنب اللعب واقتراف الحماقات في حضرتهم . وحينما يزورنا أحد من هؤلاء أكف عن الضجيج وأخفي ألعابي فلا أعرضها وألبث ساكنة في زاوية إلى أن تحضر أمي وتخبرني بخلو البيت من الزوار . وعلى وجه العموم كنت أختبىء كلما علمت بوجود أشخاص بالغين في بيتنا ، وكان ينتابني الخجل بل الخوف أحياناً .

وهناك أطفال لاأشاركهم اللعب وهم في الوقت نفسه لايكترثون بي ، وهم بلا شك لايحسون التواصل معي ، وربما يخشون مني لأني لست منهم . أما أنا وقد فسرت موقفهم بطريقتي الخاصة ، فقد كنت أخافهم كذلك .

وكان بعض البالغين يتخذون الموقف ذاته مني ، فلدى زيارتهم لنا ماكانوا يقتربون مني وكأنه لاوجود لي . وما الذي يفعله هؤلاء الزوار عندنا ؟ وعمّ يتحدثون إلى أمي ؟ لست أدري ! ولكني كنت أخمن على وجه التقريب أنهم ينظرون إلي كمخلوقة مختلفة لايرغبون في الاقتراب منها . وقد يكون لمسلكهم هذا سبب آخر ، ولربما كانوا ذوي نيات حسنة ، ولكني لم أكن لأدرك ذلك في تلك الفترة ، فقد ظننت أن كل أولئك الذين لايبادلونني العطف والرعاية أناسٌ شريرون ، وهكذا رحت أبادلهم جفاءً بجفاء .

كنت ألاحظ الطريقة التي يتعامل بها البالغون وكيف يعاملون أطفالهم ، ومع ذلك فاتتني ملاحظة أشياء كثيرة ، فيداي عاجزتان عن معاينة الأشياء جميعاً في وقت واحد وكنت أقابل البالغين دائماً

بصحبة أمي وقد نما لديّ حس الملاحظة . وقد ثبت لدىّ أن البالغين لا يتعامل بعضهم مع بعض كما يعاملون الأطفال ، أو كما يتعامل الأطفال فيما بينهم .

كنت ألاحظ أن البالغين يتصافحون عندما يلتقون ويفترقون وأحياناً يتعانقون . وكانوا يتحادثون (وأنا أدرك ذلك من تلمس شفاه أحد أفراد أسرتي) ويضحكون ، ولكنهم لا يركضون أو يقفزون ، ولا يتبادلون شد الثياب والشعر كما يفعل خبثاء الأطفال عند اللعب . ومسلك الكبار عامة يختلف ، كما لاحظت ، عن مسلك الصغار . وفي تلك الفترة إذا أتيح لي أن (رأيت) شخصاً راشداً يلعب أو يقترف الحماقات ، انتابتني الدهشة وظننت أنه ليس بالرجل الراشد بل هو طفل ذو قامة ضخمة .

وكان يروق لي سلوك الراشدين الجاد المتزن فهم لا يلعبون ولا يركضون بفوضى ، فأستحب معاشرتهم بصحبة أمي . ولو سئلت ، قبل أن أفقد البصر والسمع ، عن الفرق بين الكبار والصغار لما قدرت على الجواب .

وهكذا ، وبعد مرضي ، اضطررت للمكوث مع أمي فعاشرت البالغين أكثر من الأطفال ورحت أدرك أن الأطفال (أشخاص صغار) مازالوا يجهلون كل مايعرفه البالغون ويعجزون عن الاتيان بما يأتي به البالغون ، ولا يقدرون على أن يكونوا أقوياء مثلهم .

وحينما كنت أتنزه مع ابن عمي الصغير مثلا ، ويخطف بعض الأطفال العصا مني أو يطردوننا ، كان البالغون يهبون لنجدتنا فيزجرون

أولئك الأشقياء ويرجعون لي عصاي ويرشدونني إلى طريق البيت . وقد أدركت أن البالغين لايسيئون إلى الصغار بل يؤدون لهم خدمات كثيرة لايقوى صغار الأطفال من بنات وصبيان على أدائها . وكانوا يركبون الخيل ، وقد عرفت ذلك لأن عمي كان يركبني أحياناً على حصانه . لكني لم أكن أدرك كيف يستطيع هذا الحصان أن يقوى على حمل مثل هذا الوزن .

والبالغون يحرثون الأرض ليبذروا البذور أو يجنوا الخضرة من بطاطا وشوندر ، وأنا لا أحسن دلك فطالما تعثرت بالرفش حينما جربت نفسي . وكانت أمي وسائر النساء يحملن دلاء الماء معلقة بالعصا ، ولكني حين حاولت أن أقلدهن انقلب الدلو وانسكب الماء على الأرض . وكذلك كانت أمي ترتب البيت فتغسل الثياب وتحضر الطعام وتجلب الحطب أو القش بينما أعجز أنا عن كل ذلك .

وطالما أني أمضيت أكثر أوقاتي بين البالغين فقد لاحظت أنهم هم (الكبار الأقوياء) القادرون على إنجاز الأعمال الكبيرة ، وليس الأطفال .

وأنا لاأستطيع أن أجزم بأني كنت أدرك كل مايدور حولي . ومع هذا فقد تولد لديّ احترام كبير تجاه البالغين وشعور بتفوقهم على الأطفال ، وهذا مالم أقو على التعبير عنه إلا بعد فترة .

ولما كنت طفلة ذات نشاط متدفق وموهبة متميزة ، وعلى الرغم من أن عاهتي كانت تَحُدُّ من نشاطي ، رحت أحاول تقليد أمي دون أن أضاهيها فيما تفعل ، فعلى سبيل المثال كانت ضربة واحدة

من المكنسة من يد أمي كافية لازالة الغبار ، بينما إذا رحت أقلدها ثار الغبار فأعطس وأسعل وتبقى أرض الغرفة يملؤها القش والغبار . وفي غياب أمي كنت أجرب أحياناً أن أملأ فنجان حليب من الابريق ، ولكن ذلك ماكان يمر بسلام : فالحليب يندلق أولا ثم يقع الابريق الذي أعياني حمله ويسقط معه الفنجان .

وأنا لاأحسن الاستحمام بسهولة وسرعة كما تفعل أمي التي لايرْفَضُّ الماء من جسمها كما يحدث لي ، ولا تدع رغوة الصابون تنفذ إلى عينيها مثلما أفعل . وهذه الوقائع اليومية أكدت لي أني مازلت (صغيرة) وأني كنت عاجزة عن أن أمارس مايمارسه البالغون . ولهذا السبب بالضبط كنت أرغب في أن أصبح مثلهم ، لكني لم أكن أعرف ما الذي عليّ فعله كي أضاهيهم . وكنت أدأب دائماً على مراقبة يد أمي وتقليدها ، فعندما تحضر المعجنات أو الحلوى مثلا أحاكيها فيما تفعل ، لكنّ انتاجي لم يكن في مستوى جودة انتاجها .

قررت إذن آنّ أسهل مهمة بالسبة لي أن أغسل أواني المطبخ فليس أهون من وضع الصحون أو الفناجين في وعاء وصب الماء عليها وتجفيفها فيما بعد . وعلى الرغم من سهولة تلك العملية ففي الحق أنها كانت علي صعبة نظراً لعدم مهارتي . ولعل أعسر مافي ذلك العمل تجفيف الأواني فهي إما أن تسقط من يدي أو تبقى رطبة نديه . وقد قمت بمحاولات أخرى كي أبدو كبيرة ، إذ جربت أن أرافق أمي في زياراتها البعيدة ، وخيل إلي أنه إذا ما قطعت شارعاً طويلا فقد أصبح مثلها . لكني في الحق كنت مازلت (صغيرة) ولا أقوى على

السير الطويل دون استراحة ، فأشعر سريعاً بالتعب وأجلس على الأرض وأرفض متابعة السير إذا لم تستطع أمي حملي بين ذراعيها .

ومع ذلك فبعض الوقائع كانت تبعث الفرح في نفسي لأنها توحي إلي على نحو غامض ، بأن الصغار سيصبحون بالغين ذات يوم . وكنت ألاحظ أن أهلي وأهل صديقاتي يهدوننا ، نحن الصغار الحلوى والفواكه والألعاب ، بينما يتبادلون فيما بينهم المناديل والأقمشة وغيرها . وكان أبي يجلب لأمي القماش والثياب ، وهذا ما يدهشني ويحز في نفسي فرحت أحاول بغريزة الطفل أن أدرك الفرق بيني وبين أمي ، ولم أصل إلا إلى نتيجة واحدة تقول : أمي كبيرة وأنا صغيرة .

لكن الأمور راحت تتبدل ، فعلى الرغم من أني مازلت صغيرة ومهارتي محدودة راح أبي يقدم لي الهدايا التي كان يخص بها أمي من قبل . وذات يوم جلب لي منديلين من حرير لفتْ أحدهما أمي على رأسي وراحت أطرافه تتلاعب في الهواء ، وخرجت للنزهة وقد غمرتني السعادة لأني ألبس مثل النساء ، وتصورت نفسي مشبهة للنسوة اللواتي يمشين طويلا بلا تعب ، ويُجِدْن القيام بكل شيء ويجلسن إلى جانب الرجال ، ويثرثرن ويضحكن معهم .

وبعد فترة أرسل لي أبي بقطعتين من القماش صنعت لي أمي منهما فستانين جميلين ، أحدهما عريض الزي والثاني ذو ثنايا . وقد أوحت لي هذه الهدية بأني رحت أشابه أمي ، وهذه الهدايا عملت في تغيير موقفي من والدي فأصبحت أشعر بأنه يهتم بأمي وبجدّي وبي أنا

على حد سواء ، فكلما عاد إلى البيت حمل إلينا نحن الثلاثة ثياباً جديدة وهكذا أحسست بالسعادة إذ أدركت أن أبي يعاملني على أني فتاة ناضجة ، وكذلك شأن جدي الذي كان يعاملني مثل أمي وأبي . ولم أكن أخشاه أبداً إذ استمر على طيبته معي حتى آخر أيام حياته . وكنت أميز بين أمي وجدي على الصورة التالية : أمي امرأة ترتدي ثياب النساء ، وجدي رجل يلبس ثياب الرجال . وأنا أنظر إليه على أنه (جد) لي فمعاملته لي أحسن من معاملته لسائر الصغار وأولاد عمي ، فلم يكن مثلا ، يجلس معهم على المقعد أمام الحاجز ، ولا يرافقهم إلى النهر ، ولا يصحبهم إلى الصيد في زورقه ، ولا يطعمهم الكعك والسكاكر كما يطعمني . كنت أشعر على الدوام بطيبة هذا الجد فألجأ إليه لأحتمي به من عقاب أمي . وهو يداعبني على رأسي ويجدل لي شعري المنفوش ويربطه بالشرائط ، كما يصحبني إلى مالا أشك في أنه المخزن فيملأ صداري بالكعك والحلوى والشرائط الجديدة .

ولكن جدي ذات يوم لزم الفراش طويلا ، وحتى اليوم لاأدري كم من الوقت طال مرضه . وفيما بعد حدث ما استغربته ، فقد حضر بعض الناس ووضعوا جدي على طاولة مرتفعة في غرفة غير مدفأة وشعرت بأن جدي كان بارداً ساكناً حينما قرّبتني أمي وهي تبكي من الطاولة لأقبل يديه الباردتين . وأنا لاأذكر بل لاأعرف كم بقي جدّي على تلك الطاولة ، وكل ما أذكره أنه لم يعد معنا ، وأني بدأت أضجر من وجوده دون أن أفهم ما الذي حدث لهذا الجد الذي طالما أحببته وكان طيباً معي إلى أبعد الحدود .

وبعد موت جدي (ولم أدرك معنى ذلك إلا فيما بعد) شعرت

بفقده وبخاصة في فصل الصيف إذ كانت أمي تعمل طول النهار فتتركني وحدي أحياناً حتى في الليل ، ومن الصعب علي أن أمكث مع أولاد الجيران الذين يصعب علي التفاهم معهم ، فأنا محتاجة إلى صحبة إنسان بالغ يقظ حساس . وقد وجدت ذلك الانسان ذات يوم وهو ، كما علمت مؤخراً ، قريب للأم وابنتها اللتين كانتا تدعوانني غالباً إلى بيتهما ، وكان هذا الشاب يوليني رعايته ، وفي زياراته المستمرة لأقاربه يعطيني قطعة من الشوكولا والحلوى أما إذا كنت في بيتنا أو جالسة في الحديقة فيقترب مني ويربت على رأسي فأتعرف عليه من تلك الحركة وأتنزه بصحبته دون خوف وأسمح له بأن يحملني .

وقد ألعب بالدمى عند أقاربه حتى المساء ، وفي حال وجوده كان يجلسني على ركبتيه وأحس بأنه يتكلم ويضحك .

وقد يتفق لي أن أبتسم حينما يضحك ولو لم أعرف السبب . واذا ما انتابني النعاس واستمر في حديثه وضحكه ، غضبت منه وظننت أنه يفعل ذلك عمداً ليمنعني من النوم . ومع هذا كنت أغفو أحياناً على ركبتيه ، وإذا لم تحضر أمي كان يحملني إلى البيت بين ذراعيه .

كنت على غاية من السعادة ، وأفتخر الآن بذلك ، لأن صديقي يهتم بي على هذه الصورة . وما كنت مدركة طبعاً ، لماذا يهتم بي ذلك الاهتمام ، لكني أعرف أنه يحسن معاملتي ومن يدري ؟ فقد يكون وحيداً أو يعاني من الغم وما كنت لأعرف وأفهم ذلك في تلك الفترة .

وقد أدركت ذلك بعد وقت طويل حينما بدأت أعي جيداً مايدور من حولي . كنت بكل بساطة سعيدة لوجود إنسان طيب إلى جانبي ، ويسرني أن أملك صديقاً كبيراً لايملكه الآخرون .

وصديقي المخلص هذا ماكان طيباً إلا معي فلم يكن يحتضن فتاة أخرى بين ذراعيه ولا يصطحب غيري إلى النزهة .

ولست أدري إن كان حقاً كما ذكرت ، ولكني أرغب في أن يكون كذلك ، فعليّ أن أعترف بغيرتي القاتلة خلال طفولتي مما سبب لي منغصات كثيرة . ولو حدث أن احتضن صديقي أحد الأطفال لحز ذلك في نفسي بلا شك ، وحينما يداعب هراً قابعاً على ركبتيه يسوؤني ذلك .

وإذا ما اقترب مني خلال لعبي في الشارع مع رفيقاتي تعرفت عليه من يديه ورائحته وبزته (كان يلبس في العادة سترة حتى في الصيف ، بينما باقي الجيران ماكانوا يفعلون ذلك) . كنت أتوقف عن اللعب فأمد له يدي وأشده لأوحي إليه برغبتي في التنزه معه . وهكذا أشعر بالفخر والسعادة في صحبة رجل كبير إلى النزهة .

ومع هذا فعلاقاتي بالبالغين لم تكن دائماً حسنة ، فبعض اللقاءات تزعجني أحياناً وتبعدني عن الآخرين ، بل تخيفني مدة طويلة وذلك حين يقسو عليّ شخص بالغ في معاملته .

وأريد الآن الحديث عن تلك الفترة التي لم تيئس فيها أمي من شفائي ؛ وقد امتدت هذه الفترة حتى نهاية حياتها .

كانت أمي تصحبني لا إلى الأطباء فحسب بل إلى المشعوذين

والدجالين . وفي الحق أني لم ألمس في تلك الفترة أي فرق بين الفريقين . ولكن بالنظر لخضوعي إلى معالجة الأطباء فيما بعد ، يمكن لي أن أقارن بين مسلكهم ومسلك أولئك الذين تولوا علاجي خلال طفولتي ، ولهذا أستطيع اليوم حالا التمييز بدون خطأ بين معالجة الأطباء لي ومعالجة الدجالين .

أتذكر أنه حينما يعاين الأطباء عيني أو أذني ، فهم يواجهونني وبأيديهم بعض الأدوات ثم يديرون وجهي يمنة ويسرة . ولدى فحص العينين توجه نحوي لمبة لاأرى نورها بل أشعر بحرارتها على وجهي ثم تختبر أذناي بضربات خفيفة . وكان بعض الأطباء لطفاء يلاطفونني برقة ويداعبون رأسي ويجلسونني على الكرسي ويطيلون فحصي ، والبعض الآخر يجرون الفحص بسرعة ويغادرونني دون أن ألمس لديهم أي تعاطف أو رعاية .

والأطباء فريقان لديّ : اللطفاء الرحماء الراغبون حقاً في أن أسترجع بصري وسمعي فأمتي وحدي أينما شئت وأفعل ما أفعل دون عون أحد ، وقساة القلوب الذين يبدون لي أشراراً خلافاً لأولئك . وهم لايحبونني ولا يرغبون في شفائي .

وقد أدركت ، أن هؤلاء الأطباء مختصون بالعين والأذن ، فهم يعاينون مني العين والأذن وليس الذراع والساق وسائر أعضاء الجسم . وحينما كانت أمي تصحبني إلى الدجالين فالأمور تختلف تماماً فلا جلوس على كرسي ولا آلات تستعمل كما يفعل الأطباء الحقيقيون . كنت أحياناً ، أجلس مع أمي على مقعد كبير أو نظل على الأغلب وقوفاً . وما كان هؤلاء الدجالون يفحصون عيني وأذني ،

ومع هذا تعطيهم أمي من سلتها بيضاً وشحماً وخبزاً . ولم أفهم لماذا تفعل ذلك وظننت أنها تتصدق عليهم . وكنت أعرف ماذا تعني الصدقة فقد تعودت أن أتناول رغيفاً من أمي وأمد يدي إلى الأمام فأحس بأن يداً قد امتدت فتسلمت مني الرغيف .

ومن المؤكد أن أمي لكي تنفذ توصيات أولئك الأشرار ووصفاتهم كانت تعذبني إذ تمارس علي أنواعاً شتى من المعالجات التي لاأجد لها معنى .

أتذكر أن أمي بعد أن عاينني أحد الأطباء ، وضعت لي بعض قطرات في العين والأذن وناولتني دواء . يقابل ذلك أن أمي بعد زيارة الدجالين كانت تعالجني بطريقة مختلفة : إذ تضعني أحياناً في برميل من الماء الساخن وتغطيني بغطاء أو معطف فيكاد البخار يخنقني والماء الساخن يحرقني . وإذا حاولت الخروج من البرميل أو ابعاد الغطاء على الأقل أجبرتني على البقاء في الماء حتى يبرد ، ثم تلبسني ثوباً مبللا مرشوشاً بالملح لأتمدد فيه .

وكانوا يجربون (شفائي) (بطرق) أخرى : وذلك بأن تُعصب عيناي وأذناي بخرقة مبللة بنقيع القثاء أو الملفوف ، ثم أركع مع أمي في زاوية الغرفة (أمام الأيقونات ولا شك) على قطع من الملح أو بعض حبات من الحمص ، وأعاني من آلام ذلك ما أعاني . وتقوم أمي بعد ذلك بحركات من ذراعها اليمنى ، وعليّ أن أقلدها ، ونبقى هكذا على هذا الوضع حتى نسقط من الوهن . ولما كنت عاجزة عن البقاء على هذه الحالة مدة طويلة أميل إلى الجانب أو أجلس على الأرض

وأمد رجلّي وأوحي إلى أمي بأني أعاني من الألم ، ولا أرغب في القيام بهذا العمل المؤلم الفظيع .

وبعد هده (المعالجات) كانت أمي تعطيني شراب (الزهورات) ومنقوعات أخرى تعكر مزاجي بل تجعلني مريضة .

ولم يُجدِني كل ذلك نفعاً ، وانتهى بي الأمر إلى أن رحت أخاف من كل من يلمس عينيّ أو أذني كائنا من كان ، وصار الماء يخيفني ولاسيما الساخن . كما أخاف الخرق المبللة والملح والايقونات المعلقة على جدران البيت ويد الكاهن الذي كان يرشني بالماء المقدس حينما يأخذونني إليه .

وكانت أمي تصحبني إلى منزل كان علي أن أركع فيه على الركبتين ، لاعلى الملح أو حبات الحمص ، بل على أرض باردة ، والناس من حولي راكعون على الركب أيضاً ؛ ولكن مامن أحد يجلس على الأرض كما أجلس حينما تخور قواي . زد على ذلك روائح الأجساد البشرية التي استشعر منها روائح أخرى خانقة كريهة ما شعرت بمثلها في أي مكان آخر .

وقبل أن أغادر ذلك المكان الحافل بالناس تحملني أمي إلى طاولة مرتفعة وترفعني لأقبل (خشبة) . وهذا ماكان غير معقول لديّ ومنفراً ومضحكاً فلم أتعود تقبيل الخشب من قبل . وفي بيتنا سرير خشبي وله قوائمه ؛ ولكن لم يطلب أحد مني تقبيلها ، ولم أصع شفتي فيما سبق على خشب الطاولات وهكذا عجزت عن أن أدرك السر في تقبيل الخشب في هذا المكان البارد المكتظ ذي الرائحة الكريهة .

وأخيراً بعد أن بلغت سن الرشد رحت إلى الكنيسة مع صديقة لي مؤمنة فرأيتها ترسم علامة الصليب وتقبل الايقونة ، ورائحة البخور القوية تفعم أرجاء الكنيسة .

تذكرت حينئذ هذا (البيت) الذي كان يبدو لي غامضاً ، كما تذكرت تلك (الخشبة) التي جعلوني أقبلها . وقد صعب علي دائماً أن أفهم لماذا يقبل الناس الراشدون الأذكياء (خشبة) ؟ ويستنشقون بخشوع رائحة البخور الكريهة ، وقد بدا ذلك لي غريباً ومضحكاً . وما زلت أتذكر كذلك أنواع العذاب التي جعلتني أمي أذوقها ، أمي التي كانت تؤمن بقدرة الدجالين والايقونات والكهنة على إرجاع بصري وسمعي .

الثياب والأثاث

من الصعب أن نحدد العمر الذي يبدأ فيه الأطفال بتسمية الثياب التي يرتدونها أو التي يرونها على الآخرين فيميزون بين الملابس الداخلية والخارجية ، ولاسيما حين نذكر أن عقول الأطفال لاتنمو دائماً بمعدل واحد .

بدأت أمي مبكرة تعودني على لبس الثياب الداخلية . ويقول أولئك الذين عرفوني في طفولتي أنه ماكدت أحسن المشي حتى راحت أمي تلبسني الصدار والبنطال وملابس أخرى مزعجة لاتتحملها طفلة صغيرة .

وعلمت فيما بعد أن أمي ألبستني كذلك لأني كنت كثيرة الحركة وأؤذي نفسي في تلك الفترة التي بدأت أحبو فيها إلى أن أجدت المشي .

ومع الزمن تعودت على تلك الملابس سواء منها الداخلية والخارجية ، ولكني تعلمت فيما بعد أسماء هذين النوعين من الملابس . حينما صرت ألبس ثيابي دون مساعدة .

وطبيعي أني لم أتعلم في البداية إلا التعابير التالية : القميص والصدار والبنطال والجوارب والمطاط الذي اعتبره من الملابس الداخلية . وفي أول الأمر لم أكن أعرف أن الفستان من الثياب الخارجية وإنما أعده من الثياب الداخلية . وكان كل ما ألبسه أصنفه مع الثياب الداخلية كالملاءة والشال والكنزة بل ومنشفة الحمام . وخلال فترة إقامتي في المشفى وفي كل مرة أستحم كانوا يقدمون لي ثياباً نظيفة وكنزة إذا كان الفصل شتاء ، وملاءة وشالا ومنشفة للحمام . وطبيعي أني في البداية لم أكن أعد كل تلك الأمتعة لباساً داخلياً ولا ثياباً خارجية ولا مناشف حمام ، بل هي بكل بساطة مايسمى البياضات (١)

وحينما عرفت أخيراً بوجود مايسمى (بالثياب الخارجية) كان علي أن أميز بين الثياب وبين (الملابس الداخلية) . وقد أزعجني عجزي عن إدراك الفرق بين (البياضات) و (الثياب) ، كما عانيت صعوبة في فهم هذا الفرق لأ ـ كنت أ بس في الوقت نفسه ثياباً خارجية وداخلية .

ومع ذلك فقد علموني بأن الفستان والكنزة والملاءة والقبعة والمعطف والبنطال الصوفي والقفازات والسترة ، تدخل في عداد الثياب الخارجية وليست من (البياضات) .

---

(١) الباضات — في الفرنسة Linge

وقد عانيت كذلك كثيراً من الصعوبة فيما يخص مدلول كلمة (الحذاء) . وفي بداية الأمر كنت أظن أن (الجزمة) وحدها هي (الحذاء) وأن هاتين اللفظتين تشيران إلى مدلول واحد

وفي الواقع أنني خلال الطفولة وحينما كنت أعيش مع أمي لم ألبس إلا (الجزمة) في الطقس البارد ، وفي الصيف أحاول المشي حافية القدمين كي أتحسس جيداً عدم استواء الأرض .

وفي المشفى لم يكن مسموحاً بالمشي بلا حذاء صيفاً فاشتروا لي (صندلا) وسموه (حذاءً) حينما قدموه إلي . لكني رفضت بعناد لبسه (وأتذكر أني لم ألبس الصندل أبداً فلم أكن أعتبره حذاء) فاشتروا لي (صباطاً) جلدياً ذا زر وكعب . وسموه كذلك (حذاءً) . وقد سلمت بذلك طواعية لأنه مصنوع من الجلد الطري الذي صنعت منه (جزمتي) في الطفولة . يضاف إلى هذا أن (الصباط) كان له زر كما كان لجزمتي زر وكعب .

(والصنادل) ذات جلدٍ أقسى ، وهي مسطحة ولها عروة بدلا من الزر وكنت أنظر إليها على أنها نوع غريب من الأحذية .

وقد تعودت في طفولتي الأولى أن ألبس حذاء اضافياً من المطاط يغلف (الجزمة) وذلك في فصل الشتاء . ولم أكن اعتبره من عداد (الأحذية) .

وفيما بعد ألبسوني (خفاً ضد الثلج) ، وقد اعتبرته حذاء أكثر مما اعتبرت حذاء المطاط ، إذ ذكّرني (بالجزمة) ، بل كنت في البداية أخلط بينه وبينها دون أن أدرك لماذا عليّ أن ألبس ذلك الخف

فوق الحذاء . وقد حاولت أولا أن ألبس الخف على الجوارب مباشرة ، ولكنّ ذلك لم يكن مريحاً وعملياً في المشي فأدركت أنه لابد من الحذاء داخل هذا الخف .

كنت أكره منذ طفولتي (الخف البيّتي) المصنوع من القماش أو الجلد فلم أرغب في لبسه ولم أكن أسميه (حذاء) .

وقد تعلمت باكراً (عدة السرير) وصرت أميز بوجهٍ أفضل الكلمات الدالة على (بياصات السرير) من تلك الدالة على (بياصات الثياب الداخلية) ، والملابس من الأحذية .

وفي الواقع أن (عدة السرير) لا أستخدمها إلا خلال النوم وهي تشمل أشياء معدودة لاتلتبس بأشياء أخرى (فيمكن مثلا أن نستعمل — على سبيل التجاوز — كلمة ملاءة بدلا من غطاء إذا لم نكن نعرف وجه استعماله) . ولم يحدث لي أبداً أن سميت البطانية معطفاً لأني أدرك بوضوح أننا لانُدخل في عداد (عدة السرير) إلا الأشياء المستعملة للنوم .

وحينما تعودت على الكلمات الدالة على الثياب الداخلية والملابس والأحذية وعدة السرير اضطررت إلى أن أتعلم أسماء أشياء أخرى تحيط بي كالأثاث الذي يبدو لي كالثياب متعدد الأصناف متنوع الأشكال .

وفي الواقع أني عاينت تشكيلة كبيرة من الكراسي الصغيرة والكبيرة ، الصلبة والطرية ، ذات المساند العالية والواطئة والأرجل المستقيمة أو المعوجة . . . . كما عاينت أصنافاً عديدة من الطاولات الصغيرة والكبيرة ، المربعة ، والمستطيلة والمدورة وكذلك الخزائن والأسرة

والمناضد والمقاعد الدائرية والدواوين والمقاعد الطويلة والبوفيهات والدعائم والرفوف من مختلف الأحجام والأبعاد .

كل هذه الأشياء المتفاوتة في الحجم والشكل تجمعها كلمة (أثاث) أو كما تعلمت فيما بعد كلمة (موبيليا) . وقد عانيتُ صعوبة في البداية ، في أن أفهم سبب احتواءِ مهجع المشفى على الأسرّة والمناضد والكراسي والطاولات الصغيرة بالاضافة إلى خزانة كبيرة لملابس الأطفال ، بيمنا يحتوي المطعم الجماعي مائدة وكراسيّ كبيرة طرية وديواناً مغطى بالمشمّع للجلوس أو الاستلقاء ، وهو ليس بالسرير ، كما يحتوي المطعم على (بوفيه) يشبه الخزانة بمصاريعه وجراراته ، وهو يسمى (البوفيه) .

وفي المطبخ طاولة كبيرة من خشب سميك وكراسي مستديرة بدلا من الكراسي العادية ورفوف تقوم مقام (البوفيه) وفي المرحاض والحمام رفوف وكراسي مستديرة ومقاعد صغيرة ، وكلها من الخشب وتندرج تحت اسم (الأثاث) .

وهكذا ماكنت أعد موجودات المهجع من ضمن الاثاث ، فيمكن تسميتها إذن (المَهْجعيات) لأنها توجد في المهجع . وكذا الأمر في محتويات المطبخ والمطعم .

وفي الطابق الأول كان المخبر يشغل القاعة الكبرى ، وفيه عدد كبير من الطاولات والكراسي الصغيرة ، والكبيرة والمرايا والخزائن ومختلف الأجهزة ، بينما تقع عرف السكن في الطابق الأرضي . وقد ظننت بعد أن شاهدت موجودات المخبر أنه لابد أن تسمى (المخبريات) .

وفي البهو مشاجب للجهاز الاداري ومرآة وكراسي مدورة وخزائن كبيرة لثياب الطلاب ، وهكذا خيل إليّ أن كل ذلك يمكن تسميته (بالبهويّات) .

ولم أدرك لماذا تستخدم بعض الغرف الواقعة في الطابق السفلي حيث يسكن الطلاب ، وفي البداية لم أكن راغبة في التنقل بين هذه الغرف إذ لم يكن في منزل أمي سوى غرفتين آكل وأنام وألعب في واحدة منهما . أما خلال إقامتي في المشفى فقد تعودت أن أنام في المهجع . وأتناول طعامي في المطعم ، وألعب وأمارس الحركات الرياضية في قاعة الألعاب فقط . وهكذا دواليك .

وفي أول الأمر لم أستوعب أبداً ترتيب وتنظيم المشفى فبدا لي التلاؤم معه عسيراً لاجدوى منه وما كنت لأفهم لماذا عليّ أن أعبر من قاعة إلى أخرى بينما يمكن أن أمارس أي شيء في القاعة الواحدة . وقد حاولت ألا أخضع لذلك النظام فكنت أغادر المطعم إلى المهجع ومعي قطعة من الخبز ، وإذا رغبت في النوم خلال النهار كنت أتمدد على ديوان المطعم أو على أحد المقاعد في قاعة الألعاب . وقد بذل المربون جهدهم لتخليصي من تلك العادات ، لكني كنت أشعر بالإساءة والاكراه فأتوجه إلى البهو لأختبىء وراء المشجب ، ولكن أنّى لي أن أنام في هذا الموضع ؟ وها هي ذي تأملات مريرة أستسلم لها فأتساءل: ترى لماذا لايسمح لي بأن آكل قطعة الخبز في المكان الذي أنام فيه ؟ ولماذا لا أنام حيث آكل وألعب ؟ وبكل بساطة حيث يحلو لي أن أنام ؟

وخلال فترة من الزمن ظننت أن الناس من حولي يريدون بي

شراً ، وهذا ما آلمني فكنت أبكي ساعات طويلة وأنا مختبئة وراء المشجب . وإذا ما حاول أحدهم تعريتي أو إخراجي من ملجئي ازداد بكائي ودفعتُ بمن يحاول ذلك .

وهناك أشياء أخرى لم أكن لأدركها ، فاذا شعرت بالبرد في المساء حاولت أن أنام بثيابي كي أشعر بالدفء سريعاً . لكنهم كانوا يحرّمون ذلك عليّ فأثور وأقع في حيرة من أمري : فأنا أريد أن أفعل ما أراه هو الأفضل ، بينما يصرّ الأساتذة والمربون على أن أفعل ما أراه هو الأسوأ ، فكانوا يحتّمون علي أن أخلع ثيابي كلها وألبس ثوب النوم لأنام فيه .

وفي الصباح حينما أشعر في غرفتي بالبرد كنت ألبس ثيابي تحت البطانية ، وأرتدي فوقها ثوب المنزل لدى قيامي من السرير ، بينما كانوا ينبهونني إلى أن ذلك محرّم قطعاً . وحينذاك كنت أظن أن المربين لايعلمون بأني أعاني من البرد ، أو أنهم يريدون لي أن أموت برداً .

نومي وأحلامي

حينما تعلمت صنع الثياب الخاصة بالدمى وتطريز المناديل والملاءات قررت أن أتقن خياطة ثيابي الداخلية وفساتيني فرحت أتعثر في خياطة المشدات والقمصان والياقات فأصنع لها شرائط وأزراراً لالزوم لها ، وأنا مقتنعة بأن ما أفعله مناسب . ولكن بعد كل تلك (التدريبات على الخياطة) كانوا يأخذون كل ماصنعته لتعديله وإصلاحه . وحينما يرجعونها إليّ كنت أعيد صنعها على هواي ! وقد مضى عليّ زمانٌ طويل قبل أن أدرك أنني كنت أشوه ثيابي بدل أن أجملها .

وهذه (المنازعات) تحدث عادة يوم السبت حيث أستحم فيه وأتسلم ثيابي النظيفة . وفي ليلة السبت كنت أرى في الحلم أحياناً فتيات صغيرات وكنت أظن أني لو لم أحلم بهنّ لما حصل ما يكدرني يوم السبت أما إذا حلمت بهن فالتنغيص بسبب (الغسيل) في انتظاري .

ولما كنت في تلك الفترة أجهل السبب الحقيقي للأحلام ولا أعرف إلا تلك الأحلام التي أرى فيها الفتيات الصغيرات والتي لاتتزامنَّ إلا مصادفة مع مزعجات يوم السبت ، حينذاك أعتقدت أن ما يوجه إلي من ملاحظات في يوم السبت كان بسبب تلك الفتيات .

وكنت أغتمّ حينما يتفق لي أن احلم بالفتيات الصغيرات في ليلة أخرى غير ليلة السبت وهكذا اتوقع منذ الصباح سماع الملاحظات الجارحة . وإذا لم يقع ذلك دهشت وشعرت بخيبة الأمل : فهذا يعني أن الفتيات الصغيرات قد نجحن في خداعي ! .

كنت أشعر بعطف شديد تجاه الصبيان الذين يحدث أن أحلم بهم أحياناً ، ويبدو لي أن حلمي بهم لم يكن مصدر ازعاج بل ، على الضد ، مصدر بهجة . وإذا لم تترامن أحلامي مع أحداث طيبة كان الغم ينتابني ويخيل إليأن الصبيان قد غضبوا علي وهم لايريدون ادخال الفرح إلى قلبي . أما إذا عانيت بعض المنغصات على مدى أيام متوالية وتزامنتْ هذه المنغصات مع أحلامي بالفتيات الصغيرات فكنت أهددهن قبل النوم بما لايرضي ، وأستنجد بالصبيان لزيارتي في الحلم كي يطردوا الفتيات وازعاجهن المستمر .

أتذكر أني حلمت أكثر من مرة بالكلاب المسعورة ورأيتني في المنام وحيدة أو مع أطفال آخرين ونحن نلعب . فجأة رأيت كلباً

يركض نحوي خافض الرأس متدلي اللسان وكان يلهث والزبد يسيل من فمه على الأرض . . صرخ الأطفال وهربوا ، أما أنا فبقيت وحدي عاجزة عن الركض فالكلب قريب جداً مني . . وهاهو دا يهجم علي . . وأنا أركض من جهة إلى أخرى دون أن أنجح في الإفلات منه . . واقترب الكلب أكثر فأكثر حتى شعرت بأنفاسه الثقيلة . صرخت وخارت قواي وشعرت بالكلب يقفز علي و . . . استيقظت وأنا أرتعد من الخوف .

وهذه الأحلام كانت مرعبة وغير معقولة حتى إنني وأنا أكتب الآن هذه السطور أحس بالقشعريرة . كانت هذه الأحلام في تلك الفترة تصيبني بالذعر فأخشى أن أتحرك من سريري . وإذا لم أنجح في معاودة النوم أظل جامدة إلى أن تأتي المناوبة المسؤولة فتخبرني بأن وقت النهوض قد حان .

وفي بيت أمي حلمت عدة مرات بحلم مزعج رأيته على صورتين : في الصورة الأولى انتزعني مجهولون من أمي ووضعوني في عربة أطفال وخطفوني إلى غير رجعة . وأنا أذكر بوضوح تلك العربة التي كانت تسير مسرعة في شارع لانهاية له ، وكنت ألتفت لأرى أمي أو شخصاً أعرفه . . ولكني لم أكن أميز شيئاً فالضباب الكثيف يغلف كل شيء .

وفي الصورة الثانية اقتربت من منزلنا عربة كبيرة تجرها أربعة خيول ، ونزل منها رجال يلبسون الثياب السود وهم يصرخون بشيء ما ، ثم أمسكوا أمي ورموها في العربة وخطفوها إلى غير رجعة . مكثت وحدي في الشارع وجهدت في أن أرى اتجاه العربة ولكني

لم أميز شيئاً وسط الضباب الكثيف . وبعد موت أمي لم أعد أرى ذلك الكابوس .

إلى جانب ذلك كنت أحلم غالباً بالحدائق ، وأتذكر على صورة غامضة أحلاماً أخرى منها الشيق ومنها المرعب . ولكنها كانت على درجة من اللامعقولية بحيث لم أستطع فيما بعد أن أرويها منسقة مرتبة الحوادث ولابد لي من القول انه خلال طفولتي حيث لم أكن أفهم أحلامي ، اقتنعت بأن مايحدث في الليل لايحدث أبداً في النهار ولا يجوز أن يدري به الآخرون . . . .

وحينما كنت أحلم أحلاماً مرعبة أخاف أن أنام وحدي فأكره نفسي على السهر ما استطعت . وعلى النقيض من ذلك إذا رأيت أحلاماً طيبة على مدى ليالٍ متلاحقة ولم أر لها تحقيقاً في الواقع ، حاولت النوم باكراً كي أستمتع في نومي بما لم أستمتع به في اليقظة ، وهكذا يتحول ليلي إلى نهار أو نهاري إلى ليل . كنت أنام بعمق خلال النهار وأرفض أن أستيقظ ولو لتناول الطعام . أما في الليل فأتسلى بألعابي أو ابتغي التنزه أو أطلب الطعام أو استحم . . .

كنت أظن في طفولتي أني أفهم لماذا يجب علي أن أنام : في البداية كان ينتابني نعاس لايقاوم فأستلقي بين ذراعيْ أمي ، لافي السرير ، بل على مقعد أو في أية زاوية من زوايا البيت وأنا ألعب بدميتي . وفيما بعد كنت أريد خلال نومي أن أتعرف على الأمور البهيجة التي لاتقع لي في اليقظة .

وفي الوقت نفسه كنت لاأفهم جيداً لماذا على الآخرين أن يناموا

كذلك ففسرت ذلك برغبتهم في الانقطاع عن العمل أو بحبهم للهرب من الواقع . وقد بدت لي هذه الفكرة صائبة فلا طعام خلال الليل ولا نزهات . أما أمي التي كانت تريد لي الخلاص من عادة السهر فينتابها الغضب حينما أنام قبل الغداء أو العشاء فأطلب الطعام خلال السهرة . وكانت ترفض مرافقتي إلى النزهة ليلا وتمنعني من إحداث الضجيج بألعابي . وأنا أفسر موقفها هذا بطريقتي الخاصة فيبدو لي أنه لأسباب غامضة غريبة كانت أمي تفعل ذلك فتهرب مني وتختفي في فراشها .

أواني المطبخ ــ عدة المائدة ــ المواد الغذائية

قبل أن أفقد البصر والسمع كنت طبعاً أعرف جيداً كلمتيْ (أواني المطبخ) و (عدة المائدة) . وقد سبق لي أن رأيت مواعين المطبخ لكن لم يشرح لي أحد شيئاً عنها ولم يذكروا لي مفرداتها . وفي المشفى حينما رحت أتعلم القراءة والكتابة عدّدوا لي أسماء الأشياء المحيطة بي ومنها المواعين وعدة المائدة . ولكني لم أدرك حالا مسميّات هذه الأسماء ولا ماتضمه من أصناف كالصحون وأواني السكّر والقدور والملاعق والشوكات والسكاكين . . . . . وغيرها .

وحينما يطلعني أحدهم على صحن مقعر كان يقول لي أنه من (المواعين) . وكذا الأمر فيما يخص الصحن الصغير والفنجان والقدح والسكّرية وغير ذلك . وقد فهمت سريعاً أن الصحن المقعر من أواني المطبخ ، ومع ذلك كنت أعتبر هاتين الكلمتين مترادفتين فأظن أنه يجب استعمالهما فقط عند الاشارة إلى صحن مقعر أو صحن صغير .

أما سائر مواعين المطبخ فلا تشبه الصحون أبداً ماعدا صحون الفناجين ، ومع هذا كان يجب ادراج الفناجين والأقداح وأواني السكر في عداد أواني المطبح . ولست أدري لماذا يسمى كل ما عددته (مواعين المطبخ) ولماذا يسمى (عدة المائدة) إذا أضيف إليه الشوك والسكاكين والملاعق .

كان يقال لي « حضّري المائدة وجهّزيها للغداء » فأضع على الطاولة الصحون المقعرة وإلى يسارها صحوناً صغيرة للخبز ثم أخرج من درج (البوفيه) أشياء أخرى ماكنت أحسبها من (عدة المائدة) كالملاعق والشوك والسكاكين التي كنت أضعها على يمين الصحن الكبير . كنت أعرف أن الصحن المقعر يستعمل للحساء فأضع في الصحن الصغير الخبز الذي أتناوله من السلة . ولكن الملاعق والشوك والسكاكين لاتشبه الصحون أبداً فلماذا اذن يطلبون مني تجهيز المائدة دون تسمية تلك الأشياء على وجه الدقة ؟

وفي الصباح كان يقال لي : « حضري مائدة الشاي » فأضع الفناجين وصحونها والملاعق الصغيرة ثم أتناول سلة الخبز والسكرية فأوزع الخبز والسكر . وفي الظهيرة يطلب إلي أن أحضّر مائدة الغداء فأجهز حينئذ الصحون المقعرة والمسطحة والشوك والملاعق . ولكن القلق كان ينتابني أحياناً فأخاف أن أنسى فنجاناً أو ملعقة صغيرة أو كبيرة أو شوكة ؛ ولذا أقوم بعدة حولات حول المائدة وأنا أتفحص وأعد ماعليها . وعدة المائدة كثيرة متنوعة لم أنجح في استيعابها جميعاً إذ كانت تختلط في ذهني . أذكر ذات يوم أني نسيت وضع ملعقة على المائدة ، ولما نبهتني المربية المناوبة إلى ذلك دهشت إذ فهمت منها أني نسيت ترتيب عدة الطعام كاملة .

كان لابد لي من زمن طويل حتى أدرك أن السكّرية وقدر الحساء والمملحة وكل أنواع الأواني الزجاجية الخاصة بالفاكهة والحلوى والبسكويت ، تنتسب إلى مايسمى (عدة المائدة وأواني المطبخ) . كنت أخلط بين تلك الأشياء فأحسب وعاء الحساء مزهرية والمزهرية سكّرية كما أخلط كذلك بين مختلف الأطباق وبين الأواني الزجاجية والصحون المقعرة ، وكنت أتساءل في نفسي بحيرة قائلة : ترى لماذا يحتاج الناس إلى كل هذه الكمية من الأواني ؟ !

وخلال فترة ما شغلت نفسي بالتساؤل عما إذا كانت (الغلاّية) وإبريق الشاي وسلة الخبز وحقّ الخردل والطست الكبير الخاص بغسل الأواني ، تعدّ من مواعين المطبخ أم لا ؟ وحينما حاولوا أن يشرحوا لي الفرق بين (عدة المائدة) و (أواني المطبخ) ازدادت الأمور لديّ غموضاً وتعقيداً . وما كنت لأفهم حاجة الناس إلى كل تلك الأواني ، زد على ذلك أن عليّ أن أميز الفرق بين (مواعين المطبخ) و (عدّة المائدة) .

وليس هذا كل شيء بل مما زاد الطين بلةّ أني مضطرة إلى تعلم استخدام كل تلك الأشياء . عليّ مثلاً أن أعرف أن ركوة القهوة تستعمل لتحضير القهوة وليس للحساء أو لكل مايُغلى في القدور ، وعليّ كذلك أن أدرك أن المقلاة بلا ذراع تشبه صحناً صغيراً أو كبيراً ، ولا تستخدم لصب الحساء . ولا يمكن أن يقلى البصل أو البطاطا في صحن يشبه المقلاة تلك . وعليّ أن أعرف أنه يجب تحريك السكر بملعقة صغيرة لاكبيرة ، ولا بشوكة أو سكين لأن السوائل لايمكن تناولها إلا بالملاعق . وهكذا عانيت الصعوبة في استيعاب ما يعلمونني نظراً للغموض والتشويش الذي يلف ما حولي .

وأنا لا أحب استخدام (الشوكة) . وقد تساءلت خلال فترة : لماذا يحتاج الناس إليها ؟ وهم بامكانهم الاستغناء عنها بكل سهولة . وكم عانيت من استعمال (الشوكة) وبدت لي الملعقة أكثر تلبية لحاجة الواقع . ولم أكن أعرف أن استخدام (الشوكة) لدى المبصرين أسهل من استخدامها لدى العميان ، وأنا أتصور أن الناس جميعاً يعانون من استعمال (الشوكة) .

وكذلك كنت أعاني صعوبة في استخدام السكين ، وبقيت أرفض استعمالها مدة طويلة ، لأن يديّ الصغيرتين عجزتا عن التعامل مع أداة لم أفهم لماذا يحتاج الناس إليها ، وهي صعبة الامساك بالأصابع وقد تجرحها . وكنت أقول لنفسي . لماذا لانبسّط الأمور فنقطع الخبز بأيدينا مثلا بدل أن نقطعه بالسكين ؟

ومع ذلك فما كان يسمح لي أبداً بقطع الخبز أو الحلوى باليد ، بل كانوا يلحون على تعليمي استخدام السكين . وهذا ما أزعجني فلم أحسن تقطيع الخبز أو الحلوى تقطيعاً منتظماً ، زد على ذلك أنني كنت أجرح أصابعي غالباً . وكم حاولت اخفاء السكين إلى الأبد من عدة المائدة فرميت بها في مكان ما ، ولكن سرعان ماكانوا يعثرون عليها أو يشترون أخرى جديدة ثم أعيد الكرة . . وهكذا .

وكان لابد من تقديم البراهين المقنعة على أن السكين أداة لاغنى عنها . فاذا كان ممكناً قطع الخبز أو الحلوى بدونها فليس ممكناً تقشير الخضار وتقطيعها إلا بها . وقد حاولت أن أكسر بطيخة أو قاوونة بدون سكين فجاءت القطع كبيرة وغير متساوية يصعب أكلها . . ثم أدركت أن السكين لاغنى عنها حينما حاولت الحصول على شرائح رقيقة من

الأطعمة ، وحينما تبين لى أن من الصعب تناول الخيار أو التفاح دون تقطيع

وهكذا من خلال التجارب وبالنظر إلى ذينك المثالين اقتنعت بأنه لابد من السكين ، مهما قيل عن عدم جدواها و صعوبة استخدامها . زد على ذلك أني تعلمت متى يجب استعمالها ومتى يمكن الاستغناء عنها . يضاف إلى هذا أنه كان علي أن أدرك (العلاقة) بين السكين وبين الخبز واللحم والبطاطا والملفوف وسائر الخضار التي تحتاج إلى تقشير أو تقطيع . كما كان علي أن أدرك أن السكين لايمكن أن تقطع كل شيء : فهي لاتقطع الحطب مثلا ولا تصلح « لتفصيل » القماش .

والسكين والمقص والمنشار والبلطة يمكن أن تكون حادة مشحوذة فتأكل احدى الاصابع من اليد إذا أسيء استعمالها ، ولذا كان عليّ أن أفهم أن لكل من تلك الأدوات استعماله الخاص : فلا يمكن قطع الخبز بالمقص مثلا ، أو تقشير الفواكه بالمنشار أو قص الورق بالبلطة .

وقد حاولت مرة عندما لم أجد المقص أن أقطع القماش بالسكين فعانيت صعوبة بالغة كما حاولت تقطيع البطيخ وتقشير الخيار بالمقص عندما افتقدت السكين فلم يكن ذلك سهلا ، إذ كانت شرائح البطيخ غير منتظمة ، وكان الخيار رديء التقشير .

وهكذا اقنعتني تجربتي الخاصة بأن لكل شيء استعماله المخصوص . وكانت الصعوبة شديدة لديّ في فهم مدلول كلمة (المواد الغذائية) . وقد فهمت مدلول (أواني المطبخ) و (عدة المائدة) بمعاينتي مختلف الأشياء الموجودة على الطاولة . لكنّ تكوين فكرة مجملة عمّا يسميه

الناس بالمواد الغذائية اقتضاني أن أعاين كميات شتى من تلك المواد ، وهذا ليس بالأمر السهل وأنا أتلقى دروسي لذا كان لابد من التوجه الى المطبخ وكذلك إلى المربين ثم إلى المخازن والأسواق .

كنت أشاهد قبل أن أفقد السمع والبصر ، الفلاحين يزرعون البطاطا والشوندر والخيار والبندوره والبطيخ الأصفر والأحمر . لكني في تلك الفترة لم أكن أعرف معنى كلمة (خضار) . وحينما اطلعت خلال الدروس أو في المطبخ على تلك الأنواع وقيل لي إنها من الخضرة ، لم أفهم لماذا يشار إليها بهذا الاصطلاح ولم أسلّم به أبداً .

وقد أطلعوني كذلك على أصناف من الخضرة لم يسبق لي أن رأيتها فسمّوا : « الجزر واللفت والقنبيط والكرنب والفجل الكبير » وسمحوا لي بمعاينتها قائلين . إنها (الخضار) . ولكني لم أفهم ذلك جيداً لأنها لاتتشابه في طعومها وأشكالها وأحجامها . رد على ذلك أني كنت أعرف أن البطاطا والشوندر تنمو في باطن الأرض فأميزها بوضوح عن الخيار والبندورة واليقطين التي تنمو على السطح . فلماذا إذن هي كلها (خضار ؟) . . . وشيئاً فشيئاً تعودت على هذا الاصطلاح .

وقد عانيت الصعوبة ذاتها مع (العنبيّات) و (الفواكه) ؛ فكان عليّ أن أدرك الفوارق فيما بينها وأحفظ أسماء أصنافها المختلفة . كان الأستاذ يقول لي : « هيا بنا إلى السوق لنشتري العنبيات والفواكه » . ولكنه لم يكن يشتري من السوق (العنبيات) وإنما الفريز وعنب الذئب وتوت السياج كما لايشتري (الفواكه) وإنما المشمش والأجاص والتفاح .

وما كان أصعب عليّ أن أفهم أن كل تلك الأشياء المختلفة المتباينة الأشكال تندرج تحت صيغة واحدة وهي (المواد الغذائية) .

والسكاكر لاتشبه حبّ الفاصولياء أو الحمص ، والحريش غير الزبدة ، والزبدة غير اللحم . والمعكرونة لاتشبه السكر ولا الجبن الأبيض ولا (الكريمة) الطازجة بالبيض ومع دلك فلا بد أن يسمى كل ذلك (بالمواد الغذائية) .

كان الأستاذ بقول لي : أنا داهب (لأتسوّق) ، فأتساءل عندئذ : ماعساه يشتّري ؟ ثم يخطر في بالي أصناف لاتحصى من الأطعمة .

ولكن حينما يقول الأستاد · « أنا ذاهب لأشتّري الخبز والسكر والزبدة والنقانق » استوعب كلامه لأنه يشير إلى مواد محددة يمكن تذوقها ولمسها وشمّها . وهذا الاستيعاب الواضح ان يتوفر لى حين اسمع تعبير (المواد الغذائية) المجرد وطبيعي أني ألِفْتُ مع الزمن كلمات مثل : المواد الغذائية والمؤن والمأكولات . ولكني لم أكن أعرف كيف يحضّر مايقدمونه لي على الفطور والغداء والعشاء .

كنت أعلم أن الخبز والحلوى والفطائر تصنع من الطحين ، وأنّ الحساء يحضر بالحريش وقد تضاف إليه الخضرة . أما باقي الألوان فأجهل كيف تصنع ، فكانت الدهشة تصيبني حينما يطلعونني على أنه لابد من تحضير الأطباق قبل تقديمها . كنت أتناول الفواكه وأعرف أنها تقطف من الأشجار ولكن حينما يقدم المربى ويقال إنه مصنوع من الفواكه لا أصدق ذلك لأني لا أدرك كيف يمكن تحويل تلك الفواكه إلى ذلك المربىّ الذي لايشبهها إطلاقاً .

وأتذكر أني كنت أحب في طفولتي (ساطة الفواكه) ، لكني لم أصدق أنها تصنع من الفواكه وكنت على يقين من أنها مصنوعة من الشوندر . ولا بد من الاشارة هنا إلى أنني منذ طفولتي تعودت الشك في كل شيء فكنت أظن أن الناس يكذبون عليّ لأني على الغالب لاأجيد الاستيعاب .

كنت أحب كثيراً (كريّات) اللحم والسمك المقلي ، وأردت أن أرى كيف يحضّر . ولدى متابعتي ليدى الطباخة رأيتها تضع الخبز المبلل في اللحم المفروم ثم تكوره وتمرره على الطحين الخشن . وفي الغداء أرفض تناول الخبز مع نصيبي من اللحم محتجة بأن الطباخة قد وضعت مع اللحم مايكفي من الخبز ولذا أخشى أن أفسد طعم اللحم بتناول الخبز معه .

ولاحظت السمك وهو يغلّف بالطحين قبل أن يقلى ، فكنت أرفض كذلك تناوله مع الخبز .

وحينما عرفت أنه يمكن صنع الجبن الأبيض من حليب الماعز لم أصدق ذلك إذ كنت أعتقد أن حليب البقر وحده يصلح للطعام ، وأنه وحده قابل لصنع الجبن الأبيض . وقد وعدتني معلمتي بأن تجلب لي حليب الماعز والجبن المصنوع منه . وكنت أتوقع أن يكون مذاقهما غير سائغ ، ولكنْ بعد أن تناولت منهما تبين لي أنهما سائغان للديدان . . ومع ذلك راودني الشك في أن يكون ماقدم لي منهما حقيقياً غير مزور .

وحينما علمت أنه لابد من تحضير جميع الأطعمة حسب مواصفات معينة ظننت أنه يمكن أن نطبخ أو نقلي أي شيء حال اشتعال الفرن ؛

وهكذا اذن يكفي أن أصنع شيئاً من الخبز مع شرائح البندورة في مقلاة ثم أقليها لأحصل على طبق شهي .

ذات يوم جعلتني طباختنا أذوق لوناً من الحلوى لذيذ الطعم لم أعرف مادته ولكنه أعجبني كثيراً فطلبت من المربين فيما بعد أن يقدموا لي هذا اللون (المحلىّ المنعش) . ولما سألوني عن اسم هذا اللون عجزت عن تسميته واكتفيت بالقول : إنه يؤكل في صحن صغير وبملعقة صغيرة . وفيما بعد عرفت أن ذاك اللون كان (كريـة بالتفاح) . لكني لم أصدق أن الطباخة استطاعت أن تصنع ذلك الطبق من التفاح وزلال البيض ، ولم أفهم كيف يمكن تحويل تفاحة صلبة إلى أكلة حلوة غضة

وفي مقدوري أن أذكر مجموعة من الأمثلة لأبيّن كيف كنت أجهل المواد الأولية لمختلف الأطعمة وكيفية تحضيرها ، إذ من الصعب علي أن أدرك أن هذه المواد يمكن أن تخضع لأنواع شتى من التحضير والتحويل .

وإليكم هذه الواقعة الغريبة المؤسفة التي أتاحت لي أن أدرك حقيقة مـ لقة مفادها أن النباتات ليست جميعاً صالحة للأكل ، فقد لاحظت أنهم يضعون البصل الصغير والبقدونس والشمرة في الحساء ، كما لاحظت أن البقدونس يعطي نكهة لذيذة للطعام ، ونظراً لمعرفتي السابقة بالعطور فقد تصورت أنه يمكن طبخ الزهور ذات الروائح الطيبة مثلما نضيف البقدونس والشمرة إلى الطعام ونحضّر السلطة من أوراق الخضار . وقد واتتني ذات يوم فكرة القيام بتجربة صغيرة وكان

ذلك يوم السبت في فصل الربيع ، حيث موعد تسخين ماءالحمام، إذ غادرتِ المسؤولة عن الخدمة غرفة الحمام بعد أن أشعلت الموقد ، فانتهزت هذه الفرصة لأصنع عطري المفضل . هرعت إلى غرفة النوم حيث كانت أغصان من الأكاسيا البيضاء المزهرة على المنضدة . انتزعت بعض الأزهار ورميتها في قدر مملوء بالماء حتّى الحافة ووضعتها على النار . وصادف أن بقيت وحدي طويلا في عرفة الحمام ، وراح الماء يغلي وحينما انحنيت على القدر بدأت استنشق بخاره . ولست أدرى كم مضى عليّ وأنا أستمتع برائحة العطر ، وكل ما أذكره أن رأسي دارت وأني تقيأت بعد ذلك . وقد باءت تجربتي بالخيبة المريرة إذ وقعت أرضاً ولم أعد أذكر ماذا حدث بعد هذا ولا كيف وجدت نفسي في سريرى . وقد فهمت بعد هده الحادثة أن العطور تصنع بصورة مختلفة تماماً ، وأن الأمور ليست على ماتصورت من بساطة وسهولة .

وقد بدت لي كثير من الأمور غير مفهومة ، وذلك بالنطر لجهلي ، فاذا ماوقعت في يدي مثلا ورقة من شجر الغار دهشت وتساءلت قائلة : لماذا توضع الأوراق الجافة مع الطعام ، فأنا أذكر دائماً تجربتي المرة مع عطر الأكاسيا !

وإذا صادف أن قَضَمْتُ حبة فلفل في الطعام كانت دهشتي أشد ، فالفلفل يحرق فمي . . . ولا شك إذن في أن هناك مَنْ يريد الكيد لي بأن يتعمّد وضع هده الحبات الصغيرة المحرقة في صحني ، وأنا أؤمن بأن الأشرار وحدهم يضعون في الطعام مثل هذا النوع الرديء من البهارات ولم أكن أحب الخردل كذلك ولا البصل الأخضر ولا الفليفلة الحمراء ولا الفجل ؛ وما كنت لأصدق بأن أحداً يلتذ

بأكل هذه الأصناف . وأنا أذكر أنني لم أرغب خلال فترة طويلة في تناول النقانق بالثوم بل كنت أخاف ذلك !

نزهات

كيف فهمت بعض الظواهر الطبيعية

كنت أفهم على نحو غامض لماذا يعمل الناس ويأكلون وينامون . فالناس حينما يعملون يؤدون أعمالا ضرورية كتحضير الطعام وترتيب البيت وخياطة الملابس وغسل الغسيل وزراعة الحدائق والبساتين . ولكن لماذا يتنزه الناس هكذا ؟ هذا مالم أكن أدركه ولكني كنت أبرر ذلك لنفسي ، ففي الربيع أو الصيف كنت ألعب في الحديقة باشراف بعض المبصرين الصغار ، أو أجري في الشارع أو أذهب لأستحم في الساقية . أما البالغون فما كانوا يلعبون كما يلعب الأطفال ولايركضون في الشارع ولا ينطّون على الحبل .

ومنذ مطلع الربيع حتّى بداية أيام البرد كنت أبقى خارج البيت أطوال الوقت . وطبيعي أن أقوم بالنزهة حينما يكون الجو دافئاً . وصحيح أنه خلال الشتاء لم أكن أحب البقاء طويلا خارج المنزل فأنا عاجزة عن الاسراع في السير ، وإذا مشيت بطيئة انتابني البرد سريعاً . وكذلك ماكنت أحب للأطفال أن يصنعوا تماثيل ثلجية أو يتراشقوا بكرات الثلج ، كما لاأحب الركض أو التمرغ على الثلج مثلما يفعل الآخرون ، إذ تبدو لي هذه الأفعال مشاجرات يسخر فيها الأطفال بعضهم من بعض ، لاألعاباً بريئة .

وحتّى في المشفى ، حينما كان الأساتذة يصطحبون الأطفال في نزهاتهم فيعلمونهم ألعاب الشتاء كنت أبقى جالسة على المقعد أو أتنزه

وحدي في الحديقة أو أعود إلى غرفتي . أما حينما يلعب الأساتذة مع الأطفال فأنا أدرك أن ذلك ليس مشاجرات بل هو لعب بريء ، ولكن ماكنت أحس بأية متعة في أن أتلقى على وجهي كرة ثلجية أو أن أرمي بها أحد رفاقي . وإذا اتفق أن وقعت على الثلج مع أحد الأساتذة ضحك الأطفال ووجدوا ذلك طريفاً ، أما أنا فلا أراه كذلك ولا أضحك .

إلى جانب هذا كنت أهوى الركوب على الزلاجة واستمتع بها فهي لاتمت إلى تلك (المشاجرات) بصلة . كان الأطفال يقودون الزلاّجات كل بدوره بمساعدة الأساتذة وحين يسقط بعضنا متخبطاً على الثلج كنت أجد متعة مثيرة في ذلك وفي مساعدة الآخرين على النهوض ونفض الثلج عن ثيابهم وإعادة الزلاّجة كما كانت ومتابعة اللعب . .

كيف يسقط المطر والثلج ؟ لماذا يكون الجو حاراً أو بارداً ؟ لماذا تهب الريح عاصفةً أو تهدأ تماماً ؟ ما الطقس ؟ هذه التساؤلات كلها رحت أطرحها على نفسي بعد أن فقدت السمع والبصر وغرقت في لجج الظلام والصمت .

أتذكر أن الطقس سرعان مايسوء في اللحظة التي أنوي فيها القيام بنزهة . ولم يكن المطر والثلج عندي مزعجين فحسب ، بل مصيبة حقيقية تمنعني من الخروج قليلا للتنزه . وإذا كان الاطفال المبصرون يحبون المطر والثلج فأنا لاأحبهما وأفضل الجو الصاحي الذي يوفر لي مزيداً من الفرح .

كان الطقس الرديء منذ أيام طفولتي يوهنني ، فاذا اضطررت

إلى البقاء في غرفتي انتابتني الرغبة في النوم والهدوء ، ولذا فان الطقس الدافيء المشمس يبدو لي مبهجاً . ويخيل إلي أن الشمس تفهمني وتدرك أن عليها أن لاتغيب عني ، ولهذا كنت أرى الشمس حيناً طيبة ، وحيناً آخر شريرة ، فعندما لاتكون غاضبة لاتختفي تماماً فتغيم السماء وتمطر فترة وجيزة ؛ أما إذا كانت غاضبة حقاً فتختفي مدة طويلة ليصبح الجو بارداً ويحل فصل الشتاء . . . ثم ترجع الشمس طيبة على مدى طويل فيُصبح الجو دافئاً وتسطع الشمس طوال النهار . . . ويأتي الربيع ليعقبه الصيف .

لكن ترى كيف أفهم كلمة (الطقس ؟) كنت أظنه شيئاً ما لايُرى ولا يُلمس يتعلق بالحرارة والمطر والثلج والأيام المشمسة والغائمة ولم أستطع تعريف هذه الكلمة بشكل آخر ، ولكني على الرغم من ذلك تعودت أن أرددها بعد أستادي ونجحت فيما بعد في استخدامها بصورة صحيحة .

وفي الغالب يتعكر مزاجي عندما يسوء الطقس فلا أرغب في عمل أي شيء ، حتى حضور الدروس . وفي المقابل عندما تسطع الشمس ويدفأ الجو يصحو مزاجي . لعل ذلك لأن الطقس الحسن ينعكس على صحتي وطباعي ويدفعني إلى الحركة ويهبني النشاط . أما أيام الأعياد فما كنت أفهم لماذا كان الطقس يسوء فيها ؟ !

حيوانات وطيور حشرات ونباتات

كنت خلال طفولتي لاأحب الحيوانات كثيراً ، ولعلي كنت أخاف منها وقد أدركت أن الحيوانات جميعاً تعض أو تخمش حينما نلمسها .

كنت أخاف من الهررة ، وقد لزمني وقت طويل لآلفها وأحبّها ؛ ففي بيتنا كانت هرة خبيثة تشرب حليبي دائماً وتخمشني إذا طردتها . وما كنت لأصدق أن هناك هررة لاتسرق الحليب ولا تخمش الآخرين . وإذا قُدّم لي هرُ أداعبه سحبت يدي خائفة وضربت الأرض بقدمي وصرخت .

وكذلك كنت أخشى الكلاب ، ولم أكن أصدق أن الكلاب لاتعض منذ أن عضني أحدها . وكنت أخاف من البقر والخيل وأتصورها كبيرة فأخشى أن تعضني أقوى مما تعض الكلاب . وعلى النقيض من ذلك أحببت الدجاج والبط فهي لاتؤذيني وتتناول الحب الذي أرميه إليها ، ولذا اعتقدت أنها طيور لطيفة . وقد انعقدت بيني وبين دجاجة أواصر صداقة فكانت تسرع نحوي لأحضنها في ذراعيّ كلما دخلت إلى الباحة ، وإذا تأخرت في الخروج إليها سعت نحوي في غرفتي .

وفي الصباح وأنا ما أزال نائمة تقفز على سريري وتدور من حولي ثم تغادرني بعد أن تخلف بيضة دافئة . وهذه الصداقة أقنعتني بألاّ أخشى الطيور بل سائر الحيوانات . وهكذا كنت أخاف كثيراً من صغار القطط والجراء والخنانيص والعجول . أما الخيول والبقر فقد بدت لي حيوانات مرعبة فسرعان ما أسحب يدي بهلع حينما يضعونها على ظهر حصان وديع أو بقرة ترعى العشب بهدوء ، لكني لم أكن أخشى الدّمى التي تمثل الخيل والبقر .

لم أكن أخشى صغار الطير بل أحبها كثيراً ، فالأفراخ تشعرني بمزيد من الفرح . ولكني لم أكن أدرك كيف يمكن لهذا البيض الذي

أتناوله أن يصبح كائناً حياً ، ومع ذلك كنت أعلم أن الصيصان تأتي من البيض لأنهم أطلعوني ذات مرة على دجاجة وهي تفرّخ ، وعلى صيصان تخرج من البيض وهي ماتزال رطبة الزغب .

وبالنظر إلى أني لم أفهم كيف تصبح البيضة فرخاً حسبت أن هذه البيضة تختلف عن تلك التي نأكلها . وذات يوم تناولت بيضة من تحت دجاجة وكسرتها آملة أن أجد فيها فرخاً حياً ، ولكن لم أجد ما أريد ، ولم تكن إلا بيضة طارجة عادية . ولكني ماكنت أعرف هذا فدهشت إذ وجدتها تشبه البيض الذي نأكله .

كنت أظن أن لأمي دوراً في ولادة الأفراخ ، فقد لاحظتها مراراً وهي تأخذ البيض وتعاينه من جميع جهاته وتختار منه بعضه ثم تضعه تحت الدجاجة ، وهكذا كانت أمي كما ظننت ، تسهم في عملية التفقف كما تسهم الدجاجة نفسها .

وكانوا يجلبون لي أحياناً عشاً صغيراً فيه بيوض عصافير ، كما يجلبون أعشاشاً أخرى فيها أفراخ رعب الحواصل وهي تدير رؤوسها الواهنة وتفتح مناقيرها الصغيرة لتنقر أصابعي . كنت أظن أنها تطلب الطعام فأقدم لها فتات الخبز فلا تستطيع ابتلاعه فتتابع نقراتها .

حينما كنت أعاين البيوض الصغيرة والأفراخ في الأعشاش رحت اتساءل قائلة : كيف وجدت تلك الأفراخ ؟ وإذا كانت خرجت من البيض فمن الذي ساعدها على (الولادة) ؟ وإذا كان لأمي دورٌ في ذلك فأنا لم أرها قط تقلّب أو تعاين بيض الطير . وقد دلتني مرة على حمامة باضت في أحد شقوق النافذة ولم تعاين تلك البيضة بل جهزتها لي لأتناولها .

وكذلك كنت أخشى الحشرات دون أن أعرف السبب ، ولاسيما دودة القز والجعل . وكان الذعر يصيبني عندما تسقط علي من الأشجار دودة قز ، وقد حدث أن أرقت الليل بطوله لأن دودة سقطت على عنقي مساء . وذات يوم أطلعني أحدهم على جعل كبير عضني في أصبعي ، ومنذ ذلك الحين وأنا أخاف الحشرات دون أن أفهم كيف تتمكن تلك (البهائم) من إيذاء الناس .

أما الفراشات فلا أخشاها بل أتناولها بيدى دون خوف لأعاين أجنحتها وهي ترتعش .

كنت في طفولتى أعشق الأزهار والنباتات على وجه خاص ، وحينما ألمس زهره ما أرغب في أن أعرف لماذا تفوح بتلك الرائحة العطرة ، وعندما استشعر تويجاتها الغضة المخملية بيدي أتساءل : مَنْ كوّنها على هذه الصورة اللطيفة المحسة ؟

وقد سبق لي أن رأيت أمي مراراً وهي تبذر الحب أو تزرع الزروع في الأرض . . ثم لاتلبث أن تنمو بعض النباتات مما كان يسرني ويثير فضولي .

وكنت أقلد أمي دون أن تدري فأزرع أنواعاً شتى من الحبوب في أواني المنزل ؛ وكم كنت أفرح بينما أمي تستاء عندما أرى عبّاد الشمس والفاصولياء والحمص تبدأ في النمو . كنت أشعر بالسعادة لأني أنا التى بذرت تلك الحبوب .

وفي الربيع والصيف كنت أحب الذهاب إلى البساتين حيث تجري ظواهر تستعصي على الفهم لكنها مثيرة ، ففي بداية الربيع

تكون الأرض عارية ثم ينبعث منها الخيار والبندورة والبطيخ الأحمر والأصفر ، وتكون هذه النباتات أول الأمر صغيرة ذات طعم غير مقبول ثم تصبح بقدرة قادر سائغة المذاق ؛ فلابد إذن من حب النباتات وحمايتها ، وأنا أحبها حقاً فلا أدوس عليها ولا أكسرها ولأني أجهل أن الأعشاب الطفيلية ضارة كنت أستاء حينما أرى أمي تقتلها . وأنا أحب الحدائق وأستطيع المكوث فيها وحدي طوال النهار وسط الأزهار والأشجار المثمرة . وما كنت لأملّ أو أضجر خلال تجولي بين مساكب الزهر وأنا أعاين جذوع الأشجار وأغصانها . وإذا كان الجذع ملتوياً وذا عقدٍ تسلقت على الشجرة ، وما كان يعكر صفو حي للحدائق شيء كالجعل ودودة القز . وحينما تسقط علي دودة وأنا أتسلق شجرة تفاح أو أجاص أو مشمش أهبط حالا ولا أعود أقترب من تلك الأشجار ، إذ أظن أن دودة القز تفسد ثمارها وتجعلها غير صالحة للطعام .

وما كنت لأفهم كيف تنبعث النباتات من الأرض دون أن يغذيها أحد كما هو الشأن في عالم الطير والحيوان . وأنا أحب النباتات أكثر من الحيوانات . وقد استمر هذا التفضيل عندي مدة طويلة إذ حينما بدأت في الدراسة تفوقت في مادة علم النباتات فترةً أكثر من تفوقي في علم الحيوان .

الأعياد

ما الأعياد ؟ وكيف لي أن أفهم أن هذا اليوم يوم عيد وليس غداً ؟ وما الفرق بين أيام الأعياد وغيرها ؟

ومفهوم العيد لديّ مفهوم مجرّد ، ولايمكن أن يُشرَحَ لي بأنه يومٌ لايعمل فيه الناس ؛ فلابد إذن من إضافة بعض الأمثلة المجسدة المنتزعة من واقع الحياة . وهكذا شرحوا لي معنى العيد إذ ليس ضرورياً أن نعتبر (يوم عيدٍ) ذلك اليوم الذى لايعمل فيه أحد الناس . وإليكم أمثلة توضح ما أقول ؛ قال لي الأستاذ :

— غداً يكون يوم السابع من نوفمبر . إنه عيد ثورة أكتوبر . إلبسي ثوبك الجديد ، وسيعطونك شعاراً وهدايا. الأطفال لن يذهبوا إلى المدرسة بل إلى النزهة . والبالغون سيشتركون في المسيرة .

وفي عشية السابع من نوفمبر قدموا لي البسكويت والحلوى ومزهرية أقحوان . كان كل ذلك جديداً علي وممتعاً لي ، وبدا الأساتذة والمربون في هذه الليلة أكثر مرحاً ولطفاً . . والقاعات كلها نظيفة مزينة وغطيت الطاولات بأغطية ومناديل جديدة . . . ورائحة الأقحوان انتشرت في كل مكان ، وقد ملأتني هذه الاستعدادات بفرح لم أشعر به من قبل ، وأدركت جلال المناسبة ، لكني لاأقوى على التعبير عنها .

وفي صباح السابع من نوفمبر قال لي المربون المناوبون : « عيد سعيد » ! وكانت هديتي ثوباً صوفياً جديداً وشعاراً يمثل صورة لينين ، بالاضافة إلى رزم فيها التفاح والسكاكر والجوز . وقيل لي : « إن ذلك للاحتفال بالعيد » ؛ ثم رحنا نتنزه بعد الفطور في الشارع وليس في الحديقة كما هي العادة .

ولاحظت الازدحام (حيث تعرضت لدفع المارة العشوائي) ، كما لاحظت أصواتا مبهمة تشق الجو . ولدى احساسي بهذه الضجة

رفعت رأسي ومددت يدي في الهواء وكأنني أبحث عن شيء ، وأخبرني أستاذي قائلا : (إنها الفرقة الموسيقية تعزف في الشارع) .

وتوقفت الدراسة يومين ، وبدا لي الناس من حولي مختلفين عما ألفتُهم إذ امتاروا بالفرح واللطف وتخلّوا عن جدهم ورصانتهم .

إذنْ كان العيد عندي يوماً لايشبه الأيام الأخرى العادية . وقد بدأت أدرك ذلك حينما كنت أعيش مع أمي فتمر بنا أيام نظف فيها غرف البيت على أحسن وجهٍ ونلبس الثياب الجديدة ونأكل الأطعمة الشهية . لكني لاأعي أية أعياد كانت تلك .

وفي المشفى تعرفت على عيد ثورة أكتوبر . وقد طرحت أسئلة لم أستطع فهم جوابها ، سألت مثلا : ماذا يعني هذا العيد ؟ ما الثورة ؟ لماذا تسمونها ثورة أكتوبر بينما موعد العيد في نوفمبر ، ولماذا عليّ أن أصع شعاراتٍ لاأعي مدلولها ؟

وقد جاءني جواب تلك الأسئلة متأخراً عندما أصبحت قادرة على الفهم والادراك . ولم أكن أعرف آنذاك شيئاً عن ثورة أكتوبر ، وحضرت مصادفة عيداً للأطفال في السابع أو الثامن من نوفمبر ، ولم يَدُرْ في خلدي أنه عيد كبير وإنما ظننت ببساطة أنه يوم عطلة يأوي فيه الناس إلى منازلهم .

وأود هنا أن أصف انطباعاتي عن ذلك اليوم . وقد حدث ذلك في الريف بعد موت أمي حين كنت أعيش مع أقاربي . بعد الغداء أفهمتني عمّتي أن علي أن ألبس ثوباً جميلاً ووشاحاً ، وألبست ابنها

وأعطتنا شيئاً من بذور عباد الشمس وأشارت إلينا أنه يمكن لنا أن نخرج ، وظننت أن ذلك مجرد نزهة . ولما صرنا خارج البيت لاحظت أن ابن عمي لم يتوقف كعادته ليعيّن الاتجاه الذي يتعين علينا سلوكه ، فتوجه بخطى واثقة إلى اتجاه معين وجرني معه فتبعته دون أن أفهم شيئاً . مشينا قليلا . . وفجأة سمعت صوتاً لم أدر ماهو ، وخيل إلي أن طلقات ثقيلة تشق الهواء . توقفنا برهة خائفين . . . وحاولت أن أتراجع إلى الوراء . ومن المؤكد أن شيئاً ما قد شدّه فاصطررت إلى البقاء بجانبه ، وشعرت من حولنا بوقع خطى . . واقترب منا في هذه اللحظة أحد البالغين فحمله بين ذراعيه ورفعه و . . اختفى ابن عمي . . لم يتح لي الوقت كي أفهم ما حدث وأقوم بأي عمل أساعد فيه ابن عمي لأن أحدهم رفعني وحملني بين ذراعيه . . . وشعرت بايد أخرى تمسك بي وتعيدني إلى الأرض . خفت كثيراً لاني لم أفهم ماذا حدث وما الذي حلّ بابن عمي ؟ وأخيراً وجدته بجانبي . . . فامسك بيدي وأفهمني أن هناك أطفالاً كثيرين من حولنا . . ثم شعرت بوجود جمع غفير من الناس ، واكتشفت مصادفة حاجزاً خشبياً . . . وبعد أن عاينته بيدى قلت في نفسي : لعل أحداً رمى بنا داخل صندوق كبير . ولكن لماذا ؟

في هذا الصندوق الكبير أطفال كثيرون منهم الجالس ومنهم الواقف ، الواقفون يضربون بأرجلهم ويلوّحون بايديهم ويدفعون بي . . ولم أفهم شيئاً مما يجري ، ولكني أطمأننت حينما شعرت بأني لست وحيدة ، والأطفال لم يحاولوا أن يغادروا الصندوق ، وهذا يعني أنهم مستمتعون بوجودهم فيه . . . ثم حدث أمر مدهش ، فالصندوق راح يدوّي

ويهتز تحت قدمي . . وفجأة مال إلى الأمام ثم إلى الخلف ، فارتمى الأطفال الواقفون علينا واعتراني الخوف ثانية حينما شعرت بهذا الصندوق الصاخب يتحرك ، فشددت يد ابن عمي وتمسكت بطرف الصندوق الخشبي . ولم يكن ابن عمّي خائفاً إذ لم يحاول الهرب ، ولم يلتصق بي بل على العكس من ذلك ، كان يضحك ويصرخ في أذني بشيء ما . ومع هذا كنت قلقة فلم استطع تحديد الوقت الذي امضيناه في هذا الصندوق الصاخب المتحرك . وأخيراً أمسك الصندوق عن إصدار الضجة وتوقف عن الحركة .

ومرة ثانية حملنا شخص بالغ بين ذراعيه وسلمنا إلى شخص آخر يقف في الأسفل . وسررت لدى شعوري بالأرض الصلبة تحت قدمي .

وما كنت أدري اين يروح بي ويغدو ابن عمي ، فقد أمسك أحدهم بيدي ولاحظت أننا دخلنا أحد البيوت . جلست قرب ابن عمي على مقعد كبير يجلس عليه كذلك أطفال آخرون لا أعرفهم ؛ وخيل إلي أني مكثت طويلا وكنت أشعر أحياناً بأقدامٍ تضرب الأرض وبما يشبه التصفيق . ولما كنت بقرب ابن عمي فقد شعرت بانه يصفق بيديه ، وكان يطلب مني أن أفعل فعله ، لكني لا أفهم ما يجري من حولي فرفضت تقليده . أخيراً غادر الأطفال المقعد وركضوا إلى اتجاه مجهول فنهض قريبي وقادني إلى طاولة شممت منها روائح التفاح والمعجنات . تراجعت إلى الوراء لأفهم ابن عمي أننا قد أخطأنا التوجه ، لكنه لم يكن راغباً في مغادرة الطاولة .

وفاجأني أحدهم إذ سلمني رزمة كبيرة أربكتني فأوحيت إليه

برفضها ، لكنه افهمني أنّ علي الاحتفاظ بها وظننت أن هذه الرزمة مخصصة لفتاة غيري فلم أعرف كيف أتصرف : أأحتفظ بها أم أعيدها .

ولم أفهم لماذا أعطوني تلك الرزمة من التفاح فانا لم أقم بأي عمل استحق عليه ذلك ، وكل مافي الأمر أنهم كافؤوني لحضوري وجلوسي .

وقد نال ابن عمي رزمة أخرى ، لكنه لم يرجعها بل احتفظ بها وقادني إلى الشارع حيث فتحنا هدايانا فوجدنا فيها التفاح والجوز والمعجنات . وعدنا إلى البيت سيراً على الأقدام وسرني ذلك اذ سبق لي أن أزعجني وأخافني ركوبي الشاحنة في بداية الرحلة .

وما زلت جاهلةً أين كنا ؟ ولماذا أعطاني أشخاص غرباء تلك الهدايا ؟

وبعد سنوات ، حينما فهمت معنى الأعياد وعرفت لماذا يحتفلون بذكرى ثورة أكتوبر علمت من رسائل تبادلتها مع أهلي أني حضرت مع ابن عمي عيداً للأطفال احتفاء بالذكرى الخامسة للثورة . وانتابني شعور بالأسف والندم إذ عرفت أني أحضر لأول مرة عيداً على هذه الدرجة من الأهمية ، فتملكني الخوف بدلا من أن أفرح مع الآخرين !

المعقول وغير المعقول
والتغيرات

لست أدري كم من الوقت مضى على ذلك اليوم الذي سافرت فيه بالشاحنة مع ابن عمي ورفاق آخرين لحضور ذلك العيد الخاص بالأطفال . وقد جرى لي بعد تلك الواقعة وقائع كثيرة عير مفهومة .

ولعل تاريخ ما سأرويه يعود إلى نهاية شهر تشرين الثاني أو بداية كانون الأول . كان الجو رطباً بارداً ، ولكن لاثلج ولا جليد . أيقظوني منذ الصباح الباكر وكنت أنعم في سبات عميق . كنت أسكن في تلك الفترة عند عمي في القرية ، وقد أفهموني أنّ علي أن أنهض وأرتدي ثيابي ، وكنت أشعر بأني لم أشبع نوماً فدهشت من ايقاظهم لي . لم أشم روائح الصباح اليومية فاستنتجت على وجه غامض أننا مازلنا في الليل . ورتبوا لي هندامي ثم قدمت لي زوجة عمي طعامي . كنت وحدي في المطبخ فدهشت وقلقت . وبعد الفطور ألبستني امرأة عمي ثياباً سميكة : جوربين من الصوف وفستاناً صوفياً وكنزة من صنع أمي قبل موتها ، ثم دثرتني بشال أمي وخرجنا إلى الفناء ، وأدركت من الرائحة أننا مازلنا في الليل أو في الغسق . وأجلسني أحدهم على القش في العربة واتخذ مكانه إلى جانبي . عاينته فتبينت من معطفه أنه عمّي الثاني . كان يمسك المقود بيد والسوط بأخرى . وانطلقنا . إلى أين ؟ ولماذا ننطلق ؟ ماكنت قادرة على أي تخمين أو تقدير !

واليوم ، وأنا أسترجع ذكرى تلك السفرة ، يمكن القول انني لم أكن خائفة ولا قلقة . صحيح أني تساءلت لماذا أيقظوني من نومي ؟ وإلى أين يتجهون بي ؟ لكني نظراً لقيامي سابقاً بنزهات كثيرة في العربة لم أستغرب هذه السفرة المفاجئة ولم تدهشني ، بل كل ماهنالك أني وجدتها بلا معنى ولا سيما أنها كانت ليلا ولا رغبة لي فيها .

ولقد خيل إلي أن هذه السفرة كانت أطول مما تعودت ، إذ هبت ريح عنيفة باردة من جميع الجهات كأننا في فلاة ، وألصقت جسمي

بجسم عمي كي أحس بالدفء ، وغفوت بعض الوقت ثم استيقظت .. وغفوت ثانية . . وحينما صحوت نهائياً شعرت بأن الظلام قد اشتد وأن الريح قد هدأت قليلا ، ثم شممت روائح مختلفة لاتشبه روائح الحقول ولا روائح قريتنا مما ذكّرني بالناس والمساكن والحيوانات والزروع ، وبكلمة،بكل مايمتّ إلى الأماكن المأهولة بصلة . لكنها كانت روائح جديدة تستعصي على فهمي فتقلقني . أين نحن ؟ وإلى أين يسيرون بي ؟ أسئلة كنت أطرحها على عمي لو أن لى قدرة على الكلام . إذن فلا شيء إلا هذه الأمور المستعصية على الفهم تعمل جادة على إيقاع الرعب في نفسي .

لست أتذكر كم من الوقت مضى علينا ونحن نجرى ، وكيف وجدت نفسي في منزل عمي الثالث الذى كان يسكن (خرسون) في تلك الفترة ولا أعرف كم من الأيام عشت في بيت عمي . وأنا أتذكر على نحو غامض أنه صحبني مرات عديدة إلى بعض الأمكنة حيث لم يحدث لي ما يسؤوني ، لكني لم أفهم شيئاً ألبتة . . . وحينما كان يعود بي عمي إلى البيت كنت أعاني من الشعور بعدم الرضا وخيبة الأمل .

وفي الحق أني تعودت فيما سبق أن أزور منازل الأصدقاء حينما ندعى إلى الغداء أو لغايات أخرى كنت أحزرها دائماً ، وبخاصة إذا كان الأمر متعلقاً باستعارة أو إرجاع بعض الأمتعة ، كنت (أفهم) حينئذ سبب تلك الزيارات . لكن حيث يصحبني عمي لم نكن نجلب شيئاً أو نعير متاعاً ، وما كان يقدّم لنا طعام الغداء ، وإنما يجلسنى عمى بكل بساطة على كرسي أو مقعد ثم يذهب إلى حيث لاأدري .

ذات يوم ذهبنا للمرة الأخيرة إلى أحد البيوت المجهولة ، ولم نجلب كالعادة ، شيئاً إلى البيت . وكان عمي في ذلك اليوم على غاية من اللطف معي إذ داعب رأسي ونحن عائدون ، وهذا ليس من عادته ، ثم انحنى ليعانقني فنزلت دمعة حارة على خدّي . وأنا أعلم طبعاً ، أن البالغين يبكون كما يبكي الأطفال ، لكني لم أفهم هذه المرة حالا أن عمي قد بكى . وظننت أن السماء تمطر ، لكنّ تلك الدمعة لم تتكرر . . ثم حملني عمي بين ذراعيه . وقد فهمت من الأحداث التي تعاقبت فيما بعد لماذا بكى عمي ، فقد كان عليه أن يصحبني إلى مدينة أخرى لأقيم في مدرسة خاصة بالعميان .

ورجعنا إلى البيت وما كنت أشك في أني سأغادر عمي في صبيحة الغد إلى غير رجعة ، ثم أسافر عبر الدنيبر والبحر على متن باخرة .

وخلال تلك الأمسية كان أفراد أسرة عمي على غايه من اللطف ، وقد أهدتني امرأة عمي حذاء وثوباً ومعطفاً جميعها جديدة . وظننت أنهم سيعودون بي إلى قريتي ، وهذا مالا أرغب فيه فأنا أشعر بالراحة والمتعة في بيت عمي ، حتى إني قررت أن أشاجر كل مَنْ يحاول إعادتي إلى قريتي قسراً . وظننت كذلك أن أسرة عمي تستعد لاحتفال ما ، فلا بد إذن من ارتداء الثياب الجديدة للقيام بنزهة . . . وقد جهزوا لي سريري وأناموني فيه بكل لطف ورقة ، واقترب عمي وزوجته مني مرات عديدة ليدثراني بغطاء إضافي خشية البرد . ولم يخامرني الشك فيما يفعلانه بل استمتعت بهذه الرعاية وذلك الاهتمام الذي أولياني إياه . كنت أرغب دائماً في أن أعامل على هذه الصورة ، وأحب أن أكون طيبة مع كل مَنْ حولي . . كنت أقول في نفسي

اني سأساعد روجة عمي في غسل الأواني وكنس الغرف وترتيب الأسرّة وتقشير البطاطا . . وبكلمة ، في كل ما أستطيع عمله في تلك السن . كان يسعدني أن أرى طيبة عمي وأسرته . . وعندما أخلدت للنوم — انتابتني الرغبة في أن يطلع الصباح أسرع مايكون لأظهر لهم أني أشعر بلطفهم وطيبتهم ، وأني سأقابلهم بالمثل ، وأني سأعمل كثيراً حتى أفوز بحبهم . . لكنّ اليوم التالي فاجأني بخيبه الأمل والأسى فقد جدّتْ أحداث غير معقوله بل مخيفة لاأتوقع حدوثها في هذه الحياة .

في الصباح أيقظوني في وقت مبكر وأشاروا علي بالنهوض . داعبني عمي على رأسي ثم ربّت بهدوء على كتفي نهضت وأنا أظن أن النهار قد بدأ ، وأن عليّ مساعدة روحة عمي في المطبخ . وحينما أردت ارتداء ملابسي لم أجدها . . وصحبتني امرأة عمي وقدمت لي طستاً مملوءاً بالماء الدافىء وغسلتني وأعطتني ثياباً داخلة نظيفة وثوباً صوفياً ذا ياقة مطرزة كنت أضعها أيام الأعياد خلال حياة أمي . وهكذا ظننت حقاً أننا في يوم عيد ونحو مدعوون إلى مكانٍ ما . . ولكن كيف نزور الناس في مثل هذا الوقت المبكر ؟ وخطر ببالي أنهم سيرجعونني إلى قريتي حيت أعود إلى هزّ مهود الأطفال الصغار . ولكني كنت راغبه في البقاء عمد عمي في المدينة حيث لايجبرني أحد على هزّ المهود ولا أخرج وحدي إلى الباحة فأتعثر ، وحيث يصحبونني إلى النزهة في شارع لايشبه شارع القرية حيث الوحول ، بينما يكسو البلاط أو الزفت شوارع المدينة ، أما عرف البيوت في المدينة فأجمل وأوسع وأكثر توفيراً للراحة ، والأرض الخشبية تصدر الأصوات عند

المتي مما يروق لي . . . وبكلمة كنت أهوى العيش في بيت عمي . . . وقد صممت على الدفاع عن نفسي إذا ألزموني الصعود إلى العربة .

ولقد نسيت تفاصيل كثيرة في ذلك الصباح . . ومع هدا أتذكر أننا خرجنا بسلة ملأى بالثياب والمؤن . وأدركت حينئذ أننا متوجهون إلى حيث لاأدري . . مشينا نحن الثلاثة طويلا من شارع إلى آخر . . ثم ودعتنا زوجة عمي وأخذني عمي في ذراعيه وحملني إلى مكان ما . شعرت بأنه تسلق شيئاً ثم نزل . . . أخيراً أرجعني إلى الأرض وماعدت أشعر بالريح فاستنتجت أننا في بيت . . .

لم أكن واثقة من ذلك ، لكن حينما شعرت بالأرض الخشبية تحت قدمي وباختفاء الريح قلت في نفسي نحن في بيت . لكن أين نكون ؟ لم أعرف هذا ذلك اليوم ولا صبيحة الغد مع أني أدركت انتقالي إلى مكان جديد .

ورحت أحسّ باهتزازات ورجّات وضجيج وأرجحات غير مألوفة فأدركت أن (البيت) يتقدم . ولعل حصاناً كان يجره أو أنه يسير وحده إلى الأمام مثل (الصندوق الكبير) الذي حملني ذات يوم مع ابن عمي وأطفال القرية الآخرين .

ولست أدري كم من الوقت أمضيت داخل هذا البيت المرعب المتحرك ، كان معنا أناس آخرون أشم روائحهم وأتحسس وجودهم . وقد أدركت بوضوح أن شيئاً ما غامضاً مزعجاً يحدث إذ لم يقع لي مايماثله من قبل .

وانتابني الألم حينما راح (البيت) يتأرجح في جميع الإتجاهات ويصعد ويهبط . . وهدني المرض فجأة ورحت أتقيأ مما آلمني وأرعبني . وعلى الرغم من خوفي كنت أعي أن عمي يحاول تعزيتي فكان يداعبني ويمسكني بذراعيه ويفهمني أنه مازال معي . . لكنني كنت أتقيأ وأبكي و (البيت) مازال يتأرجح . . وخفتأن يقع لي مكروه فحملني عمي بين ذراعيه ونزلنا إلى مكان أكثر دفئاً حيث الإهتزازات أخف .

وعندما أيقظني عمي وأعادني إلى الأعلى شعرت بأن (البيت) ماعاد يهتز وبأني رحت أحس بالريح ثانية فاستنتجت أننا وصلنا أخيراً . وضعني عمي على الأرض فشعرت بصلابتها تحت قدمي .   . وكان للهواء رائحة غريبة لم أشعر بها من قبل . وعاودنا السير وأنا واثقة من أننا لانعود إلى بيت عمي أو قريتي . ولم يكن عمي يعرف الطريق المؤدية إلى هدفنا إذ توقف أكثر من مرة ، ليسأل المارة كما فهمت فيما بعد .

ودخلنا أحد البيوت ولم نمكث فيه طويلاً ، وجلست على مقعد خشبي . وراح عمي ثم عاد برفقة امرأة لطيفة جداً داعبتني وقدمت لي الشاي مع خبز أبيض وجدته لذيذ الطعم بعد الدوار الذي أمضّني في الليلة الفائتة . وقد أدهشني لطف تلك المرأة وأكد قناعتي بأني لست في بيت عمي ، وأنّ حدثاً مجهولاً ينتظرني . ولم أكن في تلك الفترة أجيد التعبير عن إحساسي (بالمجهول) ، لكني أدركت أن شيئاً ما يوشك أن يحدث إذ ليس من المعقول أن يصحبني عمي عبثاً في هذه النزهة الطويلة . ولم أخطىء فيما توقعت .

وبعد خروجنا من البيت الذي قدم فيه الشاي مشيناً ثانية فترة طويلة

في الشوارع ثم انتابني الإعياء ورعم تعبي الشديد وماقدم لي من تسليات كنت أتنسم دائماً تلك الرائحة الغريبة المجهولة التي عرفت فيما بعدأنها رائحة البحر . واشتد عنائي في متابعة عمي فرحت أتعثر في كل خطوة . ودخلنا أخيراً بيتاً آخر حيث صعدنا بضع درجات أوصلتنا إلى قاعة طويلة (عرفت أنها ممشى فيما بعد) وغادرني عمي فيها بعض الوقت .

وأحاطت بي بعد ذلك نساء وفتيات صغيرات غريبات . كان بعض هؤلاء في طول قامتي ، والبعض الآخر أطول مني ، وكن يتلمسن جسمي من الرأس حتى القدم ، وقد فوجئت بذلك وأزعجني فلم يسبق لي أن لمسني أحد على هذه الصورة . كنت أعاني من الحيرة والاستغراب إد لاأفهم لماذا تصرفن معي ذلك التصرف ، وخيل إلي أنهن يردنتعريتي من ثيابي فرحت أدافع عن نفسي فالتصقت بالجدار مختبئة وراء عمي . لكن الفتيات الصغيرات كن يعانقني ويربتن على ظهري إظهاراً للمودة والحب .

وكان لابد لهن بعد قليل أن يدركن خوفي فعزمن على البرهان عن مزيد من الاهتمام فأمسكن بي من ذراعي وصحبنني إلى عرفة حيث اطلعت على عدة أسرّة أحسِن ترتيبها (في تلك الفترة كنت أجيد ترتيب سريري وأميز بين الفراش المرتب وغير المرتب) ثم وقفن إلى جانب أحد الأسرّة وهن يلمسنني مشيرات إليه فأدركت بعد ذلك أنه سيكون سريري ، ثم شرحن لي أنّ علي أن أنزع شالي ومعطفي وأعلقهما على المشجب قرب الباب . لكني ماكنت لأصدق أن يؤمّن لي سرير في بيت مجهول بهذه السرعة ، ثم أني لم أرغب في خلع شالي ومعطفي خشية

أن يُسرقا . لكنّ عمي والمرأة الغريبة أشارا لي بأن السرير سريري وأنّ علي أن أنزع ثيابي . حينذاك راحت الفتيات الصغيرات يقفزن ويضربن بالأقدام على الأرض حتى خيل إليّ أن حطباً وحجارة ترمى على خشب الأرض . تلك إذن كانت تحية طالبات مدرسة العميان الصغار ، إلى رفيقتهن الجديدة تتجلى رقصاً وقفزاً بهيجاً .

وفي ذلك الحين لم أكن أعرف أن تلك الفتيات الصغيرات مصابات بالعمى فحسب وليس بالصمم ، ولم أفهم كذلك تفسيراً لمسلكهن ، مما زاد في خجلي وارتباكي فوددت لو اختبأت أو رجعت أدراجي مع عمي . وحاولت الكبيرات منهن حملي على الأدرع إلى مكان مجهول لأني رفضت اللحاق بهن ، وكن على يقين من أني أفهم سلوكهن نحوي . أخيراً أمسكت فتاة بذراعي وأخرى برجلي وحملتاني بسرعة وبخطوة واثقة . أحسست بأننا نصعد مسرعين وبأنه سيقضى عليّ إذ لم أدرك أبداً ماالذي كان يحدث ولا أدري ماذا ينتظرني . لكني كنت أعرف في الوقت نفسه أن عمي مازال هنا ، وسيدفع عني أذى الفتيات . لكنّ شيئاً من ذلك لم يقع بل على النقيض ، إذ صحبنني إلى الحمام وأشرن إلى أنه عليّ أن أستحم ، فقبلت حالاً لأني أحب أن أغطس وأغتسل وألعب بالماء . لكن حينما رأيت مغطساً كبيراً لم أر مثله في حياتي لم أرغب في الغوص فيه خوفاً من الغرق وسط (طست) كبير كهذا . وقد أشرت إليهن بيدي أن يعطوني مغطساً أصغر ، رافضةً الإستحمام في ذلك المغطس بصورة قاطعة على الرغم من جهود الطالبات والمربية في إقناعي ، وقلت لهن إن الماء سيغمرني تماماً وسيملأ فمي وأنفي ، وقد لاأستطيع الخروج سالمة من هذا المغطس ؛ وكان الجواب أن الماء لن

يكون كثيراً ولاخطر هناك ، لكني لم أصدق ذلك فقد سبحت في نهر القرية صيفاً ، وأنا أعلم خطر الماء على الأطفال الصغار . أخيراً جاءني أحدهم بطست كبير واغتسلت فيه . وكنت مضطرة إلى القبول بارتداء ماقدموه لي من ثياب نظيفة مرتبة لأني اكتشفت أنهم لم يقدموا لى ثيابي الخاصة وظننت أني لن أراها بعد اليوم ، وهذا ماأحزنني فقد صنعت أمي تلك الثياب بيديها ، وقد أسفت أشد الأسف على ثوبي الصوفي وياقته المطرزة إذ سلموني عوضاً عنه فستاناً من الفانيلا مستعملاً غريب الزيّ فهو ضيق الوسط وذو ثنايا في أسفله ، وهو يشد على الصدر ، وياقته عالية قاسية . وهذا الزي كان اللباس الموحد لبنات مدرسة العميان قبل الثورة .

ولم يعجبني زي هذا الفستان فقد سبق لي أن ارتديت في بيتنا أثواباً من أقمشة مختلفة تغلق من الظّهر ويجري لبسها من أعلاها بينما كانت ثيابي الداخلية من الفانيلا وتغلق بالأزرار من الأمام .

وإذ لم ينجحوا في إقناعي بارتداء (لباس التلمذة) الذي حسبته شعاراً(١)نادواعمي فأطعته حينما شرح لي أن بامكاني لبس ذلك الثوب ، وعليّ أن أترك الثوب الصوفي في الخزانة ، وبمقدوري أن أرتديه فيما بعد . وقد فهمت أن هناك احتمالاً للاحتفال بأحد الأعياد في ذلك اليوم ، ولذا لابدّ من ارتداء الثياب الجميلة الجديدة .

وأنا عاجزة عن التذكر الدقيق لما حدث لي في المدرسة خلال الأيام

---

(١) الشعار – بكسر الشين الثوب الملاصق للجسم

التي أعقبت وصولي إليها . لكن هناك وقائع ذات تأثير بالغ عليّ ، سأسردها .

كان لابد لى من بعض الوقت لأدرك أني في مدرسة لصغار العميان ، فقد أدهشني في أول الأمر أن أعيش في بيت واسع على هذه الصورة وفيه غرف شتى كبيرة ، برفقة أطفال آخرين ذوي أعمار مختلفة ، وبعبارة أخرى ذوي قامات متفاوتة ، فقد كنت في تلك الفترة أحكم على العمر من طول القامة ظانة أن الأطفال ذوي الأجسام الطويلة هم الأكبر سناً حتماً . ولم أكن أفهم كذلك لماذا توجد الأسرّة الكثيرة في غرفة واحدة ، ولماذا يعيش في هذا البيت أناس كثيرون من أطفال وبالغين . كنت أخشى أن أصعد وحدي إلى الطابق الأول أو الثاني لأني لم أستوعب بعد ترتيب البيت ، ظانةً أن من الخطر الصعود إلى الطوابق العليا فهي معرضة للانهيار ، وأخاف حينما يركض الأطفال في ممرات الطابق الأعلى مثلما أخشى أن أقف على الشرفة .

ذات يوم أغلق صبي أعمى باب المطعم في اللحظة التي مددت فيها ذراعي كي أعبر إلى الممشى فتلقيت ضربة مؤلمة جداً . كنت أظن أني العمياء الوحيدة في هذا المسكن فاستنتجت أنه فعل ذلك عمداً فحزّ ذلك في نفسي وبكيت حزناً وألماً . وأريْت يدي لكل الناس . وفي المساء عندما قادتني الفتيات الصغيرات إلى عمي الذي مكث عدة أيام في المدرسة ، رحت أبكي ثانية وحاولت إفهامه أني راغبة في مغادرة هذا المنزل الملعون أسرع مايمكن .

خلال النهار كان عمي يترك المدرسة ويعود مساء فيدعوني إلى

غُرفته ؛ وكان يقدم لي دائماً أشياء لذيذة فأضعها في جيوبي لأتقاسَمَها مع رفاقي . وماكنت أضمر الشر للفتيات الصغيرات اللواتي كن يبذلن أقصى الجهد ليتجنبن مزاحمتي في الممرات . أما الصبيان فكانوايزحمونني غالباً غير عامدين ، لكني ظننت أنهم يتعمدون ذلك . وقد ذكّرت عمي مراراً بأن الوقت قد حان للرجوع إلى بيته حيث لاأحد يضربني أو يزحمني . . . . وكان عمي يداعبني ويعانقني . . . لكنه لايعدني بشيء . . .

أخيراً . . وذات مساء لم يعد عمي إلى المدرسة . وبعد العشاء توجهت كالعادة إلى المطبخ كي استفهم من الطباخة عمّا إذا كان عمي قد تناول عشاءه ؛ لكنها أخبرتني بأن عمي لم يكن هناك ، ومكثت في إفي المطبخ أنتظره : . . لكنه لم يعد أبداً . واقتربت مني رفيقاتي وأكدن إلي أن عمي ليس هنا وما عليّ إلا أن أنام ، فلم أصدق وأردت البقاء في المطبخ . وجاءت رفيقة أكبر مني سناً وألزمتني بالتوجه إلى المهجع وأخبرتني بأن عمي قد ترك لي بعض الحلوى فأدركت حينئذ أنه قد غادرني حقاً وصدقاً . . . . .وحينما تناولت من رفيقتي الخبز الأبيض والسكاكر رحت أبكي بمرارة وأعطيت رفيقاتي كل ذلك رافضة أن أذوق شيئاً منه . . . وإليكم الواقعة التالية :

أفهمتني إحدى الفتيات الكبيرات أنه لايجوز أكل الخبز في السرير ؛ وهذا ما أزعجني إذ كنت في بيتي أتناول في السرير ما أريد . وامتثلت طائعة بعد أن فهمت أن ذلك ممنوع . وبعد مدة قدمت لي فتاة بعض السكاكر وأنا في سريري ، فأخذتها ووضعتها على المنضدة لأتناولها صباح الغد . وعرفت الفتيات أني لم أقضمها فاقتربت إحداهن

وأفهمتني أن عليّ تناولها فرفضت ذلك وشرحت لها أني مستلقية ولا أستطيع . . أجابت أنه يمكن أكلها مع ذلك . وقد أوقعني ذلك في حيرة واضطراب : فلماذا يمكن تناول السكاكر في السرير ولايمكن تناول الخبز؟وإذا كان لا بد من المنع فيجب أن يشمل كل الأشياء . لكن رفيقاتي كن يفهمن الأمور على وجه آخر . فهناك (شيء) ممنوع و (شيء) آخر مسموح به . وكنت عاجزة عن إدراك تلك التناقضات فرحت أتصرف حسب قناعتي ، وهي أن لاأتناول شيئاً فيالسرير ولو كان من السكاكر ، فإما أن أتناولها قبل أن آوي إلى السرير أو احتفظ بها إلى صباح الغد .

وهناك أمور أخرى أدهشتني فأنا أرى الآن مثلا ، أن للفتيات مهجعاً خاصاً وللصبيان مهجعاً آخر ، بينما تعودت في القرية أن أرى الأسرة كلها تنام في غرفة واحدة ولو كانت هذه الأسرة مؤلفة من الأب والأم والاخوة والأخوات والجد والجدة . أما في المدرسة فالفتيات والصبيان لايتقابلون إلا خلال النهار في المطعم والمكتبة والممرات أو في قاعات أخرى لا أعرف وجه استعمالها . وإذا حلّ الليل كان كل فريق يأوي إلى مهجعه الخاص . وقد يحدث أحياناً أن يأتي أحد الصبيان مساء ليطلب شيئاً ، (إبرة أو خيطاً أو مقصاً) فلم يكن يسمح له بالدخول إلى المهجع فيبقى قرب الباب في الممشى منتظراً أن تلبّى حاجته . وما كنت لأفهم خوف الفتيات من دخول هذا الصبي إلى المهجع ، فخيل إلي أن صبيان هذه المدرسة أشرار مرفوضون من قبلنا .. ولكن سرعان مابرزت أمامي تناقضات جديدة .

كان ذلك شتاء خلال الحرب الأهلية وبعدها إذ ما كانت جميع

غرفُ المسكن تُدفّأ بل بعض قاعاته فحسب بمدافئ وأفران ذات صنعة يدوية شبه بدائية . كنت ألاحظ في المساء حينما ترفض المدافئ أن تشتعل ويعجز الفتيات حيالها ، أن الرجال أو الفتيان يأتون إلى المهجع ومعهم الخشب الجاف فيشعلون المدفأة فتدفأ القاعة ، إلى أن يحترق الحطب أو الفحم احتراقاً تاماً .

كانت الفتيات يجلسنني قرب المدفأة فأستطيع بذلك أن (أرى) كلَّ مَنْ هم بجانبي . كنت (أرى) رجلا يدخن ويرتدي عباءة وقلسوة من الفرو ، إلى جانب صِبْيةٍ يافعين . وقد عرفت فيما بعد أن هذا الرجل هو المسؤول عن إشعال المدافئ بصحبة أكبر الطلاب المناوبين سناً ، ولكني كنت في تلك الفترة أجهل تلك الأمور ولا أفهم لماذا يحق لبعض الفتيان واليافعين الدخول إلى مهجع البنات ، بينما يحرّم ذلك على سائر الصبيان ولو كانوا أصغر سناً .

من ترى يستطيع أن يشرح لي كل هذه الأمور غير المعقولة إلى جانب تلك التناقضات ؟ لاأحد . وهكذا كنت أتعذب لأني أريد أن أفهم كل مايدور حولي . وقد تعلقت مثل سائر زميلاتي بالرجل الذي يجلب الحطب ويشعل المدفأة ، وكان يلفني بعباءته عندما يراني أعاني من البرد . وقد علم حتماً بأني وصلت مع عمي إلى المدرسة وأنه غادرني هنا وحدي على الرغم مني ، ولهذا كان يحسن معاملتي فيعطيني الفطائر ولا ينسى أن يناديني لأجلس بالقرب من المدفأة الساخنة . وكنت أحب أن أراه غالباً في المهجع . ولكن ماكنت لأفهم لماذا يحرّم على بعض الصبيان الدخول إلى مهجعنا ، مع أنهم لطفاء لايؤذونني بل يشفقون علي عندما يزحمني أشرار الصبيان عفواً أو عن طيش ، أو حينما

يخطفون مني الدمى والسّلال والعقود التي تلقيتها هدايا من الفتيات وجهاز الادارة . وفي تلك الفترة ماكنت أدرك تماماً ماذا يعني (الجهاز الاداري) ، فقد فهمت أنه يتكون من (البالغين) الذين يسكنون في قاعات أخرى غير قاعاتنا .

وتلك واقعة أخرى طريفة أخطأت في فهم أحداثها : كانت المدرسة تستعد لحدث غير مألوف ، وقد أعادوا لي فستاني بعد طول غياب ، مما أفرحني فظننت أنهم قد يعودون بي إلى بيت عمي . وقد أهدتني طالبة كبيرة شريطة أربط بها شعري . . وكان الجميع فرحين لطفاء يتأنقون ويرتبون الغرف . . وكل شيء يجري على ما يرام . ولكنّ أمراً ما شغل بالي وأثار فضولي ، إذ ظننت أن الطلاب صغارهم وكبارهم كانوا يلعبون في القاعة الكبيرة ، ومن المفروض أنهم يقومون باعادة وتجريب مواد السهرة .

وأخيراً نادتني رفيقاتي إلى القاعة حيث يجتمع الجميع من طلاب وجهاز إداري . وقيل لي إن شجرة أعرفها منذ الطفولة تنتصب وسط القاعة ، وعليها دبابيس وإبر بدلا من الأوراق ؛ فلا بد أنها مزينة إذن بمختلف الألعاب من سلال وبيوت صغيرة وعقود و (كراكيب) أخرى لم يسبق لي أن رأيتها . ودهشت جداً إذ رأيت هذه الشجرة التي نمتْ بسرعة في القاعة وأثمرتْ ألعاباً وعقوداً . وكيف يمكن لهذا أن يحدث ؟ لم يخطر ببال أحد أن يشرح لي كيف أتوا بشجرة الصنوبر إلى القاعة ، فقد خيل إلي أنها نبتت على الأرض الخشبية .

وبعد ذلك أخذوا بيدي وتجمهر الجميع حول هذه الشجرة الغريبة ، وراح الأطفال يضربون الأرض بأقدامهم . . ثم تناهى إلى سمعي

شيء كالضوضاء وأصوات خافتة بعيدة مما أزعجني . ولم أكن أرغب في الدوران حول الشجرة والضرب بالقدم على الأرض دون أن أدري لماذا أفعل ذلك فشعرت بالضجر كذلك إذ لم أعرف تماماً ما أقوم به . وفي كل موقف كهذا كان مزاجي يسوء . واليوم يمكنني القول إنني عانيت آنذاك مشاعر مفتعلة غير مستحبة ، كما شعرت بالنفور من جمهور الأطفال والبالغين حينما لم يُتَح لي أن أفهم ماذا يفعلون ، وانتظرت جادة أن يتركوني وشأني أنعم بالهدوء دون أن أسهم في تلك الألعاب المملة وأنا لاأذكر أبداً انطباعاتي عن تلك السهرة فقد كانت أول مرة أحتفل فيها بالعام الجديد مع هذا الجمهور الحاشد من البالغين والأطفال . وأتذكر أن الطلاب الصغار والكبار قد تلقوا بعض الهدايا وقمت باطلاع رفيقاتي على الهدايا التي تلقيتها ، وهنّ فعلن ذلك بالمقابل وكانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها هذا العدد من الأطفال يتلقون الهدايا في الوقت نفسه مما سرني وأفهمني أن حدثاً سعيداً يحدث ، فقد كان الصغار على غاية من السرور والسعادة ، وكذلك الكبار وهم يوزعون الهدايا على الأطفال من عقود وشرائط وصابون معطر وأمشاط وفطائر وحلوى .

وقد خلّفتْ هذه السهرة الجديده بأن تذكر انطباعاتٍ لاتحصى لدي ؛ حتى اني لم أحاول فهمها والتفكير بها ، إذ تلقيت من أشخاص غرباء هدايا متنوعة ، وسألوني عن حالي في المدرسة وهل هي أفضل من حالي عند عمي .

وفي صباح الغد استيقظت بعد أن نمت جيداً ورحت أسترجع أحداث السهرة فأدركت لأول مرة أن حالي في المدرسة أحسن مما

كانت عند عمي إذ تجري ها هنا أمور شائقة وإن كانت غير مفهومة ، مما يسليني ويغنى حياتي بأحداث حديدة تتفتح بفصاها أفكاري ومشاعري الطفلية .

ومن المؤكد أني ماكنت أستطيع ، في تلك الفترة ، أن أحدد أو أعبر عمّا كنت أشعر به ، كما أستطيع ذلك الآن ، وكذلك كنت عاجزة عن رصد التطور الذي راح يفعل فعله في مداركي مع الزمن . ولكن مما لا شك فيه أني كنت أشعر بكل ذلك كما أصفه الآن . كنت أودّ لهذا الإشراق أن يستمر ولهذا التفتح الداخلي أن يزدهر ويغتني .. وكنت راغبةً غريزياً ، دون أن أدرك ما الذي يحدث ، بالتقدم إلى الأمام وكأني أتوقع حدوث ذلك (الانقلاب) الذي اجتاح فعلا فيما بعد كياني الحسمي والعقلي .

المعقول وغير المعقول
« تتمة »

قبل أن اتناول بالحديث ما سيكون انقلاباً حقيقياً في حياتي ، أود أن أستعرض بايجاز الأحداث التي وقعت خلال حياة أمي وبعد موتها ، وكيف شعرت بفقدانها .

وإذا كان رحيل عمي من مدرسة العميان قد خلّف في نفسي أعمق الأسى حينما غادرني وحيدةً تماماً في مدينة ليس لي فيها أي قريب . فمن السهل أن يتصور القارىء مدى إحساسي بالوحشة والذعر لدى فقدي لأمي . ولم يسبق لي منذ ولادتي أن ابتعدت عنها ولو أياماً معدودة ثم هاهي فجاءة تختفي إلى الأبد . . . كان الأمر رهيباً لطفل عاديّ فما بالك بطفل مثلي ؟

حينما ماتت أمي أدركت أن غيابها ليس مؤقتاً ، وقد تذكرت أن جدي الذي مرض طويلا ثم بقي على الطاولة بارداً جامداً بعض الوقت ، ، قد وضع في تابوت ودفن . ومن المؤكد أني ، كسائر أترابي من الأطفال ، كنت لاأحسن فهم ماتعنيه كلمة (الموت) ، ولا أدرك لماذا يجب أن يموت الناس إذا كان باستطاعتهم الاستمرار في العيش ؟ لكني كنت أعي أن كون المرء حياً يعني أن يتحرك ويضحك ويأكل ويلبس ويستدفيء بشمس الصيف ومدفأة الشتاء ، ويتنفس ، وهذا ولا شك أفضل من أن يدفن تحت التراب . ولذا كنت منذ طفولتي أخشى هذه الظاهرة غير المعقولة ، ظاهرة الموت .

كنت أعرف أن الأرض تصبح رطبة بفعل المطر وتقسو بفعل جليد الشتاء ، ولكن لأني أخشى الموت ماكنت أصدق أن الأموات يمكثون بلا حراك في قبورهم إلى الأبد ، فاعتقدت أن جدّي مازال مستمراً في العيش تحت الأرض ، وهو هناك يفعل شيئاً ما بلا شك ، كأن يتحرك ويستدفيء . أمّا أنه يأكل فأنا واثقة من ذلك إذ كنا جميعاً أنا وأمي والجيران نتوجه في الربيع إلى المقبرة ومعنا الرز بالحليب والزبيب والبيض وحلوى عيد الفصح . . فنصع كل ذلك على قبر جدي ونأكل شيئاً ونقدم ما يبقى للآخرين . كنت أعتقد أن جدي يشاركنا الطعام ولكن دون أن أراه . وهكذا نرجع إلى البيت والأواني والسلال فارغة ، ولما كنت أجهل أن أمي أقامت وليمة جنائزية على روح جدي وورعت الأطعمة على المارة اعتقدت أن جدي يأخذ الطعام إلى قبره دون أن يراه أحد . وعلى الرغم من تصوري لجدّي (حياً) في قبره كان الموت يخيفني .

وقد زعزعني مرض أمي وموتها ، لا لأني أصبحت وحيدة بعدها فحسب ، بل لأني كنت أشفق عليها من أن تمكث وحدها تحت الأرض الرطبة الباردة . أضف إلى ذلك أن الهلع أصابني لأن أمي ماتت خلال المجاعة التي اجتاحت أوكرانيا في نهاية الحرب الأهلية فلم أكن قادرة على أن أقدم لها شيئاً على قبرها إلى جانب كوني صغيرة لا أملك من أمري شيئاً . . وأنا عاجزة عن التوجه إلى مكانٍ بعيد والتعرف على قبر أمي دون مساعدة أحد .

ولم يتح لي الخروج من القرية طوال حياتي مع أسرتي . . وكنت أشعر بأني أكبر ، وبأن في مقدوري مساعدة زوجة عمي وخيل إليّ أنه إذا ما ساعدني أحدهم فقد أستطيع التوجه إلى قبر أمي في الربيع لأحمل لها بعض المؤن التي كنا نحملهامعاً إلى جدّيفي قبره.ولكن لسوء الحظ لم أتمكن من تنفيذ هذه الفكرة ، فقد ماتت أمي خلال المجاعة . وفي ربيع العام التالي كنت قد ابتعدت عن القرية وأقمت في مدرسة العميان . ومع ذلك كان خيال أمي لايبرح مخيلتي على الرغم مما ألقاه من لطف وحسن معاملة من حولي . كنت أفكر في أمي على صور مختلفة . كنت أحبها دائماً وأشفق عليها لأنها وحيدة في قبرها . ولعل مما يحزن أمي ويقلقها أني أعاني من الوحدة في غيابها . وهذا ما أبكاني مراراً على الرغم من إحساسي بأنْ لاداعي للبكاء ، لكني كنت أعتقد أن عليّ أن أبكي لتعلم أمي بذلك فلا تغضب علي لأني فرحة لايكدر صفو حياتي مكدّر . وقد تذكرت أمي كذلك عندما نقلوني من مدرسة العميان إلى مشفى خاركوف ، وهو مؤسسة للأطفال العمي الصم البكم . وقد أحاطوني فوراً بالعناية وغمروني بحسن المعاملة

كأني في حضن أمي . ومع هذا لم أنسها في هذا المشفى وجاء الربيع وتألمت كثيراً لبعدي عن قريتي وأنا لاأستطيع أن أقدم لها الطعام الذي يريد عن حاجتي فيمكنني أن أتقاسمه معها .

وكانت أمي قد علمتني أن لاأوثر نفسي بما أملكه ، وكانت مع جدي تقاسمني كل شيء . فيقدّمان لي الحلوى بعد العودة من السفر.

وكنت لكي أحذو حذوها ، أجلب إلى البيت كل ماتيسر لي جلبه مالئة به حيوبي أو منديلي لأتقاسمه معها ، وتعودت على ذلك حتى أصبح هذا المسلك جزءاً من حياتي ، وأنا لاأصدق أنه يمكن التصرف على نحو مغاير .

وما زلت أذكر هذه القصة : توجهت خلال المجاعة ذات يوم مهتدية بعصاي إلى صديقة تبصر وتسمع . كانت تسكن في بيت محاور حيث أستطيع الذهاب إليه وحدي مسترشدة باتباع الحاجز وتلمسه بالعصا . لم أجد صديقتي في بيتها وأجلستني أمها إلى المائدة وقدمت لى صحناً من الحساء وقطعة من الخبز . تناولت الحساء دون الخبز ، وكنت أعلم أننا لانملك الخبز في هذا اليوم ولا الفطائر التي كانت أمي تحضرّها بنوع من الحبوب لا أدري ماهو . كان بودي أن أتناول الحساء مع الخبز ، لكني لم أفعل إذ كنت مؤمنة بأنه لاحقّ لي في تناول ذلك الطعام دون أمي . ولو أن جارتنا سمحت لي بحمل الحساء إلى البيت لما ترددت في هذا ولكن نظراً لعجزي عن حمل الحساء في الصحن فقد قررت أن أحتفظ لها بالخبز على الأقل .

وحينما رأت الجارة أني لم ألمس الخبز اقتربت مني مرات عديدة

لتوعز إلي بوجوب تناوله ، ولكنها ولاسك ، فهمت ماكنت أنويه فأفهمتني أنها ستعطيني رغيفاً أحمله معي إلى البيت فصدقتها وأكلت كل الوجبة ثم حملت الرغيف إلى أمي وأنا سعيدة لمشاطرتها لي في شيء من الطعام

ومن الطبيعي أن أفكر بأمي وأنا في المشفى حيث يتوفر الغذاء . وقد مرّ بعض الوقت قبل أن آلف فكرة موتها فصار في مقدوري أن أتناول كل مايقدم لى من طعام . لكن دلك لم يفرحنى فقد كنت أفضل أن أتقاسم مع أمي وجباتي ولا سيما الشهية منها .

سبق أن ذكرت أن الاداريين في المشفى كانوا يعاملونني بالحسنى وليس هناك إذن مايحزنني . وهنا أود أن أشرح كيف نظرت إلى مسلكهم تجاهي ورد فعلي على ذلك .

كنت أقدّر كثيراً تلك الظروف الحياتية الجديدة في المشفى . وما كنت أخشى ألا ان أضطر للانتقال إلى مكان آخر لاتتوفر فيه تلك الظروف ولا يسعني إلا أن أعترف بالحنان ودفء الرعاية التي أحاطوني بها فغمرتني على الدوام لماذا أتوا بي إلى هذا المكان ؟ ولأية غاية ؟ هذا مالم أفهمه أبداً .

ولم أفهم كذلك لماذا كنا نحن ، معشر الأطفال ، قليلي العدد ومع ذلك نشغل كثيرا من الغرف ، وهذا والحق يقال ، شيء رائع : فالجو فسيح ، ولا يصطدم الواحد منا بالآخر كما لو كنا في غرف ضيقة . وكان كل طالب له زاويته وألعابه ومنضدته وكرسيه ، وهكذا بامكانه أن يلعب أو يخلد للراحه . وقد أدهشني هذا الوضع ، فالأطفال

المصرون الذين كنت ألعب معهم سابقاً لم يكن متوفراً لهم مايتوفر لى الآن . وقد أرغب أحياناً بأن (أتشيطن) فأخلط الألعاب وأعير ترتيب الكراسي والمناضد فأكسر حدة (النظام الصارم) ولاسيما حين أكون غاضبة على بعض العاملين في المشفى أو بعض الأطفال . ولم يكن تعاملي مع الآخرين على نمط واحد ، فاذا غضبت على أحد الأطفال لا أبعثر له ألعابه . أما إذا غضبت على أحد المربين فأعصي أوامره وتجتاحني الرغبة في تحريض الأطفال على القيام بالأعمال المحرمة .

وما أزال أذكر بعض الأمور التي حيرتني في بداية إقامتي بالمشفى . لم أكن أفهم لماذا يلبس المربون بعد وصولهم إلى المشفى ثيا باً متشابهة تزرّر من الأمام أو الخلف ، وإذا اصطحبوا الأطفال إلى المخبر ألبسوهم ثياباً مماثلة . وكان عليّ أن ألبس مثل تلك الثياب حينما أحضرّ المائدة أو أنظفها أو أغسل الأواني وكذلك حينما أكون مناوبة في المهجع فأسهر على ترتيب شؤونه كمسح الغبار عن الأثاث وأطراف النوافذ . والحق يقال إنه لاغبار في المهجع فمناوبات الخدمة كن ينظفن الغرف بعناية ، لكنهم كانوا يعودوننا على ترتيب الغرف حسب إمكانياتنا ؛ ولذا لم أفهم (تلك اللعبة) . وكنت أظن على مدى فترة طويلة أني أكلّف بالتنظيف لأرتدي ذاك الثوب الاضافي فحسب .

وطالما كنت أجهل أنهم يريدون تعويدي على الخدمة الذاتية فقد كنت أثور غالباً وأرفض ارتداء ذاك الثوب الذي لم يكن سوى رداء للخدمة . وطالما أنه لاغبار هناك فلن تنسخ ثيابي . وكنت أتناول بعض الأحيان خرقة لأمسح بها دون أن ألبس ثوب الخدمة ، لكن المربية المناوبة تذكرني بلزوم ارتدائه وحينذاك أثور وأرفض بتاتاً مسح الغبار .

صعدت ذات يوم على طرف نافذة المطعم لأتعرف مدى ارتفاعها ، وحينما لمست رجاجها وجدته مغبراً فسرّني ذلك لأني في صباح الغد سأكون مسؤولة عن خدمة المطعم . وانتظرت بفارغ الصبر صباح الغد لأُرِيَ الجميعَ اكتشافي للغبار وأني سأمسح الزجاج بكل عناية . وارتديت رداء الخدمة هذه المرة عن طيب خاطر وحزمت شعري بمنديل وتناولت خرقة وتوجهت فرحة نحو النافذة .

تسلقت طرف النافذة ورحت أمسح الرجاج بنشاط وسرور لأني (أعمل) الآن ولا (ألعب) . اقتربت مني المربية المناوبة وألحت علي أن أنزل قائلة : انه لاداعي لمتابعة عملي . ولم أكن أرغب في ترك العمل فأفهمتها أن الزجاج مازال متسخاً ، ولكنها لم تسمح لي بالمتابعة وأرسلتني لأغتسل . . . وفيما بعد استطعت أن أقرأ في السجلات التي يدون فيها المربون ملاحظاتهم ، أني لم أمسح الغبار بل الكلس الذي كان يغطي جزءاً من الزجاج . . . ولم تكن المربية قد أفهمتني أن الزجاج مطلي بالكلس ، وهذا ما سبّبَ الخلافَ بيني وبينها .

ومما راد في حِدَّةِ خلافي مع المربية عدم حبي لها ، وقد تولد نفوري منها منذ بداية معرفتي بها : فحركاتها عنيفة ، وكانت تعامل الأطفال بقسوة فترفض أي تجاوزٍ بسيط ولا ترضى بأيةِ بادرة تدل على المداهنة والاستقلال . وعندما كنت أجول في القاعات لأعاين الأثاث وسائر الأمتعة ، تلحق بي في كل مكان وتمنعني من المعاينة الدقيقة لكل مايهمني أمره . ولما لاحظت سلوكها ذاك ناصبتُها العداء ، وكان ينتابني الهم حينما يجيء دورها في المناوبة . كنت أحسبها

مرة لاتحب الأطفال . . وقد استمر عدائي لها مدة طويلة فلم أحاول اكتشاف حنانها الكامن وحبها للأطفال .

ولم يقدّر لي أن أكتشفها على حقيقتها إلا بعد سنوات . وفي الحق أنها كانت تحب الأطفال وتهتم بهم باخلاص ، لكنها ذات مزاج حاد وتؤمن بأن الصرامة هي الطريقة الوحيدة لحفظ النظام وتأمين الانضباط . وعلى كل حال كانت مخطئة فأنا وسائر الطلاب كنا نؤثر ونطيع عن طيب خاطر المربين الأكثر لطفاً والذين يسمحون لنا بأن (نتشيطن) قليلا وأن نلعب على هوانا معبرين عن ذواتنا ومبادراتنا الشخصية . أضف إلى ذلك أني كنت طالبة ضعيفة الاهتمام والنشاط ، فأنا أستوعب كل شيء بسرعة ولذا يضجرني تكرار الموضوع مرات عديدة . كنت أعشق الاستقلال فأقوم بكل مايمكن فعله في المشفى وحدي .

وقد عانيت أحياناً لحظات صعبة إذ لم أكن أفهم كل مايجري ويتم في مجال تربية العميان الصم البكم . ويصادف مثلا أن يُكرهني المربون على أن ألزم سريري مع أني لا أعاني أي مرض . . . بينما تنعكس الآية حيناً آخر فأشعر بألم في رأسي أو حلقي فأود الاستلقاء في سريري . . لكنهم كانوا يشيرون إليّ بأن أنهض للعمل لأن صحتي جيدة . وقد عرفت فيما بعد أن المربين كانوا يحكمون على صحتي أو مرضي بالنظر إلى وجهي : فاذا كنت شاحبة اللون أو أبدوا متعبة ظنوا أني مريضة وأني لاأريد الاعتراف بذلك . أما إذا كان منظري حسناً ومع ذلك أشكو علة ما . ظنوا أني أتمارض كي أهرب من العمل . . وقد حز في نفسي سوء التفاهم هذا ، فما كنت أدري أن المربين يحكمون

على حالتي الصحية من مطهري – النيريولوجي ودرجة حرارتي التي تقاس مرتين في اليوم . وهذا الجهل مضافاً إليه تلك اللامعقولية التي عانيت من وطأتها تسببا في مجموعة من الحوادث تتباين في أهميتها .

وقد لازمني الشعور بالهوان عده أشهر بسبب الواقعة التالية : كان الاساتذه بعد الدروس يجتمعون حول طاولة في إحدى القاعات ، وأمام كل منهم دفتر كبير مجلد وفي يد كل أستاد قلم . كانوا يتحاورون قليلا ثم يكتبون شيئاً ما على دفاترهم . وفي بعض ساعات الفراغ كنت أقترب من كل أستاد لأعاين الدفاتر والاقلام ثم أضع يدي على حناجرهم لأتحسس رنين أصواتهم . لكنّ ماكانوا يفعلونه بقي لغزاً محيّراً .

في بداية الأمر احتفظت بهدوئي إذ خيل إلي أن مايقومون به ليس سوى لعبة يلعبها الكبار . . لكن عندما تكرر ذلك يومياً ولم أجد له تفسيراً ثار غيظي

وفي بعض الأحيان لاأحس بأي تعب من جراء الدروس ، كتعلم ترتيب الغرفة وغسل الأواني وشغل الصوف والخياطة . كنت أود أن يستمر الدرس ولكن الاستاذ كان يتوقف ويتناول دفتراً كبيراً ليدون ملاحظاته عليه . وكانت الثورة تضطرم في أعماقي من موقف ذلك الأستاذ الذي كان يجلس ليمارس أعمالا أو ألعاباً لاأفهمها ولاأرى جدوى لها . بينما أنا أمارس عملي بحماسة ولا رغبة عندي في تعطيل الدرس من قبل الأستاذ الذي يتركني عاطلة ، وما كنت لأفهم لماذا لايكلفونني بوظيفة أو عمل يدوي طوال النهار ، فأنا أحب المزيد من

العمل والأشغال ، ولم أكن أدرك أن الإرهاق المتوالي ينهك الجهاز العصبي الذي يكون عالي التوتر عند العميان الصم البكم معرّضاً للإعياء على نحو أسرع وأشد .

وهكذا ، ونظراً لأني لم فهم أنّ الأساتذة كانوايسجلوندائماًفي دفاتر المخبر ملاحظاتهم عن الدروس فقد ظننت ببساطة أنهم لايرغبون في العمل معي ، وأنهم هرباً من مسؤولياتهم يقومون بأعمال تبدو لي غير مجدية ولا معنى لها . وكنت مقتنعة بهذا التفسير حتّى إني رغبت في اختطاف أقلامهم وتمزيق دفاترهم حتّى يدركوا أخيراً أنه لابد من الاهتمام بي والالتفات إليّ

ساعة الجدار

لغة الأصابع لدى الصم البكم

أدوات الكتابة

النحت

لن أقف عند الوقائع العادية اليوميه المألوفة التي لم أفهمها على وجهها الصحيح ، أذكر منها مايخص الملابس وأواني المطبخ وتدبير المنزل . . . وأفضل أن أتناول أموراً أكثر أهمية عندي في تلك الفترة .

أتذكر ذلك الوقت الذي رأيت فيه أول مرة ساعة جدارية ، وقد لايصدق أحد أني لم أر قبل دخولي إلى المستشفى ساعة جدار ؛ ولكن تلك هي الحقيقة .

وقد سبق لي أن رأيت عند أصدقائي ساعات يدوية ، وكان لدى

أبي ساعة جيب . أما ساعة الجدار فلم أرها أبداً مكشوفة بأرقامها النافرة التي لم أكن أجيد قراءتها بعد .

أذكر جيداً أني حيثما كنت أمسح طرف (البوفيه) مرت يدي على جهته اليمنى فلامست فجأة شيئاً معلقاً على الجدار . ظننت أنه صندوق خشبي مغلق من جميع جوانبه . عاينت ذلك الصندوق الصغير واكتشفت فيه تنقيطاً ورسوماً معدنية نافرة مختلفة الأشكال وقضيبين معدنيين لايلتصقان بسطح الصندوق يمشيان ببطء . وقد استغرق ذلك الصندوق العجيب اهتمامي فنسيت تماماً أني مناوبة في هذا اليوم وأن علي أن أمسح الغبار دون تضييع للوقت . كنت مستغرقة في معاينة القضيبين الصغيرين المتحركين حينما لامسني أحدهم . سحبت يدي فوراً . . فاذا رحل إلى جانبي (وقد عرفت فيما بعد أنه الأستاذ سوكوليانسكي) ، أمسك بيدي وأسندها إلى الصندوق وقام ببعض الحركات الناهية التي فهمت منها أنه لايجوز لمس ذلك الجهاز باليد . وفي الحق أن الأستاذ كان يعني أن ينبهني إلى وجوب استعمال الحذر لدى لمس الساعة والعقارب

وراح يحرك أصابعه كي أقلده فحركت أصابعي على نحو خاطىء .
ثم بدأ يمر بيده بل يقود يدي ليدلني على رسوم الجهاز وخطوطه .

وعلى كل حال لم أفهم في أول درس لي مع الأستاذ ، ماالذي أراد أن يشرح لي إذ كنت ضعيفة الثقة بنفسي ، وقد لاحظ ذلك أستاذي ولا شك ، فتركني وشأني ، وقد أنهيت مع ذلك عملي وعدت إلى المهجع لأستسلم لأفكار سوداء ، فقد خيل إلي أن أستاذي عاملني بخشونة .

ولم يكن ذلك نهاية متاعبي ، فالأستاذ كان قد أطلعني على الساعة وشرح لي مدلول الأرقام النافرة ذات القوام المسطح ، دون أن أستوعب شيئاً من ذلك . وبدا لى أن الأستاذ يكيد لي ويمنعني من معاينة ذلك الجهاز الذي أثار فصولي . وكان قد علمني أن (ألفظ) أي أخط بأصابعي كلمة (ساعة جدارية) ، كما نبهني إلى عدم تحريك العقارب . ولكن حينما حرك أصابعه ظننت أنه يلعب لعبة ما لم تعجبني ، ومع هذا أكرهني الأستاذ على تكرارها .

بعد هذه الواقعة انتابني الخجل بل الخوف من أن أقابل الأستاذ سوكوليانسكي الذي كنت أتعرف عليه من رائحة عطره ورحت أتجنب المرور أمام الجدار الذي علقت عليه الساعة ، وكأنها قادرة على أن تقفز من مكانها لتطعنني بعقاربها لأني أخطأت في معاينتها . ولكن الأستاذ لم يتركني أنعم بالهدوء فكان منذ ذلك الحين يقترب مني كل صباح ليقودني إلى الساعة ويدلني بالحاح على عماربها وأرقامها وهو يلعب بأصابعه .

ويمشي الزمن لأتعود يوماً فيوماً على أستاذي فما عدت أخاف منه ، إذ لم ألق منه مايسوء ، بل كان على الضد من ذلك ، يداعب يدي ليشجعني خلال تعليمي التدريجي لأبجدية لغة الصم البكم . فأصبحت أجيد (لفظ) (الساعة الحدارية) بشكل صحيح . ثم تعلمت الأرقام بعد ذلك .

وبعد أن استوعبت كل هذا أطلعني على ساعته ثم على الساعة الجدارية وفهمت أن ساعة الجيب وساعة اليد وساعة الحائط تستعمل كلها لغرض واحد . وانتهيت أخيراً إلى تعرف الوقت بسهولة عن طريق تلمس الأرقام ، ثم علمني أساتذتي فيما بعد كيف أوجه عقارب

الساعة حسب وقت الفطور والغداء والشاي والعشاء وحينما أكون مناوبة في المطعم انظر غالباً إلى الساعة لأعرف موعد تحضير المائدة . وأنا أقوم بذلك وحدي دون انتظار أوامر المربية .

وهكذا سردت باختصار حكاية الدروس الأولى التي تلقيت فيها مبادىء الساعة ومعرفة الوقت . وقد أدركت كذلك أهمية (الأبجدية النافره) ، تلك الوسيلة الرائعة التى تتيح للعميان الصم البكم أن يتصلوا بالعالم الخارجي .

ولم يكن ذلك بالأمر السهل فقد عانيت ماعانيت في فهم (لغة الأصابع) وفي تعليل اختلاف كل حرف نافر عن الآخر أما لماذا يجب أن نحرك الأصابع مرة واليد كلها مرة أخرى فهذا ألم استوعبه أول وهلة . وأتذكر أنه حينما كان كان لابد أن أحرك أصابعي ويدى في الوقت نفسه لتشكيل بعض الحروف ، كنت أرفض إذ لاأرى ضرورة لذلك . وهكذا لم يتح لى أن أفهم ضرورة القيام بكل الحركات المناسبة للأحرف إلا بعد أن أدركت أهمية (أبجدية الأصابع) وتعلمت حروفها .

وهنا لابد من أن أشير إلى بعض أدوات الكتابه التي يستعملها العميان كأقلام (الأردواز) وجهاز بريل والآلة الكاتبه .

وعندما كنت ما أزال طالبة في مدرسة العميان في (أوديسا) شاهدت جهازاً من طراز قديم ماعاد يستعمل من زمان طويل ، وهو صفيحة معدنية ذات خطوط أفقية وإطار خشبي ومسطرة يُمكن أن يخط بها سطران معاً

وفي مشفى خاركوف أطلعت على أجهزة تختلف تماماً ، فهي بدون إطار ومسطرة ، وقد ثبت عوضاً عنهما في الجزء السفلي غطاء ذو مربعات صغيرة . وهذه الأجهزة كانت تذكرني بكتاب سحري غامض فظننت أنها غلاف كتاب ، فتساءلت عن سبب كونه من المعدن ، وما عسى يكون هذا الكتاب وقد عرفت الجواب حينما علموني أنه يجب وضع الورق في الجهاز ثم اغلاق الغطاء واحداث نقاط مثقبة داخل المربعات الصغيرة كما كان يفعل العميان على الأجهزة القديمة .

لكن الآلة الكاتبة النافرة شدتني إليها على نحو لايوصف ، فحينما اكتشفت أصابعها ظننت بادىء الأمر أن تلك الآلة ستصدر أصواتاً كأصوات البيانو الذي سبق لي أن رأيته في مدرسة العميان . ضغطت بلطف على أحد ملامس الآلة فلم أشعر بأي رنين بل بصوت ضعيف سرعان ماخفت . وقد شرحوا لي كيف أضغط على الملامس لتظهر نقاط بارزة على الورقة وكم من الوقت أمضيته لأتدرب على تلك الآلة . رتتبعت باهتمام تشكيلات النقاط البارزة التي كنت أنفذها بالضغط على الملامس ؛ ومنذ ذلك الحين أصبحت أستعمل دائماً الآلة الكاتبة دون الجهاز اليدوي . وكان في المشفى أشياء كثيرة لم أرها من قبل ، وهي في المخبر ولا أجرؤ على الدخول إليه إلا بصحبة الاساتذة . وكنت أعلم أن الدخول إلى القاعات محرم علي حتى لا أتسبب في كسر أو إسقاط الأمتعة . ومن جهة أخرى كنت أحب معاينة ردهات الدرج حيث توضع أصص المزروعات والتماثيل التي تهمني أكثر من غيرها . ولم أكن رأيت قبل دخولي إلى المشفى تماثيل صغيرة أو كبيرة بل إني لم أعرف بعد بوجود مايسمى بالتماثيل . وكنت شاهدت في

القرية الطين الفخاري وحاولت أن أصنع منه بعض الأشكال على سبيل اللعب كالكرات والخبز الصغير وكل ماتخبزه أمي في الفرن ، وفيما بعد حاولت تشكيل نماذج للبط والدجاج والبقر والخيول ووصعت لها عصياً صغيرة على أنها قوائم . وقد أتقنت صنع الأواني الفخارية ولكن لابد من أشخاص يستعملونها فصنعت لها تماثيل بشرية صغيرة لاأدري إن كانت تشبه البشر حقاً ولعلها أقرب إلى الدمى الشبيهة بالأصنام البدائية الفجة الصنع والتي شاهدتها فيما بعد في قاعة الفنون الشعبية القديمة للمتحف التاريخي . وتختلف هذه الدمى التي شكلتها عن دمى المتحف بأنها مشوهة . فاذا كانت أجسامها من الفخار فأيديها وأرجلها من عيدان الخشب

وهكذا كنت مبتدئة في عالم الفن ، وقد أدركت ذلك عندما شاهدت لأول مرة تمثالا حقيقياً . وكانت تلك المنحوتات الرخامية والبرونزية على درجة من الروعة تجعلها جديرة بأن تعرض في أكبر المتاحف

وقد سبق أن وصفت منحوتات المعهد ، ولذا لن أعود إلى تفصيل الحديث عنها ، وإنما أريد أن أذكر انطباعاتي عن كل تمثال . ولقد دهشت حينما شاهدتها أول مرة وتساءلت قائلة . لماذا نحتت تلك الكائنات الجامدة من مادة باردة إذ لم أكن على درجة من الوعي أستوعب معها مفهوم الفن وضرورته . ونظراً لاهتمامي بتلك التماثيل كنت أتوجه غالباً إلى ردهات الدرج لأعاينها عن كثب . وقد شعرت بالشفقة نحو تمثال الصبي الذي ينزع شوكة من قدمه ، وراقني جماله الذي لاأستطيع التعبير عنه بالألفاظ ، ولكنني أتحسسه بأصابعي وكنت

أنسى أنه تمثال حيىما أتلمسه ، فأداعب وجهه ورأسه بعطف وحنان وكأنه طفل حقيقي يتألم حقاً .

وكذلك كنت أشفق على تمثال (فينوس ميلو) المقطوع الذراع وأراه جميلا حزيناً ، ولقد أحببته على نحو مغاير . وحينما كنت أتحسس بأصابعي ملامح وجهه الجميل الرصين ، لاأجرؤ على مداعبته . وكنت أعتقد أنه لايجوز لي وأنا في حضرته إلا أن ألتزم الوقار والصمت ، بالاضافة إلى عدم البوح بالحب والشفقة التي توحي بها تلك المرأة الرخامية المبتورة الذراع ، وذلك حتى لاأثير غضبها . كنت أغادر ذلك التمثال متنهدة لا أعاني من الشفقة بل من حزن غامض مطعم بالدهشة .

وعاينت أكثر من مرة تمثال (فينوس مديتشي) . ولو أتيح لى آنذاك أن أعبر عن مشاعرى نحوه لقلت : « على الرغم من صغر سني فان ابتسامته تطير بي وتملؤني غبطة وحماسة » . وكنت أضع كرسياً في بعض الأحيان إلى جانب القاعدة التي تحمل آلهة الحب والجمال فينوس الرائعة المغناج ؛ وكم صعدت على الكرسي محاولة تقليد ابتسامتها ووقفتها ولست أدرى إن كان أساتذتي قد رأوني في تلك الحالة ، ولقد ضبطني أحد تلاميذ الحلقة العليا وأنا أفعل ذلك . وكنت في هذه المرحلة أجيد الكلام بالأصابع وأعرف اسم كل تمثال . كان هذا الفتى يعاين كذلك التماثيل وحده أو بصحبتي ولا أعرف انطباعاته عنها ، وحينما (شاهدني) إلى جانب تمثال فينوس راح يتفحصنا كلا منا بدوره وبدت عليه الدهشة مع أنه تعرف علي وناداني باسمي وهو يشير إلي باصبعه أشرت إليه بيدي أن لست (أولغا) وإنما

تلك التي بجانبي أجابني قائلا : هذه فينوس ! حينذاك أشرت إلى نفسي باصبعي فكرر اسمي قائلا : أولغا .

وما كنت أعلم أن هذا الفتى لن يفهم دعابتي ، فقد أشرت إلى فينوس على أنها (أولغا) ثم انتحلت شخصية (فينوس) فكرر الفتى كلامي مصدقاً . وقد أدهشني بل أخافني أنه توهم فخلط بيننا . . . وحاولت أن أشرح له بحركة مني أنها مجرد مزحة ، ولكنه استمر على وهمه وضلاله . وقد خيل إلي أنه سر كثيراً إذ صافحني بحرارة وودعني مع أننا نتقابل مراراً خلال النهار . وقد نجحت في خداعه بأني (فينوس) مرات عديدة .

ومع الزمن آلفت هذا الاسم الجديد فقلت مازحة لأحد الأساتذة بأن اسمي (فينوس) وقد فهمت فيما بعد أن هذا الفتى لم يدرك مزاحي ، وظن الأساتذة أني أدّعي ذلك على سبيل الجد . وأسفوا حينذاك على أنهم لايستطيعون أن يشرحوا لي ماهو (التمثال) ولا مَنْ هي (فينوس) .

وإلى جانب تمثال (هرمس) الوقور الرزين كنت أحاول الإخلاد إلى الصمت والتأمل . وما كنت أتساءل ؛ فيم يفكر ؟ وكان يزعجني أن أبقى صامتة متأملة بالقرب منه . ولو كنت ألمّ في ذلك الحين بشيء عن الأساطير لما لبثت إلى جانب (هرمس) ساكنة مفكرة بل لما تورعت عن القيام ببعض الحيل الشيطانية .

ولم يكن النحت يستهويني في بداية حياتي في المشفى فحسب ، إذ كنت حقاً لاأمل من تأمل روائع التماثيل ، بل إنني عندما أصبحت

قادرة على استيعاب الكتب الصعبة ، قرؤوا لي في (تاريخ الفنون) أوصافاً لتماثيل يمكن لي أن أرى نماذجها في المعهد . ولدى مقارنتي بين ما رأيته وما قرأته عن تلك المنحوتات توضحت لي أمور كثيرة .

ولابد أن يكون الأستاذ (سوكوليانسكي) وسائر المربين قد لاحظوا أني لاأكتفي بتمييز تمثال من آخر بل أعرف مايرمز إليه كل تمثال وما عيوبه وأوصافه . وراحوا يصحبونني إلى المتاحف والمعارض . وحينما أقيم في خاركوف معرض لتماثيل (شفتشنكو) رافقني الأستاذ سوكوليانسكي نفسه حيث شاهدت هناك أول مرة الشاعر الأوكراني الكبير في أوضاع مختلفة كما شاهدت كذلك تماثيل تجسد أبطال قصائده . وقد سألني منظمو المعرض عن التمثال الذي أعجبني أكثر من غيره فأبديت رأيي ، فكان ذوقي مطابقاً لذوقهم .

وهكذا إذن تعلمت أن أفهم النحت قبل أن أشرع في دراسة تاريخ الفن .

* * *

كيف نظرت الى العمل اليدوي

ذكرت فيما سبق أني أحببت دائماً إنجاز أعمال مفيدة تناسب طاقاتي . وكنت أنجز العمل بسرور ولو كان تافهاً وأشعر بالغبطة لدى انجازه على أكمل وجه

كانت ظروفي المعاشية في المشفى ممتازة ولكن كان يزعجني إلى حد ما عدم قيامي بأعمال ذات جدوى وعدم تقديم الخدمات للآخرين . كنت أعرف أن مناوبات الخادمة يرتب لنا الغرف ، والطباخة تحضر الطعام والخياطة تصنع الملابس ، والمربين والأساتذة يشرفون على تعليمنا . . . . أما أنا فما الذي أعمله ؟ لاشيء سوى الأكل والنوم والدراسة والتنزه واللعب . صحيح أني أحياناً أغسل أواني المطبخ وأمسح الغبار عن الأثاث وأرتب سريري . . . لكن كل ذلك ماكان يرضيني فلا جهد يذكر في إنجاز تلك الأعمال ، وكم مرة غضبت وثرت لأني لاأقوم بعمل يطلب المزيد من الجهد . لكن المعهد ليس فيه مثل ذلك العمل ، ولذا سُمح لي بالذهاب إلى ورشات العمل الملحقة بالمدرسة .

ذات صباح بعد الفطور ارتديت بفرح وسرعة القميص الخاص بالعمل وتوجهت برفقة إحدى المربيات إلى المشغل حيث تصنع

(الفراشي (١)) . وما أظن أحداً في المدرسة كان يضاهيني سعادة في هذا الصباح ، فقد رحت أخطر فرِحةً في الممشى وأتصور أن أمراً خارقاً سيحدث ، وأن باستطاعتي منذ الآن أن أعمل ليلا ونهاراً بلا تعب .

وفهمت منذ الدروس الأولى كيف تصنع فرشاة الأحذية ، لكني لم أنتبه إلى تلك الحقيقة البسيطة وهي أن الفهم النظري شيء والتطبيق شيء آخر . وطبيعي أن صنع الفرشاة ليست ذلك العمل الصعب ، ولكن المشكلة في أني كنت أريد أن أظهر للملأ استيعابي لهذا العمل وحماسي في تنفيذه وما كنت لأطمح إلى أن أكون من المبرزات في هذا المجال ، بل كل ما هنالك أني رغبت في القيام بعملي على الوجه الأكمل ، فأرضيت نزعتي الطبيعية إلى حب إتقان العمل كالآخرين . ومع هذا فان جهودي لمجاراة الآخرين في سرعة الإنجاز ، وأنا لم أتقن سر المهنة بعد ، قد تركت آثارها السيئة على نوعية إنتاجي منذ اليوم الأول.

وأنا أملك يدين قويتين ؛ وحينما كنت أدخل الشعر في الثقوب وأثبته بسلك معدني يخرج أحياناً من الطرف الآخر للفرشاة ، فأضطر لإعادة الكرة ثانية ، وفي الغالب أشد بقوة على السلك المعدني فينقطع فأضطر إلى عقده . وبكلمة موجزة ، لقد خاب أملي في هذا العمل الذي كان يضعف الحساسية في أطراف أصابعي ، وخدشت أصابعي من جراء معاودة ربط السلك المعدني كلما انقطع . ورفضت أخيراً العمل في هذا المشغل فنقلت إلى مشغل الخياطة حيث لا خطر على يدي من العمل فيه .

وقد سمحوا لي في أول الأمر أن أعاين بيدي ما يصنعه صغار العميان .

---

(١) جمع فرشاة .

ومن المؤسف أنهم لم يكونوا يعلمونهم في تلك الفترة أعمالاً ذات قيمة كالخياطة وحياكة الصوف وأشغال الصنارة ونسج المناديل والجوارب آلياً وصنع السلال والأراجيح .

وقد رغبت قبل كل شيء في تعلم حياكة الجوارب واستعمال آلة الخياطة . وكنت تعلمت سابقاً الخياطة باليد منذ أن دربتني أمي على صنع ثياب الدمى ، كما تعلمت في المدرسة استخدام الصنارة وشغل الصوف . وهكذا فهمت بسرعة ما الذي يجب عمله . ولكنني ما كنت أملك الصبر على انجاز هذا العمل الآلي إذ لا بد من اليقظة التامة كي لا اتسبب بأي خلل في النسيج . وتعلمت كذلك حياكة السلال والأراجيح ، والظاهر أني نجحت في ذلك وبرعت ، إذ وجد الاساتذه والمربون سلالي جميلة جداً حتى أصبحت اتلقى طلبات لصنع نماذج خاصة منها . وكان عملي هذا مأجوراً ، ولذا راح الاساتذة يرافقونني إلى السوق لأشتري ما يلزمني . وقد سرني ذلك كثيراً وشجعني إلى أبعد الحدود .

لكن شغفي بتلك الأعمال لم يدم طويلا ، فقد صرت أعاني الصداع أو المرض أحياناً حينما أحيك الصوف ساعات متوالية وكنت استغرب الأمر لأنني لم أدرك أن رتابة العمل هي التي تتعبني ، فقد كنت استغرق تماماً في عملي ولا تشغلني عنه الاحساسات البصرية أو السمعية التي لا أملكها . ورحت مع الزمن أهمل الخياطة لأهتم بشواغل أقل إرهاقاً .

صرت أستمتع مثلاً بصنع الدمى بالمعجون المطاوع . وشعرت بأن ذلك لا يرهقني ، ولا عجب ، فهذا العمل ذو جانب إبداعي . ولا بد لي قبل تشكيل نموذجٍ مامن أن أتذكر كل جزئيات النموذج الأصلي ، فعندما

أريد صنع (غلاية) أو وعاء للفواكه ، يجب على أن أعاين نماذجها ثم أتصورها فيما بعد وكأنها بين يدي .

كان كل ذلك ممتعاً متوقاً لي ولم يتعبني أبداً ، فافكاري تعمل وصور الأشياء المختلفة تتوارد على ذهني . انها بداية التحليل والتركيب في عملية إبداعية اصيلة عظيمة ، قوامها فكر يتصور وبراعة لمسية تنفذ .

أضف إلى ذلك أني كنت أجد متعة في الغسيل والقيام باعمال المنزل وتحضير الطعام ، وهي أعمال أقل تعباً من الخياطة أو نسج الصوف . وفيما بعد ، حينما بدأت أكتب وأقرأ وأتحدث وأزداد ثقافة اقتنعت تماماً بان الخياطة لا تناسبني ، فخلال قيامي بالخياطة كانت ذاكرتي تضعف وأحس بحكة خفيفة في بشرة وجهي ورأسي ثم ينتابني ضعف شديد وترتخي يداي تعباً ، بينما لا أحس بالارهاق مع الأعمال الفكرية ، بل تصبح أفكاري على درجة من الوضوح حتى يخيل الى أني أكاد المسها ، ويشتد صفاء ذاكرتي ويغمرني المرح وأشعر برغبة عارمة في تعلم اشياء جديدة .

وهكذا أدركت نوع العمل الذي يناسبني وأستطيع انجازه ، فرحت دائبة أحاول إرواء حاجاتي العقلية دون أن أكتفي بما حصلته .

القراءة

كيف كنت أفهم ما أقرأ

يومياتي

إذا كان من السهل علي الآن أن أروي ما سأرويه ، فلقد كان ذلك صعباً في فترة حياتي بالمعهد كانت السنوات تمر لتشهد تقدماً كبيراً ، وها أنذا أدرس منهاج المعاهد الاختصاصية وأقرأ المؤلفات

الأدبية التي أستعيرها من المكتبة في مدرسة العميان . كنت أفضل من بين المواد المدرسية ، الجغرافية والتاريخ والعلوم الطبيعية وعلم الحيوان والنبات . كنت أطالع بشغف المختارات الأدبية وألخصها كما أحفظ بعض القصائد غيباً . أما دروسي فكنت أحاول دائماً اتقانها ، فلا أكتفي بفهمها بل كنت أستظهر عدة صفحات من كتب التاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية . وظننت أني أرضي المدرسين بذلك فأحور على تقديرهم ، وفي الحق أنهم كانوا يمتدحون ذاكرتي الجيدة ، لكنهم لم يصدقوا أني أفهم كل ماحفظته عن ظهر قلب .

كنت أتلو النص غيباً ، ثم يستجوبني الأستاذ طالباً مني شرح النص بلغتي الخاصة غير مكتف بالقائه كما تلقى القصائد . ولم أكن أفهم شكوك الاستاذالذي يكرر القول: إنه يجب علي أن أتعلم الإجابة بأسلوبي الخاص فلقد كان أسهل علي أن أعيد قراءة نص حفظته غيباً ، من أن أتذكر كلمات وجملا تعبت في تأليفها وعليّ أن أكررها . . . وكم عانيت من تذكر تلك الكلمات والجمل واستعمالها على وجه سليم ، بينما حين أستظهر نصّاً يخيل إلي أني أفهم الكلمات والنص على نحو أفضل ، ولهذا لم أفهم لماذا لم يكن أساتذتي يصدقونني في ذلك ، وهذا ماحزّ في نفسي . ومن المؤكد أنهم كانوا على حق ، ولكني لم أدرك هذا إلا بعد وقت طويل ولما كانوا يلحون علي بأن أعيد ما أقرؤه شفوياً أو كتابة مستخدمة مفرداتي الخاصة فلقد اضطررت إلى الاستجابة لرغبتهم . حتى إني ذات يوم نجحت في كتابة قصة .

خلال دروس الأدب الروسي قرأتْ لي المعلمة قصة بعنوان (أقوى من الكلمات) لا أذكر اسم مؤلفها . وشرحت لي بعد القراءة مغزى

القصة ولاسيما المقاطع التي لم أستوعبها جيداً ، ثم كلفتني أن آكتب في البيت تلخيصاً موجزاً عنها بالاعتماد على قراءتها للقصة فحسب . وفي صباح الغد أطلَعْتُ معلمتي بفخرٍ واعتزاز على ذلك الملخص . وراحت تتحدث إلي بعد أن قرأته ، وشعرتُ حالا بثغرة ما في عملي . وصرحتْ لي فعلا بأن لغتي سليمة وأن استخدامي للمفردات جيد . . ولكني بدلا من أن أقوم بالتلخيص ألفت قصة أقلد فيها تلك التي قرأناها مساء البارحة .

وقصة المعلمة تدور حول رجل عجوز يقاسي من عمله المضني في المصنع من جراء غبار الكلس . ولا أتذكر نهاية القصة لكني أعتقد أن الرجل العجوز قد مات . أما (قصتي) فتدور كذلك حول رجل عجوز كان يعمل قبل الثورة في مناجم الفحم . . وقد مات أيضاً في النهاية لاأدري أعلى أثر حادثٍ أم مقتولا على يد القوزاق خلال مظاهرة عمالية . وقد استقيت حوادث قصتي من التاريخ ، ومع ذلك فان نجاحي في تنفيذ الوظيفة التي كلفتني بها المعلمة جعلنا نكتشف قدرتي على التعبير بلغتي الخاصة ، وعلى تأليف قصص أحاكي فيها قصصاً قرأتها . وكان ذلك اكتشافاً رائعاً بالنسبة لي ولأساتذتي ، فهو برهان على أني التزمت طواعية خط العمل الفكري .

وبعد هذه الواقعة رحت أحاول الكتابة ما أمكنني ذلك ، ولم أكن لأهتم بالموضوعات ، بل المهم أن أرضي الرغبة في الكتابة ، فأسطر على الورق ملاحظاتي في الحياة اليومية أو تلخيص الكتب التي أقرؤها .

وكان أساتذتي يشجعون بشتى الوسائل رغبتي في القراءة والكتابة ، مع علمهم بأني مازلت لا أتمثل جميع ما أقرؤه . كنت أشعر بذلك ،

ولكني لم أكن أطلب شروحاً إلا حينما يستعصي علي الفهم وأكتفي بتفسيراتي الخاصة خاطئة كانت أم صائبة وكذلك الحال فيما يخص معاني المفردات الغريبة ، فأحاول أول الأمر فهمها وحدي ، وحينما أعجز عن ذلك ألجأ إلى الأساتذة فيشرحونها لي مرحبين .

وكنت أستعمل أحياناً بعض الكلمات التي لاأفهم معانيها ، وإليكم بعض الأمثلة :

خلال مرحلة الدراسة لم يكن في مكتبة المدرسة إلا قليل من كتب الصغار ، فكنت أقرأ ما أجده فيها كقصص وحكايات المبتدئين لتولستوي وكتاب (اللغة الأم) لأوشنسكي ، وقصص جوكوفسكي وبوشكين وأندرسن وقصة (الأمير السعيد) لأوسكار وايلد وحكايات كريلوف وغير ذلك .

وفي صغري كنت أصدق كل ما أقرؤه ، وأعتقد أن مايجري في الحياة هو نفسه الذي يحدث في القصص والحكايات . وكنت أتمنى أن أمر بتجربة خارقة كما هو الشأن في عالم القصص . مثال ذلك أني خلال قراءتي قصة (القبعة الحمراء الصغيرة) اشتهيت أن أحل محل البنت الصغيرة فتخيلت تصرفي تجاه الذئب الكبير الشرير لدى مقابلته .

أما قصص جوكوفسكي وبوشكين واندرسن فقد تركت في نفسي أعمق الأثر إذ كنت أغتبط لانتصار الأبطال والبطلات واغتم بل أبكي عندما ينهزمون .

وتمر الأيام وأنا أقرأ كل ما أستوعبه جيداً وما لا أستوعبه كما ينبغي . . ثم وصل بي الأمر إلى أن صرت قادرة على قراءة (كوخ

العم توم) وروايات غوغول (سهرة الميلاد — ليلة أيار — المكان المسحور) .

وعندما قرأت لأول مرة قصة (كوخ العم توم) لم أستوعب شيئاً ، ولكنها هزتني بعمق . وما كنت لأفهم لماذا (السود) أشرار حتى يعاملهم (البيض) هذه المعاملة السيئة . وقد أشفقت كثيراً على أولئك (السود) الطيبين فكنت أبكي وأنا أرى كيف يباعون وينتزعون من بين أهلهم وأصدقائهم ، وكرهت أولئك (البيض) وتمنيت لو أبطش بهم لأنهم يعاملون الزنوج بمثل تلك الوحشية ويضربونهم بالسياط

ومع نموي وتفتح ذكائي ، رحت أطالع الكتب الأكثر جدية والتي تناسب عمري ومستوى تطوري العقلي . وطبيعي أنني ماكنت أفهم كل شيء ، ولكنّ ذلك لم يكن يخفف من شغفي بالقراءة . وهكذا كلما ازدادت مطالعاتي ازددت فهماً لما لم أكن أفهمه من قبل .

وفي الوقت نفسه ، وخلال قراءتي القصص ثم الروايات فيما بعد كان لابد لي من بعض الوقت كي أتخلص من تلك العادة الطفولية وأعني بها تقمص شخصيات الأبطال . زد على ذلك أني كنت أنتحل لنفسي دوراً جديداً لدى انتهائي من قراءة كل قصة أو رواية . وكنت أتمثل بوضوح وجلاء كل ما أقرؤه حتى اني أراه في أحلامي بعض الحين . وهكذا اتصمت أحلامي بمطابقتها الواقع وأتساءل لدى استيقاظي عما إذا كان ما رأيته حلماً أم أنها الأحداث التي عايشتها في الكتب .

وإذا كنت الآن أروي كل ذلك فلكي أشير إلى شغفي بالقراءة وجموح خيالي ، مما عمل على تقدمي المطرد في فهم ماكنت أقرؤه .

ولو شئت أن أصف كل ماتركته المطالعة في نفسي للزمني مجلد كامل . كنت أقرأ الكتب إذن و (أعيش) القصة واخترع لها نهايتها ، وعلاوة على ذلك أتمنى أن أكتب أنا شيئاً رائعاً . . وكنت أظن ذلك سهلا ، إذ يكفي أن أجلس أمام الآلة الكاتبة فأؤلف وأسوّد الصفحات . لكن محاولاتي الأولى لم يكتب لها النجاح . وخيل إلي أن مؤلفي الكتب ليسوا مثل سائر الناس وإنما هم على درجة عظيمة من الذكاء والجدية ويمارسون حياة لاأمارسها أنا الفتاة العادية ذات الذكاء المتوسط ، الجاهلة بأمور الناس . . وكم يحزنني أن أقرر أني لاأملك القدرة على التأليف ، ومع هذا كنت أتحرق إلى تحقيق ذلك . . وهكذا كنت أجلس الساعات الطوال أمام الآلة الكاتبة وورقتي بيضاء فارغة ارسل التنهدات والزفرات .

وعلى الرغم من كل ذلك لم أقلع عن محاولاتي ، فلقد بدأت بكتابة مذكراتي التي استهوتني سنوات عديدة ، وقبل الشروع في ذلك كان لابد لي من فهم ماتعنيه كلمة (اليوميات) . وقد ساعدني أساتذتي فكلفوني أول الأمر أن أدون ببساطة كل ما أفعله وأصف من أصادفه يومياً . . . وقد شرحوا لي أن ذلك يسمى (اليوميات) وفي بداية عهدي بمدرسة العميان وورشاتها كانت لي صديقات من بين طالباتها .

وبفضل صداقاتي مع الصبيان والبنات استطعت مع الزمن التعرف على حياتهم واهتماماتهم . وعلمت أن بعض الفتيات كن يكتبن مذكراتهن ، وقد قدمنها لى عن طيب خاطر لأقرأها ، على الرغم من أني لم أكن مؤهلة تماماً لأفهم كل ماورد فيها . أما مذكراتي فقد بدأتها بمنهجية وتفصيل فدونت كل ماكان يحدث في المشفى والمدرسة

أو في بيت صديقتي التي كنت أزورها غالباً خلال أيام الأعياد والعطلة الصيفية .

ومن سوء الحظ أني لم أحتفظ بكل أوراقي التي دونت فيها مذكراتي ، فلم يبق منها سوى ملاحظات قليلة لم أحرقها مع ما أحرقت . وهي ترجع إلى تلك الفترة التي فهمت فيها أن باستطاعتي أن أكون (إنساناً) بابعاده الروحية والعقلية على الرغم من عاهتي .

والمقتطفات التي سأوردها من مذكراتي يمكن أن تكون ذات فائدة ، إذ تُظهر مدى رغبتي الملحة في معرفة العالم ، وطريقة فهمي للكتب والحياة .

٢٠ ايلول ١٩٢٨

« . . قرأت من مدة قصيرة مذكرات صديقتي (ن) وأردت أن أفعل فعلها ، مع أني لاأعرف مادا أدون رما لايجب تدوينه في في مذكراتي . ومع دلك كان لابد أن أحاول .

وقد بدؤوا منذ أيام يقرؤون لي قصة من قصص الخيال العلمي بعنوان (الرجل الضفدع) أو (البرمائي) ولكن أخبروني أن (ي آ) قد اختار لي هذا الكتاب ، وهو واثق من أني سأفهم معنى تلك الكلمة بعد قراءة عدة فصول . سألني (ي آ) هذا اليوم عما إذا كانت الرواية تعجبني فأجبت بأني أحبها ، وأنا أعرف منذ الآن أن (آختيون) سيخوض معامرات ممتعة وأضفت قائلة : إني لا أستطيع تلخيص الفصول التي قرأتها . ولا أفهم كل الكلمات ولو شرحت لي . طلب إلي (ي آ) أن أصغي وأنتبه ووعدني بأن يشرح لي بعد كل فصل مالم أفهمه ، وأردف يقول : « حاولي دائماً يا أولغا أن تأخذي الأمور

بجد ، وأن تصغي وتركزي انتباهك ، فبهذا تحسنين الفهم والاستيعاب ، وإذا لم تفهمي بعض الكلمات حتماً ، فما عليك إلا أن تدوني بأسلوبك بعض الملاحظات وسأتولى فيما بعد شرح ماتريدين . ولكي تفهمي كل شيء بدقة عليكِ أن تسألي القادرين على المساعدة ، وهكذا تتكشف لك بفضل المعارف الجديدة مظاهر جديدة من الحياة . . »

وقد أثلجتْ هذه الكلمات صدري ، فقد كنت دائماً على قناعة بأني نظراً لعاهتي عاجزة عن الحصول على المعلومات العميقة ، ولو حصلت عليها فلن تجديني نفعاً ، لكنّ (ي آ) ومربياتي يريدون لي دائماً مزيداً من الثقافة ومزيداً من الاستيعاب لأمور الحياة . . .

٢٩ ايلول

مازلنا نتابع قراءة (الرجل الضفدع) . والآن فهمت معنى كلمة (برمائي) ، فلقد رأينا أي أطفال أولئك الذين يعيشون في حديقة الدكتور ، وكيف ولماذا صار (آختيون) (رجلا ضفدعاً) . والكتاب يستعرض تطور الحيوانات واكتمال نموها عبر القرون . ولربما يكون تعبيري هذا غير دقيق لأن هذا الكتاب يثير قضايا جديدة معقدة ، ولأن التعبير عن الأشياء الجديدة ليس بالأمر السهل . وما أزال أشعر بصعوبة الفهم وتعذر التعبير بكلمات معدودة . . . ولكن أريد مزيداً من القراءة والمعرفة حتى يتسنى لي مزيد من الوعي والفهم .

١٥ تشرين الأول

انتهينا هذا اليوم من قراءة (الرجل الضفدع) . وفي المساء زارني (ي آ) فطلبت إليه أن يشرح لي ما لم أفهمه فأجابني على أسئلتي .

وقلت له بعد ذلك . أنت تعلم يا (ي آ) أني منذ رحت أقرأ الكتب الممتعة ازداد اهتمامي بالحياة وبكل مايحيط بي ، بينما كنت قبلا لاأنقطع عن التفكير بعاهتي ، وكان هذا يشق علي . أما الآن ، فكل شيء على مايرام . هذا حسن ، وهذا من دواعي سروري . . . وأنا أعلم ذلك .

١٥ تشرين الثاني ١٩٢٩

قرؤوا لي كتاباً بعنوان (خمسة من الخالدين) وهو من روايات الخيال العلمي لكنه أرهقني . وفيه يتصور الكاتب كيف يمكن في المستقبل إطالة عمر الانسان وذلك بزرع البصلة السيسائية من رجل في رجل آخر وهكذا يموت الأول بينما يستطيع الثاني أن يعيش مئتي سنة . وقد أشفقت على أولئك الذين يموتون وكرهت هؤلاء الذين يستمرون في العيش بفضل أولئك ورأيتهم منفّرين خبثاء ذوي قلوب قاسية .

وقد قرؤوا لي كذلك بعض المذكرات وناقشوها كثيراً معي . كنت أشعر بأني أُبعث كل يوم وبأن أفراحاً وقوىً ورغباتٍ جديدة تولد في نفسي لا أعرف كيف أعبر عنها . ولا أدري إذا كان بمقدور أحدٍ أن يشعر بها كما أشعر ، أنا المحرومة من نعمة السمع والبصر . نعم فمن العسير علي أن أعبر عن ذلك الفرح الذي تبعثه في نفسي معارفي الجديدة .

٢٥ كانون الأول

قرؤا لي هذا الصباح بعض اليوميات . وفي الظهيرة رحت أزور

صديقاتي في مدرسة العميان . وهناك أطلعني على كتاب فيه مقتطفات للشاعر (آ . ج) طلبت أن أستعيره منهن حتى يقرأ لي الأساتذة مافيه ، وأنا أعشق الشعر ، ولم أقرأ بعد شيئاً لهذا الشاعر . ولدى عودتي إلى البيت أطلعت المربية على الكتاب وطلبت منها أن تقرأه لي فأجابت : لابد من عرضه على (ي آ) لأحصل على موافقته . غضبت منها وقلت لها : إن (ي آ) سيسمح لي حتماً بقراءته ، فأجابتني بأنه قد يكون صعباً ولذلك لن يوافق (ي آ) على ذلك . وفي المساء حضر الأستاذ وتصفح الكتاب وسمح لي بمطالعته مما سرني بالغ السرور .

١ كانون الثاني ١٩٣٠

اليوم عيد رأس السنة . لكني لم أسهر وكانت (ف . م) هي المناوبة نهار البارحة . وبعد أن أشرفتْ على نوم الأطفال نادتني وأخبرتني بأنها ستبقى في المستشفى حتى صباح الغد ، وفي استطاعتنا أن نقرأ ليلا . وهكذا قرأنا طويلا وأنهينا قصة من قصص الخيال العلمي عنوانها (وادي الحياة الجديدة) وكان الكتاب ممتعاً جداً ، يطرح فيه الكاتب عدة قضايا علمية منها : هل يمكن للدماغ أن يمارس التفكير خارج رأس الانسان إذا ما غُمر بمادة اصطناعية ؟ أما القضايا الأخرى فأستصعب التعبير عنها مع أني استوعبت أشياء كثيرة ، وأنا اليوم أعجز عن التركيز في موضوع معين لأن (ذلك الوادي) قد استغرقني بعالمه الذي أبدعه خيال الكاتب وصور فيه حياة طريفة جديدة .

كيف تعلمت كتابة الرسائل

كان لي رفاق ورفيقات في مدرسة العميان ، وكنت أراسل صديقاتي في المدارس الخاصة بالعميان في المدن الأخرى . وتعلمت

من ذلك أن الناس يمكن لهم أن يتواصلوا فيما بينهم على البعد بالمراسلة .
كانت صديقتي (ن) أول من كتب لي حينما أمضت عطلة الصيف في بيت أهلها . وقد عانيت صعوبة في استيعاب الصيغ والشكليات اللازمة في تحرير رسائلي . أضف إلى ذلك أني لم أدرك بسرعة كيف يمكن أن تفهمني صديقتي وأفهمها عبر الرسائل ، فقد كنت أخشى ألا تفهم ما أكتب لها في بعدها عني . وهكذا كانت كل رسالة أكتبها مجلبةَ عذابٍ لي ، إذ لم أكن أجيد استخدام الكلمات التي بها تستوعب صديقاتي أفكاري . أما كيف أبدأ وكيف أنتهي ؟ وهل علي أن أبتكر مفردات وجملا من إبداعي أم يكفي أن أكرر ماتكتبه صديقاتي في رسائلهن ؟ فهذا ماكنت أجهله ، ولا أجرؤ أن أسأل أساتذتي عنه ؛ يصدني عن ذلك خجلي الرهيب الذي عانيت منه الكثير في طفولتي وصباي . وما أزال أذكر جيداً إحدى أولى رسائلي لفتاة عمياء ، حيث أمضيت وقتاً طويلا في صياغتها . وكنت أذكر اسمها في رأس كل جملة مخافة ألا تفهم عني إذا لم أفعل ذلك . وبعد لأي نجحت في في صياغة عدة جمل سميتها (رسالة) وكنت فخورة جداً بها إذ أنشأتها وحدي دون مساعدة أي أستاذ . وهذا نصها :

« تحياتي لك يافينيا ، استلمت رسالتك يافينيا ، أريد أن أكتب لك رسالة يافينيا ، كيف حالك يافينيا ؟ أنا على أحسن حال يافينيا الأساتذة وسوكوليانسكي يعملون معي . سوف أدرس كثيراً لأتعلم أشياء جديدة . يافينيا لم أر صديقاتك ، وقد بعثوا إلي مع أحد العميان أنهم يريدون زيارتي ، اجيبي على رسالتي يافينيا أحبّيني ولا تنسيني يا فينيا يا حبيبتي فينيا أعانقك والى اللقاء . إن اولغا هي التي تكتب لك . »

وفيما بعد صرت أركز انتباهي على الصيغ والأساليب الواردة

في رسائل صديقاتي المسافرات لقضاء العطلة . وحينما رحت أواظب على قراءة الكتب بدأت أهتم بأسلوب الرسائل الواردة فيها ، فقد أعدت مراراً قراءة قصة (المساكين) لدستويفسكي كي أدرس فيها أسلوب الرسائل ، وكانت هذه القصة المطبوعة بالأحرف النافرة في مكتبة المدرسة . واستفدت كثيراً من صيغ الرسائل في الكتب الأخرى ورحت أراسل صديقاتي مقلدة أسلوبها » . . . . نينيا ، صديقتي العزيزة الغالية . . « . . ياتونيا . . ياصديقتي الحبيبة ، كم أشتاق لرؤيتك . . إني أعانقك بحرارة وأبعث اليك بألف قبلة . . » وفي الحق ما كنت لأرغب في معانقتها بحرارة ولا في تقبيلها القبل العديدة . . ولكني أقول ذلك لأني قرأته في الكتب . . . ومرت الأيام وتعلمت أخيراً صياغة الرسائل بطريقتي الخاصة واثقة من أن صديقاتي سيفهمن علي .

وحينما اتقنت فن الرسائل صرت استمتع بالمراسلة التي مارستها بكثرة مع صديقاتي ورفيقاتي بل مع من لاأعرفهم شخصياً ولكن لابد من إجابتهم على رسائلهم .

وقد ألِفَ بعض أصدقائي أسلوبي في الكتابة حتى صار بمقدورهم التعرف على رسائلي دون قراءة توقيعي ؛ أما أنا فقد مارست فن التراسل وأتقنته حتى صار بمقدوري أن أملي رسائلي على السكرتير أو غيره دون تحضير سابق .

* * *

الخير والشر

الصدق والكذب

منذ طفولتي عشت مع من حاولوا دائماً أن يوفروا لي السعادة والعزاء ، وأخص بالذكر منهم أمي وجدي وأبي الذي كان يعود إلى

المنزل من فترة إلى أخرى . وأذكر كذلك حسن الرعاية الذي كنت ألمسه من أفراد أسرتي المثقفة ، وهذا ما أدركته فيما بعد . وحينما أقمت في مشفى الأطفال العميان الصم البكم ، شعرت كذلك بأني محاطة بأناس طيبين ودودين من أساتذة ومربيات ومربين وممرصات . ولا أزال أحتفظ منهم بذكرى مشرقة ملؤها الاعتراف بالجميل .

إلى جانب ذلك كنت أتألم من سوء معاملة بعض الأشخاص الذين أصادفهم ، لأني كنت أحتك بالآخرين لأعرف ما يدور من حولي . وكان كل تصرف سيء مهما كان طفيفا يبدو لي خطيرا ، بينما الأعمال الاسوأ تبدو لي رهيبة لا تغتفر . وقد تعودتُ أن تلبي أمي وجدي جميع رغباتي ، فظننت بالتالي أن جميع الآباء والأمهات يهتمون كذلك بأولادهم . كان غذائي جيداً ولباسي كذلك، ففي الشتاء توفّر لي الثياب الدافئة ، وفي الأعياد تشتري لي أمي الملابس الجديدة . وفي وقت الحر لم يكن يُسمح لي ان أتعرض للشمس بلا قبعة . وما كنت أدرك أن علي ستر الرأس حتى لا أصاب بضربة شمس ، ولكني كنت أغطي دائماً رأسي وأجد ذلك أمراً طبيعياً . وفي الشتاء ما كان مسموحاً لي أن أخرج حافية القدمين .

كان الأطفال الذين يشاركونني اللعب لا يلبسون القبعات ولا يحبونها ، ويوحون الي ببعض الحركات ان أنزع قبعتي ، كما لم يكونوا يحبون لبس الأحذية صيفاً . وعندما ينزل المطر يتعمدون المشي حفاة في البرك والجداول كي يظهروا احتقارهم لحذائي وتحديهم له .

كنت أهوى المشي حافية في برك الماء ، ودون غطاء للرأس في الحر ، إذ كنت أظن أن أصدقائي لا يرغبون في لبس القبعات وانتعال الأحذية فيتركونها عامدين في بيوتهم . ولكن حينما كنت أزورهم فأبحث عن أحذيتهم وعن قبعاتهم فلا أجدها ، أظن أن أهل أولئك

الأطفال أشرار لا يحبون أطفالهم اذ لا يقدمون لهم ما يقدمه لي أهلي . وفي الغالب كان هؤلاء الأولاد ينتمون الى أسر كثيرة العدد ، ويلبسون الألبسة البسيطة المتشابهة . ولم أفهم سر ذلك فأنا الولد الوحيد لأهلي . كنت أرى أمي أفضل الأمهات وأبي الذي يجلب لي الهدايا أو يبعث لي بها أفضل الآباء ، وجدي أحسن الأجداد . وازمت هذا الموقف مدة طويلة ، وحتى هده الساعة حينما يخطر على البال ذكرى أمي او أتحدث عنها ، يبدو لى انها المرأة الفضلى ، لا في نظري فحسب ، بل في نظر الآخرين .

في مدرسة العميان وقبل دحولي إلى المشفى ، وجدت نفسي بين أطفال توفر لهم كل مايحتاجون إليه ولكنهم لايحرصون على مايقدم لهم . وهذا مادعاني إلى التساؤل .

في الربيع ومند أيام الصحو الأولى كان الأطفال يخرجون بثياب خفيفة فيرتدون السترة والثوب بلا قبعات ، بل بلا أحذية . وحينما تعود المربية بالأطفال إلى مهاجعهم لم يكونوا يطيعونها . فيخرحون إلى الباحة دون أن يرتدوا الثياب الدافئة وهذا ماجعلني أفكر قائلة طالما أن الكبار يقدمون الثياب للأطفال فهم طيبون ، أما الأطفال الذين يرفضون لبس تلك الثياب فهم أشرار لأنهم يعصون الأوامر . وقد بدا لي هذا الاستنتاج صحيحاً حتى إني وجدت له براهين تؤكده فعندما كان المربون يصحبوننا إلى المدينة في نزهة ، كانت الفتيات لايلبسن شيئاً موق الفستان على الرغم من أوامر الأساتذة . وكنت أحذو حذوهن فأصبح إذن سيئة مثلهن ، ولكن حين تطول النزهة ويشتد البرد كنت أعود لألبس الثياب الدافئة وكان يحدث أحياناً أن تخلع الفتيات الأحذية خلال النزهة ويمشين حافيات على الرغم من نواهي المربين . أصف إلى ذلك أنهن يطلبن إلي أن أنزع حذائي فأفعل ذلك ، ولكن حينما أحس بالبرد في قدمي أو حينما أعاني من السير

على الحصى حافية أروح أتساءل عن الطيبين والخبثاء ، أهم المربون أم الأطفال ؟ كنت أدرك على نحو غامض أن الأطفال مخطئون : كانوا يسخرون مني إذا لبست حذائي وثيابي الدافئة لأني شعرت بالبرد ، بل كانوا يخطفون مني أمتعتي حتى أساويهم في عصيان الكبار .. وهكذا أستنتج أن الكبار أفضل من رفاقي ، وأقدر صواب مسلكهم تجاهي . ومع هذا فبعض الحوادث جعلتني أغير رأيي ؛ إذ رحت أنظر إلى البالغين على أنهم أسوأ وأكثر شراً من الأطفال وتلك هي حادثة أسأت فهمها في حينها .

ذات يوم أتى أبو رفيقتي يزورها ، وعرفت من تصرفها أنها ستغادر المدرسة ، فقد وضعت ثيابها في حقيبتها وأهدت بعض الألعاب إلى رفيقاتها ، وكنت أساعدها لأنها كانت فوضوية لاتحسن ترتيب ثيابها ، كما كانت مهملة الهندام سيئة الذوق ، وقد جلبت المسؤولة عن الغسيل ثياب صديقتي ، فلاحظت أنها لم تعطها منديلا أو قبعة ، وكان ذلك في نهاية الخريف والطقس بارد . وسبق أن أهدت صديقتي إلى رفيقة لها القبعة التي جلبها لها أبوها . وقد خفتُ أن ترحل دون قبعة ، فرحت إلى المسؤولة عن الغسيل وشرحت لها بالحاح أنه لابد من قبعة لتلك الفتاة ، لكن المرأة أجابت بأنها لاتستطيع أن تعطيها شيئاً ، ولم تبرر ذلك . . وتابعت إلحاحي ورفضت أن أعود فارغة اليدين ، وبدلا من أن يفعل الالحاح فعله ثارت المرأة وبدأت تدفعني بخفة نحو الباب لأغادر غرفة الغسيل

وانتابني غضب مفاجىء ، ونزعت وشاحي الصوفي ورميته في وجهها وخرجت باكية . . لحقت بي المرأة وأعادت لى وشاحي ، حينذاك جال في رأسي خاطر جديد ، إذ قررت أن أعطي وشاحي إلى صديقتي كي أثير سخط تلك المرأه وأعطيت فعلا صديقتي الوشاح

دون أن أعلم أن ذلك ممنوع . . وهكذا بقيت بلا وشاح . زد على ذلك أني خرقت نظام المدرسة ، وخيل إلي أني ارتكبت جريمة ، لأن المسؤولة عن الغسيل كانت مستعدة لاتهامي بسرقة الوشاح كما علمت فيما بعد . ومنذ ذلك اليوم أصبحت أضمر العداء لتلك المرأة الشريرة كنت أعاني من البرد بلا وشاح ، لكني كنت مسرورة لتقديمه إلى رفيقتي . وهبْ أنّ أحداً بيّن لي خطئي باعطائي الوشاح إلى صديقتي ، فأنا لست مع المسؤولة عن الغسيل في موقفها . وربما لم تكن شريرة حقاً ، فقد لايكون لديها وشاح إضافي تتصرف به ، لكني لم أستطع تفسير رفضها على وجه آخر أو تبريره .

في معهد خاركوف ، كنت كسائر الطلاب ، أقتني كل مايلزمني ، فاللباس جيد والتغذية حسنة ، والمعهد نظيف دائماً ، وغرفنا دافئة مريحة . لكني ماكنت أعرف أن كل تلك الأمتعة التي أستعملها هي ملك للدولة وأن الغذاء الذي يوزع علينا محدد مقنن . كنت أظن أن باستطاعتي التصرف بأمتعتي على هواي وأدعو إلى الطعام مَنْ أشاء . وقد لاحظت خلال الغذاء أن الأساتذة والمربين يجلسون معنا إلى المائدة ، لكني لم أكن أعلم أنهم يأكلون مايجلبونه معهم ففكرت أن باستطاعتي أن أدعو إلى الطعام مَنْ يأتي لزيارتي طالما أن الأساتذة والمربين يقاسموننا طعامنا.

ذات يوم تأخرت مع صديقتي (ن) . (وهي عمياء وليست صماء ، وكانت ترتاد مدرسة العميان) . ويظهر أننا أطلنا المكوث في الحديقة ومشغل الحياطة ، ولم تسمع صديقتي جرس العشاء . وهكذا لم يتركوا لها شيئاً من الطعام نظراً لتأخرها ، إذ ظنوا أنها لاتريد أن تأكل ، أما أنا فبعد أن تناولت العشاء في المعهد عدت إلى مدرسة العميان . وحينما علمت أن صديقتي لم تأكل شيئاً اصطحبتها إلى المعهد وطلبت من المربية أن تقدم لها قليلا من الحساء أو خبزا مدهوناً بالزبدة ، فاجابتني بأن

الحساء نفد وبأنه لم يبق من الخبز إلا ما يكفي للفطور . وعلى الرغم من استعطافي أجابت بأن الخبز مقنن ومحسوب بدقة وهي لا تستطيع أن تعطي منه . شيئاً

وغضبت على المربية وانتابني الحزن لأني لا أستطيع أن أقدم شيئاً لصديقتي . فتناولت رغيفاً من (البوفيه) وقطعت منه حصتي للفطور وأعطيتها إلى صديقتي . وأكلت (ن) هادئة البال إذ لم تسمع نقاشي مع المربية . ولم اتساءل عن خرقي للنظام بتناولي الخبز من غير استئذان . أهو خير أم شر ؟ إذ كنت أفكر بصديقتي الجائعة التي حرمت من العشاء .

وطبيعي أن المربين علموا صباح الغد بالحقيقة كاملة ، ولم يوجه لي أحد أية ملاحظة ، بل تلقيت نصيبي من الخبز على الفطور . لكن المربية التي تشاجرت معها لم تنس هذه الحادثة ، فراحت تنظر إلي على مدى طويل على أني طالبة غير انضباطية .

والحق أن هذه المرأة لم تكن سيئة ، فهمت ذلك فيما بعد حينما رحت ادرك ضرورات أعمال الناس والتزاماتهم إزاءها . كانت تلك المربية طيبة وحساسة لكنها تطبق النظام حرفياً . وقد وجد سائر المربين رغبتي في مساعدة رفيقتي أمراً طبيعياً جداً ، وهذا ما فسرتُ به فيما بعد سكوتهم عني .

وما أكثر الأمثلة التي يمكن أن أوردها على كيفية فهمي للطيبة والخبث والخير والشر . لكن ما ذكرته من أمثلة تكفي لتبرهن على أني في تلك الفترة حينما راحت كل المفاهيم تتكون في ذهني ، لم أكن أنظر اليها

كفيلسوفة أو كعالمة نفسية ، إذ لم أكن أعلم أن كل شيء في هذه الحياة نسبي وأن السلوك الاخلاقي للانسان محكوم كلياً بشروط حياته وظروفها .

ولم أكن ادرك كذلك أن الاكاذيب والمظالم يمكن أن يُقبل بها على أنها أمورٌ صائبة صحيحة . ولكني في تلك الفترة كلما لاحظت كذبة أو ظلماً آلمني ذلك ، وأثار غضبي ، ولاسيما إذا كان صادراً عن البالغين ، فهم يفهمون كل شيء خيراً مما يفهمه الأطفال ، فلماذا إذن يكذبون ؟ وإليكم هذا المثال :

أطلْعوني مرة على غلاية كهربائية وعلّموني كيف أدخل شريطها في المأخذ ، وكيف أراقبها بيدي وهي تسخن الماء ، وكيف ألاحظ لحظة غليان الماء وانطلاق البخار . وقد تعلمت ذلك بسرعة ، وصرت قادرة في أية لحظة على تحضير الماء للشاي دون مساعدة أحد . وفي أيام مناوبتي في المطعم كنت أحاول النهوض مبكرة كي أستطيع تسخين الماء للفطور ، لأن المربية كانت مشغولة بأعمال اخرى كثيرة . كنت أحاول دائماً مساعدة المربين اذ أشعر بنفسي وقد كبرت . وذات يوم وقع لي حادث هزني بعمق وزعزع إيماني بصدق البالغين .

استيقظت باكراً نحو الساعة الخامسة صباحاً وقصدت المطعم لأتحقق من الوقت . كانت ساعة الجدار في المطعم تشير إلى الخامسة تماماً ، إذن لم يحن بعد وقت تحضير الشاي ولكني كنت عطشى ، وأنا أعلم أن الغلاية لا تخلو غالباً من الماء ولما لم أجدها على الطاولة قصدت القاعة الأخرى حيث يستعملونها هناك . . وما أن وصلت حتى شعرت بحرارة شديدة ورائحة طلاء محترق تشبه رائحة المادة الصمغية التي طليت بها الطاولة . . . أسرعت بحركة غريزية إلى الطاولة فوجدت السلك

الكهربائي ونزعته من المأخذ . ولاحظت أن الطاولة مبللة وأن شيئاً من الماء على الأرض ، والغلاية لاصقة بالطاولة ، والجدار يرطبه البخار . . . نزعتُ الغلاية لأرى إنْ كان فيها شيء من الماء فوجدتها شبه فارغة . . وبقيت في حيرة وأنا أحاول عبثاً أن أفهم ما حدث ، فلماذا كانت الغلاية موصولة بالتيار ؟ ومن الذي وصلها أومتى ؟ من المؤكد أن شخصاً ما قد قام بذلك . .

عدت إلى غرفتي وأنا لا أعرف ماذا افعل . . . ولا أجرؤ على إيقاظ المربية المناوبة . كل ما فعلته أني أبعدت الغلاية عن مأخذ الكهرباء تاركة كل شيء في مكانه . حتى الطاولة لم أمسحها وكذلك الأرض . وذلك كي تأتي المربية وترى كل شيء بعينها . وفي التاسعة حضر الاساتذة والمربون ، واقتربت مني مربية ووبختني لأني نسيت الغلاية موصولة بالتيار طوال الليل . هذا ما قالته لها مناوبة الخدمة مساء البارحة . ولقد صعقني هذا الافتراء المحض ، فأنا ما كنت أخشى أبداً أن أعترف بأخطائي . ورحت أشرح للأساتذة بانفعال بالغ أني وجدت الغلاية في الخامسة صباحاً موصولة وهي شبه فارغة من الماء . وحار الاساتذة وترددوا فيمن يصدقون ، فالمربية المناوبة كانت تحاول اقناعهم بالنقيض . وأخيراً اقتنع الأساتذة بصدقي ، إذ كانوا يعلمون أني اعترف دائماً بكل شيء ، وأني لا أرمي أبداً بأخطائي على ظهور الآخرين وقد فهموا أن المربية أرادت أن تحضر الشاي لنفسها ولكن النعاس غلبها . . وهي لا تريد الاعتراف بذلك وتخشى نتائجه الخطيرة . وكانت هذه المرأة مسنة ومريضة ولا تعمل إلا ليلاً ، إذ عليها أن تهتم نهاراً بأولادها ، وكان هذا فوق احتمالها . ولكن لماذا تسقط أخطاءها على الطلاب ؟ هذا ما لم أفهمه .

ومن المؤكد أن الاساتذة قد اقتنعوا بأني صادقة ، ولكن ذلك لم يهدىء من روعي ، وقد ضعف احترامي لهذه المربية ، إذ فوجئت بها ، وهي البالغة ، تحمّل أخطاءها طفلاً بريئاً ، وكان بامكانها أن تتهم طفلاً أصغر عمراً يعجز عن إظهار براءته كما أظهرتها أنا . وهذا ما وقع فعلاً فيما بعد .

كان يوم الأحد موعد استحمام جميع الطلاب . ودخلت إلى الحمام في ساعة متأخرة ليلاً فوجدت الطالبة الصغيرة (ف) التي كانت قد نزعت ثيابها للتوتستعد للغطس في الماء . ولم تكن المربية هناك ، فاستوقفت البنت الصغيرة ووضعت يدي في المغطس لأتحقق من كفاية كمية الماء . . وسحبت يدي فوراً مذعورة ، فقد كان المغطس يفيض بالماء المحرق والصنبور مفتوحاً والماء يجري . . أغلقت الصنبور وأبعدت الفتاة دون أن أعرف ماذا أفعل . . وكل ما وعيته أني وصلت في اللحظة المناسبة .

ورحت أبحث عن المربية المناوبة فوجدتها نائمة في سريرها . . أيقظتها وشرحت لها ما حدث . ومن المؤسف أنها لم تعترف بخطئها ، كما حدث في المرة السابقة ، واتهمت الصغيرة (ف) بأنها راحت إلى الحمام دون إذن منها ، وقامت بفتح الصنبور بنفسها . . صعقت ثانية من هذا الكذب الفاضح ، ومن هذا الظلم الذي تمارسه هذه العجوز . كنت اشفق على الفتاة التي اتهمتها العجوز بلا رحمة ، وهي تعلم أن الطفلة صماء بكماء عمياء لا تقوى على الدفاع عن نفسها . أما الأساتذة فقد عرفوا أن المربية كاذبة .

وقد شهدت أحداثاً أخرى مشابهة مع هذه المربية ، ولم أكن أفهم موقفاً كهذا ، فاسحط وأثور حينما أرى بعض البالغين يخافون الاعتراف بأخطائهم ، بينما نحن الأطفال نقول الحق ولو كنا مخطئين ،

ونعلم أننا قد نعاقب على ذلك . ولست أريد أن أسرد حوادث أخرى من هذا النوع ، بل أريد أن أقول : عندما كنت صغيرة لم أكن أحاول الكذب أبداً أو إسقاط أخطائي على ظهور الآخرين ، ولذا كان يحز في نفسي كثيراً أن يكذب الآخرون علي ، ولاسيما البالغون . وكم كان يؤلمني أن ألاحظ أو أظن أن أمي تكذب علي فأعبر عن سخطي بحرارة وعنف كي تلحظ ذلك . وكنت أتصرف حسب الظروف ، فاذا كنا في البيت أضربت عن الطعام ، وتلك هي الوسيلة المفضلة لديّ للاحتجاج . أما إذا كان الوقت ليلا فأرفض النوم وأمكث قابعة في إحدى الزوايا . وإذا كنا متجهين إلى مكان ما وشعرت خلال الطريق أني خُدعت ، جلست في وسط الطريق ورفضت متابعة السير .

والواقع أني ماكنت دائماً محقة في اعتقادي أن البالغين يكذبون ، فعلى الغالب كان ذلك نتيجة أوهام مردها إلى سوء فهمي لما يجري من حولي.

* * *

كيف فهمت الواجب والالتزامات والوعود

منذ صغري ، وفيما بعد ، ماكنت أحب أن أطلب معروفاً أو مساعدة من الآخرين . كنت أرغب في أن أكون مستقلة في كل ما أعمل ، مهما لقيت من صعوبات . إلى جانب ذلك كنت أحب أن يكلفني الناس بمهمات ؛ وكلما كانت المهمة صعبة رأيتها ممتعة وألححت في تنفيذها . كان أفراد أسرتي يعرفون حبي لانجاز المهمات التي يكلفونني بها ، فيشجعون عندي هده الرغبة . ومن المؤكد ان تلك المهمات كانت سهلة في صغري فأكلف مثلاً باحضار شيء أو نداء شخص أو فتح باب الدار أو غسل الفناجين أو إعارة بعض أمتعتي . كنت أنفذ ذلك لاطواعية فحسب ، بل إرضاء لضميري ، إذ أحس بالارتباك حينما

أسمع عبارات الشكر ، وفي الوقت نفسه أحس بفرح عظيم لأن الكبار يحتاجون إلي . وهكذا تعودت مع الزمن على أداء مهماتي والتزاماتي على الوجه الأمثل . وقد يحدث أن يستغل حماسي واندفاعي بعض صديقاتي غير المحرومات من نعمة السمع ، وهن أكبر سناً وأقوى جسماً . أما الأساتذة فكانوا يمنعونني من إطاعتهن حينما يلاحظون ذلك الاستغلال ، وهذا ماكان يثير شيئاً من الخلاف بيني وبينهم . وما أزال أذكر من ذلك وقائع عديدة :

طلبتْ مني ذات يوم إحدى صديقاتي ، وهي طالبة في مدرسة العميان وتعرف حبي للغسل والكي أن أغسل لها ثيابها . أخذت تلك الثياب إلى المعهد لأغسلها في الحمام . . . وفاجأني أحد الأساتذة على هذه الحال ، فمنعني من ذلك وأمرني باعادة الثياب إلى صديقتي كما هي . ورفضت تنفيذ ما أمرني به على الرغم من صواب موقفه ، فصديقتي أكبر مني وأقوى . . . وهكذا أخذ الأستاذ الطست مني وقطع عني الماء الساخن فأغضبني هذا ، بل بكيت ، لأني خجلت أن أعيد الثياب المتسخة إلى صديقتي . وعلى كل حال نجحت في غسلها خفية ، ولكني لم أستطع تجفيفها وكيها إذ منعت من ذلك منعاً قاطعاً .

ومرة ثانية طلبت مني صديقتي نفسها أن أخيط بدلا منها قميصاً ، كلفها أستاذها بانجازه في وقت محدد ليعرض في أحد المعارض . وكان عليها إنجاز العمل بسرعة ، ولكنها لم تكن ترغب العمل في البيت ، أي في المهجع . كنت أجيد الخياطة واضطررت ان أقضي الليل مع هذا القميص . . لكن المربية منعتني من العمل في تلك الساعة وألحت علي بوجوب النوم . . . غضبت منها وتظاهرت بأني ذاهبة لأنام . . ثم سرعان ما نهضت وتابعت الخياطة وأنا جالسة في سريري .

وفي صباح الغد كان العمل منجزاً ، وكان سروري عظيماً على الرغم من التعب . . وخلال الدرس لم أقو على الانتباه ، فقد غلبني النعاس ، ووبخني الأستاذ لأني خرقت النظام بعملي ليلا .

لكنني في تلك الفترة ما كنت أعي كما يجب مفهوم الانضباط والنظام واللوائح والبرامج ؛ ولعلي لم أكن متحمسة لقبول تلك المفاهيم المجردة المتعارضة مع رغبتي في انجاز أعمال ملموسة . وهكذا ماكنت أبالي بنظام العمل ولا أفهم لماذا لايجوز العمل ليلا ؛ طالما أني أفي بالتزاماتي تجاه الآخرين .

في الغالب كنت أنهض ليلا أو في الصباح الباكر لأقوم بواجباتي ، وقد أحس بالتعب خلال النهار ، لكنني أكون راضية عن نفسي لأني أنجزت أعمالي دون تأخير . مع الزمن بدأت أدرك أن الخضوع للنظام من عداد الواجبات وأدركت كذلك أن احترام اللوائح سيرضي ضميري ؛ هذا مايجعل الأساتذة يفرحون بي وبسلوكي الواعي . هكذا ألفت مع الزمن الحياة المنظمة ، ولم يمنعني ذلك من القيام بالتزاماتي الأخرى .

وطبيعي أن يصيبني الملل والنفور أحياناً من دراسة النحو وحل التمارين الرياضية ، فأفضل قراءة كتاب ممتع أو انجاز عمل مسل . لكن أساتذتي يفرحون بأي تقدم أحرزه . وكان من واجبي أن أدرس بجد وأنفذ تعليمات البالغين . وباختصار فقد اقتنعت بأن من واجبي أن أكون منظمة في كل ما أفعله ، سواء في علاقاتي بأصدقائي أو بسائر الناس المحيطين بي . وبديهي أن يكون احساسي بذلك مشوباً بالغموض ، فلا أقوى حينذاك على صياغته وترجمته . ولكنّ ماقدرت على استيعابه

وهضمه ، كان يعمرني بالغبطة كشمس تشرق في جو كالح ، فتبعث الدفء في الأجسام والعواطف .

ولا يسعني أن أتذكر بسهولة كل الحوادث والتفاصيل عن تلك الفترة من حياتي ، حيث دخلت مرحلة الوعي والاستقلال . وفي الفصول التالية سأتحدث عن موقفي من الواقع والحياة الاجتماعية خلال الشباب وسن الرشد .

* * *

مقالات وبحوث
خلال أعوام مختلفة

في العمل . . .

« العمل أوجد الانسان »

أنجلز

في يومنا هذا يعرف كل من ينظر إلى العالم نظارة عامية ، أن الوعي الانساني تكون بفضل العمل . وما زلت أذكر حواراً دار بين رفيقين ضريرين ، مفاده أنهما لو لم يفقدا حاسة البصر لاختارا مهنةً غير مهنتهما . قال الأول : (ربما أصبحت بواباً) . أجابه الثاني باحتقار : (ولكنه عمل مهين !) أجابه الأول : « أنت مخطيء . فكل عمل ينفع المجتمع لايحط من قدر صاحبه » . وأنا أتذكر دائماً هذا الحوار ، حينما أقابل أشخاصاً يزهون بمهنتهم (الشريفة) . وفي الحق أنهم لايعرفون ماذا تعني هذه الصفة .

وأحب أن اعترف هنا بأني أقدّر كل عمل أستطيع إنجازه ، فكرياً كان أو يدوياً ، وأنا أتجنب دائماً اللجوء إلى مساعدة المبصرين حينما أكون قادرة على إنجاز أي عمل وحدي . منذ زمن طويل أعيش وحيدة وأنجز أعمالي كل يوم دون عون من أحد ، إلا حينما

أقوم بعمل فكري ، فشواغل البيت اليومية تعيق ذلك العمل . وخلال حياتي اليومية وبخاصة حين تحضير الطعام (من تقشير بطاطا واشعال الغاز . . .) تعاني حاستا اللمس والشم عندي تجارب مرة فهما (عيناي) و (أذناي) . وكذا الأمر في صبوتي ، فقد تعلمت أن أعمل في سن مبكرة ، وبذات في ذلك جهود مضنية . كنت (انظر) إلى مايفعله الناس وأتابع بأصابعي حركات أيديهم ، لأرى مثلا كيف يقشرون البطاطا ويغسلون أواني المطبخ والثياب وينظفون البيت . وكنت أماد يدي ليعلموني استخدام السكين واستعمال الصابون وحينما كان يخيل إلي أني استوعبت تلك (الأسرار) ، أمسك بالمكنسة فسرعان مايندهش الناس من براعتي ومهارتي ، وطبيعي أن هذا ليس بالأمر السهل علي .

وقد اكتسبت عادة العمل هذه على مر السنين . . وبدأت مبكرة (بأشغال الابرة) . وكانت أصابعي تستوعب كل ما أتلقنه من الأساتذة ، فكنت أجيد الحياكة بالآلة وأشغال الصوف والصنارة ، كما أصنع السلال و (الفراشي) وأمارس الخياطة . ولكن حينما تعلمت القراءة ، استقطبت كل اهتمامي ، فكنت أنزوي في زاوية مع كتاب لأستغرق فيه وأنسى ما عداه .

وفي فترة ما ألزمتني الظروف بألاّ أمارس غير الأعمال اليدوية ، إذ اضطررت للعمل في مشغل يستخدم العميان . وفي أول الأمر طلبوا مني انجاز عمل في البيت ، وهو صنع شرائط الأحذية . وقد وهبت نفسي لهذا العمل ؛ لكن المشغل سرعان ماامدت منه المواد الأولية لصنع الشرائط ، فطلبت من الادارة أن أعمل في مشغل الورق المقوى

فجوبهت ببعض الشك في مدى جدارتي ، إذ قيل لي: إنهم لايستطيعون تشغيلي لأني صماء . لكن الرفاق الذين يعرفونني أكدوا للادارة أني أستطيع القيام بالعمل ، شأني شأن سائر العميان ، فقبلت الادارة على مضض تشغيلي على أن أمر بمرحلة تجريبية .

وهكذا صحبوني إلى المشغل وقالوا لمدربتي : (هذه طالبتك الجديدة . . وستجدين حتماً صعوبة كبرى في أن تعلميها صنع العلب) . كانت تلك المدربة لطيفة جداً ، فلم تلجأ إلى الشرح والتفصيل ، بل دلتني ببساطة على جهاز صنع العلب وإلصاقها . . تتبعت خلال فترة يديها وهما تعملان ، واستوعبت بسهولة هذا العمل اليسير . ومنذ ذلك اليوم أصبحت عاملة في معمل (الكرتون) . وبعد فترة من الزمن أعلن المدير أنه مسرور جداً من عملي وأنه يعتبرني من أفضل العاملات الضريرات . وكانت أجرتنا حسب الانتاج ، فكنت أعمل بجد وسرور ، فقد جئت إلى المصنع طائعة مختارة ، ولكن رغبتي في المطالعة مازالت ملحة . وقد سبق لي منذ زمن طويل أن قرأت الكتب (النافرة) في مكتبة العميان . . . والآن ليس معي من يقرأ لي الكتب العادية . . وخلال العمل كان تواصلي مع الآخرين صعباً فيداي دائماً مشغولتان . كنت أعود إلى البيت مرهقة ، وأنجز أعمالي اليومية الصغيرة ، وكانت فتاة (نصف مبصرة) ترافقني من البيت إلى المصنع ومنه إلى البيت حيث لاأحد يساعدني .

لكن هذا الوضع لم يدم طويلا ، بل كان مؤقتاً ؛ وقد أفادني في الأيام العسيرة ، إذ علمني أن أعيش وأعمل على نحو منظم . وحينما يكون الجو سيئاً ، كانت الفتاة التي ترافقني تدمدم متذمرة

كعجوز قائلة : « كيف يمكن التصرف مع هذا المطر ؟ أنا لاأستطيع الخروج » . لكني لم أكن أسمح لها بالتكاسل ، وأشرح لها بصبر وأناة قائلة : (لابد أن تتعودي فسوف تروحين يوماً إلى العمل . تعودي على الذهاب في أي طقس كان . ترُى ألا يذهب المبصرون إلى أعمالهم إلا عندما تكون الشمس مشرقة ؟ وما تشكين من صعوبته صعبٌ علي كذلك ، ولكن لابد مما ليس منه بد .)

ومع هذا لم أكن دائماً منظمة ، فحينما كنت أرتاد المدرسة لم أتمسك بتنفيذ كل الالتزامات . وكان في المعهد معلمة مولعة بالنظام والترتيب . . وراحت تعلمني أن أكون منظمة في كل مجال ، كما برهنت لي مراراً عديدة أنه يجب أن نمارس حياتنا حسب مخطط ، ونصدر عن فكر نقدي في أعمالنا والتزاماتنا . ولكني لم أكن أنجح دائماً في ما علمتني إياه ، فاتباع الخطط يعني تحضير الدروس على وجه أفضل ، والتقيد بساعات محددة للعمل والتنزه والنوم في وقت معلوم . . . الخ . وهذا رائع ولا شك ، ولكن ماأصعب تنفيذه ، فأنى لي أن أنام باكراً إذا استهواني كتاب ممتع ؟ ؟ لن أنام طبعاً قبل أن أصل إلى صفحته الأخيرة . وفي الفترة التي قرأت فيها قصة (أولاد الكابتن غرانت) كنتأحضرها معي إلى دروس الفيزياء . . . وكان الأستاذ يأخذ القصة مني ويضع بانفعال كتاب الفيزياء على ركبتي . وخلال دروس اللغة الألمانية ، بينما يتصفح الأستاذ الكتاب ، أتصفح أنا خلسة قصائد بوشكين . أما الخروج إلى النزهة في أوقات معينة ! . . فكم من نزهة ضيعت بسبب القراءة أو الكتابة ؛ وكل أوقات فراغي أملؤها بصحبة الكتب ، تلك هي تسليتي . . . إلا إذا حضرت صديقاتي لزيارتي .

* * *

وذات يوم انتسبت إلى الكومسومول ، وأدركت ضرورة هذا الانتساب لأتعلم اليقظة والنظام . كان لابد من ممارسة النقد الذاتي حول واجباتي وأعمالي ، إذ كنت أريد مجاراة فتيان الكومسومول الأسوياء في مستوى الوعي والنشاط فأحضر باهتمام بالغ اجتماعات الشبيبة والحزب في المعهد الطبي التجريبي في أوكرانيا،حيث لم يكن بينهم أي ذي عاهة غيري . وقد تعلم بعضهم منذ انتسابي الأبجدية النادرة الخاصة بالصم البكم ، فكانوا يتحدثون معي بدون وسيط .

وكان رفاق آخرون يخطّون على راحة يدي الأحرف الأبجدية العادية . أما في الاجتماعات ، فشباب الكومسومول يترجمون لي بالتناوب مداخلات الرفاق . . وغالباً ما أسهمت في النقاش بصوت مرتفع . وكم من مرة ثرت حينما كانت توزع المهمات على الرفاق وليس لي نصيب فيها . ومهما يكن من أمر فأنا لا أرضى بأن أكون على الهامش ، بينما تضطرب الحياة من حولي وتمور ، وهكذا أحس بخيبة الأمل لأني لم أخدم منظمتي . . ولكني نجحت أخيراً في الحصول على مهمة أقوم بها .

وكانت عاهتي خلال الحرب مثار ألمٍ نفسيّ كبير ، إذ كان يؤلمني ألاّ أستطيع القتال في الجبهة وألاّ أشارك في الدفاع عن حرية وطني واستقلاله . وحينما قدر لي أن أقابل بعض العسكريين ، عبرت لهم عما أعانيه من عناء لأني لاأخدم المجتمع ، ولكنهم لم يشاطروني الرأي ، بل أجابوني بانفعال : (أنت مخطئة في أن تتألمي بسبب عاهتك . . وباستطاعتك أن تكتبي الأشعار والقصص تشدّين بها أزرنا ، ويمكن لك أن تتناقشي مع مشوهي الحرب ؛ فعدد كبير منهم فقد

البصر . . وهكذا تشجعينهم ويستجيبون لك أكثر من استجابتهم لنا نحن الأسوياء) .

ولقد كان هؤلاء الرفاق على حق ، فالوطن وفر انا نحن الذين نعاني من العاهات أن ندرس ونعمل كسائر الناس . . .

عام ١٩٤٠

كيف أقوم بأموري اليومية

كل أولئك الذين يتعرفون بي ، يطرحون علي أسئلة عديدة عن حياتي اليومية ، فينتابني الملل من تكرار الجواب نفسه كل مرة . وإليكم نماذج من الأسئلة التي يطرحها الناس علي وهم عالمون بأنني أقضي حاجاتي بنفسي .

– كيف تتعرفين على الشيء الذي تمسكينه بيدك ؟

– كيف تستطيعين الخياطة ؟

– كيف تعرفين أنه يجب اغلاق الباب ؟

– هل أنت التي تحضّرين الطعام ؟ وكيف تعروين أن اللحم والبطاطا قد نضجت ؟ (وأنا أدعو من يسألني هذا السؤال أن يذوق مما أطبخ ، جواباً على سؤاله ؟) .

والواقع أنّ علي أن أجيب على أسئلة لاتحصى من هذا القبيل . ولما لم يكن ممكناً لجميع الناس أن يتحدثوا إلي شخصياً ، فأسئلتهم على الغالب كانت ترد إلي عبر الرسائل ، وهكذا يكون من المفيد أن أروي لهم كيف يستطيع أولئك المحرومون من نعمة السمع والبصر أن يعيشوا ويقوموا بأمور حياتهم .

أنا أعيش وحيدة في غرفتي ، ولا أحس أبداً بالضوء ، مع أن أجفاني مفتحة كما ذكرت ذلك سابقاً ، ولافرق عندي بين النور والظلام . ولأني درست وضعية غرفتي وأثاثها وباقي الموجودات فيها ، صرت أستطيع العثور بسهولة على ماأحتاج إليه بتعرفي عليه باليد ، كما أستطيع ترتيب غرفتي وكنسها وغسل الأرض وتنظيم محتوياتها دون أي عناء .

والمرأة المبصرة تحضّر الطعام بسهولة وارتياح ، ومع هذا فالمرأة التي لاتجيد الطهي ، لن يفيدها بصرها ولو ملكت مئة عين ! وطبيعي أن البراعة في تحضير الطعام ، مردها إلى أن الصغار تعودوا منذ الطفولة أن يروا امهاتهم أو اخواتهم الكبيرات يحضّرن ألوان المآكل . أما الصغار العميان فكل مايستطيعون عمله أن يشموا الروائح ويسمعوا صوت الماء وهو يغلي وقرقعة السكاكين . . فيسألون قائلين : (ما الذي يغلي ؟ وأية رائحة نشم ؟ وما الذي يحترق ؟ وما الذي يوجد في القدر ؟ وأية مادة نضعها قبل غيرها ؟) فيأتيهم الجواب . . وهكذا تتعلم الفتاة العمياء مع الزمن تحضير الطعام .

أما أنا فلا أقوى إلا على تنسم الروائح والاحساس باهتزاز القِدْر عندما يغلي ما فيه . وقد توجهت بأسئلتي إلى مَنْ حولي وتلمست حركات الأيدي عند تقشير البطاطا وتقطيع البصل وغسل الخضار والفواكه والحبوب . وخلال ملاحظتي البخار وهو يتصاعد ، واهتزاز القدر تعلمت التعرف على درجات غليان الماء والحليب ؛ أما الحساء فأعرف أنه يغلي من رائحته . وحينما يبدأ الماء بالغليان أغرز الشوكة في البطاطا أو المدوف أو اللحم لاختبر مدى نضجها . وقد

تحترق أصابعي من جراء ذلك ، ولكني على هذا ، أجيد تحضير طعامي على أحسن وجه . وعلى حاسة الشم أعتمد أيما اعتماد ، عند قلي البصل أو البطاطا أو شرائح اللحم ، وسرعان ما أشعر بأي شيء يحترق فأرفع المقلاة وأطفىء الطباخة الكهربائية التي أجدها أيسر استعمالا من غيرها .

وهكذا وباعتماد اللمس والشم والذوق ، أستطيع تحضير وجباتي في أية لحظة شئت . وطبيعي أني لست طاهية بارعة ولا أطمع في أن أكون كذلك ، إذ ليس عندي مواهب تؤهلني لهذا . . فأنا أحرص على وقتي الذي أكرس معظمه للقراءة والضرب على الآلة الكاتبة ، ومع هذا لاأخشى أن أموت جوعاً .

أما الخياطة وغسل الأواني ومسح الغبار وتغيير ماء المزهريات ، فما أيسره عليّ بفضل اللمس الذي أعتمد عليه لانجاز كل ذلك بعفوية وطلاقة . ونحن جميعاً ننجز تلك المهمات الصغيرة ، لكن المبصرين يستخدمون العين والأذن ، بينما يستخدم العميان السمع واللمس والشم .. أما أنا فليس لي إلا اللمس والشم . وهكذا باستطاعتي أن أنجز أي عمل يدوي ممكن بالاعتماد على اللمس ، وفي مقدوري أن أتحول من عمل فكري إلى آخر يدوي ، ولكن لاغنى عن استعمال اللمس والشم اللذين يقومان عندي مقام السمع والبصر إلى حد كبير .

عام ١٩٥١

اليد أداة التعبير

لما كنت صماء عمياء فأنا لاأسمع أبداً أصوات الناس من حولي ولا أميز وجوههم ، وليس بيني وبينهم من جسر سوى أيديهم ة

وهكذا لكي أكوّن فكرة دقيقة عن شخص ما ، لابد لي من أن أدرس أدق تفصيلات حركات يديه .

وأنا أعتقد أن الأيدي لاتقل عن الصوت والعينين قدرةً على التعبير . نعم حينما يغضب المرء و يستاء أو (ينرفز) أو يتعب ، فصوته وعيناه تبوحان بذلك ؛ ولكن انفعالاته تنعكس دقيقة واضحة كذلك على حركات يديه بل على مشيته . وحينما تقترب (ل . ي) مني مثلا وتصافحني أتعرف على مزاجها حالا ؛ فاذا صافحتني بنشاط ولطف أدركت أنها طيبة المزاج مرحة ، وإذا صافحتني بأصابع مرتعشة حزرت أن صديقتي مهمومة . وفي بعض الأحيان ترتعش يدها ، حتى إنها تعجز عن استعمال أصابعها في التحدث إلي .

وحينما تعمل معي (و) أتعرف مزاجها فوراً ؛ فاذا كانت مستاءة أصبحت حركاتها عنيفة ووجدت صعوبة في فهم لغة أصابعها . وعندما تكتب ماأمليه عليها بالآلة الكاتبة ، فانها تضع النقاط بحركات عنيفة عصبية فأسألها :

– ما الذي يعكر مزاجك ؟

فتجيب دائماً :

– العكس . . أنا على أحسن مايرام .

ولكني لاأصدقها ، لأني ألاحظ دائماً تقلبات المزاج عند من أعايشهم .

وكلما صافحت صديقتي (ن) عرفت حالتها النفسية فوراً ؛ فاذا كانت مستاءة ، جاءت حركاتها متراخية وأحياناً عنيفة متوترة .

أما إذا كانت مسرورة ، فحركاتها تصبح سريعة ونشيطة . وهي تحاول أن تخفي عني مزاجها السيء ، ولكنها لاتنجح في ذلك .

أما (ي . آ) فيداها معبرتان جداً ؛ ولعل ذلك عائد إلى أنها تعمل كثيراً مع العمي الصم البكم ؛ وهي تدرك بوضوح أهمية التعبير بالأيدي لدينا ، معشر المعوقين .

وتقوم (ب) بكثير من الحركات المصطنعة ، ولكني أتعرف دوماً حالة غضبها ، فأسألها حينئذ : ما الذي يغضبك ؟ وقد لاحظت أن القراءة بالأصابع أصعب جداً من التحدث بها ؛ فلابد خلال القراءة من الانتباه المركز حتى لاننسى بعض الحروف . ومع هذا يمكن تعلم القراءة بالأصابع على نحو معبر منفعل ، فاذا انتهت العبارة مثلا باشارة تعجب وجب أن نضغط بقوة على الحرفين الأخيرين . أما إذا كان المقطع يوحي بالحزن ، فلا يجوز الاسراع في قراءته . وفي المواقف الدرامية لابد من القيام بحركات واضحه شديدة بالأصابع حتى نظهر عواطفنا ، وكأننا نقرأ بصوت مسموع . وفي كلتا الحالتين يجب على القارىء أن ينفعل بما يقرأ . ولا بد أحياناً من وضع علامات التنقيط . . وهي لازمة لوضوح النص وتسهيل فهمه .

عام ١٩٤٠

* * *

موسكو

منذ بدأت أراسل مكسيم غوركي ، تمنيت زيارة موسكو ، لأجتمع بكاتبي المفضل وصديقي . ولكني لم أستطع حينذاك . ولم يقدر

لي زيارة موسكو إلا عام ١٩٤١ . وقد هزتني هذه الزيارة إلى درجة تدفعني إلى أن أصف كيف استقبلتني (موسكو الحمراء) وما الذي انتابني من مشاعر !

وطبيعي أني لن أروي لكم كل انطباعاتي خلال إقامتي القصيرة ، فقد يلزمني لذلك كتاب كامل . ولم تكن زيارتي موسكو للتفرج بل للعمل ، إذ أنجزت فيها مهمات جديدة شاقة .

وحالما تحرك القطار بدأت أحس تحت قدمي بهدير العجلات المنتظم المتسارع ، وانتابني فرح عميق وأنا أرى حلمي القديم يتحقق . وما أمتع أن يحملني القطار كحصان الأساطير المجنح ، بعيداً عن عالمي المألوف إلى تلك المدينة الغريبة المجيدة ، إلى حياة جديدة رائعة !

وقد سبق لي أن سافرت كثيراً بالقطار ، وأنا أحس به حينما يسرع أو يبطىء . وكم أحب أن أستشعر الدوران المنتظم الموقع للعجلات وهي تقترب بي دون انقطاع من هدفي المنشود . وهكذا يمضي القطار ليشق قلب الليل البارد . وأنا أنعم بالنوم وأشعر خلاله بكل محطة يقف فيها ، فاستيقظ واستعجل القطار قائلة بنفاد صبر : (هيا أسرع وتقدم نحو موسكو !) . . .

ووصلت ذات صباحٍ مشمس والثلج يغطي الأرض . . . وهاهو ذا القطار يقترب من موسكو وقلبي يقفز من صدري وراحت العجلات تتباطأ . . وتوقفت العربات . . . ونزلنا إلى الرصيف مع سائر المسافرين . . . وها أنذا الآن في موسكو . .

اجتاحني شعور غريب ، فقد وصلت إلى هدفي المنشود ، وبدا

لي أن تحقيق الأحلام ليس بالأمر العسير ، فتساءلت : ترُى هل أنا حقاً في موسكو ؟ وجاء الأستاذ سوكوليانسكي يستقبلني . . وحاولت إخفاء انفعالي الشديد ولكن عبثاً .

في التاكسي رحت أستعيد هدوئي . . وراحت المترجمة تصف لي كل ماتقع عليه عينا ـا في شوارع موسكو التي كانت تنساب أمامنا . وفي المساء نفسه وعلى الرغم من البرد خرجت في جولة مع الأستاذ الذي سألني :

ـ لعلك تشعرين بالبرد كما أرى ؟

ـ لا . . فأنا أشعر بالدفء . وفي الحق أن أمواج الفرح الدافيء تبعث الحرارة في قلبي . . وها أنذا أخيراً في موسكو بين أصدقائي القدامى والجدد . .

* * *

نحن نصل إلى التعرف على العالم من حولنا مع أشيائه وبيوته وشوارعه ومدنه بتحديد مواقعها في (المكان) . ونحن نشعر بالحيز المكاني تبعاً للأشياء التي تشغله . ويستخدم الناس الأسوياء العين والأذن بخاصة للتعرف على العالم الخارجي ، بينما يستخدم الأصم نظره والأعمى أذنه ، فهو يدرك المكان أول مايدركه بالأصوات والأصداء المنبعثة عن القاعات والساحات والشوارع والأرصفة .

ولكن ما العمل إذا كنا محرومين في الوقت ذاته من حاستي السمع والبصر ؟ لاوسيلة إذن لدينا للتعرف على العالم الخارجي إلا أن نحس بهذا العالم عن طريق أجسامنا التي نتحرك بها عبر (المكان) .

هكذا فلا ضوء ولا صوت وليس لنا إلا الهواء نستشعر حركته حرارته وروائحه التي ينقلها إلينا . . .

هذا (الصدى) المنبعث عن الهواء ، يمكن أن يكون موجة هوائية حدثتها حافلة سريعة أو سيارة عابرة أو لقاء الريح بجدار منزل مرتفع . هذا (الصدى) يمكن أن يكون كذلك تياراً هوائياً خفيفاً يصدر عن بوت أو يسرب من النوافذ المفتوحة . وفي استطاعة حاستيْ اللمس الشم المتطورتين عند الأعمى الأصم الأبكم أن تتلقفا كل ذلك ، هكذا تساعده هذه الاحساسات الصغيرة مع الزمن في تكوين مفهوم صحيح دقيق عن العالم المحيط به .

وقد جعلتني المسافة الشاسعة التي اجتزتها في موسكو والريح العاصفة ، شوارعها وساحاتها ، استشعر ضخامة هذه العاصمة واتساعها . قد لاحظت فوراً أن شوارعها أعرض من شوارع خاركوف .

وقد يبدو الأمر مستهجناً ، ولكني على الرغم من المسافات الشاسعة ، ستطعت التجول في شوارع موسكو . ولم أشعر بالتعب ، وتعودت سرعة عبور الشوارع ، ورحت أسبق سائر المشاة في ذلك . . وطبيعي ني لست وحدي فالمترجمة ترافقني إلى كل مكان . وقد شعرتْ التعب لأنها مسنة ، وراحت تتذمر قائلة : (إن موسكو مدينة لانهاية ما) ! أما أنا فأجيبها بمرح شديد : (لقد أصبحنا بسرعة موسكوفيات).. حتى البرد الذي يصفه الجميع بأنه لايُحتمل ، لم أجده كذلك ، ألفتُه بسرعة ، بل بدأت أحبه . . . وها أنذا أحس بنسماته الرطبة لمنعشة .

ولابد لمن يزور مدينة كبيرة كموسكو ، من أن يتعرف أولا عليها باستخدام وسائط النقل العامة . وقد جربت خلال تنقلاتي كل وسائل النقل من ترام وباص وتاكسي ؛ ولكن (مترو) موسكو الرائع العجيب هو الذي خلب لبي . وهو بفخامته و سرعته التي تحملك كالبرق بين أطراف المدينة الشاسعة وبأدراجه المتحركة التي تهبط وتصعد في لحظات بآلاف الركاب ، يمكن أن يعتبر وسيلة المستقبل المثلى للنقل . نعم لقد سحرني المترو . وحينما نزلنا على أدراجه الرخامية العريضة ، استشعرت في الوقت نفسه رطوبة جدرانه والأنفاس الدافئة المنبعثة من أعماق أنفاقه . وها نحن الآن في قاعة ضخمة تزينها أعمدة رخامية .. ننتظر لحظات وصول الحافلة . . وشعرت فجأة على خدي بنسمة ريح لطيفة راحت تشتد شيئاً فشيئاً ، وباهتزاز موقع . فسألت عن ذلك وكان الجواب : إنها الحافلة التي وصلت . . وعليك أن تسرعي في الصعود إليها . . وهذا مافعلته ، وجلست في العربة الوثيرة الفسيحة على مقعد جلدي . وشعرت بضجيج مكبوت : إنها الأبواب الآلية تنغلق . . وينطلق المترو بهدوء ويحملنا سريعاً إلى مركز المدينة . أما الدليلة فتذكر لي أسماء المحطات وتحاول أن تصف لي روعة تلك القصور (تحت الأرضية) . . وها نحن نغادر المترو ونتجه إلى الدرج المتحرك . . . وعلى بعد خطوات شعرت باهتزاز الدرج تحت قدمي . . قفزنا بسرعة إلى أول درجة ، فراح يصعد بنا ، ويدي على الحاجز الذي بدا لي حياً متحركاً وكأنه يتنفس . وفي العودة استعملنا ثانية الدرج الكهربائي للنزول ، وقد شعرت بالفرق بين الصعود والنزول إذ أحسست بدوار خفيف حينما نزلت أول مرة ، وكأن الأرض تنزلق

من تحت قدمي . . ولكن سرعان ما ألفتُ ذلك ، وأحببت النزول وفضلته على الصعود . .

وكان كل يوم جديد أقضيه في موسكو ، يجعلني أحس بقلب الوطن العظيم يخفق نابضاً بقوة وحيوية . وقد سحرتني موسكو بتنوع الحياة وتنظيمها فيها ، وشدتني بغنى مناظرها وأصواتها وتلاحق الأحداث والظواهر المدهشة التي كنت أكتشفها كل يوم وأعيشها .

وفي موسكو الاشتراكية لاعطالة ولا بطالة ، إنها (دماغ) الوطن حيث يزداد الفكر نشاطاً والمشاعر غنىً وعمقاً . وفي موسكو ، وهي المركز الثقافي ، كنوز العلوم والفنون . وهكذا في كل يوم رحت أزور المؤسسات المختلفة ، حيث الاستقبال القلبي الحار . ولكن سكان موسكو قبل غيرهم ، هم الذين كنت أهتم بهم ، فقد خلفتْ عندي لقاءاتي بالشخصيات البارزة المثقفة ذكريات لاتنسى .

وخلال زيارتي المكتب المركزي لجمعية العميان الصم البكم في روسيا ، كانت لي لقاءات مؤثرة حميمة مع المسؤولين ، واستقبلني بمودة عظيمة العميان الصم البكم الذين قابلتهم هناك ، وأسعدني جداً أن أصافح الأصدقاء الذين لم أكن أعرفهم إلا عبر الرسائل .

أما اتصالي اليومي المباشر مع أبرز الدارسين والصحفيين والعلماء والفنانين فقد أغناني إلى حد بعيد ، وتمنيت لو أتيح لي أن أساهم في نشاطاتهم المختلفة المشبعة بفرح الإبداع والخلق . ولكن أنى لي أن أستعرض في أسطر جميع مقابلاتي ومناقشاتي مع الأصدقاء الجدد الذين تعرفت عليهم في موسكو ؟ موسكو التي تذوقت فيها ، أنا الصماء ، بأعماق روحي ، موسيقى الكلمات وإيقاعَ الشعر .

واستطعت أنا العمياء ، أن أكوّن لنفسي تصوراً صحيحاً دقيقاً عن موسكو ، تلك المدينة المتكاملة ذات الأبعاد والألوان الغنية ، الجميلة الحرة التي أبدعتها عبقرية مهندس إلهي !

وكم عانيت من فراق موسكو ! . . . ولا عجب ، فأفكاري ورغباتي بل روحي ، قد ارتوتْ من تلك المدينة التي أمدتني بطاقات خلاقة جديدة . وفي الاتحاد السوفييتي ما أكثر المدن الجميلة التي تزدهر فيها الحياة الجديدة . . لكن موسكو هي قلب الوطن والمدينة الأثيرة لدى الشغيلة السوفيات والعالم أجمع .

ومن المستحيل ألاّ يحب الانسان موسكو ، وألاّ يعجب بها ، وألاّ يتمنى العودة إليها . . . وسأحتفظ في أعماق القلب إلى نهاية العمر بأجمل الذكريات عن زيارتي . . وعن الأيام الرائعة التي أمضيتها في موسكو .

كانون الثاني ١٩٤١

عشقي للفنون

لايستطيع المحرومون من السمع والنطق طبعاً ، تذوق انسجام الألحان الرائعة ، ولا يعرفون متعة أنْ يغني الانسان لنفسه . وهم يستمتعون بما تطوله أيديهم كالشعر والنحت والرسم .

وفي الحق أن المعوقين يعيشون ويعانون الأهواء والانفعالات العنيفة تجاه كل مايتعلق بعالمهم الروحي. ويستطيع الصم البكم أن يعجبوا بأعمال النحت والرسم . أما العمي الصم البكم فليس لهم إلا الشعر والنحت ، فهم عن طريق اللمس يستشعرون الأشكال والتفاصيل

الدقيقة للتماثيل ، ويحللون حالا في فكرهم عناصر ما أدركوه ، فيتمثلونها ، ليعيدوا خلق العمل الفني ثانية مكتملاً ، ومن المؤكد أن تصور هؤلاء يمتاز عن الصورة البصرية ، فبالاضافة إلى الأشكال والخطوط ، يشعر العمي الصم البكم بخصائص المادة ، سواء كانت رخاماً بارداً أم خشباً صقيلا أو خشناً . . لكنهم مع هذا عاجزون عن تكوين أية فكرة عن لون التمثال الذي يعاينونه

وأنا العمياء الصماء ، أعشق الأدب والنحت . وكنت قبل زيارتي للمتاحف ، أعرف أعمال النحت الموجودة في المعهد ، حيث نملك تمثالين رائعين من الرخام لفينوس ، الواحد لمديتشي والثاني لميلو ، بالإضافة إلى تمثال هرمز (المستريح) وتماثيل أخرى جعلتني أحب من النحت وأشغف به .

وقد قرأت مع أساتذتي فيما بعد كتاب (تاريخ الفنون) ورحت أعاين تماثيل المعهد بشغف وانتباه ، وكنت كل مساء بعد انتهاء الدروس، أفعل ذلك كما يفعله طلاب آخرون . وأنا أحب تمثالي فينوس على وجهين مختلفين : فتمثال ميلويمتاز بالعذوبة والرصانة والتواضع ، وأشعر بأني أتعاطف معه وأفهمه ، ولدى معاينتي له أزداد رصانة واتزاناً . أما تمثال مديتشي فيحملني على الابتسام .

ذات يوم صحبوني إلى المتحف أول مرة ، فرحت أعاين بحرارة تمثال طفلين ينامان على مقعد ، وكان رخام التمثال صقيلا ناعماً . وهكذا لاينقص الطفلين إلا أن يتنفسا لتدب فيهما الحياة . . فقد كانا على غاية من الروعة والسحر . وفي قاعة أخرى دلوني على تمثال نصفي لبيتهوفن ، وكانت أول مرة أعاين فيها هذا الوجه الشجاع الصارم

المعبر . وقد سبق أن قرأت ترجمة حياة هذا المؤلف العبقري ، وأعلم أنه كان أصم ، وسرعان ماقفزت إلى ذاكرتي نتف من سيرة حياته حينما تلمست رأسه بيدي . . . « هاهو ذا والد لودفيغ بيتهوفن يصعد درج منزله البائس ويسمع صوت الأصابع الصغيرة الخجولة لولده وهي تنساب على البيانو » . . « ذلك الشاب ذو الشعر الشبيه بلبدة الأسد (كما كان يسميه أصدقاؤه) يمشي مسرعاً نحو المدينة ذات يوم ربيعي . العصافير تغني دون انقطاع ، ومن المراعي والحقول البعيدة ، تهب ريح دافئة تحمل إلى بيتهوفن أنفاساً عطرة . وفي رأس الموسيقار ترنّ ألحان رائعة . . فيسرع بالعودة ليدون أنغامه الخالدة » « . . ولكن في البيت . . هناك ربة المنزل الطيبة تدمدم باستياء وذعر : ها أنت ذا تضيع القبعة الثانية . . يجب أن تربطها منذ الآن على رأسك » « . يغتسل بيتهوفن صباحاً بالماء البارد ، وهو يغني . ياللغرابة ، فهذا الموسيقار العبقري ذو الأذن الموسيقية العجيبة ، صوته قبيح ، وغناؤه مزعج ، حتى إن ربة المنزل تسد أذنيها حينما يغني » . « . . كتب بيتهوفن أروع سمفونياته وهو أصم معتزل . . وبين الحين والحين تنحدر دمعة من قلب همه الغامر ، لتبلل ملامس البيانو ، بينما يهيمن فكره على عالم الألحان مسوقاً بكل ماهو جميل ونبيل في حياة الإنسان . »

وانتزعت نفسي بصعوبة من خضم تلك الذكريات ، ولاحظت أن يدي مازالتا طول ذلك الوقت على رأس تمثال بيتهوفن . ولفني فجأة إحساس غريب وكأن تياراً عبر أصابعي ، واستغربت هذا أول الأمر ثم فهمت السر . فلقد سبق أن أصغيت مراراً عديدة إلى (سوناتا ضوء القمر) وأنا أضع يدي على البيانو . وها أنذا بفضل ذلك الانطباع

العميق ، استرجع بوجه من الوجوه عن طريق الأصابع نغمات كنت (أصغيت) إليها حينذاك . .

وقد وفرت لي زيارة المتحف مسرة أخرى ، إذ أطلعوني على تمثال إمرأة عجوز تحمل بيدها جورباً ناقص الحياكة بينما يجلس تحت قدميها صبي صغير على مقعد ، وعيناه مفتوحتان إليها يصغي بكل حواسه ، ترى من يكون ؟ ولقد عرفته من شفتيه ، إنه بوشكين الطفل ، يصغي إلى حكايات مربيته . وبينما يعبر زوار المتحف إلى الغرف الأخرى تسمرت أنا أمام بوشكين .

وهكذا ترون معي كيف يمكن لكل مانحس به ونستشعره أن يفتننا ويخلبنا ! ونحن في حياتنا اليومية لانعرف أنفسنا ونشكو غالباً من رتابة الوجود ، ولكننا حين نزور المتحف ، نحس بالحزن والفرح والعطف والحماسة الصادقة . وكم هو رائع ذلك الاستجمام الفكري والجسدي الذي يوفره لنا التأمل والإبداع في عالم النحت والرسم والشعر ! ويكفي أن نعشق الفن ونرتوي بما فيه من تناغم وجمال ، وهكذا يغتني وجداننا بكل ماهو جميل ومعقول ويمتلىء بأروع المشاعر والأحاسيس التي لاوجود لها في حياتنا اليومية .

وعلى الرغم من أني لاأدرك العالم إلا من خلال اللمس والشم ، فأنا قادرة على معاناة كل ماذكرت من مشاعر . فما بالك إذن بالصم البكم المبصرين ؟ إنهم ينعمون بغنى الانطباعات البصرية . ومع ذلك لايجيد أغلب رفاقي استخدام هذه النعمة وهذه القدرة على إدراك العالم بالبصر !

عام ١٩٤٠

السعي إلى الكمال بلا هوادة

حينما نشرت مجلة (حياة الصم البكم) عام ١٩٤٠ في عددها السابع مقالتي عن غوركي ومراسلتي إياه ، رغب كثير من القراء أن يعرفوا كيف أنجزت دراساتي ، وكيف تطورت وامتلكت ناصية التعبير عن أفكاري بلغة منطقية دقيقة . ويبدو لي أن من الأفضل أن أجيب الآن على تلك الأسئلة التي وردت على صفحات المجلة

ولابد أول الأمر من أن أشير إلى العناصر الثلاثة الأساسية في دراستي واكتسابي اللغة المنطقية الدقيقة وهي :

١ ـ التنظيم الدقيق للوقت واستغلاله .

٢ ـ التوجيه الواعي ولطف الرعاية من قبل معلمي الأستاذ سوكوليانسكي .

٣ ـ مواظبتي وعطشي الدائم إلى المعرفة .

ولقد وعيت بسرعة هذه الحقيقة المسلم بها ، وهي أن المعرفة هي (كل شيء) في حياة العميان الصم البكم . وذاك الذي يتسلح بالعلم والعرفان يستطيع الوصول إلى مايريد في هذه الحياة .

كيف بدأت دراساتي ؟ كما يفعل سائر الصم البكم ، في مدرسة خاصة مع فارق بسيط ، هو أن اللمس يحل محل البصر . وقد اتبعت على مدى سبع سنوات منهجاً مبرمجاً صارماً . . . ثم ألحقتْ مؤسستنا فيما بعد بمعهد الطب التجريبي في أوكرانيا ، مما غير في برامج الدراسة ، فصرت مطالبة بتحصيل بعض المعارف في العلوم الطبيعية . وراحوا يقرؤون علي بعض المؤلفات العلمية المبسطة ، وكان علي بعد قراءة

كل كتاب أو نشرة أن ألخص ماجاء فيها خطياً بمعونة أحد الأساتذة . وهكذا قرأت ودونت ملاحظاتي عن كتاب (تاريخ العلوم الطبيعية) وعن عدة كتب في علم النفس والفيزيولوجيا . وكذلك حضرت دورة قصيرة في علم الحياة . . كما قرؤوا على بنفس الطريقة مبادىء الماركسية — اللينينيه .

وقد عمل الأستاذ سوكوليانسكي بنفسه على تحرير مؤلفات المادية التاريخية والجدلية بالحرف النافر خصيصاً لي . وقد ضربت على الآلة بالحرف النافر القاموس الفلسفي بمساعدة أحد الأساتذة . أضف إلى ذلك مطالعة دؤوبة لأمهات الكتب الأدبية الكلاسيكية المعاصرة .

ولقد كانت تلك الحقبة أسعد أيام شبابي ، فكان الأساتذة والمربون يستغلون أية مناسبة ليقرؤوا لي مختلف الكتب . وكانت (بيايتسكايا) في ذلك الحين وهي أحسن من يقرأ لي تستمر في قراءتها حتى الليل . وهكذا قرأنا معاً بعض مؤلفات ديماس وشكسبير وشيلر .

وكان في مدرسة العميان مكتبة صغيرة بالأحرف النافرة ، قرأت عدة مرات مافيها من كتب ، ومن بين الشعراء الكلاسيكيين الروس كنت أفضل بوشكين وليرمنتوف ، فشعرهما كان يهزني ويثيرني حتى إني رحت أكتب الشعر .

في الثانية عشرة من عمره هتف الموسيقار الروسي العظيم (غلينكا) قائلا : « الموسيقى . . إنها روحي » وأنا أهتف لأقول : « الشعر إنه روحي . . . » وكيف لانحب الشعر ؟ والغريب أن من الصم والبكم من لايأبه به . وذلك يرجع بلا شك إلى جهلهم باللغة الأدبية (وتلك

هي الخطيئة الوحيدة لأساتذتهم المقصرين) . والشعر يمكن أن يساعد في تطوير اللغة المنطقية الدقيقة لدى الصم البكم ، وهكذا إذا أحببنا الشعر فاننا سنمتلك ناصية اللغة الأدبية سريعاً ؛ ذلك ما اختبرته من خلال تجربتي الشخصية . وما أكثر ماتقدمه القصائد الشعرية من فوائد ومنافع لأولئك العاجزين عن الكلام . ونحن مضطرون هاهنا إلى الاعتراف بالواقع المؤلم ، وهو أن معظم الصم لايجيدون اللفظ . يقول تشيخوف : إن علامات التنقيط في الكتابة لها دلالات لغوية . وهذا مايصدق بخاصة على الصم البكم .

وهكذا فلابد من الانتباه خلال القراءة إلى علامات التنقيط التي تساعدنا على الكلام بطريقة أكثر تعبيراً وذلك بتلوين الصوت واستعمال النبرة المناسبة . ولا شك في أنه يجب الاسترشاد بتعليمات القادرين على السمع واتباعها قدر المستطاع .

وأنا حتى هذه الساعة وحينما أتكلم بوصوح ، أعترف بالفضل لأولئك الذين يصغون إلي ويصوبون لي دائماً نبرتي ولهجتي . وقد يستغرب البعض أن يكون الشعر قادراً على تحسين اللفظ وترقيته إلى هؤلاء أسوق هذا المثال :

خلال قراءتي قصيدة (ديليباخ) لبوشكين ، أدركت أنه لابد من شد النبرة على آخر مقطع من الكلمة بفضل حرف القافية في المقطع الرباعي

وطبيعي أنه يصعب علينا أن نحد فوراً في قصيدة ما الشاهد على مكان استخدام النبرة الشديدة في هذه الكلمة أو تلك ولهذا يجب الاكثار من قراءة الشعر ما استطعنا ذلك .

وأنا أعرف اللغة الأوكرانية مع أن دراستي كانت بالروسية . وقد ساعدتني قراءة المؤلفات الأوكرانية ولا سيما الشعرية ، في تعلم هذه اللغة دونما صعوبة . وقد قرأت (كوبزار) كله لتشيفتشنكو ومؤلفات ايفان فرانكو وكوتسوبنسكي وشعراء وكتاب آخرين من أوكرانيا .

ويسألني بعضهم عما يجب أن يفعلوه لتوسيع معارفهم وتطويرها ، فأجيب قائلة : إقرؤوا اقرؤوا بجدية ونظام ، فالكتاب صديقنا الأفضل ومعلمنا . وقد كتب غوركي هذه السطور الجميلة في هذا الصدد قائلا : « . . باقتناع كامل بصحة هذا الحكم أقول للجميع . أحبوا الكتاب ، فهو الذي سيجعل حياتكم سهلة ، ويساعدكم مساعدة الصديق . على أن تجدوا أنفسكم في زحام الأفكار والعواطف والأحداث ، وهو الذي سيعلمكم أن تحترموا الانسان كما تحترمون أنفسكم ، وهو الذي يوحي إلى الفكر والقلب بحب العالم والبشر . . . حتى وإن كان مخالفاً لقناعاتكم . أما إذا كان الكتاب شريفاً وصادراً عن حب للناس ورغبة في تقديم الخير لهم ، فذلكم هو الكتاب الرائع . »

وكل عظماء الرجال من علماء ومخترعين وكتاب مدينون في نجاحهم قبل كل شيء لعالم الكتب . وأنا أشعر بأن معارفي ماتزال على الدوام ناقصة ، كما يشهد المثل القديم القائل : « الانسان لايزال يتعلم » . ولكن هذا القليل الذي أعرفه ، تعلمته من الكتب ومن اتصالي بأرباب الثقافة .

وليس هناك معرفة فطرية عند الناس ، وانما تحصل المعرفة بالدراسة والسعي الذاتي الحثيث الدؤوب نحو الكمال .

والاتحاد السوفياتي يقدم إمكانيات لاتُحَد للنهضة الثقافية ، ففي وطن الاشتراكية حيث انتصر العقل الانساني على قوى الطبيعة ، يستطيع كل مواطن أن يكون متعلماً ومثقفاً إلى أبعد الحدود . . . ويكفيه أن يعشق المعرفة ويحاول تحصيلها وأن يسعى بلا هوادة إلى التطور والتكامل .

عام ١٩٤٠

صديقي الذي لاأنساه

في (ماكار تشودرا) وهي أول رواية نشرت لغوركي ، يروي المؤلف كلمات بسيطة يتحدث فيها (تشودرا) عن الغجري (لويكو زوبار) : « ما أروع من نصادفهم أحياناً من الناس أيها الصديق الحميم ، فهم ينظرون إلى عينيك ليستولوا عليك . . . وبدلا من أن تخجل منهم ، تعتز بهم . وأنت مع مثل هؤلاء تحس بالتسامي . . وما أندر وجودهم ياصديقي . »

أتذكر هذا النص عالماً لأني أعتز بصداقة غوركي . وسيبقى تاريخ التامن عشر من حزيران ١٩٣٣ منقوشاً إلى الأبد في ذاكرتي ؛ فهو اليوم الذي تسلمت فيه أول رسالة من غوركي . وكم كان فرحي عظيماً ، وكم تأثرت بما في الرسالة من عمق وحكمة ومن هذه الرسالة اطلعت على (عقيدة) غوركي . « أؤمن بالعقل البشري ، وأرى أن الانسان أداة لمعرفة الطبيعة ، فهو الذي يكتشف قواها العشوائية وينظمها . . . » وقد قرأت هذه الأسطر مرات عديدة يوم وصول تلك الرسالة . وغوركي لايؤمن (بعقل) للطبيعة ولا بقوى غيبية

أخرى . . . وهو يحب وطنه أعمق الحب ، ويعتز بذلك ، ويردد دائماً أن الاتحاد السوفياتي غني بالرجال القادرين الموهوبين . . ولهذا لم تصبني الدهشة من اهتمامه برسالتي الأولى التي شوّقته إلى التعرف على مؤسستنا . وقد قدر أيما تقدير نشاطنا وفهم كيف يمكن للأعمى الأصم الأبكم أن يصبح (إنساناً) . ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟ يجيب غوركي على هذا السؤال فيقول : « . . . أعتقد أنه سيجيء الوقت الذي يسأل فيه العلم الناس الأسوياء قائلا : أتريدون أن تدرس بتفصيل ودقة جميع مظاهر التشويه والنقص والشيخوخة المبكرة والموت لدى الناس ؟ إن هذه الدراسة لايمكن إنجازها بالتجارب على الكلاب والأرانب والخنازير ، بل على الانسان نفسه ، فلابد من دراسة وظائف أعضائه وكيف تتغذى الخلايا ، وكيف يدور الدم ، بالاضافة إلى دراسة التفاعلات الكيمياوية لخلايا الدماغ . . وغير ذلك من المظاهر . ولابد من انجاز هذه المهمات من مئات الرجال المتطوعين لخدمة الانسانية . وهذا أفضل ولاشك من إبادة عشرات الملايين من البشر تحقيقاً لرفاهية طبقة طفيلية جشعة تافهة منحلة نفسياً وخلقياً » .

وهكذا يمكن أن نرى من هذا المقطع ، أن غوركي لم يكن كاتباً ومبشراً عبقرياً فحسب ، وإنما كان ذا ثقافة علمية عميقة واسعة . وهذا مايفسر دعوته الدائمة إلى أن أخلص للعلم إذ يقول : « يمكنك أن تعتزي بذلك »

ومما يجدر ذكره أن غوركي ، على الرغم من نشاطه الأدبي الدؤوب ، كان مهتماً أبلغ الاهتمام بالعلوم الانسانية . وهذا نادر عند الكتاب وقد أبدى اهتماماً كبيراً بمشكلات العمي الصم البكم

عندما بدأ يراسلني . وهذا الاهتمام يختلف تماماً عن اهتمام (ديكنز) بـ (لورا بريدجمان) ، الصماء البكماء العمياء التي سبقت هيلين كيلر . وقد دهش ديكنز وتأثر من أن (لورا بريدجمان) استطاعت أن تشعر بالأصوات والنغمات وهي تلامس آلة موسيقية بيديها ، وأنها نجحت في التعبير عن فرحها بأن ضحكت . وقد هتف ديكنز حينذاك يقول : « . . . إنها تضحك يا إلهي . إنها تضحك . . . »

وهكذا كانت كل رسالة من غوركي تجلب لي الفرح كما فعلت أول رسالة . وبفضل تلك الرسائل صرت أفهم الكتب فهماً أحسن ، وأكتشف جوانب جديدة من الحياة والناس ، لأن كل كلمة من غوركي كانت تساعدني على النفاد بعمق إلى كل مايحيط بي . كنت أكتب له بغبطة وقلبي يخفق ظانة أن معلوماتي غير كافية ، الأمر الذي سيحزنه ولاشك . ولكنه كتب لي في إحدى رسائله يقول . « إن رسالتك تشهد بتطور ملحوظ في ذكائك . . » وقد أسعدني هذا التصريح وأقنعني في الوقت نفسه ، بأن صداقتي لغوركي أفادتني كثيراً ، إذ كان يوجهني ويرشدني إلى كل ماهو خيّر ومعقول .

وأنا أحتفظ بجميع رسائل غوركي ، وقد نسخها لي أستاذي بالحرف النافر ، وعلى هذا أستطيع أن أعيد قراءتها متى شئت . نعم ، فما زلت أقرؤها وأدرسها فهي معين لاينضب من حكمة كاتبٍ عظيمٍ صادق .

عام ١٩٤٠

رحلة غير متوقعة

ذات يوم صيفي خرجت مع (م . ن) إلى مدينة (موسكو) لبعض الأعمال . . . واقترحت (م . ن) قائلة :

– حبذا لو قصدنا قصر آل رومانوف . وهو يقع هنا في هذا الشارع . هل سبق لك أن زرتِهِ ؟

– لا .

– كم أحب زيارة قصور النبلاء . . .

وكنت قد قرأت كثيراً في القصص التاريخية أوصاف بيوت القياصرة والنبلاء بمواقدها الخزفية الملونة ، هذه البيوت ذات السلالم الملكية المهيبة . . . والنوافذ الضيقة . . . مع أجنحة الحريم . . .

وكنت أتصور منازل النبلاء كمنازل هذه الأيام ، مضافاً إليها قاعات واسعة وغرف أصغر للنوم وبدت لى المواقد الخزفية ذات الأحواض كالمواقد الروسية العادية المصنوعة من الآجر والفخار مضافاً إليها الطنف الكثيرة والأفارير العديدة .

كنت أتوقع أن يكون مسكن آل رومانوف متحفاً . . . فتمنيت أن يكون محتفظاً بمظهره القديم . وكم كانت خيبة أملنا عظيمة ! فعندما وصلنا إلى حيث نقصد علمنا أنه ليس هناك من متحف ، وما هي إلا مجموعة مكاتب . ومع ذلك طلبنا السماح لنا بالدخول لعلنا نجد بعض المعالم من فن العمارة القديمة أو ملامح من حياة النبلاء . .

وقد بقي فعلا في الطابق الأرضي بعض غرف صغيرة مع بعض

عرف للنوم ، وستائر من البروكار تغطى الجدران . وفي إحدى الغرف وجدت موقداً خزفياً ذا حوض أثار انتباهي وشدني . وهو لايشبه أبداً مواقد المساكن الخشبية الروسية أو الأوكرانية وقد عاينته بانتباه كما عاينت حوضه المزخرف . وقد كان مصنوعاً من مربعات ناعمة صقيلة ذات أحجام وأشكال مختلفة عليها نقوش بارزة عديدة تمثل أزهاراً وأشجاراً وعصافير وحيوانات .

وقد أخبرتني (م . ن) بأن النقوش الملونة جميعها على غاية من الجمال ، وقد أعجبتني كذلك فلم أكن أريد أن أرفع يدي عنها .

وهممت كذلك بمعاينة الباب فعاينته . ولم يكن عادياً . وهو لايشبه أبداً أبواب البيوت الحديثة وقد تعثرت أول الأمر بالعتبة المرتفعة . كانت تلك الأبواب واطئة ضخمة سميكة مغطاة بالقماش وتنتهي أحزاؤها العليا بأشكال هلالية . وبعد أن تفحصت بابين منهما فهمت ماورد في الكتب من أن الناس كانوا مضطرين للانحناء وهم يدخلون هذه المنازل . وقد أسفت لأني لم أجد شيئاً من الأثاث و الأدوات المنزلية .

وتوجهنا بعد معاينة الطابق الأرضي نحو الدرج المؤدي إلى الجناح القديم الخاص بالحريم . وحسب ماجاء في الكتب ، تصورت الدرج بسيطاً شديد الضيق ذا درجات خشبية واطئة وظننت أني سأصعده بسهولة بل سأجرى عليه جرياً . ولكن ذلك الدرج لم يكن كما ظننت ، فقد كانت الدرجات مرتفعة ضيقة مزعجه والسقف واطئاً . . وهكذا شُغلتْ (م . ن) بنفسها ، فكان علي أن أدافع السقف وحدي

بجبيتي . . . إذن كان قدماء النبلاء يحفظون نساءهم وبناتهم جيداً ، فليس من السهل الصعود بسرعة على مثل هذا الدرج ، ولاسيما في الظلام . وكان في الجدار بعض الكوى الصغيرة . . وقد خاب أملنا لأننا لم نعثر على أي أثر من جناح الحريم ، فكل الغرف كانت مقطعة بالحواجز . . . وتغص بأناس يروحون ويجيئون . . .

وهكذا ماكان أمامنا إلاأن نعود أدراجنا . . ررحت أصدم سقف الدرج برأسي وأنا أنزل . . . وكنت أعاني إشفاقاً كبيراً على النساء اللواتي عانين هنا من الحَجْر والعزل .

وقد جعلني هذا الدرج العتيق أفكر برواية ألكسي تولستوي (الأمير سيريبرياني) فتصورت النبيل العجوز (دروجينا موروزوف) لابساً الثياب القديمة المهفهفة . وتمثلته شيخاً صارماً ماكراً ذا لحية طويلة . . ثم تصورت بعد ذلك حديقة البيل الكبيرة محاطة بسياج مرتفع . وذات ليلة صيفية عاطرة دافئة احتارت زوجته الشابة (هيلين) الحديقة ، وقد ارتدت ثوباً طويلا واتشحت بوشاح من الحرير . . . وهاهي ذي قادمة لتقابل الأمير قرب السياج . . . وهي خائفة . . أما النبيل العجوز فيصعد الدرج الضيق العسير وبيده شمعة ليلحق بزوجته . . . ثم هاهم أولاء حنود الحرس الخاص المدعوون إلى مائدة النبيل . . . وتصورت جمعاً حاشداً من الناس يغمرهم الانشراح ، لكن الحرّ في هذه الغرف الضيقة يكاد يختنق أنفاسهم وأرى الأمير فيازمسكي وقد هيجه الشراب مطوي الجسم ، يسرع في هبوط الدرج الوعر حاملا بين ذراعية الزوجة الشابة الفاقدة الوعي . . . وهو من السرعة بحيث لا يلاحظ أن رأس المسكينة (هيلين) تضرب السقف .

كل هذه الصور راحت تنساب أمام ناظري ، بينما كنت أهبط

الدرج ببطء مستندة بيدي إلى الجدار الذي اكتشفت فيه كوى ضيقة رحت أعاينها . كانت أجزاؤها العليا مدببة ، فاستطعت أن أتصور بوضوح فن العمارة القديمة ذات الأقواس كما قرأت عنها في الكتب .

ولدى وصولنا إلى الطابق الأرضي ، اجتزنا باباً حديدياً ثقيلا إلى مايشبه غرفة صغيرة . وأخبرتني (م . ن) أن ذلك هو درج التشريفات القديم . وكنت أتصوره على صورة مخالفة تماماً ، عريضاً مزيناً بالنوافذ المشبكة والأعمدة المنحوتة الخفيفة التي تعلوها تيجان مغطاة بالنقوش الخلابة .

ولاحظت في منازل آل رومانوف أن الجدران والأبواب والنوافذ سليمة متينة ، وقد بنيت لتبقى على الزمن ، بينما كنت أظن أني لن أجدها إلا أطلالا .

ألا ما أمتع أن نعقد صلات التعارف مع الأزمان الغابرة ونرحل إليها بأفكارنا ، فنتصور حياة الناس عبر القرون . وهكذا حينما أتجول في موسكو ، تحدوني رغبة ملحة في أن أتصور هذه المدينة كما كانت في مراحلها الماضية المختلفة وأقارنها بعاصمة اليوم الموارة بالحياة والبناء الدؤوب .

فيما مضى كانت الأزقة والساحات المظلمة في موسكو من نصيب الفقراء ، بينما تسرح مواكب الأغنياء من ذوي الشحم واللحم في الشوارع العريضة . أما اليوم فعشرات الألوف من الناس المرحين ذوي الهندام الحسن ، يملؤون الشوارع الفسيحة في العاصمة وساحاتها المترامية . وتنساب السيارات والحافلات والباصات في كل اتجاه

وكذا المترو الخلاب ! . . وحينما أتجول في موسكو أشعر بالفخر والزهو لأني أعيش في هذا الزمن مع هذا الشعب المقدام .

عام ١٩٥١

البحر وحديقة النباتات

أنا الآن على شاطىء البحر في (سوتشي) . ومرافقتي (تانيا) تتأمل البحر وتخبرني بأنه أزرق غامق ، مع شيء من الخضرة قرب الشاطىء ، وأزرق فاتح في اللج حيث يلتحم بالأفق . وهناك زورق يعبر من بعيد . . أما أنا فلا أحس إلا برائحة البحر وبنسمات خفيفة ندية ، وبالرمال والحصى تحت قدمي . وكانت (تانيا) تهتف من حين لآخر . ما أجمل البحر وأروعه ! . .

وأنا لاأستطيع تصور اتساع البحر ، لكني أتخيل الموج بوضوح ، ذلك (البلور المتحرك) ذا الحيوية الخاصة والقوى الهائجة المتجددة . والأمواج تتداح على الشاطىء لتضرب الصخور بعنف وقسوة ، وأنا أحس بذلك ولذا أستطيع أن أتصور مساحات شاسعة من حولي ، والأمواج القادمة من بعيد يختلط بعضها ببعض في اللج عند الأفق . ولست أملك أي تصور بصري عن الأفق ، لكن يمكن أن أتمثله إذا شُبه لي بمقطع عملاق مائل فوق الأرض تلامس أطرافه الماء أو اليابسة . وكنت قد قرأت منذ زمن بيتين من الشعر (لنادسون) :

ومن بعيد . . . كان يُرى الأفقْ
يندغم باللجج السحيقة

وكم أتمنى أن أقدر على تصور اتساع البحر وضخامته . وفي

أول مرة شاهدت فيها البحر خلال العطلة ، كنت أقصد إليه كل يوم لأستحم أو أجلس قرب الماء ، فأحس الأمواج بقدمي وهي تلامسها ثم تختفي . كنت أستحم في كل الأوقات ، حتى أتعرف على البحر هادئاً ومتموجاً وصاخباً ، كما أتسلق الصخور المشرفة عليه فترشني الأمواج المتكسرة على الصخور بعنف وقوة عندما يهيج البحر . وكنت أمثل لنفسي ذلك الفضاء الرحيب الذي تشغله تلك الكتلة المائية الجبارة حتى تكون على هذه الدرجة من القوة .

ورحت أتذكر الأساطير ، فتصورت (بوسيدون) إله البحار وهو يغرف بيديه الجبارتين الماء الغزير من أعماق الأرض لصبه بقوة فيروي الكرة الأرضية . وأنا أتصور (بوسيدون) نفسه عملاقاً ذا كتفين عريضين وذراعين طويلتين قادرتين ، وشعر كثيف أجعد ملبد . أما لحيته فليست أقل كثافة من شعره . . . وحينما كان (بوسيدون) يغضب ، يهز رأسه بعنف ، فسرعان ماتثير لحيته وشعره الهواء ، فتهب العواصف . . . وهكذا كنت أستسلم لهذه الأخيلة وأنا على الصخرة .

وفي سوتشي كنا ننزل أنا وتانيا إلى البحر مرات عديدة كل يوم . (وكنت مقيمة في إحدى بيوت الراحة المسمى الريفييرا القوقازية) . وفي الحديقة درج يؤدي مباشرة إلى الشاطىء . ومن سوء الحظ أن الأوان لم يكن أوان سباحة (إذ كنا هناك في آذار والنصف الأول من نيسان) فاكتفينا بالنزهات على شاطىء البحر .

وقد سُحرت تانيا بجمال البحر وعظمته . . وكانت تقول لي أحياناً : اليوم يبدو البحر هائجاً . . . والأمواج قد اجتاحت المقعد

الرملي حيث تنزهنا مساء البارحة . أتريدين أن أقترب بك من الماء كي تتمكني من رؤية الأمواج ؟

وذات مرة اقتربنا من البحر في اللحظة التي تراجع فيها الموج . انحنيت ولمست الرمل بيدي فوجدته مبللا . . . أدركت أن علينا أن نهرب أسرع مايمكن قبل أن يرتد الموج ؛ وشدتني تانيا إلى الخلف ، لكنّ رغبتي في أن ألمس الأمواج خطماً ، وحرصي على أن أشعر بها وأتحسس قوتها سمّرني في مكاني . . وهكذا غمرت الموجة جسدينا فرشّتْ منا الوجه والرأس ، ثم انسحبتْ بطيئة وكأنها أعجبت بما فعلت بنا . وسألتني تانيا قائلة وهي تضحك : والآن . . هل كونتِ فكرةً عن الموج ؟ ورحت أضحك على الرغم من البلل الذي أصاب حذائي وجوربي وقسماً من ثيابي . وشعرت كذلك بالماء داخل حذائي (ينقّ كضفدع) . . . وعدنا لنبدل ثيابنا . .

وأدركت بنفسي لأول مرة أن (البلور المتحرك) جميلٌ ممتع على البعد . . وهو أقلّ جمالا ومتعة إذا اقتربت منه !

وكانت (عظمة) البحر تحيرني على الدوام فأسأل جميع المصطافين عن المسافة بين سوتشي وسيباستيبول أو أوديسا ؛ كم كيلو متراً تبلغ؟ لكن تانيا تصرفني عن ذلك فتقترح علي زيارة حديقة النباتات .

وزرنا حديقة النباتات بعد الفطور في يوم دافىء مشمس من أيام نيسان . وكانت شمس الصباح اللطيفة تبشر بيوم رائع ، وشعرت بأن كل الأحياء لابد أن تستشعر مثل فرحنا وحماستنا ، وأنّ كل مافي الطبيعة لابد أن تدب فيه الحياة ويفرح بانبعاثه الجديد .

وبعض المخلوقات الكبيرة القوية المتينة كالحيوانات والأشجار تعمّر طويلا ، بينما لاتعمر الحشرات الصغيرة والأعشاب مثلها فلا تدوم حياتها أكثر من سحابة يوم مشرق أدفأته شمس الجنوب الكريمة .

وأنا أتصور حديقة النباتات على أنها حديقة كبرى أو عامة ذات ممرات مستقيمة عريضة مفروشة بالرمل أو بالحصى الدقيق . ولكن واقعها كان غير ذلك ، فلدى دخولنا وبينما (تانيا) تشتّري البطاقات شممت روائح عطرية تصدر عن مختلف النباتات . وبعد أن خطونا قليلا في أول ممشى أحسست بأني أسبح في بحر من الشذى . وكان لابد من صعود درجة صغيرة للوصول من ممشي إلى آخر . ولم يسبق لي أن رأيت مثل هذه الدرجات في الحدائق العادية ؛ وها أنذا أتصور ممرات هذه الحديقة كمسطحات فسيحة بعضها فوق بعض ، فيها أشجار الغار والسرو إلى جانب أشجار النخيل العملاقة المروحية (والمانوليا) وغيرها . . .

وقادتني (تانيا) صوب أشجار السياج والنباتات الصغيرة ذات الأوراق الدقيقة (والتي أجهل اسمها) وقد غرست على هيئة حلقات ، وفي وسطها ترتفع شامخةً أشجار النخيل أو الغار . وأحواض المياه محاطة بنباتات تزيينية .

وكلما توغلنا في هذه الحديقة كان إعجابي يزداد فقد فاقت كل ماتوقعناه .

وقد أحببت الزروع دائماً . . . وكنت مهتمة بعلم النبات . . وفي البيت أزرع مختلف أنواع الحبوب وبذور الثمار . وعلى الرغم

من أني قرأت كتباً عديدة فأنا عاجزة عن تصور أشجار السرو أو النخيل أو الغار أو الأرز الجبار . وقد جعلتني حديقة النباتات أفكر بالحكايات السحرية في (ألف ليلة وليلة) .

في هذه الحديقة لاتعيش النباتات في عزلة . . . بل يخيل إليّ أنها تتجاذب فيما بينها أطراف الحديث بحيوية ونشاط . وعلى الرغم من أني أجهل لغة الأزهار فان أصابعي (تصغي) إلى دمدمتها العجلى . وعندما تداعب يدي حذرة متأنية الأغصان والأوراق التي تهزها النسمات ، يحيل إلي أن تلك النباتات تحرك رؤوسها لتبوح لي بمجموعة الأسرار الهامة التي أودعتها فيها الأرض والبحر والشمس .

وهناك نباتات كثيرة عرفتها عن طريق السماع فوجدتها أجمل أو أقل جمالا مما هي عليه في الواقع ، فزهرة الكاميليا لم أرها أبداً ولا أعرف سوى رائحة عطرها . كنت أتصورها جميلة تشبه وردة بيضاء ذات تويجات غضة . . . وها أنذا أرى الآن في هذه الحديقة شجرة كاميليا لم تتفتح أزهارها بعد . . . وعلى أغصانها أوراق خشنة سميكة . . ومن الصعب أن يتصور المرء أزهاراً عاطرة ساحرة يمكن أن تنمو على مثل هذه الشجرة . . وهكذا لم أنجح في إخفاء خيبة أملي فسألت أقول . هل هذه شجرة كاميليا حقاً ؟ قد نكون مخطئين . . . فأنا أتصور أوراقها ناعمة وذات أطراف مخملية مُحرّزة . . .

وقطفت خلسة ورقة أو زهرة من كل غرسة وخبأتها في جيب سترتي ثم جربت أن أجفف تلك (الكنوز) لأعود بها إلى البيت ، ونجحت كذلك في قطف زهرة من شجرة (مانوليا) صغيرة .

وقبل مجيئنا إلى (سوتشي) كانوا قد حاموا لي من (توابسي) أغصاناً ذات براعم من المانوليا . . . ولهذا خلال زيارتي لهذه الحديقة كنت ما أزال أجهل رائحة المانوليا المزهرة . كنت أعتقد أن رائحة الورود أجمل الروائح فأدركت في حديقة النباتات أن زهرة المانوليا لاتقل رائحتها جمالا عن الورد .

وعندما أشم كل تلك الروائح أقول لنفسي : « أنا لم أر زهرة اللوتس ولن أراها إلا هنا في حديقة النباتات أو حيث تُزرع فيتسنى لي أن أستمتع بأريجها العاطر » .

وأنا أتصور أزهار اللوتس كزنابق كبيرة ذات كؤوس واسعة وروائح عاطرة عبقة . وهي تبدو لي على درجة من الجمال حتى إني أكتب إلى أصدقائي قائلة : « لاأستطيع أن أقارن هذه الرائحة إلا برائحة اللوتس الإلهي . . . » وقد قرأت بعد زمن طويل وصفاً لزهرة اللوتس في إحدى المقالات : « إن زهرة اللوتس تشبه الوردة ، لكنها أكبر منها . وعمرها لايتجاوز ثلاثة أيام . . أما لونها فغريب جداً ، ففي اليوم الأول تبدو بلون أحمر وردي . وفي اليوم الثاني تصبح فاتحة ، وفي اليوم الثالث يصبح لونها طحينياً . . أما أطراف التويجات فتبقى أقرب إلى اللون الوردي . . . »

إذن كنت أتصور أزهار اللوتس على صورة مختلفة تماماً زد على ذلك أني كنت مقتنعة بأن اللوتس الذي ينمو في مناخ حار حيث لاشتاء ، يظل مزهراً طوال السنة . ولسوء الحظ أننا لم نتمكن من زيارة الحديقة كاملة ، وكان يمكن أن نجد فيها زهر اللوتس الذي لاأعلم أيهما أجمل أتصوري عنه أم واقعه الحقيقي ؟

وقد غصّت جيوب سترتي بمجموعة من الأوراق والأغصان الصغيرة بالاضافة إلى محفظة (تانيا) ؛ وقد شدهت بما رأيت ورحت أتحدث عن الأزهار إلى (تانيا) التي حارت في أمرها وما عادتْ تعرف أين تقودني . وقد قالت لي :

ـ كأننا نعيش حلماً لاواقعاً !

ـ نعم . . . كل ماحولي يذكرني بحكايات شهرزاد . وما نراه الآن أجمل . . . فليس حلماً . . إنه الحياة نفسها !

ـ وأنت (ياتانيا) تحدثينني عن البحر وروعة الجبال وجمال المدينة التي ترينها من الشرفة وكل ذلك لدي ليس إلا صوراً (كلامية) مبهمة لالون لها ولا أقوى على لمسها . أما هنا فأدرك كل ماحولي بقوة ووضوح . . . وقد استطعت أن أشم روائح النباتات . . . وطفت معك في الممرات وأنا أتصور تقريباً مواقعها ، ولهذا (أرى) حديقة النباتات بوضوح وجلاء أكثر مما أرى البحر البعيد وقمم الجبال وأضواء المدينة . . هنا أتنزه معك وأعاين كلّ ما أقدر عليه وأشعر في ذلك بمتعة عظيمة .

وهل لي أن أستطرد إلى جو آخر ؟ تلك هي أشعة الشمس الربيعية تدفىء كل ماتصل إليه . وأنا أتصور الشمس دائرة نارية عملاقة تتدفق منها ألسنة اللهيب . . وحينما تغادر هذه الألسنة مركز الدائرة تغير شكلها لتصبح سهاماً طويلة تخترق الهواء فتضيء وتدفىء كل ماتصادفه في طريقها . . . ويهب نسيم بحري لطيف يحمل معه موجات ناعمة من الرطوبة تلطف الحرارة .

وهكذا كان الانطباع الذي خلفته حديقة النباتات لدي أقوى وأعمق من الانطباع الذي خلّفه البحر .

وأنا أحب البحر حبّ الشعراء ، لكني عاجزة عن تصوره على حقيقته ؛ على هذا فحديقة النباتات لدي أقرب مثالا وأوضح تصوراً .

رويت لأصدقائي تفاصيل زيارتي لتلك الحديقة بعد عودتي من سوتشي . وقد مرت سنوات عديدة ؛ وها أنذا أكتب الآن هذه الأسطر وهي ماثلة في محيلتي كما رأيتها في ربيع ١٩٤١ .

ولا شك أن الدقة في الوصف لم تخالفني دائماً ، فأنا لا ألجأ إلى تدوين الملاحظات وإنما أستلهم ذكرياتي وأستوحيها .

عام ١٩٥١

في « داتشا » (١) ري سيمينوفسكي

دعيت مع مترجمتي (م ن) لقضاء العطلة في مخيم للأطفال الصم البكم يقــع في قرية سيمينوفسكي على بعد عشرة كيلو مترات من سيربوخوف . وقيل لنا إن رحلتنا ستكون بالسيارة . وأنا أتصور نفسي داخل السيارة كأني في سفينة تنزلق في الهواء وتكاد تلامس الأرض ، وأحس فيها بالاهتزازات و الارتجاجات ، كما أشم روائح الهواء والغابات . تمثلت كل ذلك لأني لم أخرج قبل الآن بالسيارة إلى ضواحي موسكو .

ولكن لدى وصولنا إلى المدرسة ، مركز الانطلاق ، علمنا أن سفرتنا ستكون بالشاحنة التي تنقل الأغذية أو الأمتعة إلى المخيم ،وسيرافقنا مدير المدرسة ، وهو مدير المخيم كذلك ، وأشخاص آخرون لا أعرفهم .

---

(١) منزل ريفي روسي يبنى بجذوع الأشجار

وحينما جلسنا على الحقائب قلت لنفسي : « هذا أفضل ولا شك من ركوب السيارة المغلقة وسيتاح لي مزيد من الانطباعات » .

وخلال اجتيازنا المدينة شعرت بروائحها وغبارها وحر الصيف الخانق . وطلبت من (م ن) أن تنبهني إلى اللحظة التي نغادر فيها المدينة حتى يتسنى لي تقدير المسافة التي سنقطعها بحساب الزمن . كانت الشاحنة تسرع في الشوارع ولكني لا أسمع ولا أرى السيارات الأخرى أو الترام أو الباص أو الناس والبيوت . وأنا أتوقع كل ذلك توقعاً . . وما من أحد في الشاحنة يصف لي ما يدور حولنا . وكل ما أقوى على تصوره أولئك المسافرون معي فأنا ألمسهم كما ألمس الأمتعة إلى جانبي . ولو أن أمراً مفاجئاً حدث في الشارع فوصفته لي (م . ن) بحماسة أو قلق أو فرح لكان بمقدوري تصور ما يجري . لكني لا أشعر في هذه الشاحنة إلا بالريح وبالحركة .

وانتابني الملل بعد قليل من الجلوس بلا كلام ، فسألت (م ن) عما ترى في الشوارع ، فأجابت بأنه لاشيء يستحق الذكر . ومع ذلك كنت قادرة على تصور الناس والبيوت والساحات . وفي المساء عندما غادرنا المدينة لم أعد أحس بشعاع الشمس ، بل بالهواء الريفي الرطب النقي . وراحت الشاحنة تسرع ليشتد الهواء ويلفنا كالأمواج . . . وشعرت بالبرد فلبست ثياباً دافئة ولففت جسمي حتى الذقن ببطانية . . لكن البرد اشتد فاضطررت إلى اخفاء رأسي كذلك فما عدت أشعر بالريح وخيل إلي أني في مقصوره باخرة تطوح بها العاصفة ، فالطريق ولاشك ، وعرة ونحن نرتج ونتمايل في شتى الاتجاهات . وكلما ابتعدنا عن المدينة كان الهواء يبرد فأتخيل أننا نعوص في بحر بارد ساخط . وكان

لابد أن أنام ، لكن إحساسي ذاك كان قوياً حتى اني رحت أتلمس البطانية لأرى هل هي مبللة حقاً وقد كانت باردة رطبة فعلا . وفي العاشرة مساء اشتد البرد فما عدت أقوى على مقاومته على الرغم من الغطاء . ولم أكن أعلم هل الليل مظلم أم يضيئه القمر . وحينما أخرج رأسي من الغطاء لحظة أحس بالهواء الجليدي فأقرر أن الليل حالك السواد . وقد سألت (م ن) أكثر من مرة : هل أنت نائمة ؟ هل الليل مظلم جداً ؟

وكانت نائمة حقاً فتجيبني بلهجة غير واضحة . . فتركتها وشأنها وأنا راغبة في النوم لأن البرد يقوى ويشتد . واستيقظت مرات عديدة لأعاين جسمي وجسم رفيقتي لأتحقق من أننا لم نبتل . . . فقد كنت على شبه اليقين من أننا وسط بحر جليدي . ولم أعرف كم من الوقت بقيت نائمة ، وهل استيقظت حين وقوف الشاحنه عند المخيم ، أم قبل ذلك . وأخبرتني (م ن) بوصولنا فسررت كثيراً . . . وساعدني أحدهم في النزول . . وشعرت بأني تجمدت من البرد وخيل إلي أننا تعرضنا للغرق ونزلنا في جزيرة مقمرة . . وكانت هذه الفكرة من القوة بحيث أني شممت رائحة نهر أو مستنقع قريب منا في الغابة . كنت متعبة أرهقني البرد وأرعب أن أنام في سرير جاف دافيء . . ولكن رائحة الرطوبة تلك ماتزال تلاحقني . . فأقول لنفسي : لابد أن هناك مستنقعاً يختبيء قريباً منا بين الأشجار . .

وقد عبرنا ، ولا شك ، ممشى محاطاً بشجر الزيزفون . . فقد شعرت برائحة زهره . ولكي أطرد (فكرة البحر) عن رأسي حاولت أن أتصور أشجار زيزفون قديمة تعلوها الأزهار الفواحة . . . لكن

جهودي لم تثمر ، فأنا لم أنجح في أن أبعد عن فكري تلك الصورة الملحة لهذا المستنقع ، وكأنه روح شريرة خفية قابعة بالقرب مني تهزأ بي وترعبني .

ولم يسبق لي أن دخلت في غابة كبيرة . . . ويخيل إلي أن فيها دوابّ صغيرة وعفاريت وجنيات تختبىء في الظلام البارد على أغصان الأشجار تدمدم لي بوقاحة ، كما هو الأمر في الأحلام أو الأساطير ، قائلة : « هلمي هلمي . . إلينا . . . » ، بل إن رائحة الزيزفون العاطرة لم تخفف من حدة هذه المشاعر التي جمّدت الدم في عروقي . . وهكذا ماكنت راغبة إلا في غرفة مريحة دافئة إلى جانب (م ن) ، فهي تسمع وترى وتستطيع أن تهرب بي بعيداً عن المستنقع والغابة وعفاريت الظلام !

وخصصوا لنا مؤقتاً مهجعاً خاصاً بالكبار . واستيقظت حوالي السادسة صباحاً . ومن النوافذ المفتوحة كانت تتسرب إلينا برودة الصباح مع الروائح المسكرة للخضرة والأرض الرطبة والزيزفون المزهر وهي تغريني بالخروج وقد تبددت مخاوف البارحة . . . وها أنا الآن أتنسم الروائح ، وأشعة الشمس تداعب سريري فأدرك أن الطقس جميل وأنا راغبة في الخروج ؛ لكن الفتيات اللواتي استيقظن اقتربن مني للتعارف . وكذا استيقظت (م ن) التي تشغل السرير المجاور ، فتبادلنا تحية الصباح ونحن نتذكر ضاحكتين ، سفرة البارحة وخوفي من أن أبتل بالبحر . . . ثم أحاطت بنا المرشدات مع الفتيات .

ورحت أتحدث مع الفتيات عن إقامتهن في المخيم وتسليتهن وكتبهن.

وكنت أحاول من الأجوبة أن أعرف مدى تطورهن العقلي ، ومستوى معرفتهن باللغةالروسية ، كما حاولت بفضل حركات الأيدي وسرعة الاجابة أو بطئها ، أن أكون فكرة عن كل واحدة منهن . وبدا لي بعضهن أكثر نشاطاً وتقدماً ، والبعض الآخر بطيئات التقدم . وهذا يعود ، ولاشك ، إلى أنهن لايكثرن من المطالعة . وحينما غادرننا لتحية العلم نهضت بصحبة (م ن) ، وبينما راحت هي ترتب الأسرة وتنظم حوائجنا ، حاولت كعادتي أن أكوّن تصوراً عن مساحة المهجع وتنظيم أسرّته وعدد النوافذ وموقع الباب . . وكان لابد من جولة فيأرجاء المهجع لأعاين كل شيء فيه ... وقررت أن أعاين بعد ذلك البيت الذي ننزله .

واتجهنا بعدئذ إلى الباحة ، وطلبت في الطريق من (م ن) أن ترشدني إلى سائر الغرف وتحدد لي عرض الدرج . وقد عددت درجاته كما أفعل دائماً في كل منزل أجهله . وشرحت ل (م ن) كم يهمني أن أتصور كل مايحيط بي فبذلت جهدها لتساعدني في ذلك . وفي العادة تختلط أول الأمر في ذهني على صورة عشوائية الغرف ومحتوياتها مع الجهاز الاداري والأطفال ، ولكني أدركأنيبعدفترة سآلف كل ذلك فأستطيع أن أتعرف كل قاعة من رائحتها وأبعادها . وعندما أدخل أول مرة في قاعة من القاعات لاأقوم بعدّ خطواتي بل أكتفي بملاحظة كيفية عبوري للقاعة : أسريع هو أم بطيء وهكذا يألف جسدي التوجه دون عناء في أمكنة جديدة أجهلها .

وما كدنا نصل إلى الباحة حتى شعرت على جسمي بشمس الصباح الممتعة وهي ترسل أشعتها شلالاتٍ من الدفء . وهاهو ذا النسيم

البارد المنعش يغمرني كموج البحر . . . ألا ما أمتع ذلك ! وتصورت نفسي ثانية أسبح في بحر (هوائي) لكنه يختلف أيما اختلاف عن (بحر) الليلة الماضية ، فالشمس والحرارة قد غيرت كل شيء . . ويخيل إلي أني أكاد أرى النور فأنا أحس بدفء الشمس على جسدي فأقول لنفسي : كل شيء في هذا الصباح يغنّي وقد غمرته البهجة . وكم أتمنى أن أجري وأغني وأمرح !

هتفت قائلة :

— ما أسعدني وما أعمق نشوتي ياماريا نيكولايفنا ! ياللصباح الرائع والهواء النقي ! يخيل إلي أن فرحاً ملوناً كقوس قزح يتماوج من حولنا ، أنا لم أر قوس قزح ، لكني أتصوره جميلا كهذا الصباح ! .

واسترسلتُ أقول :

— في الحق أنك تسمعين وتبصرين . . أما أنا فأشم وأتصور على طريقتي الخاصة أخبريني يارفيقتي هل تشعرين بما أشعر به من متعة ؟

— وكيف لا ؟ إني أحس بالمتعة والفرح مع مثل هذه الأجواء حيث يَتَخَضْوْضرُ كل شيء ويلمع في ضوء الشمس وتنشد العصافير أجمل الألحان .

— آ . . . . . العصافير تنشد ! لا أستطيع تصور ذلك . . ولو أتيح لي أن أمسك بعصفور وأتحسس حنجرته الصغيرة بأصابعي وهو يغني ، فأستشعر اهتزازاتها . . لكان باستطاعتي تكوين فكرة عن غنائه .

وهكذا نزلنا نحو المستنقع ونحن نتحدث . . وسلكنا ممشى ضيقاً

يتلوى عبر الحشائش والأعشاب المرتفعة . إذ ظننت أن الماء دافىء ولذيذ مثل هذا الصباح ، خضت مندفعة في المستنقع ، لكن الماء البارد ارتج على الرمل وأرعجني ببرودته فأطلقت صرخة وهرعت نحو الحافة ضاحكة وقلت :

ـ أو . . ياماريا .

ـ ماذا دهاك ؟

ـ كنت أظن المستنقع صغيراً وماءه دافئاً ، ولكن يالبرودته !

ـ لم يدفأ ماؤه بعد . . وهو كبير وعميق حتماً ، فحوله كثير من الأشجار والظلال . أفهمت ما أعني ؟

ـ لا . . ليس تماماً . . ولو كنتِ تجولتِ معي حول حافة المستنقع ، فأطلعتِني على الأشجار ، ولو سبرت بنفسي عمق الماء لتصورت كل ذلك على نحو أفضل كما تتصورينه ، على وحه التقريب ، اكن بدون نورٍ ولا ألوان . . أما الظل فأنا أستشعره . .

ـ عليك ألاّ تذهبي بعيداً في الماء فهو عميق جداً . . وهناك بعض الأشجار في المستنقع . . . وسأحاول أن أطلعك على كل ما أستطيع .

وكانت قرية سيمينوفسكي تقع قرب المخيم ، ولما لم نجد غرفاً في المخيم قررنا استئجار غرفة عند أحد الكولخوزيين . . لكننا لم نشغلها إلا بعد يومين أو ثلاثة

وحينما وحدنا غرفة مناسبة عند إحدى الكولخوزيات انتقانا إليها فوراً . أما طعامنا فنتزود به من المخيم الواقع على هضبة من الجهة

الأخرى للقرية . ولم يكن المخيم بعيداً ، وكنت أذهب غالباً مع (م ن) لنجلب الطعام فيتاح لنا القيام بنزهة جميلة ، بالاضافة إلى أني أحاول أن أتحسس كل شيء وأفهم وأدرك ماحولي . خلال عبور القرية من طرف إلى طرف كنت أشم روائح بيوتها وأعشابها وأزهارها البرية التي تنمو في العشب قرب الأسيجة والمغاور كما أشعر برائحة الساقية . وفي الوقت نفسه تصف لي (م ن) كل ماتراه ، فاذا قلت لها : إني أشم رائحة تصدر عن بيت نمر بقربه ، وصفت لي تلك الرائحة وحديقة البيت .

وأنا الآن أعرف مواضع الغرف وترتيب الأثاث في البيت الصغير الذي استأجرنا فيه غرفتنا . وقد عاينْت بيدي كل شيء حتى ارتفاع الجدران الخارجية للبيت ، مما أتاح لي أن أتصور البيت الخشبي الريفي الروسي ، فأنا قد ولدت وترعرعت فى قرية أوكرانية أعرف تمام المعرفة بيوتها المبنية بالطوب ذات الأرض الترابية المرصوصة . وقد قرأت في الكتب وصف البيت الروسي الريفي ذي الجدران المبنيّة بجذوع الأشجار المدورة ، وكنت أظن أن الحطابين وحدهم يسكنون هذه البيوت لأنهم يقطعون الخشب من الغابة ويبنون به بيوتهم .

وفي الداخل تغطى جدران البيت بالورق الملون ، أما في الخارج فتشاهد الجذوع الصقيلة المتينة وقد رصفت بعضها فوق بعض بعناية واتقان . . وقد سدت الثقوب والفراغات بالكتّان . وتمتاز هذه البيوت بالمتانة والتماسك ، ولكن أدهشني أن يعيش الناس في مثل هذه المساكن وليس في بيوتٍ من الطوب كما هي الحال في أوكرانيا .

ويقوم مقام الردهة في ذلك البيت شرفة تعلوها أغصان الكرمة ، وفي الفناء أشجار كثيرة وأزهار منوعة من (الليلك) وغيره . . . فيخيل إليك أنك في حديقة صغيرة ولست في فناء منزل . وإذا نظرت إلى هذه البيوت من الشارع بدت مختفية تحت الخضرة . أما (م ن) فتطلعني على كل مايمكن أن أعاينه وهذا مايسرني . . . ثم نقضي السهرة على الشرفة . ولكن قبل حلول الظلام تقرأ لي رفيقتي . . . فاذا أظلم الكون وصفت لي مشاهد الليل .

في بعض الليالي الشديدة الظلام تبدو النجوم أكبر حجماً وأشد تألقاً . وحينما تصفها لي (م ن) أتصور هناك في أعالي السماء أعداداً لامتناهية من المصابيح الكهربائية المضيئة على صورة نجوم خماسية . وأنا لاأرى الضوء ؛ ولكنْ كأني أستشعر دفء تلك النجوم الزجاجية الكهربائية .

وقد أخبرتني (م ن) بوجود مصنع خلف القرية ، يضاء مساء بالمصابيح الكهربية المتميزة الخلابة . . . ولكن نظراً لبعد المصنع فأنا لاأقدر على تصوره وتكوين أدنى فكرة عنه . . وكل ما أقدر عليه ، أن أتخيله بناء معزولا قائماً في الجهة التي عينتْها (م ن) . . وعلى كلٍ أنا أعلم أن المصنع موجود حقاً لأن ابن صاحبة البيت أخبرني بذلك . وحينما كانت رفيقتي تشير إلى أضواء المصنع أقول لنفسي : « حبذا لو أتيح لي أن أتنسم رائحة دخانه أو روائحه الأخرى ، إذْن لجسّدْته لنفسي وشخصته » . وأنا لاأستطيع تصور أي مصنع بلا دخان أو روائح .

وفي الغالب كنا نتوجه إلى الغابة للنزهة حيث نجد (الفريز)

والتوت البري ، وأقوم بنفسي بقطف العنب البري من الشجيرات التي ترشدني إليها (م ن) ، وأنا أميز العنب الناضج من الفج بملمسه الطري . وقد نتوغل أحياناً في الغابة حتى نضل طريقنا . . ولست أدري إن كانت (م ن) تخاف ذلك أم لا ، أما أنا فكنت أشعر بالخوف . وقد قيل لي إن الغابة ليس فيها إلا الثعالب والسناجب ، لكن (الغابة) تثير في نفسي نوعاً من الخوف الممزوج بالمهابة من (شيء ما) ضخم كئيب . وها هنا أتذكر القصص الرهيبة عن غابات الشمال ، حيث الأفاعي المخيفة التي تبني أعشاشها بين الأعشاب العالية . ويقال : إن الخوف يضخم الأشياء . . وحينما كنت أدوس بنعلي الخفيف على جسم رخو بارد أصرخ من الخوف وأتشبث برفيقتي .

ذات يوم كنا جالستين في فسحة وسط الغابة وبالقرب منا نورج يصرّ إذا مالمس . وكنت أتكىء على النورج بينما راحت (م ن) تقطف التوت البري ، ولعل هبة هواء ، أو شيئاً آخر حركت القش فسقطت بعض الأعشاب الجافة علي . فتخيلت فوراً حيّة تخرج من النورج وتتجه نحوي ، أنا الوحيدة العزلاء . وقد سبق لي أن عاينْتُ أفعى حقيقية كما عاينْتُ أفاعي صغيرة محشوة بالقش ، وأنا أعلم أن ملمس الأفاعي بارد . وعلى الرغم من أن بعضها غير مؤذٍ فملمسها مع ذلك كريه ويصعب علي أن أكبت اشمئزازي من ملمسها .

إذن ؛ أنا أخشى من مجرد تصوري لأي جسم مغزلي يتلوى ويزحف . . وهكذا أجفلت قافزة أنادي (م ن) بأعلى صوتي . ولم تكن بعيدة عني فاقتربت حالا وسألتْ :

— ماذا بك ؟

ـ أنا خائفة . . ولعل هناك أفعى فالقش يتحرك . . . وقد أحسستُ بذلك .

أجابتني مُطَمْئنةً :

ـ لاأرى شيئاً . . . فقد يكون عصفوراً أو نسمة هواء .

ـ لاتبتعدي فأنا خائفة . .

وفي صغري عاينت بيدي ذات يوم أطفالا يشكّلون من الغضار بيوتاً صغيرة وكنائس ودمى وعربات وخيولاً . وقد كونت فكرة تقريبية عن أشكال قباب الكنائس بفضل هذا (الفن المعماري) الساذج . وكانت (م ن) تسترشد بقبة كنيسة سيمينوفسكي القديمة ، وذلك حينما تتوغل بعيداً في العابة .

ولما كنت قادرة على تصور قمم الأشجار التي طالما صعدت عليها خلال طفولتي لقطف التمار ، فليس من الصعب علي أن أتصور القبة المخروطية للكنيسة وهي تلوح فوق الأشجار من مسافة قد تكون صحيحة . وبتعبير آخر : أستطيع أن أتصور الخط المستقيم أو المنحني الذي يصل بين نقطتين . وكنا نبقى على اتصال بقبة الكنيسة بخط وهمي حينما نتوغل بعيداً في الغابة وهكذا ، بفضل معطيات الهندسة وتصوراتي للخطوط أنجح في تخيل الأشياء والمسافات التي يستحيل عليّ معاينتها بيدي .

ذات مساء جلست مع (م ن) وصاحبة المنزل وابنها (توليا) على الشرفة ، وراح كل منا يروي حكاية . وبدأ (توليا) يروي حكاية قديمة عن قطّاع الطرق خلال الحرب الأهلية بينما تترجم لي (م ن) .

وقد سبق لى أن قرأت قصصاً من هذا النوع ولذا لم يشدني ماسمعته فليس بالجديد علي .

وتوجهنا للنوم في ساعة متأخرة ، وكانت غرفتنا في الليل حارة الجو لأنَّ صاحبة المنزل تغلق الباب والنوافذ.اقترحت على (م ن) أن تنام معي على الشرفة ، لكنها خافت ولم تقبل . . . نمت وحدي على الشرفة بينما نام الآخرون وأغلقوا الأبواب بالمفاتيح . وكان ذلك في منتصف الليل غفوت بعد نصف ساعة ، ولكن لمدة قصيرة إذ شعرت بشيءٍ ما يسقط على قدمي ويتقدم ببطء على طول جسمي فوق الغطاء فقلت في نومي · « إنهم لصوص » ! وتخيلت حالا رجالا أشداء ملتحين ذوي أيدٍ جبارة يحملون الفؤوس وأسلحتهم في أحزمتهم . . وتصورت وجوههم الوحشية الحذرة . وانتابني الهلع حتى انتصب شعر رأسي فصرخت بكل قواي ونفضت الغطاء عن جسمي لأزيح مايدب عليها . خرجت صاحبة البيت من غرفتها وهي تركض وقد كانت نائمة ، لكنها حينما سمعت صراخي استجمعت قواها وهبت لنجدتي وتعرفت على يدها حينما لمستني وشرحت لها القضية بسرعة وتخبطٍ فأيقظتْ (م ن) التي سمعت كذلك (قصتي) ، وتساءلت الاثنتان عما يمكن أن يسقط علي . فكل شيء طبيعي . . . واقترحتا علي أن أنام في الداخل . . وسرعان ماتبدد خوفي ورحت أسخر من نفسي على ذلك الذعر . ورجعتا إلى المنزل قائلتين : إن عليك أن تقرعي الباب إذا ماتعرضت ثانية للخوف ، فالباب موصد بالمفتاح . وتسلحت بمظلة لأدافع عن نفسي إذا داهمني (اللصوص) مرة ثانية . ولم يطاوعني النوم خلال فترة . . وكان كل شيء هادئاً ثم غفوت دون

أن أشعر ولكن أحسست بعد قليل بضجة وبوقع أقدام على الشرفة شددت بقوة على مقبض المظلة لأقضي على ذلك العدو بضربة واحدة . واقتربت الخطى من الباب ولكن لم يلمسني أحد . وتذكرت أن (توليا يعود إلى البيت أحياناً في آخر الليل فصرخت :

– هل أنت هنا ياتوليا ؟

أمسك توليا بيدي . وأردفت أقول :

– لا بأس . . لقد خفت منذ حين لأن شيئاً ما قد سقط فوقي .

ودخل (توليا) البيت وبقيت وحدي ونمت دون استغراق لأ الهواء كان يوقظني أو لعلها فراشة ليلية . أمسكت بالمظلة ورحت ألو بها في شتى الاتجاهات . ومما لاشك فيه أني كنت أبدو في وض (المحارب) فما من (لص) يغامر في مهاجمتي ! . .

وفي الصباح فتشنا عما يمكن أن يكون قد سقط علي . . وأخير وصلت (م ن) مع صاحبة المنزل إلى استنتاج موحد : فقد كانت قطة عمياء تجوس في الفناء غالباً وتصطدم دائماً بكل شيء وتسقط من أعلى الحواجز . ولاشك في أن هذه القطة تسلقت شجرة كرز مجاورة للشرفة وسقطت علي . ولم يسبق أحد أن حدثني عن هذه الهر العمياء . ولو لم أسمع خلال السهرة تلك الحكاية المرعبة لكان خطر ببالي أن الذي قفز على جسمي هو هرة صاحبة المنزل . وعندما علمت بوجود ذلك الحيوان شعرت بالاطمئنان وألفت النوم كل ليلة على الشرفة متخذة بعض الحيطة ، فقد تسلحت هذه الليلة علاوة على المظلة ، بعصاً كبيرة . وطالما أني لاأرى ولا أسمع فان خيالات مرعبةتراود

فكري ، ولكني أخجل من ظهوري بمظهر الجبانة فأحاول التغلب على خوفي . ومن الطريف أن صاحبة البيت و (م ن) تخافان النوم خارج المنزل ، بينما أفعل أنا ذلك على الرغم من « غزوة الهرة » .

وقد بقي لنا أيام ثلاثة قبل مغادرة المخيم ، فرحنا نودع الغابة بنزهات طويلة . ووصلنا ذات يوم إلى زاوية رائعة قرب المستنقع ، فالصفصاف العجوز المنحني ذو الجذوع الضخمة يغطي جوانب المستنقع على حافة الماء بل يتجاوزه فتداعب أغصانه المتدلية صفحة الماء . وقد وصفت لي (م ن) كل ذلك . ورغبت في معاينة ذلك بيدي لأكوّن فكرة أدق وأوضح ، فوجدت لي (م ن) جذعاً مناسباً يغوص في عمق المستنقع ، أما أعلاه فممتد ومعلق فوق الماء بأغصانه الطويلة . نزعت حذائي وأنزلت رجلي في الماء ، ولم أكن قبل ذلك أتصور مايسمى برقرقة سطح الماء . . . فالنسيم يرفع الأغصان ثم ينزل بها لتتساقط منها قطرات كأنها الدموع . . وكنت أحس بعد كل نسمة بمويجات ناعمة خفيفة تتراقص على صفحة الماء . حينذاك عرفت أنها ولاشك (تجاعيد الماء) التي سمعت عنها . ولم أتوجه إلى (م ن) بأي سؤال لأتحقق من صحة استنتاجي . ولم أكن راغبة في الحديث آنذاك . فأنا أعاني حالة من الأسى . . ولكني أشعر بالراحة وأنا فوق تلك الصفصافة وأتملى بهجة الطبيعة بكل كياني . وطبيعي أني لا أرى المشهد الذي تتأمله رفيقتي ، لكني أتصور سائر الأشجار المنتصبة بجانب (صفصافتي) كما أتصور الطحالب المتشبثة بالماء قرب قدمي . ألا ما أمتع أن أتخفف من عناء التفكير وأبقى (معلقة) مع الصفصافة فوق الماء ، وأن أتحسس بيدي تجاعيد الماء البارد ! . . عام ١٩٥١

* * *

في بيت الراحة .

بعد انتهاء إقامتنا في سيمينوفسكي أتيح لنا أن نتوجه إلى بيت الراحة المخصص للصم البكم في (توابسي) ورافقتني (م ن) كما هي العادة . ولم يترك السفر عندي أي انطباع فقد كان شاقاً مضجراً كما هو الشأن في مثل هذه الأحوال . وحينما عبرنا خاركوف خلال الليل أيقظتني (م ن) كما أوصيتها . ولم أخبر أياً من أصدقائي في خاركوف بأني سأمر بها .. وكنت أشعر بالهدوء التام فلا ضجيج ولا أصوات تصل إلينا من الخارج .. والوقت ليل . . وأنا أعرف ذلك من ساعتي التي تحت الوسادة . . كنت أتصور مَنْ يمشي على الرصيف ، ولكن ماذا يهم فأنا لاأعرفهم وهم لايعرفونني . . أما أصدقائي فأتصورهم نائمين وربما يحلمون في هذه اللحظة ، وقد تكون أحلامهم سارة أو مخيفة . . ولكن على أي حال هم لايدرون بأني أمر بـ (خاركوف) وأفكر بهم وأتصورهم نياماً . ولو كان الوقت نهاراً لنزلت إلى الرصيف لأشم الروائح وأحس بالحركات وصخب الحياة يضج من حولي ، ولهاجت الذكريات عندي ، وما أكثرها وأوضحها حتى الآن ! . . . ولكنت عانيت من انفعالات شتى ، ولكني متمددة على سريري . وأعرف أن رفاقي ينامون في العربة ، ولا يهمهم أن يعرفوا أين يقف القطار .

ويبدو لي أن كل شيء هادىء مظلم . . . وذلك طبيعي وبديهي . وعلى الرغم من الهدوء والظلام فان هذا لايناقض حقيقة وصولنا إلى محطة خاركوف . . . وها أنذا أتصور المدينة وشوارعها والترام الذي لابد من استخدامه لزيارة الأصدقاء . . ولكني ما أزال هادئة فكل ماحولي ساكن يلفه السبات .

خلال النهار قرأت لي (م ن) بعض الشيء ، وبعد ذلك توجهت إلى الممشى ومكثت فيه طويلا أمام النافذة لأستشعر حركة الهواء التي أعرف منها في أي أتجاه يمشي القطار ، فأنا أمد يدي من النافذة فاذا كان الهواء خصيفاً من الجهة اليمنى مثلا كان معنى ذلك أن القطار يتجه يساراً وكنت أتصور أننا نخوض أعماق محيط هوائي . . ولكن دون طيران لأني كنت أحس دائماً بدوران العجلات التي التي تروق لي حركتها المنتظمة ذات الايقاع ، وكأنها تهدهدنا . وحبذا لو طال ذلك ، فقطارنا لابد واصل بنا إلى الهدف المنشود . وراحت الأفكار تتزاحم في رأسي بينما العجلات تدور دورانها . . وأنا متمددة في سريري ونعاس خفيف يداعب أجفاني معيدة في ذهني (لغة) العجلات ذات الصوت الرتيب : « تيك — تاك تيك — تاك . جرياً جرياً تيك تاك ، تيك — تاك . . »لاأستطيع أن أوضح سبب اختياري تلك الكلمات لأعبر عن صوت العجلات . وأنا لم أستعرها من احد ولم أسمعها ولم أقرأها . . بل ، على الضد ، حاولت للتعبير عن حركة عجلات القطار أن أختار كلمات أخرى أو مقاطع متقطعة ، لكني لم أنجح في الوصول إلى ما أريد . فقد تدفقت الكلمات عشوائياً إلى ذهني بينما العجلات (تغني) أغنيتها الرتيبة : « تيك — تاك . . . ».

وخلال وقوفي على النافذة كانت (م ن) تقترب مني لتحدثني عن الأماكن التي نعبر بها فتصف لي القرى التي تنساب أمامنا ببيوتها الأوكرانية البيضاء وحدائقها . . وتبدو لي هذه القرى من تلك المسافة صغيرة نظيفه . وأنا أعلل ذلك بأشعة الشمس التي تغمرنا فتجعلها ساطعة لامعة فلا نرى فيها التفصيلات والدقائق . .

وأنا لاأتمثل القرى والبيوت والحدائق كما تراها (م ن) ، وكنت أحس خلال إصغائي إليها بالشمس والريح الحارة وأريج الحقول الذي يخالطه دخان القطار . ويبدو لى أني لاأدرك إلا إطاراً ضيقاً غامضاً لتلك المشاهد . وإدراكي هذا ليس بصرياً ؛ بل يبدو لي أني أستشعر خطوطا خفيفة على نسيج هوائي مرهف . وعندما تقول (م ن) : إنها لم تعد ترى شيئاً تتمزق الخطوط وتتلاشى في الهواء ولاتبقى منها إلا الذكرى . . . وقد استمر ذلك طوال الرحلة .

وحينما عبرنا جسر (الدون) شعرت بأن رفيقتي تهتم به إذ راحت تنظر من النافذة . كانت رائحة رطوبة الماء . والنسمات الناعمة المرتعشة التي ترف عادة فوق الأنهار تفعل فعلها في نفسي . فتصورت بوضوح تام امتداد (الدون) الشاسع . هذا النهر الشاعري الذي طالما وصفه وتغنى به الكثيرون . وتصورت روافد كثيرة تنساب هادئة حيناً بين الضفاف الخضر . وحيناً تتدفق صاخبة من الجبال ، لتصب جميعاً في (الدون) . وكنت أستشعر بكل كياني المياه الدافئة الهادئة ، والباردة الصاخبة في كل تلك الأنهار . ومياه (الدون) لاتبدو لي ساكنة وإنما تجري ببطء مهيب ، والأمواج الثقيلة تجري نحو الضفاف . . . ولست أدري ماذا يرى المسافرون من حولهم ولا مايقولونه عن (الدون) ، فأنا مستغرقة في أفكاري ويكفيني ذلك .

ولقد أتعبني السفر مع حرارة الجو . . ولذا لم أغادر النافذة إلا قليلا في آخر يوم من سفرنا . وقبل وصولنا إلى توابسي ببضعه ساعات بدأنا نرتب أمتعتنا في الحقائب . . وسألتني (م ن) قائلة :

— ماذا ستفعلين بأزهارك فقد ذبل معظمها ؟

— إرميها . . . .

— إرميها أنتِ . . إنها لك ؟

وأخذت الباقة ولم أرغب في رميها من النافذة دفعة واحدة ، فهذا عمل عادي مبتذل ، وأنا أريد أن أبتكر وأطلق العنان لخيالي . كما أحاول دائماً أن أتفرد وأمتاز فأتصور أموراً خاصة بي تتفق مع طبيعة إدراكي الشخصي للعالم الخارجي ، وأرغب في مقارنة (كل شيء) بالواقع المادي المجسد . . .

وهكذا رحت أرمي الأزهار واحدة واحدة . . . فهل سقطت تحت عجلات القطار ؟ أم طارت على أجنحة الهواء ؟ . . فإذا قدر للزهرة أن تطير تصورتها وقد وقعت في أرض غبراء قاحلة محرقة . . وإذا دهستها العجلات تصورتها كُرِيّةً رطبة ندية . . لكني أعرف أنها ستجف بعد حين وأن الهواء سيطوّح بها على تلك الأرض الغبراء ..

ذلك ما راودني من أفكار قبل وصولنا إلى توابسي .

* * *

على بعد سبعة وعشرين كيلو متراً من توابسي يقع (بيت الراحة) وقد وصلنا إلى المدينة في الساعة الثالثة صباحاً . وقيل لنا إنه لابد من السّير على الأقدام إلى مكتب السياحة حيث تقلنا سيارة في النهار . . ولم نكن وحدنا إد وصل معنا عدد من الصم البكم في القطار نفسه . وكنت أشعر بأني على أحسن مايرام . وانتابني بعد أن عادرت القطار احساس متمير ممتع بأني أرجع إلى مكان معهود مألوف . وذلك

لقربنا من البحر الذي لم أسمع . ولاشك . ضجيج أمواجه . ولكني لاحظت وجوده من هوائه الصافي اللطيف المنعش ورائحته المتميزة . أما (م ن) فترى البحر وتسمع هدير أمواجه وهي تحس بالحبور الذي به أحس .

وما أمتع أن نترجل بعد مسيرة أيام أربعة في القطار ! وكانت الطريق صقيلة مستوية مستقيمة . وعلى الجانبين عسالج الورود ولكن بدون ورود . . والليل منشط والهواء صاف منعش . . وأنا لاأرى الظلام . . لكني أشعر به من رطوبة الليل . وفي الصباح عرفت بوجود الضباب دون أن يشير أحد إلى ذلك ، فأنا استشعر الظلام على وجهي ، وأميز الليل من النهار بالرائحة .

ورحنا نمشي مسرعين وأنا أحس بالخفة والمرح . . وعلى طول الطريق أشعر بالبحر (صديقي) الكبير قريباً مني يبث روائحه الطيبة . . وتملكتني الرغبة في التوجه إلى الشاطيء لأغوص وسط أمواجه الناعمة الباردة . . . ولكن هذا لن يكون إلا صبيحة الغد . ووصلنا إلى مكتب السياحة بسهولة وخصصوا لنا أسرة للراحة وأخبرونا بأن السيارة لن تصل قبل الثالثة بعد الظهر . وقد سرني ذلك فهذا سيتيح لي التنزه في المدينة والتوجه لتحية البحر بمعانقته . ولكني لو كنت استطعت أن أخمن أي استقبال يخبئه لي لما تعجلت في لقائه على هذا النحو المباشر .

ولم نم طويلا . . فاستيقظنا باكراً لتناول الشاي وقررنا التوجه إلى البحر لنستحم . . وبينما كان الآخرون يمزحون ويتناقشون ذهبت

في نزهة مع (م ن) . . وكنت أشعر بالصفاء والهدوء ، وقد تبددت انفعالات الليل . وكنت أشم عبق الأزهار المتسرب من الحدائق ، لكن رائحة البحر تطغى على كل الروائح . وما كان لي أن أتصور المدينة بتمامها : فأنا أحس بأرض الشوارع تحت قدمي . . ولكن لم يتح لي أن أكون فكرة عن حجم المدينة فجولتنا فيها قصيرة . . كنت أود حتماً أن أتجول فيها طويلا (لأرى) كل مايستحق المشاهدة من معالمها .. لكنْ كياني كله بأحاسيسي وأفكاري مأخوذ بفكرة السباحة والاستمتاع بالشمس . . وها هي ذي الشمس الملتهبة المحرقة تبدو لي في الجنوب (أضخم) مما هي في موسكو . وعندما نتجول في شوارع مدينة كبيرة كموسكو في أيام الحر اللاهب تبدو الشمس (أصغر) ، مع أن حرارتها الشديدة تضرب الرؤوس وتدعو الناس إلى التفتيش عن زوايا ظليلة . أما على شواطىء البحر في الجنوب فنحس الامتداد اللامتناهي للهواء الذي تجتازه الأشعة المحرقة للشمس الجنوبية الضخمة . وليس في شوارع توابسي زوايا ظليلة ومع ذلك لاتحس فيها بالضيق على الرغم من الحرارة اللاهبة التي تلف المدينة . . وهذا مايوهم بأن المدينة أكثر اتساعاً مما هي عليه . وإذا أتيح لي السير صيفاً في إحدى المدن ووصلت إلى ركن ظليل ، أحسست احساساً مادياً بأن الشمس تتضاءل أو أن أشعتها تصطدم بحاجز يحول دون وصول النور والحرارة .

أما الشيء الآخر الذى يشدني ويأسرني فهو البحر ، وأنا أتوجه إليه كما أتوجه إلى صديق نعبده ولا نملك إلا الانحناء أمامه .

وكانت آخر مرة زرت فيها البحر في ربيع عام ١٩٤١ . . وهاأنذا الآن أعود إليه لقضاء العطلة فأستمد منه القوة والشجاعة ، وأستعير

شيئاً من نشاطه وجرأته . . . واتجهنا صوب البحر مع زمرة من الصم البكم تغمرنا الحماسة . . . وكانت الطريق سهلةً في البداية . . ثم اعترضتنا جذوع أشجار رصفت جسراً على حفرة . كان القفز سهلاً على المبصرين ، أما أنا فعانيت صعوبة كبرى إذ خيل إلي أني أمشي على شبكة قضبانها متباعدة . وخفت أن تزل قدمي فأسقط في الحفرة العميقة جداً كما أخبرتني رفيقتي . وقد أنهكتني الطريق فاضطربت وتوترت أعصابي . . ولكن انتهى كل شيء بسلام وبلغنا شاطىء البحر الذي لم يكن سوى بقعة رملية يغطيها الحصى الذي يلعب به الموج . صعدنا على كومة من الحصى ونزلنا من الجهة الثانية وكان ذلك ممتعاً . ضحكت ورحت أخبط الماء كفتاة صغيرة وأنا ألج فيه . وشعرت بضربات الأمواج وهي تتكسر بلا انقطاع . . أما قاع الماء فكان يغص بالحصى الذي ينزلق تحت قدمي فيجعلني أغطس في الماء مرات عديدة . . وعرضت علي (م ن) أن نبتعد عن الشاطىء ، وحاولت عبثاً تعلم السباحة . ولكن دون جدوى . فذراعاي سرعان ماكانا تتعبان ، وقلبي ينبض بشدة حتى الإغماء .

وفي الساقية كنت أنجح في العوم أحياناً . أما في البحر فلا شيء من ذلك . ومع هذا لم أيئس من تعلم هذه الرياضة الممتعة . وكلما دخلت إلى الماء كنت أطلب من أحدهم أن يعلمني السباحة . . ورحت خلال فترة أقلد بيدي ماتقوم به (م ن) من حركات . وعندما بدا لي أني استوعبت مايلزم حاولت أن أسبح وحيدة . . . ولكن ما أصعب أن أقوم بحركات متوالية سريعة منتظمة . وفي الواقع إن من المستحيل أن نتصور بسرعة مجموعةً من الحركات ثم نقوم بتنفيذها في الوقت

نفسه ، وقد بلعت من ماء البحر مابلعت . . وها أنذا أصرح بأن البحر قد وفر لي مايكفيني من (المتعة) . ولكن ليت الأمر وقف عند هذا الحد.

أشرت إلى أن قاع البحر مفروش بأكوام الحصى الّتي تنزلق هنا وهناك عندما ندوس عليها . وخلال انشغالنا بالسباحة لم نلحظ أننا نقف على كومة كبيرة من الحصى . وقد استمتعنا كثيراً . . ولكن سرعان ماشعرت بالحصى ينزلق في شتّى الاتجاهات ورحت أغوص في الأعماق شيئاً فشيئاً . . ذعرت فتشبثت برفيقتي . . ولكنها لم تكن على حال أفضل من حالي . . ثم تسارعت الأحداث . . لكن هذه الحالة المرعبة ، على قصرها بدت لي كأنها قرون . . رحت أتخبط يائسة محاولة التشبث بشيء . . ولكن ليس حولي إلا الماء ولست أدرى هل صرخت أم لا فالماء كان يملأ فمي وأذني .

وهذا تفصيل ماحدث : رحنا نغوص في الماء حينما تخلى الحصى عن دعم أقدامنا . كان الماء دافئاً على السطح ، ولكني في العمق شعرت بالفراغ وبرودة الماء التي صارت تشتد كلما أمعنا في الغوص . وقد سبق لي أن عانيت من الأحاسيس الصعبة المخيفة في حياتي ، ولكني لاأذكر موقفاً أشد هولا من هذا . وقد قرأت عن حوادث الغرق وسمعت بها ، وأنا لاأتصورها إلا مرعبة فظيعة . وعلى الرغم من فضولي ورغبتي في معرفة كل شيء ومعاناة شتى الأحاسيس لم أحاول أن (أذوق طعم) الغرق .

وها أنذا الآن أعاني حالة الغرق . . . ثم أحسست ببرد يجمد ساقي . . وتابعت التخبط بيأس دون أن أترك يد (م . ن) . وهي

تجيد السباحة ولكنها غلبت على أمرها في هذه اللحظة فلم تعد تدرك ما الذي يحدث لنا . وكنت أعي تماماً أننا في طريقنا إلى الغرف . . . وارتسمت في ذهني بوضوح فكرة ان أنساها أبداً . وما كنت أظن مثلها يمكن أن يخطر على بالي في مثل تلك اللحظة المرعبه . ومع ذلك قلت لنفسي : « كيف سيتسنى لي بعد الآن أن أكتب كتابي الثاني » ؟

واست أتذكر شيئاً آخر فقد كنت فريسة رعب قاتل . . وأتخبط بجسمي . . . ولا أدري كيف نجحت أخيراً بوضع قدمي على كومة مستقرة من الحصى . . وقد تلاشت الكومة فيما بعد ولا شك . . ولكني اعتمدت عليها كنقطة ارتكاز قبل أن تضمحل لإعادة التوازن إلى جسمي . . وأمسكت بـ (م ن) التي كانت أكثر ذعراً مني . . ولربما خافت علينا كلينا . . أو اهلها فكرت بأسرتها . . ثم أمسكتُ حجراً ضخماً بيد واعتمدت على (م ن) بأخرى . . ثم مشينا على الحصى وخرجنا من الماء نجري . . ولزمنا الصمت دقائق اعجزنا عن الكلام . . وقد جمد الرعب والهلع منا القلوب خلال تلك اللحظات التي مرت كأنها القرون .

وأنا أستطيع الآن أن أجزم بأن ماعانيته من جراء هذه النزوة المصيرية المرعبة يتفق تمام الاتفاق مع ماقرأته في القصص التي تصف حوادث الغرق .

* * *

منذ زمن طويل روت لي صديقة لم تحرم نعمة السمع والبصر ، أنها ذهبت بالسيارة من المحطة إلى (بيت الراحة) ليلا . وكان ذلك

في القرم . وكانت الطريق تحاذي البحر ، وفيها متهاوٍ خطرة تشرف على الأمواج من علٍ .

وكنت راغبة في أن أعاني مثل هذا الانطباع الشاعري الفاتن ، وأحسد صديقتي على ذلك وحينما روت لي ماروت تخيلت بوصوح سيارتها وهي تسرع على الطريق . واستشعرت رائحة البحر ورطوبة الليل في القرم . . . ووصلت شاحنة في الساعة الثالثة بعد الظهر لنقلنا . وكنا جاهزين فجلس كل في مكانه . وحينما ابتعدت الشاحنة قليلا عن مكتب السياحة أحسست بأننا نصعد فلابد أننا نسلك إذن طريقاً جبلية . وقد سرّني ذلك إذ لم يسبق لي أن سافرت بين الجبال ، وكانت الشمس ترسل بأشعتها اللادعة ، والشاحنة تسير ممعنة في الصعود . أما الهواء فرائع ونقي ومشبع برائحة البحر . وطلبت من (م ن) أن تصف لي ماترى فقالت . نحن نسير بمحاداة البحر وعلى الجانب الآخر تمتد الجبال . وكنت على أحسن مايرام طوال السفرة ، ولم أشعر بمثل تلك البهجة والانشراح منذ زمن طويل .

وراحت (م ن) تشير إلى أن البحر يظهر حيناً ، ويختفي حيناً وراء الصخور . وكنت أحس بمزيد من الراحة كلما أمعنا في الصعود ، فكان يخيل إلي أننا لانسير على طريق ، بل نطير على عربة تحلق بنا بعيداً عن الأرض . . . أما الرطوبة الخفيفة وروائح الأزهار فتصل إلينا من الجبال . . ولست أعرف ماهي تلك الرائحة ولكنها من القوة والوضوح بحيث تذكرني بالصفاء والجمال .

وكلما اشتدت تلك الرائحة بدا لي أننا نحلق عالياً في السماء وصوب الشمس والنجوم . . . مع أني ماكنت أظن أنه قد توحد في

أعالي الفضاء رائحة كتلك الرائحة تهز كياني أكثر مما تهز رفيقاتي المبصرات . وفي الوقت نفسه كانت أعصابي تهتز وتستجيب لكل مايمكن أن يشعر به كائن حي ، فكنت أحس بحركات الشاحنة وبالحرارة اللاذعة ورائحة الهواء الجبلي اللطيف وأريج الأزهار . ورحت أتساءل قائلة : أليست كل هذه الأحاسيس كافية لتجعلني أدرك سحر الطبيعة وأفهم مظاهرهاوأستجيب بطريقتي الخاصة لمداعباتها وأتأثر بجمالها ؟ أظن ذلك كافياً . وأنا لم أقرأ في أي كتاب أن إدراك العالم باللمس يمكن أن يوفر متعة أعظم وأشد من تلك التي توفرها حاسة الشم . وكأن (م ن) كانت تريد الاجابة على تساؤلي فقالت لي وقد لاحظت حماستي :

— لعلك تشعرين بما حولك أقوى مما نشعر جميعاً ؟ !

— أتظنين ذلك ؟

— نعم ، أراك منشرحة . وأظن أن مشاعرك أشد قوة وحياة من مشاعرنا . . .

— وكيف ترين البحر ؟

— من الصعب علي وصفه . . ويبدو أنه يغير لونه كل حين . . فتارة يبدو أزرق غامضاً وحيناً أزرق فاتحاً ، وطوراً يلمع تحت أشعة الشمس .

وتذكرت هذه الأبيات فتلوتها بصوت مسموع :

هاهو ذا يبرق ويلمع كأنه « الكريستال »

إنه البحر اللازوردي ذو الأشعة الضاربة في الأفق .

وسألت (م ن) أقول ؛

– هل البحر هكذا ؟

– هو ذلك فعلا . . !

* * *

وأقمنا ، ولم تكن إقامتنا على مايرام ، في المصح حيث أمضينا أياماً رتيبة . وانتابني القلق حينما سمعت بوجود الأفاعي وأبناء آوى قرب البحر . وكنا ننزل زمراً إلى شاطىء البحر ، وهكذا لاأبقى وحدي فلا أخشى الأفاعي كثيراً ، لكني أخشى أبناء آوى ولا أرغب في التعرف عليهم وقد قيل لي إن عواءها يسمع عندما يخيم الليل ، فصار نومي قلقاً بعد أن سمعت ذلك ، ولاسيما أن سريري قريب من النافذة المفتوحة طوال الليل ، وأن غرفتنا في الطابق الأرضي .

وخلال سهادي في بعض الليالي كنت أقول لنفسي : الجميع نيام وأنا لا أسمع شيئاً . . ولكن ربما تسلل في هذه اللحظة أحد أبناء آوى من الحديقة واقترب من النافذة وقفز ثم . . . وبعد (ثم) هذه ، يرتعش جسدي كله فأخفي رأسي تحت الغطاء وأتقوقع لصق الجدار

وقد جعلتني هذه الأفكار المخيفة خلال أرقي فريسة للمرض ، زد على ذلك أني وأنا مستغرقة في النوم أهب مذعورة إذا مانهض أحدهم ليلا وأحدث ضجةً ما في الغرفة ، بل إن نسمة الهواء على وجهي كانت ترعبني .

وراح الجميع يحاولون طمأنتي قائلين : إنه لايعقل أن يقفز ابن آوى من النافذة . ولكنّ ذلك لم يجلب لي السكينة بل بقيت على

قلقي وخوفي وراحت خيالاتي تطلق لنفسها العنان طوال الليل . وكان أوى بهؤلاء الذين يحاولون الآن تهدئة روعي ألا يحدثوني عن الأفاعي وأبناء آوى ! ولكنهم يفتقرون إلى اللباقة والكياسة ولا يقدّرون أني لاأنسى شيئاً وأن انفعالي بما يحيط بي شديد عنيف .

يضاف إلى ذلك أن القادرين على الرؤية والسمع يرون ويسمعون ماحولهم ، أما أنا فمحرومة من هذه النعمة مهما كانت الأحوال .

وبفعل إدراكات سابقة قد تلتبس علي بعض الأمور وقد أرى في صجة عابرة حدثاً ذا شأن . وابن آوى أتصوره كلبا ضخماً متوحشاً ذا شعر قاس وأنياب معوجة مدببة .

وكان الطقس رائعاً في الأيام الأولى ثم أعقب ذلك مطر غزير على مدى أسبوع وصحب ذلك عاصفة هوائية ؛ أما البحر فقد هاج وثار ، فما الذي سيقدمه البحر لي من متعة إذا لم أستطع أن أسبح ؟ إن المبصرين يستمتعون خيراً مني إذ يقرؤون ويتأملون حركة البحر . . أما أنا فمن سوء حظي أني عاجزة عن الاحساس بقوة العاصفة . . وكنا نتوجه كل يوم إلى شاطىء البحر ، وذات مساء تجمع عدد غفير من المصطافين في ساحة الملعب ليتأملوا البحر . . . لكني كنت أتحرّق شوقاً وأتمنى لو أتيح لي بأية طريقة أن أتعرف على العاصفة التي لم تكن على درجة من القوة ، ولكنها لابد أن تشدني وتثير اهتمامي .

وطلبت من (م ن) أن ترافقني إلى الشاطىء فأجابت بأن الأمواج تصطرع فوق الشط ، والمكان الذي تعودنا أن نخلع فيه ثيابنا تغمره المياه ، فأجبتها قائلة : لابأس فسنبقى بعيدين بحيث تداعب الأمواج أقدامنا .

والظاهر أن (م ن) لم تكن ترغب في مرافقتي ، ولكنها قبلت ذلك على مضض . ولدى نزولنا لاحظت أن شريطاً من رمل الشاطىء قد تجاوز الماء وراحت الأمواج الكبيرة تتلاطم متلاحقة على الشط . وبقينا في أول الأمر بعيدين عن الماء ولم يكن إلا الرذاذ يصل إلينا ، ثم اقتربت من الماء شيئاً فشيئاً حتى بللتنا موجة وغمرتني بقوة وعنف وكادت تطيح بنا . . . شدتني (م ن) إلى الوراء ، ولكن بدلا من أن أستجيب لشدها جابهت الأمواج ، فسرعان ماضربتني موجة وغمرتني بقوة وعنف حتى اني كدت أختنق ، أما ثوبي المبلل المرتوي فالتصق بجسمي . ولاشك في اني نسيت مغامرتي المشؤومة في (توابسي) ، ولم أعد أحس بالخوف أو ألزم الحذر . وقد أفقدني البحر الهائج رشدي ، وأنا لاأدعي على كل حال أني أضاهي بقواي البائسة قوى الأمواج الغاضبة ، وإنما كل مافي الأمر أن حب الصراع والرغبة في معاناة الأحاسيس العنيفة تدفعني إلى ذلك .

واخطرت (م ن) بأني سأسبح ، فقالت :

ــ نعم . . بماذا تأمرين لاأحد يسبح الآن . . . حتى الرجال . . .

ــ لن أذهب بعيداً . سأنزع ثيابي فقط وأغطس في الماء .

ــ هذا مستحيل ، فالمشرف يمنع السباحة .

ــ من واجبه أن يمنعها . أما أنا ، فأرغب في أن أعاني وأتصور البحر هائجاً

أجابت (م ن) غاضبة :

ــ يكفيك معاناة وانطباعات

ــ لكنني هذا العام لم أر البحر هائجاً . . . أتمنى أن أتحسس ذلك بكل كياني .

وطال نقاشنا . . . إلى أن يئست مني رفيقتي ووصفتني بالجنون . وخلعت ثوبي بكل هدوء ورحت أجابه الأمواج . . . وطوحت بي أول موجة ، ولكني استطعت التشبث بصخرة كبيرة يبدو أنها ضاربة في عمق الأرض . . . وتمسكت بها طويلا ، واستحال علي الوقوف والجلوس . فالأمواج تضرب رأسي وتكاد تغرقني . استلقيت على بطني وما زلت متشبثة (بصخرتي) ووجهي محتم بها وعيناي وشفتاي مغلقة . . . الأمواج تمر فوق رأسي وأحس ضجيجها وصخبها بكل أجزاء جسمي . إنها تجتاح الشاطىء ثم تنكفىء راجعة فأشعر بالرمل والحصى الدقيق يتزلق على جسدي . وما كان أصعب علي أن أستمر في المقاومة ، فكم من مرة شعرت بأني أستنجد بما تبقى لدى من قوة . وبأن الموجة القادمة ستطوّح بي وبالصخرة بضربة قاضية وهي منكفئة .

وانتابني رعب حقيقي ، ولكن في الوقت نفسه كنت أستمتع بأني أعاند الأمواج . وكان لابد من أن أترك الصخرة كي أعود إلى الشاطىء ، ولكن ما أصعب ذلك وأعسره ، فقد تجتاحني موجة وليس هناك ما أستمسك به .

وشعرت بأني في مأزق لاخلاص لي منه . وأحسست بالبرد الشديد وبلعت كثيراً من الماء . وانتابني الألم في كل أعضائي ، فالماء يلعب بي في كل اتجاه ، ومع كل موجة يضربني الحصى . وأخيراً ماعساني أفعل ؟ انتظرت لحظة انحسار الموجة عني فنزت بكل قوتي محاولة بلوغ الشاطىء . . . وهرعت (م ن) إلى لقائي وكانت قد بقيت إلى جانب الشاطىء والأمواج ترشها كذلك ، ولكنها حارت فيما تفعله لانقاذي . وكنت أرتعش كورقة في مهب الريح . وأسرعت في

ارتداء ملابسي ولكن ثوبي المبلل لم يجلب لى الدفء . وصرخت بي (م ن) قائلة :

– أسرك ماحصل ؟

– بلى . . . فأنا أشعر بأني التقيت صديقي الحميم العزيز .

– في المره القادمة لن أسمح لك بالذهاب إلى مثل هذه (اللقاءات)

وعدنا ادراجنا . وكم كنت سعيدة على الرغم من أن (م ن) غاضبة علي ، ويكفيني أني تصورت البحر على نحو واضح .

ومن المؤكد أني لاأستطيع التأكيد على نجاحي في تصور البحر العظيم على حقيقته ، فهذا مستحيل . لكن بفضل تجربتي تلك نجحت في استيعاب بعض الاستعارات المستمدة من الطبيعة والناس فهم يقولون مثلا ، . « البحر هائج » . وطبيعي أني أستعمل كلمة « مهتاج » أو « في حالة هياج » لأني أستعيرها من لغة المبصرين . . ولكن ما الذي تعنيه لي على وجه الدقة ؟

في الحق أن كل هذه التعابير كانت تعني لدى وصفاً (لشيء ما) مخيف وغير مرغوب ، ولكن شتان بين هذا وبين أن تحس وتعاني وتتلقى الانطباعات المباشرة وتحتفظ بها طويلا في ذاكرتك ، فكل شيء في هذه الحالة يصبح حقيقياً مجسداً .

وأنا لاأعتقد أبداً أن الواقع المادي غير موجود بسبب عدم إدراكي له وعدم تعرفه بالحواس ، كاستشعار نار بعيدة أو تحسس ضوء القمر أو الاحساس بنغمة موسيقية أو طيران طائرة في الأعالي . . . ولا يغيب عن بالي أبداً أن هذا الواقع المادي موجود خارجاً عني ومستقلا عن

(ذاتي) . وأنا لاأستطيع طبعاً ، معرفة كل شيء عن كل مافي الوجود ، ولكن هذا لايعني أن ما لاأعرفه ليس موجودا في الواقع . فاذا لم أشعر بوجود النار البعيدة ولم أر ألوان الأقمشة ولمعان البرق . . . فهذا ليس مبرراً لنفي وجود هذه الأشياء .

وأنا أعلم أن الناس متماثلون في حواسهم وأحاسيسهم وإن كنت لاأعي ذلك دائماً . وما زلت أذكر ماورد في كتاب لينين الفذ « المادية والنقد التجريبي » .

« . . . تعمل المادة على تنبيه الأحاسيس بتأثيرها على الحواس . وهذه الأحاسيس ترتبط بالدماغ والأعصاب وشبكة العين . . . وهذا يعني أن المادة منظمة على نحو محدد . ووجود المادة لاعلاقة له باحساساتنا فالمادة هي السابقة . وما الإحساس والفكر والوعي سوى نتاج لمادة رفيعة التطور . تلك هي بوجه عام منطلقات الفلسفة المادية التي تبناها ماركس وانجلز » .

وهكذا يمثل البحر (الهائج) امامي كائناً عملاقاً يعبر عن مشاعره بطريقة بدائية فيغضب ويزمجر ويعاند ويشاكس . . . مع أني في الواقع لم أعاين بيدي رجلا ملتهباً غضباً وسخطاً !

أما المنطقة المحيطة (ببيت الراحة) فعادية جداً ، فمنها الجبال والغابات لا أكثر ولا أقل . . و هنالك على مسافة قريبة جسر كبير معلق بين جبلين ، وهم يسمونه « جسر الحديد والحب » . وقد قصدناه بصحبة (م ن) وبعض الرفاق واختصرت لي رفيقتي الأسطورة التي سمعتها من سكان المنطقة . وهي أن عاشقين كانا يلتقيان على هذا

الجسر . . وكما يحدث غالباً في أحوال كهذه ، يأتي مَنْ يهدم سعادة العاشقين فتلقي الفتاة المتيمة بنفسها في أحضان الهوة لتلاقي مصرعها.

وقد مشينا في بادىء الأمر حتى منتصف الجسر ولم يتولد لدي أي انطباع ، ثم وضعت (م ن) يدي على حاجز الجسر فعبرته حتى آخره وأخبرتني رفيقتي أن الهوة سحيقة ولابد أن يلاقي حتفه مَن يهوي فيها ، وقد أمسكت بي لخوفها من أن تزل قدمي أو أن ينكسر الجسر في أحد المواضع ولم أنجح في تصور مدى عمق الهوة ومنظرها المرعب . لكني تذكرت مسرحية شيلر « الخداع والحب » وتصورت على نحو واضح وكأني أعيشه شخصياً ، الفتاة لويزا والفتى فرديناند ، ولاسيما العاشقة الفاتنة لويزا المرهفة الشفافة كعصفور صغير أرداه حجر طائش . وحزنت قليلا لابسبب هذا الاسم المأساوي للجسر بل لأن صورة لويزا تملكتني ؛ وقد تخيلت يديها الناعمتين تدب فيهما برودة الموت . .

وعادرنا (بيت الراحة) مساء وسلكنا إلى المحطة الطريق الجبلية ذاتها . كانت الشمس قد غابت وروائح الليل تختلف عن روائح النهار . . وكنت أشعر بالرطوبة والبرودة اللتين توفران لي الاحساس بالظلمة . وتملكني الحزن . . وفقدت حماستي التي انتابتني ونحن قادمون على الطريق نفسها . . فالأزهار لم تعد تفوح (فقد ذبلت ولاشك) . . . وشعرت بخيبة الأمل دون أن أدرك سبباً لذلك . . وانطفأت رغبتي في التعرف على الأشياء . . ولم أعد أفكر بشيء ولا أستجيب لأية إثارة .

عام ١٩٥١

* * *

سؤال هام .

ذات يوم وخلال نقاشي مع الطلاب في مدرج معهد التربية سلمني أحدهم بطاقة فيها سؤال هام . وفي العادة أتلقى أثناء كل نقاش من هذا القبيل عدداً كبيراً من البطاقات أجيب على معظمها بنعم أو لا . . . ولكن سؤال اليوم لفت نظري ، وهو يتساءل عما إذا كنت قادرة بملء إرادتي على شم رائحة لاوجود لها الآن ؛ أو على استحضار صور أشخاص وأشياء ليست ماثلة . ونظراً لضيق الوقت أجبت حينذاك بايجاز مع بعض الأمثلة .

لكني هنا سأفصّل قليلا في الاجابة على هذا السؤال الذي قديهم القارىء .

إن شأني شأن سائر الناس أفكر بكل ما حولي وبكل ما يمكن لي إدراكه . ففي هذه اللحظة مثلا أظن أن مطراً غزيراً يهطل وريحا هوجاء باردة في الشارع . ولكي أتصور هذا المطر لست محتاجة إلى الخروج إلى الطريق كل مرة لأجدد انطباعاتي واحساساتي بالمطر والبرد والريح . . . فيكفي أن أفكر بأن الطقس سيء هذا اليوم حتى يخيل إلي أني أحس على وجهي ويدي بقطرات المطر الباردة تنساب كخيوط شبكة ناعمة ، محدثة شعوراً بالانزعاج . ويكفي أن أفكر بالريح حتى أشعر كذلك على كل جسمي بلذعاتها الباردة فتنتابه القشعريرة . زد على ذلك أني أستطيع تصور الرطوبة والبرودة التي ترافق الطقس الماطر في العادة .

وها أنذا مثلا في (بيت ريفي) . . . والوقت صيف . . . والبيت محاط بالغابات والمراعي . وإذا تصورت أن أشجار السرو والصنوبر

تنمو في هذه الغابة فمن السهل علي أن أصطنع لنفسي الاحساس برائحة صمغها وأتصور جذوعها وأغصانها وأوراقها الإبرية التي أدفأتها الشمس ، كما أتخيل المرعى لا بأبعاده الكاملة وانما بما ينبت ويفوح فيه من أعشاب منوعة وأزهار لها روائحها المتميزة . وعندما أتصور تلك الأزهار برويّة (أرى) أجزاء الزهره من تويج وكأس وساق وأوراق ، بل أرى جذورها (إذا تصورت أني قطفتها مع جذرها) وأتحسس روائحها المميزة كرائحة الأقحوان وغيره . . . .

وهذا مثال آخر : قصدت البحر مراراً ، ولكني لم أسبح كل مرة .. فقد أبقى جالسة على الشاطىء ألعب بالرمل وأجمع حبات الحصى المتشابهة الصقيلة . وفي مثل هذه الحالة أستطيع تصور البحر بفضل النسم والاحساسات التي أحس بها على أديم جسمي ، كما أشعر برائحة البحر الخاصة وبالشمس التي تدفىء الشاطىء ، وبالرذاذ الذي تنثره الأمواج ، وفي الوقت نفسه أستطيع استشعار رائحةالبحر في أي وقت كان ، وأينما كنت .

ذات ليلة ربيعية في موسكو انتابني القلق فلم أنم فرحت أفكر بموعد العطلة الصيفية ومكان قضائها . كنت أرغب في تمضية العطلة على البحر . . وفجأة شعرت على نحو واضح برائحته تقوى وتشتد . . ثم اجتاحتني رغبة جامحة في أن أشم حقاً تلك الرائحة .

هذه الروائح البحرية التي أتصورها ليست أبداً عرضية أو مخترعة ، وإنما هي محصلة مجموعة من (المعطيات) التي طالما تمثلتها عن العالم الخارجي ، هذا العالم الذي نتبادل معه التأثير بنشاط أعضائنا بعامة ، وبجهازنا العصبي بخاصة .

عام ١٩٥١

في الطائرة

حاولت خلال سنوات طويلة بكل الوسائل أن أحقق حلمي بركوب الطائرة . ولم ينصحني أصدقائي بذلك خوفاً علي من أن ينتابني الرعب أثناء الاقلاع أو أن يشتد خفقان قلبي .

وقد قرأت كثيراً عن الطائرات والطيران والملاحين ، لكن كل ذلك لم يعطني فكرة حقيقية عن الأحاسيس والمشاعر التي يعانيها المسافرون جواً .

وكان يبدو لي أولا أن هؤلاء المسافرين يعانون من الهز والرجّ مايعانون ، ويحسون بما يحس به المسافرون على سفينة تضطرب وتتمايل . . .

وأخيراً جاء اليوم الذي سأستقل فيه الطائرة وحدي . لأن مساعدتي ورفيقتي (م ن) كانت محتاجة إلى شيء من الراحة .

وجاءتني في بداية الربيع دعوة من صديقة لي في خاركوف ، لقضاء العطلة الصيفية عندها فقررت السفر بالطائرة واشتريت بطاقتي وجهزت نفسي . . وكان الموعد المقرر يوم أحد من شهر آب حيث الشمس والحرارة . وفي الحادية عشرة صباحاً حضرتْ (م ن) لترافقني إلى المطار وتجلسني في الطائرة وتخبر طاقمها بعاهتي . وسألتني ونحن في طريقنا إلى المطار بالسيارة :

ــ بماذا تشعرين ؟

ــ لابأس . أشعر بأني أرافق شخصاً يسافر ولست أنا المسافرة !

أجابت (م ن) بدهشة :

— حقاً ؟ وإذا انتابك الخوف في الطائرة فماذا أنت فاعلة ؟

— كل شيء سيكون على مايرام . . وعلى كل حال لست وحدي في الطائرة .

ولابد من الاعتراف بأن هذا الحوار قد أقلقني إلى حد . وكنت قبل هذا الحديث أحاول ألا أفكر بما سأعانيه . . أما الآن فهذا مستحيل . . ولذا بدأت أضطرب . . واستطردت (م ن) تقول :

— سيعطونك مظلة تقفزين بها إذا طرأ طارىء ! . .

قاطعتها . . . :

— إلى أين أقفز ؟ سأهوي لامحالة في نهر أو فوق شجرة تتعلق مظلتي بأغصانها . . وسأبقى معلقة معها . لأضيع وأهلك . . !

وألحت (م ن) قائلة :

— إياك أن تنسي فتح المظلة عندما تقفزين !

— أتظنين أني سأتذكر ذلك ! سيكون رعبي هائلا أنسى معه كل شيء .

— انسيْ ماشئتِ إلا فتح المظلة .

— لابأس . . كفانا الحديث في هذا الموضوع . . فانك تخيفينني عبثاً . . وأنا لاأتوقع أي حادث فالجو صحو .

وكنت في الصباح الباكر أسرعت في إنجاز كل مايلزم في البيت ولم أنس تموين هرّي بطعامه وشرابه . ولم يتح لي تناول فطوري ولذا شعرت بالجوع الشديد حينما وصلت إلى المطار فقررت تناول أي شيء

في المطعم ، ولدينا متسع من الوقت قبل الاقلاع . . فتركنا أمتعتنا في المستودع وتوجهنا إلى المطعم الذي أزوره أول مرة . ودلتني (م ن) بعد دخول المطعم على الطاولات غير المشغولة المغطاة بالأغطيةالبيضاء والتي تعلوها أقداح ذات أشكال مختلفة مع عدة المائدة . . وشعرت تحت قدمي بالأرض وقد دهنت بعناية وحرص . حتى قدّرت أني سأنزلق عليها بل سأسقط لو لم تكن معي مثل (م ن) ؛ هذه المرافقة الحصيفة المجربة . وقد هتفت رفيقتي متعجبة :

– ياللجمال الذي يحيط بنا ! كل شيء يلمع . .

وجلسنا إلى الطاولة بعد أن تأملنا هذا المطعم الأنيق الوثير ، ثم طلبنا طعاماً ورحنا نأكل . . وأخبرتني (م ن) بأن إلى جوارنا رجلا يتأملني بامعان فسألتها :

– هل يرتدي بدلة الطيارين ؟

– لا . . ولماذا تسألين ؟

– ذكرت لي أن هناك طيارين . . فظننت أن ابن صديقتي (آ . ي) الطيار قد يكون هنا على سبيل المصادفة .

– أبداً . . إن هذا الذي ينظر إليك مدني . . .

وكنت أتوقع خلال مكوثنا في المطعم أن نصادف ابن معلمتي القديمة الطيار (س ك) .

وكدنا نتأخر عن موعد الإقلاع لأن عاملة المطعم تأخرت في تقديم فاتورة الحساب . . ركضنا إلى الطائرة في اللحظة الأخيرة . . ولم أكن قبل اليوم أتصور كيف يصعد الناس إلى الطائرة . أبواسطة

معبر كما هو الحال في البواخر أم بوسيلة أخرى أم أنه لابد من الصعود عالياً للوصول إليها ؟ وأشارت لي (م ن) ونحن قرب الطائرة بوجوب الصعود على الدرج فرحت أصعد على عدة درجات من ورائها ثم وجدت نفسي قرب باب المدخل . . عبرت العتبة فشعرت تحت قدمي بسجاد كثيف طري ، فدهشت وتساءلت قائلة : « كنت أظن أني سأدوس على أرض من الحديد وها أنذا أمشي على السجاد » .

وكنت أتمنى أن أعاين أجزاء الطائرة كي أكوّن لنفسي فكرة عنها كما هي في الواقع فأصف لأصدقائي العميان الطائرة من داخلها ؛ ولكن موعد الاقلاع لا يمكن أن يتأخر فلم تتحقق رغبتي . وأجلستني (م ن) في مكاني على مقعد عريض وثير ثم قالت لي قبل أن تغادرني مسرعة : ها أنت قريبة من النافذة فاهنئي بذلك . ومددت يدي إلى الجهة اليمنى فتلمست زجاج النافذة وستارها . وفي هذه اللحظة أمسك أحدهم بيدي وخاطبني بلغة الأصابع قائلاً : « مرحباً يا أولغا » . وشعرت بيد رجل ، فدهشت جداً حتى إني لم أرد التحية . . وتساءلت عمن يمكن أن يخاطبني بلغة الأصابع . واتجهت صوب (م ن) قائلة : مَن هذا ؟ فأجابت : ألم تتعرفي عليه ؟ إنه الطيار (س ك) . . وسيتولى العناية بك . . أنا ذاهبة . . وإلى اللقاء . . اقترب مني (س ك) قائلا وهو يدخل غرفة القيادة :

— أنا ربّان الطائرة . . وسوف نقلع عما قريب .

وهكذا شاءت المصادفة أن يكون طيراني الأول تحت قيادة هذا الطيار الذي أعرفه جيداً ، فهو صديق طفولتي ، وكم لعبنا معاً . . وأمه كانت معلمتنا في معهد الصمّ البكم حيث تلقيت تعليمي .

وعدّلت جلستي في مقعدي الوثير ورحت أهيىء نفسي لاستقبال انفعالات شتى . وشعرت فجأة بعد ثوان باهتزاز الطائرة التي راحت تسير على مدرج صقيل . . وبعد لحظات بدا لي أنّ الطائرة قفزت بخفة وبدون أي احساس بالخوف . . بل شعرت مع مزيد من الفضول بالطيارة تنفصل عن الأرض وتبدأ بالارتفاع .

وفي هذه اللحظة الخالدة كنت احس بأني على خير مايرام جسماً وروحاً . أما قلبي الذي كنت أخاف عليه فكان ينبض هادئاً وكأني في سيارة مريحة . وقد كنت وأنا في طريقي إلى المطار أفكر في قدرتي على تحمل هذه اللحظة الرهيبة . ولست أدري لماذا كنت أتوهم أني سأخاف لحظة الاقلاع وأن قلبي سيخفق ، وقد يغمى علي من شدة الألم .

وفي الحق أن شيئاً من ذلك لم يحدث ، فقد حلقت الطائرة بيسر وسهولة وراحت تسرع متقدمة ، ولكنها (تهوي) بين الحين والآخر بفعل الجيوب الهوائية . كنت أشعر بارتياح تام إذ بدا لي أني لست في طائرة بل في سيارة تجري على الاسفلت تهتز حيناً وتنساب أحياناً بفضل نوابضها المرنة . خلاصة القول أني لو لم أعرف بوجودي في الطائرة لاعتقدت بأني أسافر على الأرض . فما كنت أتصور الطيران على هذا اليسر والسهولة .

. . .

كنت ذكرت أن مكاني قرب الكوة . وقد أربكني ذلك إذ بدا لي أن المسافرين ينظرون إلي ولسان حالهم يقول : ماذا ينفعها قربها من

الكوة ؟ ! . . وعلى الرغم من أني عاجزة عن رؤية الأرض فقد كنت راغبة حقاً في معرفة المناطق التي نحلق فوقها بين لحظة وأخرى .

وحاولت أن أتصور مناظر الأرض كما توصف في الكتب كتلوّى شريط النهر الفضي والمسطحات الخضراء والصفراء للغابات والحقول ومناظر المدن . . وهذا كله ليس إلا صوراً مما قرأت في الكتب ؛ ومن المفروض أن المسافرين يرون تلك المناظر على ماوصفت . أما أنا فعاجزة عن تكوين الصور البصرية . . وعلى كل حال كنت أود او أتصور المنطقة التي نحلق فوقها ولو تصوراً محدوداً . . ولذا أحنيت رأسي مراراً على الكوة وفتحت الستار آملة أن (أرى) شيئاً ما ؛ ولكن عبثاً ، فتحديقي عبر الزجاج لم يقدّم ولم يؤخر في قدرتي على تصور المناظر الخضراء . وأسفت لأن (م ن) لم تكن إلى جانبي . . ولو كانت . . لراحت تصف لي ماتراه ، وهذا مايجمل (إقلاعي) عن الأرض والعالم الخارجي ، ويسمح لي بفضل حيوية الوصف أن أتصور الأنهار والمدن على نحو مجسد ملموس . وبدون ذلك تبدو الأشياء من تحتي رجراجة غائمة عابرة تستعصي على اللمس والشم . وتنهدت بأسى وأسف وأغلقت الستار واتجهت الى الطرف الآخر كي أفرغ لمعاناة أحاسيس أخرى ، على رأسها لاحساس بالحركة التي أشعر بها على نحو واضح .

وكان الطيار (س ك) شديد القلق على ، فقد مر بي مراراً إذ كان يعلم أنه لايمكن لأحد آن يتفاهم معي . وكان يسألني :

— كيف أنت ؟

ـــ على أحسن مايرام . شكراً لك كل شيء رائع .

ـــ هذا يسرني . . أتريدين ماءً ؟ إذا احتجت أي شيء فاطلبي ماتريدين ، والمضيفة ستلبي رغبتك حالا . . . استمتعي ولا تبالي بشيء .

وفي الحق أني لم أكن أعاني من الضجر . ولكن الطيار قدم لى تفاحاً ظناً منه أنه سيسليني . وعدّلت جلستي ورحت أهتم بتفاحي لآكله . . . وكانت حركة الطائرة تهدهدني وتدغدغ أعصابي وأنا مطمئنة ، ولا يقلقني دخول الطائرة في جيوب هوائية طالما أن (س ك) هو الربان .

وبعد الانتهاء من أكل التفاح ناديت المضيفة وطلبت منها مرافقتي إلى المغسلة . ولكن ماكدت أنهض من مقعدي حتى أحسست بأني عاجزة عن التماسك على قدميّ . ورحت أترنح كأني على ظهر سفينة فاجأتها عاصفة هوجاء في عرض البحر . ومن سوء الحظ أن الطائرة (هوت) عدة مرات فخيل لي أننا (نسقط) . . فانتابتني رغبة ملحة في التشبث بشيء ما كي أحمي نفسي من السقوط . ولكن مامن شيء أتمسك به سوى باب وجدته فتشبثت به بكل قواي .

وحينما لاحظت المضيفة ذعري اقتربت مني لترفقني إلى مقعدي ؛ لكن الطائرة (هوت) في هذه االحظة فتمسكت بالمضيفة بكلتا يدي ، ولم تجدْ هي ماتستند إليه غير الأرض ! . . فرحت أضحك قائلة : من الغريب المضحك تشبثي لاإرادياً بكل ماحولي . ومما لاشك فيه أن بعض المسافرين لاحظوا مانحن فيه فجاؤوا وساعدوني في العودة إلى

مكاني . . وارتميت في مقعدي مطمئنة وما عدت أحسب حساب المهاوي والجيوب الهوائية .

ولم يعكر صفوي شيء بعد هذا . فالطائرة تعذ السير وتمضي ؛ ولكن حينما اقتربنا من خاركوف شعرت بتناقص السرعة فخمنت أننا سنهبط بعد حين .

وراحت الطائرة تُطامِنُ مِنْ سرعتها وتهبط شيئاً فشيئاً . . وها أنذا أتحسس بكياني كله خفقانها وارتجاجها . . ومضت لحظات . . ثم لامست عجلاتها أرض المدرج بهزة أخيرة . وشعرت بذلك حالا مثلما شعرت بوقوف الطائرة بعد جريانها فترة على المدرج . . . انتظرت حتى يجيئني الطيار (س ك) ليأخذ بيدي . . وضعت قبعتي وجلست على طرف المقعد ثم حضر قائلا :

— لقد وصلنا . .

— أعرف ذلك . وأنا بانتظارك

— هل من أحد ينتظرك ؟

— نعم .

وساعدني (س ك) في النزول ، ولاحظت أنه يخشى علي السقوط من المعبر . . . وكان في المطار من ينتظرني . ودّعت الطيار وشكرته على رعايته ووعدته بزيارة أمه في صباح الغد .

* * *

مكثت في خاركوف ثلاثة أسابيع زرت خلالها أصدقائي القدامى

وبعض رفاقي . ولم يصدق فريق منهم أني ركبت الطيارة وحدي وأني لم أخف . وقالت إحدى الصديقات :

ــ أنا أسمع وأبصر ، ومع هذا من المستحيل أن أستقل الطائرة وحدي ودون صحبة زوجي .

ــ لماذا ؟

ــ ألا تعلمين لماذا ؟ من يدري بماذا يحدث لنا . . وماذا أفعل إذا أصبت بنوبة قلبية ؟

ــ لن يحدث لك شيء . . وأنا لم أخف أبداً . ولو كان وقع لي مايزعج لهب المسافرون لمساعدتي مع (س ك) .

ــ ها . . كنت معه إذن . هذا حديث آخر . .

ورحت أزور والدة (س ك) وقلت لها :

ــ لم أشعر بأدنى خوف من ركوب الطائرة مع ابنك . . وكم أتمنى أن أعود معه كذلك . . وأنا مستعدة لأطير معه حتى القمر !

أجابتني تقول :

ــ من يدري . ربما كان ولدي على (خط آخر) يوم عودتك . ولكن لاأهمية لذلك فالطيارون جميعاً ممتازون ومجربون . . ويمكنك أن ترجعي بالطائرة الى موسكو متى شئت . . وكل شيء سيكون على مايرام .

ــ هل أنت واثقة من ذلك ؟

ــ طبعاً . . فأنا أعرف طيارينا .

وفكرت لحظة وأجبتها :

– قد يكون من بين الطيارين من هو أمهر من (س ك) ، ولكنه الوحيد القادر على التفاهم معي ، وقد ساعدني ذلك كثيراً .

وقد جرت الأمور خلافاً لما قدرت ، فاتفقت مع (س ك) على مغادرة خاركوف في أول ايلول ، يوم قيادته الطائرة إلى موسكو .

ولكن رغبة ملحة دفعتني إلى التعجيل بالعودة إلى بيتي لأصل أسرع مايكون إلى موسكو ، مدينتي الأثيرة . . وهكذا لم أنتظر أول أيلول بل اشتريت بطاقة للسفر في التاسع والعشرين من آب .

وقد قيل لي إني أسأت الاختيار لأني سأستقل الطائرة القادمة من تفليس إلى موسكو والتي تقف في خاركوف للاستراحة . ولم أفهم لماذا لاتكون هذه الطائرة كغيرها ؟ وقد أبدى كل الاصدقاء الذين يرافقونني قلقهم وتعجبهم من عدم اكتراثي . ورافقتني زوجة (س ك) إلى المطار وأخطرت المسؤولين بعاهتي وقالت لهم إن بامكانهم ، عند الحاجة ، أن يكتبوا بأصابعهم على كفي .

ولم أكن هذه المرة ، إلى جانب الكوة بل قرب ركاب آخرين . ولم يحدث مايستوجب القلق فقد أقلعت الطائرة بيسر وراحت ترتفع وتسرع على نحو مريح . وكان مدير المطار قد طمأنني قائلا : كل شيء سيكون طبيعياً ، فالطائرة كبيرة مريحة ، والطيار ماهر مجرب .

وشعرت بأن الطائرة أسرع من غيرها ، ولست أدري إن كان ذلك الشعور لأني أستعجل الرجوع إلى موسكو أم أن الطائرة مسرعة حقاً . . . وسارت الأمور على مايرام في بداية الأمر ، فالطيارة تغذ

السير و (تهوي) أحياناً . . . وأنا متخذة وضع النائم على مقعدي ؛ لكني لم أعان تلك الأحاسيس التي يعانيها المسافر النائم في الطائرة . وفي منتصف المسافة بين خاركوف وموسكو فاجأتنا عاصفة هوجاء مع مطر غزير (وقد عرفت ذلك فيما بعد) ولاحظت أن الطيارة تحلق وتحلق ثم تنزل أحياناً على شكل واضح لتعود فتعلو ثانية . وقد مالت إلى الجهة اليسرى عدة مرات على نحو ملموس حتى خيل إلي أن المقاعد انقلبت بنا ثم استوت . وكانت الطائرة (تهوي) بعنف أحياناً فأكاد أحس بقلبي (يهبط) وبرجلي تنفصلان عن جسمي . . ولكن سرعان ماترجع الطائرة صاعدة مستوية فيهدأ روعي .

ومع أن الطائرة ترنحت وارتجت لم أشعر بأي ألم ، وإنما آلمني شيء آخر . فقد كان الجو حاراً حينما انطلقنا من خاركوف فتركت سترتي في الحقيبة . . وكنت أرتدي ثوباً خفيفاً وقبعة وشالاً من الحرير . وحينما داهمتنا العاصفة ونحن في الجو لم تعد ثيابي الصيفية كافية وشعرت بالبرد الشديد ورحت أرتجف وأسناني تصطك ، وحرت في أمري بماذا أتدثر وسألت جاري :

ــ ألا تشعر بالبرد الشديد كما أشعر ؟

أجابني بايجاز وهو يخط على يدي :

ــ نعم . . فالجميع يشعرون بذلك .

ولم يرقْ لي جوابه إذ كنت أتوقع منه المساعدة كيفما كانت .

وبعد لحظات رجعت الطائرة إلى التحليق المريح . . ثم شعرت فجأة (بشيء) حار يأتيني من الجهة اليمنى . . أدرت وجهي فأحسست بأشعة الشمس . . وقال لي جاري بعد ذلك : أوشكنا أن نصل إلى موسكو .

ولدى اقترابنا من موسكو راحت الطائرة تخفف من سرعتها وتهبط تدريجيا . . ثم لامست الأرض بيسر ودون أي إحساس بالاصطدام وراحت تتهادى على المدرج . . وشعرت بذلك حالا . وكانت (م ن) و (ي آ) في انتظاري . وقد علمت منهما بأمر العاصفة التي داهمتنا مع المطر الشديد ونحن في الجو . . وأشارتا إلى أن أرض المدرج ماتزال تحمل آثار ذلك .

وشعرت بالسعادة لعودتي الى موسكو ، ولأني سافرت أخيراً بالطائرة ، فأنا أستطيع الآنأنأتصور كل شيء ، لابفضل قراءةالكتب، بل بأحاسيسي الشخصية . أما العاصفة فلم تبعث الخوف في نفسي . . وقد استمتعت بركوب الطائرة وها أنذا أروي بحرارة حكاية طيراني لأصدقائي وأصيف قائلة :

أنا أحلم الآن بسفرة جوية قادمة . . وأفكر في الطيارين ، أولئك الرجال الموهوبين الشجعان .

عام ١٩٥٢ .

* * *

قصائد

ويتساءل الناس

ويتساءل الناس من ذوي الآذان المرهفة
القادرين على تأمل ضوء القمر وشعاع الشمس :
ماذا يمكن أن تقوله عن هذه الروائع ؟
وماذا يمكن لصمّاء أن تسمعه من نداءاتها ؟

* * *

آه . . بلى . . أنا أدري بشذا الربيع
وأناملي تترجم حفيف السنديان
والحديقة الندية تبرح لي على الدوام
وتدعوني إلى أن أحلم وأترنم بحبها .

* * *

ماهمني إنْ لم أتمل بريق عينيها
ماهمني إنْ لم أستمتعْ برنين صوتها العذب
ولي يد ماهرة قادرة على التعبير
عن أعمق انفعالاتي وأروعها !

* * *

الفكر والعاطفة . . أنا قادرة على حبهما
كما نحب عبير زهرة شفافة
وكما نعشق لغة الصاقة الصافية
وكما تحن يدٌ إلى يدٍ تداعبها

* * *

وأنا بالعقل أرى وبالقلب أصغي !
وأحلامي تجوب العالم .
ترى هل يُحْسِنُ المبصرون دائماً
التعبيرَ عن الجمال والابتسام في حضرة الصفاء ؟ !

* * *

وعندي محلْ السمع والبصر ،
ماشئتَ من صادق العواطف
ومازال فكري المتقد المرن المتفائل
يغمس ريشته في ألوان الحياة الزاخرة .

* * *

وإذا ما فتنتَ بشعرٍ أو نغمْ
فلا تَنْزَهْ بذلكَ عليْ
وخيرٌ للأعمى ألفَ مرة
أن تَمُدَّ له يداً دافئة

تعتقه من قفصه
دونما شفقة مريبة !

* * *

موسيقى الأحلام

(بربكم) لاتنغصوا عليّ
ودعوني أصغي إلى موسيقى الأحلام
فما أكثر الهائمين بها في هذه الحياة
وكم يروق لي سماع ألحانها السحرية

* * *

لكأنها صوت امرأة دافىء النغمات
هزني غناؤها المألوف الفتان
أو كأنها أصداء معزف رنان
أوهدير بحر صاخب
أو همس جدول رقراق

* * *

نعم . . إسمع ذلك الغناء
إنه يبعث الدفء والقوة في نفسي الباردة
ياله من تحليق سحري يحملني
على أجنحة أحلامي المجنحة

* * *

وتتهادى الأنغام أمواجاً سريعةً
وأنا أصغي إليها صافيةً واضحةً
عجباً ! من أين لي هذا الصفاء والغبطة ؟
ومَنْ يحلّق بي بعيداً في الفضاء ؟

* * *

لكنّ الحُلمَ الرائع انقضى
والأنغام المُتلاحقة صارت ضباباً
وراحت الموسيقى الساحرة
كنورٍ رهيفٍ شفافْ
تسرح صوبَ عوالمَ جديدةْ

* * *

وها أنذا وحدي من جديدْ
على شاطيء بحرٍ هادىء الأمواجْ
كم تأملتُ عنفها وجبروتها
وكم عشقت ألوانها القزحية !

* * *

الزورق يتقاذفه التيار
والأمواج تحملني صوب المجهول
يا أسفاً على ذاك العالم
وها أنذا أعاني من جديد

صخب الحياة ومتاعبها.

* * *

الريح والبحر

أيتها الريح ذاك هو البحر
غاضباً يزمجر ويترنحْ
وعلى الشط يتلاشى زبد الموجْ
تُرى ماذا يبتغي الموج ؟
أن يغرق البيتَ أم الحديقة . .

* * *

هاهو الظلام يخيم والريح تعصفْ
ومصاريع الأبواب تنصفقْ . . .
تُرى . . أحيوانٌ جريح يستجيرْ
أم إنسان يبكي يأسهْ

* * *

في قلب الأغنية الظافرةْ
تذوب الشكوى والدموع والضحكات اليائسةْ
ومن قلبِ العذابِ المريرْ
تنبعث صرخاتُ الاحتضارْ
والنداءاتُ الوحشيةْ

* * *

وما ذاك إلا البحر والريحْ
يعربدان في احتفالهما الصاخبْ
وعلى الشطِ يتكسرُ موجٌ عنيفْ
وريحٌ هوجاء على بحرٍ عاصفْ !

* * *

خاتـمة

إنّ المصير الذي انتهت إليه مؤلفة هذا الكتاب (أولغا سكوروكودوفا) مصير فذ . ولقد فقدت وهي طفلة السمع والبصر على أثر إصابتها بالتهاب السحايا . ومثل هذه العاهة تعزل الطفل عن العالم وتتركه بلا سلاح ، وهذه العزلة الاجبارية تؤدي حتماً إلى نوع من التخلف العقلي . ولكن هذا لم يكن من نصيب هذه الفتاة الصماء العمياء ، فقد دخلت أولغا في العاشرة من عمرها مؤسسة (هي بين المدرسة والمشفى) لصغار العمي الصم البكم ، والتي أسسها في خاركوف عام ١٩٢٣ الأستاذ سوكوليانسكي . وفي هذه المؤسسة استعادت النطق ، فبفضل طريقة خاصة تجمع لغة الأصابع إلى الأحرف النافرة (بريل) تمكنت أولغا من متابعة المناهج المدرسية ثم تابعت دراستها الثانوية وانتسبت إلى الكومسومول .

واليوم تشغل أولغا سكوروكودوفا منصب باحثة في معهد المعوقين التابع لأكاديمية العلوم التربوية في الاتحاد السوفياتي . وقد كتبت كثيراً من المقالات إلى جانب كتب ثلاثة . وفي عام ١٩٦١ بعد موت معلمها الأستاذ سوكوليانسكي أنجزت أطروحة في علم النفس وحصلت على لقب الدكتوراه من الدرجة الثانية في العلوم التربوية .

وقد استقبل أول كتاب لها (كيف أدرك العالم) (١٩٤٧) باهتمام بالغ من قبل الأوساط العلمية وجمهور القراء . وقد كتب عالم النفس الكبير السوفييتي ليونتيف تقويماً للكتاب فقال : « يلفت النظر في الكتاب جانبان رئيسيان : أولهما يحدد شخصية الكاتبة ، فالتطور الكامل في ذكاء أولغا وعواطفها وتمكنها الرائع من لغة الكتابة ولغة الأصابع إلى جانب اللغة المنطوقة (وهذا مايسمح لها أن تشارك في الاجتماعات) ، كل ذلك يترك انطباعاً باهراً يوحي إلينا بأنه نتاج مواهب خارقة أو ظاهرة فذة تستعصي على التفسير لأول وهلة .

والجانب الثاني من الكتاب يخص تلك المعطيات السيكولوجية التي قدمتها الكاتبة في فصل بعنوان « الاستبطان الذاتي » وفي عدة مقالات أدرجتها في كتابها . وهذه المعطيات لاتقلل من أهمية الانطباع العام الذي يحدثه الطابع الفذ العجيب للتطور العقلي عند الأعمى الأصم — الأبكم » .

وقد ترجم كتاب (أولغا) هذا إلى عدة لغات . وفي عام ١٩٥٤ ظهر الكتاب الثاني (كيف أدرك العالم وأتصوره) مع تعديل في جزئه الثاني (كيف أتصور العالم) . أما الكتاب الثالث الذي نشر تحت العنوان نفسه عام ١٩٥٦ فقد أجريت عليه تعديلات طفيفة . أما الكتاب الذي بين أيدينا فقد أنجزت فيه الكاتبة بحثاً ثلاثي الجوانب عن (إدراك العالم) و (تصوره) و (فهمه) من قبل كائن فقد الحاستين الرئيسيتين : البصر والسمع .

ويقف هذا الكتاب وثيقة ذا قيمة علمية كبرى بما فيه من ملاحظات على الآخرين وعلى الذات أنجزتها إنسانة محرومة من السمع والبصر .

ولاشك في أن ما أنجزته الكاتبة الصمياء العمياء بهذه اللغة السليمة القوية يعزز ثقتنا بهذا (الكتاب – الوثيقة) . وهذا ماشرحه ليونتيف في تقييمه الآنف الذكر للكتاب إذ يقول : « إن ماقدمته الكاتبة ماهو إلا عملية استبطان ذاتي أجرته أولغا على نفسها ، وليس مجرد وصف موضوعي لعملية تكوين الوعي . وقد روت المؤلفة تاريخ حياتها في مقدمة الكتاب ، وهو أمر شائق مفيد . . ولكن لا بد أن ينظر إليه على أنه مجموعة انطباعات وذكريات تحتاج إلى من يتناولها بالدراسة العلمية الحادة . ونحن لانشك في صدق الطابع الذاتي لتلك الذكريات ، ولكنها من وجهة نظر علمية بحتة ليست إلا وقائع عادية مألوفة ».

ولكي لانزعج القارىء غير المختص بتعابير سيكولوجية (كالاسترجاع والاستبطان) آثرنا أن نعرض في هذه المقدمة مسألة التطور النفسي لدى الطفل الأعمى الأصم – الأبكم في أول عهده بالتربية .

ولابد لنا هنا من أن نقول كلمة عن الأستاذ إيفان سوكوليانسكي معلم أولغا ومؤسس الطريقة السوفيتية في تربية العمي الصم – البكم .

ولد الاستاذ سوكوليانسكي في الخامس والعشرين من آذار سنة ١٨٨٩ في قرية قوقازية من مقاطعة دونسكايا ، في أسرة فلاحية من القوزاق . وبعد دراسته الثانوية انتسب إلى قسم التربية في كليـــــة العلــــــوم الطبيعية في معهد الأمراض العصبية النفسية في سان بطرسبورغ ثم تخرج منه عام ١٩١٣ . وقد اهتم الأستاذ سوكوليانسكي بالنشاطات التربوية وانغمس فيها قبل أن ينهي دراسته ، فقد عمل مدرساً من عام ١٩١٠ – ١٩١٩ في مؤسسة للصم البكم . وفي هذه الفترة ظهرت أولى انجازاته في التربية المتخصصة وقضايا التثقيف الشعبي

وبعد ثورة أكتوبر ناضل سوكوليانسكي لإحداث طريقة ثورية جديدة في التعليم . وفي تلك الفترة لم يكن في أوكرانيا أية مجلة تربوية مرموقة ، وليس إلا صحيفة لاشأن لها .

وفي عام ١٩٢٣ راح يعلم في معهد التربية الوطنية في خاركوف ، ثم عين في عام ١٩٢٦ أستاذاً ذا كرسي في قسم تربية المعوقين ، ثم أصبح عميداً لكلية التربية المختصة .

وفي عام ١٩٣٠ أنشيء في خاركوف معهد أبحاث ، خاص بالمعوقين ، وكان سوكوليانسكي أول مدير له .

ويتناول النشاط العلمي والتربوي الذي مارسه هذا المربي مجالات عديدة في تربية المعوقين . وهو يهتم دائماً بأكثر الحالات صعوبة وتعقيداً ، ويدرس المشكلات الخاصة بالتربية الشخصية لطائفة من المعوقين لم تتح لهم فرص الدراسة . وبمبادرة منه أحدثت في خاركوف (مدرسة — مشفى) للأطفال العمي الصم — البكم .

وقد أظهر أعضاء المؤتمر الدولي للفزيولوجيا الذين رأوا هذه المؤسسة اعجابهم بها وتقديرهم لها . ومما قالوه على وجه الخصوص : إن مستشفى العمي الصم البكم (هو مؤسسة علمية فريدة متميزة ليس للاتحاد السوفياتي وحده بل للحركة العلمية في العالم . ومن الصعب أن نجد في أي مكان من العالم معهداً للعمي الصم — البكم يضاهي معهد خاركوف . .) .

وفي عام ١٩٣٩ وعلى أثر دعوة من مفوضية الشعب للتربية الوطنية في جمهورية روسيا التحق سوكوليانسكي بمعهد العلوم التطبيقية في موسكو (وهو اليوم معهد المعوقين التابع لأكاديمية العلوم التربوية في الاتحاد السوفياتي) حيث راح يتابع انجازاته حول مشكلات تربية المعوقين •

وقد تجلت نشاطاته العلمية والتربوية في رغبته الدائمة بتطبيق كل الانجازات التقنية في مجال تربية الأطفال المحرومين من السمع والبصر والنطق ، أو الصم – البكم فقط ، أو العميان فحسب . وهو الذي أنجز مجموعة من الاكتشافات الثمينة التي أغنت الوسائل التقنية في مجال تربية المعوقين . منها الشاشة النافرة للصم البكم – في عام ١٩٤١ ، والأبجدية الميكانيكية . . وغيرها . وقد ابتكر عام ١٩٣٦ جهاراً يتيح للعميان وللعمي الصم – البكم أن يقرؤوا الأحرف العادية ؛ (فالأعمى يقرأ مايشاء) كما ابتكر (طريقة جديدة لقراءة العميان) بالاضافة إلى (القراءة بالأحرف المسطحة المطبوعة للعميان ، وللعمي الصم – البكم ١٩٥٦) . وهذه الأجهزة المختلفة الخاصة (بالتراسل بالأصابع) والتي لايغني عنها جهاز آخر ، هي من تصميم سوكوليانسكي الذي مازال يعمل بدأب ونجاح في هذا المجال حتى آخر يوم من حياته . وكثيرون من المختصين اهتموا على الدوام بمشكلات المعوقين ، فعلماء الفيزيولوجيا وعلماء النفس والفلاسفة والمؤرخون والكتاب بل علماء اللاهوت اهتموا بهذه القضايا ، مع أن تربية العمي الصم – البكم ليست إلا مجالا اختصاصياً ضيقاً حتى في ميدان طب المعوقين . فكيف نفسر اهتمام كثير من الاخصائيين بمشكلة تبدو على هذه الدرجة من الضيق والخصوصية ؟

ولاشك في أن حرمان بعض الأشخاص من نعمة السمع والبصر يصدم ويفاجىء جمهور الناس ، ويبدو لأول وهلة أن فقدان هاتين الحاستين يعزل المصاب كلياً عن العالم الخارجي ويحرمه امكانية الاتصال بالآخرين ويحكم عليه بعزلة ذات آثار مدمرة .

وذلك الذي ولد أعمى أصم أو فقد السمع والبصر في طفولته المبكرة لم تصافح سمعه لغة بشرية ولم يدر في خلده أن هناك كلمات ولغة تستعمل للدلالة على الأشياء والتعبير عن الأفكار . بل إنه لايدري بوجود العالم من حوله . مثل هذا (الكائن) أيمكن أن نجعل منه (إنساناً) فنعلمه العمل والتفكير ؟ هذه القضية كانت الشغل الشاغل لكثير من المختصين .

ومما لاجدال فيه أن التطور النفسي للكائن البشري المعزول بجدار من الصمت والظلام عن المجتمع والعالم الخارجي الحافل . تطور نوعي متفرد . وهذه الخصوصية والتفرد افتت أنظار كل من عايش العميان الصم — البكم . ولما كان من الممكن الاستفادة من كل مايقدم من معلومات للطفل الأعمى الأصم — الابكم فقد راح الباحثون يحاولون إستغلال هذه (المحنة) للاجابة على مثل هذه التساؤلات المستعصية : ما العوامل الأساسية في تطور الانسان ؟ ما الصفات الأصلية والفطرية في سلوك الانسان ونفسيته ؟ ما الذي يمكن اكتسابه بفضل نشاط الحواس والتجربة الفردية ؟

وإذا كان تطور الطفل الطبيعي القادر على السمع والبصر يتم خفياً تلقائياً فان تطور الطفل الأعمى الأصم — الأبكم ثمرة جهود تربوية ، ونتاج تأثيرات صنعية مقصودة خاضعة للمراقبة . ولهذا راح كل المهتمين بتربية المعوقين يحاولون التحقق من صحة أفكارهم الخاصة عن طبيعة الانسان والعقل البشري بطريق الإعداد الحسي اللمسي لصاحب العاهة ، وذلك بغية حل (ألغاز) النفس البشرية .

وقد تبنّى أغلب العلماء الذين واجهوا عملياً ونظرياً مشكلة المعوقين موقفين متناقضين ، ولكنْ يرتبط بعضهما ببعض . فهم أولا يعدّون من المستحيل على أعمى أصم – أبكم أن يصبح مخلوقاً طبيعياً . وهم ثانياً يفهمون التطور على أنه نمو طبيعي عفوي فطري ، ويرون أن مظاهر التقدم الكبير لدى بعض المعوقين حالات استثنائية مردها إلى نبوغ الأشخاص أنفسهم .

ويعتقد كتاب أغلب المؤلفات والمقالات عن العميان الصم – البكم ، أن النمو الطبيعي للقدرات الفطرية هو المبدأ الأساسي في إعداد الكيان النفسي . وليست التأثيرات الخارجية كما يرى هؤلاء ، إلا عامل تحريضٍ للتطور العفوي ، أو أنها بعبارة غامضة ، عامل تحرير للطاقات الكامنة الخفية .

أما الأستاذ سوكوليانسكي فقد نقض هذه الآراء بنظام تربوي للمعوقين ينطلق من مفهوم مادي للتطور النفسي . وقد أورد ليونتيف المبادىء العامة لمدرسة سوكوليانسكي في تقويمه الآنف الذكر لكتاب أولغا الأول : « إن الفكرة العامة التي طبقها سوكوليانسكي في طريقة تربيته للمعوقين تمتاز بالبساطة والاقناع العلمي ، فعملية (تأنيس) (١) المعوّق لاتنطلق من اللغة والوعي وإنما تبدأ باقامة علاقات مجسدة ملموسة حقيقية بين الانسان وواقعه . وهكذا فاللغة والوعي لايتطوران إلا انطلاقاً من صرورة هذا التواصل المادي الذي ينجم عن تلك العلاقات.

---

(١) يعني بها الكاتب عملية تأهيل المعوق وإعداده لتخليصه من الإحساس بالعجز والعزلة والارتقاء به إلى مستوى الإنسان المسؤول المنتج .

(المترجمان)

إن فهم هذا المنهج وحسن تطبيقه يلقي الأضواء على عملية التفتح النفسي عند العمي الصم ـ البكم . وعلى هذا لامجال بعد ذلك لاعتبار التطور النفسي عند هؤلاء أمراً محكوماً بالصدفة أو ظاهرة استثنائية .

وهكذا فالتّربية الفردية للمعوّقين تحت اشراف سوكوليانسكي في (مدرسة ـ مشفى) خاركوف التي يمارسها (فريق التجريب) في معهد المعوقين التابع لأكاديمية العلوم التّربوية السوفيتية ، بالاضافة إلى التّربية الجماعية للمعوقين في بيت الأطفال في (زاغورسلك) (١٩٦٣) تبرهن على أن التطور الفكري الرفيع ممكن لدى المعوقين دون أي اعتماد على العفوية والفطرة . وكل طفل من هؤلاء يملك امكانية التطور والقدرة عليه ؛ « وعلى الرغم من هذه الطاقة لن يستطيع أبداً هذا الطفل أن يرقى تلقائياً إلى مستوى فكري متطور مهما كان بسيطاً ، فسيبقى معوقاً طوال حياته إذا لم يخضع لعملية تربوية منتظمة » . وبدون هذه التّربية المختصة سيبقى العمي الصم ـ البكم أسرى منازلهم دون أن يتعلموا أية إشارة ، ودون أن يحسنوا المشي والطعام والشراب كسائر الناس .

وقد كتب سوكوليانسكي يقول : « إن الدور الرئيسي للعملية التّربوية الخاصة يبدو أوضح مايكون مع الطفل الأعمى الأصم ـ الأبكم ؛ فلابد أن نستخدم معه أساليب خاصة تفيده في التواصل مع العالم ، حتّى ننجح في اعداد وتطوير كيانه النفسي بكل أبعاده » .

وهذه المهمة فريدة من نوعها ، وحلها يخدم بعض مجالات المعرفة البشرية كما يخدم سلوك الانسان وفكره .

ولا يكفي أن نعلّم الطفل المعوق لغة الكلام وعادات العمل والكتابة فحسب ، بل لابد أن يتعلم لغة الايماء فيبتسم حينما يكون سعيداً ويقطّب حاجبيه عند الغضب . . . وقد أحدثت في مؤسسة خاركوف طريقة خاصة لتعليم الإيماء بحركات الوجه للمعوقين .

والطفل الأعمى قبل البدء بتربيته ، يكون عاجزاً عن إنجاز الممارسات الانسانية اليومية كالوقوف والجلوس وغيرها . . فلابد إذن من تعليمه كل شيء . ولكن من أين نبدأ في تربية هذا الطفل ؟ وما الأساس الذي سنبني عليه فيما بعد صرح الكيان النفسي الانساني ؟

وليس تعليم لغة الكلام للطفل المعوق هو المهمة الأولى المؤدية إلى تطوير قواه النفسية ؛ فلغة الكلام بما فيها من صيغ نحوية معقدة تأتي أخيراً لتتوج المنهجَ الغني الذي يساعد على تحويل تأثيرات العالم الخارجي إلى صور ، والأسلوبَ المتطور لبناء علاقات مباشرة غير كلامية بين الطفل المعوق والناس من حوله .

ونفسية الطفل الأصم الأعمى ــ الأبكم تتكون عبر عدة مراحل تربوية تتوالى في نظام محدد .

يسمى سوكوليانسكي المرحلة الأولى مرحلة (التأنيس) الأساسية ؛ وهي تسبق دراسة لغة الكلام . وهي مرحلة حاسمة إذ تحدد مجمل التطور اللاحق لنفسية الطفل وسلوكه . والمهمة الأولى خلال هذه المرحلة الاساسية من التربية تقوم على إكساب الطفل عادة الاهتمام بنفسه أثناء تعلمه القيام بأعماله اليومية المألوفة . وهكذا عبر هذه المنظومة من الأعمال الملموسة العملية تتشكل صور الأشياء المحيطة بالطفل .

ترى ماهي خصائص السلوك البشري التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار عند تربية الطفل المعوق ؟

أول هذه الخصائص أن سلوك الطفل يعدّله الآخرون ويتأثر بالمجتمع ؛ وعلى هذا يجب أن يكون سلوكه مفهوماً مبرراً .

وثانيها أن هذا السلوك خاضع لاستخدام الوسائل والأدوات التي وضعها الناس في خدمته ومرتبط بها .

وثالثها أن سلوك الطفل المعوق لابد له من أن يتمثل الوظائف الخاصة لكل وسائل العمل وأدواته ، وبكلمة أخرى أن يفهم كيفية تنفيذ الأعمال وإنجازها .

وحينما يتعلم الطفل استخدام أداة من أدوات العمل ويتدرب على طريقة تناسبها ، يكون قد تمثل صيغة إجتماعية للنشاط البشري سرعان ماتصبح جزءاً لايتجزأ من سلوكه الشخصي . ولكن ذلك لن يتمّ إلا إذا عمل هذا السلوك على إرضاء حاجاته الذاتية .

والآن كيف تنظم تربية هذا الطفل ؟

مهما كان المستوى العقلي للطفل المعوق ضعيفاً فلابد له من أن يأكل ويشرب وينام ويرضي حاجاته الأساسية الأخرى ، شأنه شأن غيره . والمهمة الأساسية في بداية تربية الطفل المعوق تتجلى في إكسابه العادات التي تتيح له إرضاء حاجاته الطبيعية الملحة .

ماهي وسائل العمل التي تعطى للطفل الأصم — الأبكم الأعمى في بداية إعداده ؟ وما هي وظائف تلك الوسائل التي عليه أن يستوعبها ؟

أول هذه الوسائل تلك الأدوات المألوفة التي يستخدمها الطفل السويّ تلقائياً ، فهو يتعلم الأكل بالملعقة والشوكة والصحن والجلوس على الكرسي ، ويتعود النوم والاستيقاظ في وقت محدد ، كما يتعلم النهوض وترتيب سريره والقيام بالرياضة الصباحية ، والاغتسال وفتح الصنبور وإغلاقه واستخدام فرشاة الأسنان وغسل يديه ووجهه بالصابون ، والتجفيف بالمنشفة ولبس الثياب ونزعها والمشي الصحيح في البيت والشارع .

وهكذا حينما نعلّم الطفل الأعمى الأصم -- الأبكم كيف يأكل ، لابد أن يتخلى عن عادات سابقة تأصلت فيه ؛ فقد تعود فيما سبق أن يطعمه الكبار ولم يعرف كيف يمسك بالملعقة . وقد يعاندنا إذا حاولنا تعليمه كيف يستعملها ليوصل الطعام من صحنه إلى فمه . ومن السهل على هذا الطامل أن نطعمه كما تعود سابقاً ، لكنه حينئذ لن يصل إلى اكتساب تلك المهارة الجديدة . وكذا الأمر حينما نعلّمه ارتداء الثياب ونزعها وانتعال حذائه وغير ذلك . . .

إن المراحل الأولى في إعداد الطفل المعوّق ليكتسب مهارة قضاء حاجاته الحياتية تتطلب عملا دؤوباً ، فقد تمضي أسابيع بل شهور أحياناً قبل أن نحرز أي تقدم طفيف . وقد أكدت الأبحاث وجود شيء من الفعالية خلال عملية اكتساب قابليات جديدة ؛ ففي المرحلة الأولى لاحظ المربون مقاومة بسيطة ، ولذا كان من الضروري جداً أن نعيد الكرّة فنجعله يكرر باستمرار ماندربه عليه . ولاشك في أن ذلك ليس بالأمر السهل بل قد يكون مضنياً أحياناً ، ولكن لايجوز

الانقطاع عن تلقين الطفل القابلية الجديدة كي لانتيح له أن يستعيد عاداته القديمة . والمقاومة تصبح في المحاولة الجديدة أشد وأقوى . ولابد مثلا خلال التدريب على قابلية ما من أن نتتبع الجهد الذي تبذله يد الطفل لرفع الملعقة إلى الفم . وهكذا من الصعب جداً في البداية أن نجعل الطفل المعوق يثني ذراعه عندما يرفع الملعقة إلى فمه . لكن مقاومته تضعف مع الزمن فيبادر إلى القيام بمحاولاته الخاصة . وتكون حركاته في أول الأمر فجة مضطربة ، وتأتي يد المربي في هذه المرحلة لتوجه حركات الطفل وتصوّبها .

في المرحلة الثانية يحاول الطفل أن ينفذ منفرداً بعض عناصر القابلية الجديدة وإن لم ينجح في ذلك دائماً . ومن الهام جداً ألاّ نهمل استغلال هذه المبادرات الدالة على الاستقلالية والفعالية فنسهم في إجهاضها. وتشتد الصعوبة حينما تكون الحركة التي نفذها الطفل غير ناضجة ، فلا يصل إلى هدفه ولا يحقق نتائج ملموسة ؛ على هدا لكي تكون هذه الحركة مهضومة مستوعبة ، يجب أن تدعمها نتائج محسوسة ظاهرة .

وسرعان ماتنطفىء تلك الفعالية الوليدة عند الطفل إذا راح المربي ينجز بعض المهمات بدلا عنه . وكذلك الأمر إذا لم تدعم فعاليته بهدف يصل إليه . وهذا مايحدث عادة في المرحلة الأولى عندما تكون مساعدة المربي غير كافية . إذن نحن نسيء إلى الطفل حين نفرط في مساعدته وحين نقصّر فيها . إن مساعدة البالغين يجب أن تكون مقننة محسوبة بحيث لاتعوّق استقلالية الطفل وتسمح له حتماً بالوصول إلى نتيجة مرضية .

وهذه المهمة تكون أشد صعوبة بمقدار ماتكون القابلية الجديدة مؤلفة من حركات تتدرج في الصعوبة . فحينما نعلّم الطفل أن يأكل دون مساعدة ، فغَرْفُ الحساء من الصحن بالملعقة أصعب عليه من رفع الملعقة إلى فمه . وحينما يغسل وجهه فهو يتعلم بسهولة أن يمرّ بيده من أعلى الوجه إلى أسفله ويستصعب الحركة الدائرية . وخلال تعلمه لبس الحذاء يستسهل إدخال الشريطة في الثقوب ويستصعب عقدها . وهكذا يحلل المربي كل قابلية ليقسمها إلى حركات وينظم عملية الاعداد بحيث يقوم الطفل وحده بكل حركة هضمها وتمثلها . وفي الوقت نفسه يساعده في انجاز تلك الحركات التي لم يهضمها كما يجب وينجز بدلا منه الحركات التي عجز عن تنفيذها .

وسرعان مايشعر الطفل بالفرح حينما ينجح ، بعد أن اكتسب مهارةً ما ، في الحصول على نتيجة واضحة . ومع الزمن تنضج هذه المهارة وتتكامل فيحتج الطفل إذا ماراح أحد البالغين يساعده .

وهكذا يأتلف الطفل مع العالم الخارجي حينما يصبح قادراً على تلبية حاجاته الأساسية دون مساعدة ؛ فحينما يتعلم كيف يأكل يأتلف مثلاً مع الملعقة والشوكة والصحن التي لاغنى عنها للحصول على غذائه . وهذه الأدوات لاتعني شيئاً عند الطفل خارج أوقات الطعام ؛ فاذا قُدمتْ له رفضها . وعلى النقيض من ذلك تكتسب هذه الأدوات أهمية كبرى خلال الوجبات فيتلمسها بيديه . إذنْ مع الزمن وبفضل التثبيت النهائي لما اكتسبه الطفل تتشكل وتتطور الفعالية التي يسميها علماء النفس والفيزيولوجيا (فعالية التوجه والبحث) ؛ وذلك لأن هذه الفعالية ليست فطرية . وهكذا فالطفل المعوق لايكلف نفسه عناء

تلمس الأشياء التي يجهلها تمام الجهل . يقابل ذلك أن تغيير أشكال وأبعاد هذه الأشياء التي استخدمها لتلبية حاجاته ، سرعان مايثير لدى الطفل فعالية التوجه والبحث وينشطها . ومن الواضح في مثل تلك الحالات أن ظهور هذه الفعالية وتحقيقها (كفاعلية التلمس مثلا) لايعود إلى جدتها التي تثير الطفل ، بل إلى مشابهتها الشيء الذي سبق له أن اكتشف فائدته العملية .

وهكذا تبدو عناصر (فعالية التوجه والبحث) من صميم الفعالية الهادفة إلى تلبية الحاجات الحياتية . وينتج عن فعالية التعرف الأساسية تشكل صور عن الأشياء التي يستخدمها الطفل لإرضاء حاجاته .

ومع الزمن يتسع مجال الأشياء المرتبطة بأنواع الفعاليات ليتجاوز تلبية الحاجات الأساسية . أما أبعاد فعالية التوجه والبحث فتتدرج في التعقيد . ولما كانت هذه الفعالية مظهراً من مظاهر النشاط العلمي فهي تستقل على نحو ما لتخلق بدورها حاجة ثانوية (فوقية) تعمل على تعرف مظاهر العالم الخارجي .

وفي هذه المرحلة لاتكتفي (فعالية التوجه والبحث) بتشكيل الصور اللازمة لخدمة النشاط العملي بل تعمل على تجميع صور (إضافية) ؛ ثم يلعب الاهتمام بالعالم الخارجي دوراً أهم في مجال تشكيل روابط جديدة تعمل بدورها على خلق صور جديدة .

وهكذا خلال عملية التربية الأولية للطفل الأعمى الأصم ــ الأبكم تولد صور الأشياء اليومية المألوفة المحيطة به والتي يتعلم استخدامها على وجه صحيح . وفي هذه المرحلة لافي غيرها تبنى أسس الكيان النفسي الانساني .

وقد لعب اختراع الملعقة والسكين والأحذية والملابس والبيوت وغير ذلك دوراً حاسماً في تحول أجدادنا القدامى إلى (بَشَر).وسلسلة التطور نفسها تتكرر خلال نمو الشخصية الفردية لدى الطفل المعوق الذي نعلمه استخدام الأدوات التي تفيده . وهكذا يبدأ الطفل في تعديل سلوكه الانساني وتطويره في الوقت الذي يرتقي فيه ويتطور كيانه النفسي . وفي هذه المرحلة يكون الطفل مايزال عاجزاً عن التفكير المجرد ، فهو يعيد صياغة العالم المحيط به على هيئة صورة مجسدة . . ولكن عالمه النفسي أصبح الآن إنسانيّ المضمون إذ يعكس تجربة (الإنسانية) الشاملة التي تمثلها ليلبي حاجاته الخاصة ، (وبدون تلبية الحاجات لن يتم أي تمثل) .

ويرتبط التفكير المجسد لدى الطفل المعوق بسلوكه خلال المرحلة الأولى من نموه . وهذا النوع من التفكير لاينفعه إلا في تلبية حاجاته الأساسية التي لم ترتو إلا نتيجة انشغال الطفل بنفسه ؛ فتلك التلبية إذن مرتبطة بهذا النشاط المجسد . وفي الوقت نفسه لايمكن لهذا المستوى الأولي من الفكر البشري أن يتكون إلا من خلال الاحتكاك المباشر بالبالغين . وتطور تلك الاتصالات يغير بالتدرج من طبيعة التفكير لدى الطفل .

ويحتاج الطفل في بداية الأمر إلى مساعدة البالغين لارواء حاجاته الأساسية ، ويتجلى تواصله في أشكال مختلفة من النشاط العلمي . والربط والتنسيق بين هذين اللونين من النشاط (إرواء الحاجات الأساسية والتواصل مع الآخرين) يستوجبان بالتالي ضرورة الاتصال والتبادل المشترك .

وحينما يقوم البالغون بدلا من الطفل المعوق بكل مايحتاج إليه في البيت أو في روضة الأطفال ، يسهمون في حرمانه من فرص القيام بأي نشاط شخصي . وقد قمنا بملاحظة طفلين معوقين قبل افتتاح المعهد الاختصاصي في زاغورسك ؛ نشأ هذان الطفلان في أسرتهما وتلقيا العناية الكاملة من قبل أهلهما اللذين كانوا يطعمونهما بالملعقة ويحملونهما على الأيدي ويلبسونهما وينزعون ثيابهما محرمين عليهما أي نشاط . وهكذا لم يكن في مقدور هذين الطفلين الاستغناء عن البالغين لحظة واحدة . بل إنهما كانا عاجزين حتى عن الاصطلاء بالنار ، فهما ،والحق يقال ، (تابعان) أو (ظلاّن) لأهلهما ولايتمتعان بأي استقلال .

في مثل هذه الحالات يمكن القول إن الحاجة إلى التواصل تغدو مكبوحة ؛ ولكي تتفتح هذه الحاجة لابد للطفل من أن يطور نشاطه ، أي أن يتعود الاهتمام بنفسه ، وهذا مايعمل على خلق الشروط المطلوبة لصياغة ألوان التواصل .

ولكن كيف تظهر وتنمو الأشكال الأولى للتواصل في عملية تربية واعداد الطفل الأعمى الأصم – الأبكم ؟

عندما يهتم البالغ بهذا الطفل فان هذا الأخير يبدأ بمساعدته كأن يرفع ذراعيه عند خلع القميص . . . ومن الهام جداً أن نستفيد من هذه المبادرات الأولية فنعمل على تحريضها بوسائل شتى .

وهذا الحد الأدنى من النشاط الأولي سرعان مايرتقي إلى مستوى جديد يطبع المرحلة الأساسية لتطور التواصل بطابعه. والطفل عندما

يبدأ بالاهتمام بنفسه يمارس أول تقسيم للعمل . . . (البالغ يبادر في عمل ما والطفل يساعده ثم ينجز ما بدأه البالغ) . وفي هذه المرحلة ليس هناك أي أنماط خاصة للتواصل ، وإنما هي طائفة من الأعمال النافعة يؤديها البالغ لتحل محل تلك الأنماط . والواقع أن بداية تلك الأعمال هي إشارة يشير بها البالغ إلى الطفل كي ينفذ بنفسه عملا ما ؛ وهذه الاشارة تؤدي وظيفة التواصل وهي بايجاز (اللغة) الأولى للطفل .

وإليكم هذا المثال عن طفلة عمياء صماء — بكماء ، وكيف تعلمت الوقوف : راح المربي يضع يديه تحت إبطيها ويرفعها ؛ وكانت إستجابة الفتاة بادىء الأمر سلبية ، وكان على المربي أن ينجز العمل كله . وخلال تكراره لهذه العملية كان يبطىء عامداً من حركاته ويخفف من جهرده ، مما اضطر الطفلة إلى أن تضاعف من جهودها . وأخيراً كان يكفي المربي أن يضع يديه تحت إبطي الطفلة لتنهض واقفة .

إذن نحن هنا أمام حدث هام في مجال إعداد الطفل . فحركة المربي تستفز الطفل إلى العمل . ومثل هذه الحركات هي أول صيغ التواصل أو هي الأوامر الأولى التي يصدرها المربي للطفل فيدركها هذا وينفذها . وانطلاقاً من هنا يمكن تعليم المعوقين الصيغ الخاصة الأولى للتواصل أي تلك الاشارات التي تدل على الأشياء والأفعال .

والطفل يقوم باستعمال عدد كبير من الأشياء لارواء حاجاته الضرورية ؛ وهو حينما يتمثل هذه الأشياء ، يتلمسها ويتعلم كيف

يتعرف عليها . على هذا فإن الاشارات الأولى تمثل (العمل) الذي ننجزه بتلك الأشياء ، أو أنها ترمز إلى ذلك (العمل) بمعزل عن الأشياء نفسها . وفي الفترة الأولى من تطور أنماط التواصل تشكل الاشارات إذن أول تشخيص مباشر للأشياء والأعمال . وهي أول لغة للطفل الأعمى الأصم — الابكم ، لغة لايمكن الاستغناء عنها خلال احتكاكه بالعالم المحيط به . وتتيح الاشارات للمربي أن يلقن الطفل أن هناك (اسماً) لكل (شيء) ، وهذا مالابد منه لتعليم لغة الكلام فيما بعد . والاشارات تدل على (الشيء) أو (العمل) بصيغته المحسوسة الملموسة ، بينما لاتفعل الكلمات ذلك . والصلة بين الاشارة والشيء واضحة جلية لدى الطفل ، إذ هي (ترسم) الشيء و (تصور) وظيفته . وفي الوقت نفسه ليست الاشارة صورة مباشرة عن الشيء بل هي بديل له أو على الأصح رمز له يؤدي وظيفة خاصة للدلالة عليه في مجال التواصل . ومن الهام جداً أن نفهم أن الاشارة مرتبطة بصورة الشيء لأنها (تعكسه) وتجعل صورته المباشرة متميزة في الوقت نفسه ، طالما هي تشير إليه وتعينه .

والإشارة إذن أول مدلول مجسد يعطى للطفل المعوق ، ننطلق منه نحو مرحلة تالية ؛ إنها مرحلة المفاهيم المجردة أو الكلمات .

ويستعمل المربي كما يستعمل سائر الناس المحيطين بالطفل المعوق بعض الاشارات للتفاهم معه ، والطفل يفهم تلك الاشارات في السياق الذي استعملت فيه . وأخيراً يبادر الطفل نفسه إلى استعمالها ليتفاهم مع الآخرين . تلك هي الخطوات التاريخية لتمثل الاشارات عند الطفل . وخلال تلك الفترة تضاف إلى الإشارات عملية (صياغة النماذج) التي تكتسي كذلك أهمية كبرى بالنسبة للطفل المعوق الذي يتعلم

كيف يصوغ نماذج عن أشياء أدركها في العالم الخارجي . وهذا مايتيح لنا التحقق من دقة تصورات الطفل عن أشياء العالم ومطابقتها لها .

وتلي هذه المرحلة مرحلة تعلم لغة الكلام ، وهي لاتقل أهمية عن مرحلة تطور التواصل والتفاهم .

والطفل يتمثل لغة الكلام في صيغتها اللمسية ، وهي تبدو إلى حد ما (الصيغة الأرقى) في التفاهم بالاشارات ، هذه الصيغة تنبثق منها لغة تظل أول الأمر رجراجة غير مستقرة لترقى بعدئذ إلى صيغ مستقلة وتصبح المعتمدة في التعبير .

وتحل محل الاشارات الدالة على أشياء مألوفة ، (كلمات تؤدى بالأصابع) «١» . وهذه الكلمات ليست في بادىء الأمر عند الطفل سوى إشارات جديدة ذات شكل خاص ، ثم يُشرح للطفل بالاشارات أن بمقدوره الدلالة على الأشياء بتلك (اللغة الجديدة) . وبعد ذلك يشير الطفل إلى الأشياء باشارات جديدة دون أن يعي أنه تمثل واستوعب كلمات مؤلفة من حروف ، شأنه شأن الطفل السوي الذي يتعلم الكلام دون أن يعرف أنه يستخدم كلمات مركبة من أحرف .

وهكذا فان تعليم اللغة الكلامية لايبدأ بالحروف أو بالمقاطع الصوتية المستقلة ، وإنما بكلمات تشكل جزءاً من نص مترابط ذي مضمون . والجملة التي تؤدى بالأصابع هي أول تعبير ذو معنى للكلمات التي تنقل بهذه الطريقة . هذه الكلمات تساق ضمن نص يعتمد لغة الايماء أو الاشارة ، فالكلمات هنا تلعب دور الاشارات .

---

(١) لمسات وضربات بالأصابع ترمز إلى مدلولات معينة. (المترجمان)

ولابد من الانتظار حتى يتعلم الطفل عشرات الكلمات الدالة على أشياء مجسدة لنشرح بعدئذ الحروف (الاصبعية) التي صار يعرفها عملياً . وهو سيتمثلها خلال دروس معدودة . وبعد أن يتعلم الطفل الأبجادية الاصبعية يمكن أن نعلّمه أية كلمة تدل على شيء ما أو على إشارته .

وخلال تعلم الأبجادية الاصبعية يتدرب الطالب على إعادة رسم (الرموز الاصبعية) وعلى قراءتها بسهولة حينما تخطها له يد الأستاذ . وبعد أن يتقن تلك الأبجادية يمكن أن يُعلّم الأحرف النافرة (طريقة بريل) .

وما على الطفل إلا أن يتقن الأبجدية الاصبعية والنافرة إتقاناً تاماً ، ولتحقيق هذا الغرض يختارون له مفردات خاصة قوامها عشرون أو ثلاثون تشير إلى أشياء وأفعال يعرفها الطفل جيداً ، ثم تستخدم تلك المفردات نفسها كي يتمثل الطفل أهم عنصر في لغة الكلام وهو التركيب النحوي .

ولابد من التأكيد على أن الطفل يتعلم استخدام التركيب النحوي خلال ممارسته الكلام وليس بالاعتماد على قواعد النحو ، شأنه في ذلك شأن الطفل السوي الذي يتمثل تراكيب النحو عملياً قبل أن يلتحق بالمدرسة ودون أن يتعلم قواعد اللغة .

يقول الأستاذ سوكوليانسكي : (ان الأحرف المستقلة (الأبجدية) والكلمات المفردة ، والتراكيب ، بل والجمل المستقلة ، وكلها عناصر من صميم اللغة ، لايجوز استخدامها معزولة أو مستقلة عندما

نعلّم الطفل المعوّق قواعد اللغة . ونحن لانبدأ تعليم قواعد النحو بالمفردات وبزمر الكلمات والجمل المستقلة ، وإنما عن طريق النصوص).

وهذه النصوص تكون مؤلفة من جمل بسيطة ثم من جمل مركبة .

والطفل يستوعب بسهولة الكلمات وتراكيبها والبنى النحوية إذا كان النص ذا وحدة موضوعية يروي حادثة يعرفها الطفل ؛ وهذا يدعم الطريقة القديمة التي يتخيل فيها الطفل الحادثة نفسها عن طريق التصور . ولابد من التنبيه إلى أن كل كلمة جديدة أو تركيب جديد يجب أن تطابق التصور الذهني المباشر المتصل بما تشير إليه تلك الكلمة أو ذلك التركيب . ولكي يستطيع الطفل المعوق استيعاب لغة الكلام اقترح سوكوليانسكي طريقة سماها (طريقة النصوص المتوازية) : النص الأول هو موضوع الدراسة ويعين من قبل الأستاذ ، والنص الثاني (المرتجل) يؤلفه الطالب نفسه . ويدخل الأستاذ بالتدريج في النص المدروس كلمات وصيغاً اعرابية جديدة . وعندما يؤلف الطالب نصه الخاص به ليصف حادثة معروفة ، يستخدم تلك الصيغ والكلمات فيتمثلها إذ يدخلها في نصه الخاص . وبعد أن يتعلم الطفل لغة الكلام يمكن أن نعلمه المواد المدرسية المقررة في منهاجه .

وخلال مرحلة الدراسة تبقى (لغة الأصابع) الوسيلة الرئيسية للتفاهم المباشر مع الطفل ، ويمكن للطالب أن يستعمل لغة الأصابع أو لغة الشفاه ، هذه اللغة الشفوية التي نعلمه إياها بوجه خاص ، تتيح له أن يهضم بسرعة مايتعلمه في المدرسة كما تيسر له سرعة التفاهم والتواصل . ومما يؤسف له أن هذه اللغة ليست دائماً سهلة الاستيعاب بينما تمتاز لغة الأصابع على بطئها بالدقة والوضوح على الدوام .

يضاف إلى ذلك استخدام وسائل وطرق فنية عديدة في التدريس والنشاطات اليومية .

ولابد من الاشارة قبل كل شيء إلى (جهاز التعليم ذي الأسطر النافرة المتحركة مع جهاز التسجيل المغناطيسي) . وهذا الجهاز يقوم بتنسيق وتنظيم المعلومات أوتوماتيكياً مما يتيح لأي إنسان لايلم بوسائل التفاهم الخاصة أن يلقي دروساً على العمي الصم — البكم . وهذا الجهاز يجعل الاستاذ على (اتصال مباشر) بالطالب ، كما يجعل الطالب على (اتصال مقابل) بالأستاذ ، ويتيح للطلاب (اتصالا متبادلا) فيما بينهم . وليس أمام الطالب أحرف مستقلة يمكن أن تؤلف كلمات ، وإنما هنالك سطر كامل يحتوي على أربعة وعشرين حرفاً نافراً . وقد أحدث هذا الجهاز المعقد ثورة حقيقية في التربية العملية في مدارس العمي الصم — البكم ، فبفضله يتاح للانسان أن يكون على اتصال مباشر بالطلاب المعوقين ، ويكفي ليتحقق ذلك أن يضغط على ملامس جهاز كأنه الآلة الكاتبة . وكل طالب بمقدوره أن يلتقط سؤال الأستاذ وجواب رفيقه إذا شاء . والدرس كله يسجله جهاز التسجيل المغناطيسي ويمكن إعادته على أية سرعة نشاء . وتتيح لغة الكتابة للعمي الصم البكم تعلم الكتابة وتحصيل المعارف من الكتب كما تفتح أمامهم فرص الثقافة التي لاغنى عنها لتقدمهم الفكري .

وفي جميع مراحل الاعداد سواء منها المدرسية وما قبل المدرسية ، لابد من تطوير منهجي للعلاقات الحية المباشرة فيما بين المعوقين ، فهم دائماً متعطشون إلى الكلام .

والطلاب لايبدؤون بتعلم القواعد النظرية كأنواع الكلام وعناصر الجملة إلا بعد أن يستوعبوا ويهضموا اللغة المنطوقة .

تلك هي المبادىء الأساسية لنظام تربية الأطفال العمي الصم — البكم . والدور الرئيسي في ذلك تلعبه المرحلة الأولى فخلالها يتمثل الطفل السلوك العملي وينشيء طريقته الخاصة في تصور أشياء العالم .

والجانب الثاني الهام أن التواصل باللغة والتصور الواعي للعالم الخارجي يتكونان عبر النشاط العملي للطفل ، وهما مرتبطان أساساً بالتواصل عبر الاشارات وهذه الاشارات تتيح للطفل هضم اللغة وتراكيبها النحوية التي تعكس فحوى العالم المادي ومنطقه .

وهكذا يتخطى الطفل المعوق الذي جرى تأهيله حسب هذا المنهج ، حواجز عاهته ويتجرد منها بكل ثقة . وسيبقى الطفل محروماً من السمع والبصر ، لكن أبواب المعرفة البشرية قد فتحت على مصراعيها أمامه ، وقد ولج إلى عوالم الجمال والأخلاق لينهل منها .

* * *

وفي ختام كلمتي أريد العودة إلى مؤلفة هذا الكتاب لأقول : لاشك في أن أيادي الأستاذ سوكوليانسكي البيضاء لاتجحد ، ولكنّ ذلك لاينقص من قيمة وروعة ماأنجزته أولغا سكوروكودوفا. وقد سبق أن ذكرت أنها تعمل الآن في معهد المعوقين التابع لأكاديمية العلوم التربوية في الاتحاد السوفييّ . ولها مؤلفات علمية ، شأنها شأن زملائها . لكننا كدنا ننسى أن نشير إلى أن حياتها الراهنة بأسرها هي مجموعة إنجازات عظيمة مستمرة .

تسكن أولغا حالياً في شقة كبيرة حديثة تقع في حي جديد من أحياء موسكو . وقد أهدت مؤسسة العميان في الاتحاد السوفياتي إليها هذه الشقة ، وهي عضو في تلك المؤسسة . وتعيش أولغا وحيدة ، وهي تعتز بذلك . . إذ تدبر شؤون بيتها وتحضر طعامها ، وتستقبل كثيراً من المدعوين الذين يسرهم أن يزوروها ، وهم معجبون بتفاؤلها واطمئنانها النفسي . وبيتها مزود ببعض التجهيزات الفنية الضرورية لإنسانٍ فقد سمعه وبصره . وفي الغرف جميعاً مراوح تعمل حالما يرن جرس الباب الرئيسي ، وهكذا تشعر أولغا بتيار الهواء فتتوجه إلى الباب لتفتحه . أما جهاز الهاتف عندها فمزود (بتمديدات) خاصة تسمح لها بالتحدث بلغة الاشارة مع العمي الصم .

وبيتها يغص بالكتب العادية وذات الأحرف النافرة ، وفي مكتبتها المؤلفات الكاملة لكثير من الكتاب الروس والأجانب . أما مؤلفات غوركي الذي تراسلت معه فتحتل مكان الصدارة . وتضم المكتبة كذلك مؤلفات بوشكين وليرمونتوف وبيسيمسكي وشولوخوف وباوستوفسكي وشولوم أليكيم . . . وغيرهم أضف إلى ذلك مؤلفات الكتاب الفرنسيين البارزين كبلزاك وستندال وميريميه وموباسان ، إلى جانب نصوص فلسفية مختارة لديدرو وفولتير ومونتسكيو . .

ومنذ زمن قريب حدثتني أولغا بحماسة عن كتب يروي فيها أندريه موروا بأسلوب أخاذ حياة كل من ديماس الأب والابن وجورج ساند . وتعجب أولغا كذلك بـ ديكنز ومارك توين وابسن وجاك لندن وكتابٍ آخرين يعجزنا حصرهم .

وتعيد أولغا ، من فترة لأخرى ، قراءة هذه الكتب إذا كانت بالأحرف النافرة ، أو تكلف سكرتيرها أن يقرأ لها ويترجم مايقرؤه إلى لغة الأصابع .

ويعمل السكرتير في (مختبر تعليم العمي الصم البكم) في معهد المعوقين ، وهو يهتم بمراسلات أولغا ويضرب على الآلة الكاتبة ماتمليه عليه ، ويترجم لها المؤلفات العلمية والأدبية . وحينما تتوجه إلى عملها في مؤسسة المعوقين يطلب لها السكرتير السيارة بالهاتف ، وهو يلازمها في جميع اللقاءات والمناقشات كما يساعدها في كل ماتشتري من كتب وأمتعة وغيرها .

في بيت أولغا تماثيل ورسوم بارزة عديدة . فهناك تماثيل نصفية لمكسيم غوركي وأوستروفسكي وشفتشنشكو وغوغول وغريبويدوف وتولستوي وغيرهم . . . وعندها من ذلك عدد كبير بحيث لايمكن عرضها جميعاً دفعة واحدة ، ولهذا تعرضها بالتناوب وتقول أولغا في هذا الصدد : « كلما أعدت عرض أحد التماثيل شعرت بفرح اللقاء مع صديق قديم » . أما اهتمامات أولغا المفضلة فالقراءة واللقاءات والأسفار .·وهي تحب لينينغراد حباً خاصاً وتزور متحف الإرميتاج كلما سافرت إليها . والمدينة كلها لدى أولغا متحف رائع لانظير له .

وقد كتب مكسيم غوركي الذي يجيد فهم العالم إلى أولغا يقول : « . . . أتذكرك كما أتذكر رمزاً للطاقة والحيوية لاينضب ، على الرغم من كل العوائق الجسمية . . في خضم الأحداث الرائعة في عصرنا ، تمثل شخصيتك لدي ، أنا الكاتب الحالم أحياناً ، رمزاً لقدرة العقل الظافرة ، تلك القدرة الثمينة التي خلقتها الطبيعة من المادة لمعرفة الذات ..»

ويحق لنا أن نغبط أولغا على غنى حياتها المبدعة ومقالاتها . وأشعارها معروفة في كثير من بلدان العالم . وهي تسهم بنشاط في المجلات الخاصة بالعمي الصم وليست حياتها إلا مثلا يحتذيه الذين حرموا نعمة السمع والبصر إلى جانب الناس الأسوياء من أعمار مختلفة ، كما يشهد بذلك أكداس الرسائل التي تتلقاها . وهذا مقطع من رسالة بعثت بها فتاة شابة من مدينة ريغا :

« عزيزتي أولغا قرأت كتابك فرغبت جداً في الكتابة إليك . لقد هزني ذلك الكتاب فتحدثت عنه لرفيقاتي . لقد قال لي أحد الأساتذة القدامى : إن أشخاصاً مثلك يعتبرون في مصاف العباقرة . وأنا أوافق على ذلك ، فحياتك وعملك مجموعة إنجازات رائعة ستكونين عندي دائماً قدوة أحتذيها . وقد أصبت بشلل الأطفال في سن التاسعة واضطررت لملازمة الفراش سنوات عديدة . وقد أنهيت دراستي الثانوية . وأنا الآن أعمل . في الخريف سأحاول التقدم إلى امتحان يؤهلني إلى دخول مدرسة فنية . . . وحينما أكون وحيدة أتناول كتابك وأقرأ فيه وأتأمل صورتك ، وأتمنى أن أكون مثلك شجاعة . وأنا أطمح في أن ألتقي بك . وأحلم بسفرة إلى موسكو لأقابلك ، وهذا مايعزيني . . . »

ولاتكتفي أولغا بمراسلة مواطنيها فحسب وهي تتلقى رسائل من بلدان عديدة ، وتحاول دائماً أن تبث روح الشجاعة والتفاؤل في قلوب مراسليها .

واهتمامات أولغا الاجتماعية والعامة لاتتجلى في رسائلها ومؤلفاتها فحسب ، وإنما تبدي اهتماماً كبيراً بالقضايا المدرسية فتحاور دائماً

الطلاب من جميع المستويات . وتمتاز آراؤها بقيمة تربوية هامة . وهي تهتم اهتماماً خاصاً بوضع العمي الصم — البكم . وقد ألقت أولغا كلمة في المؤتمر الدولي الثامن عشر لعلم النفس المنعقد عام ١٩٦٦ . وكانت من أبرز أعضاء المناظرة الدولية الخاصة بتربية العمي الصم — البكم المعقدة في انكلترا عام ١٩٦٧ ، وشاركت بنشاط في اجتماعات (المختبر التعليمي) للعمي الصم البكم التابع لمعهد المعوقين . وترى أولغا سكوروكودوفا أن من أولى مهماتها الرئيسية النضال ضد المزاعم القائلة بأن المعوقين العاجزين عالة دائمة على المجتمع .

إن غنى اهتماماتها وموهبتها في الكتابة وإرادتها وشجاعتها وعملها الدؤوب وحبها للحياة وتفاؤلها وازدراءها لكل ماهو غيبي ضيق تافه من الأفكار : تلكم هي الملامح الرئيسية لأولغا سكوروكودوفا ، الشخصية البارزة في عصرنا الراهن .

مشتشرياكوف

انتهى .

* * *



جهاز التخاطب الجماعي يتيح للعمي الصم أن يتواصلوا في وقت واحد



سوكوليانسكي يتحادث مع أولغا بوساطة الجهاز الذي اخترعه عام ١٩٥٨



اولغا ترعى غراسها . وتلك احدى هواياتها المفضلة



اولغا في انكلترة مع السكرتير العام لجمعية رعاية الصم البكم
توقــع على الكتــاب الذهبي



بعض التلاميذ من الصم البكم وقد اجتازوا الصفوف النهائية في مدرسة
زاغورسك وانتسبوا الى كلية علم النفس في جامعة موسكو



اولغا تتبادل الحديث باصابعها مع الاكاديمي اوربلي



اولغــا على طاولة العمل



اولفا تضرب على آلة كاتبة عادية



اولفا عام ١٩٤٠



يتيح الهاتف لاولغا أن تتصل باصدقائها ومساعديها . السكرتيرة تترجم
لها بابجدية الاصابع ما يقال لها في الهـاتف

الفهرس

٣٥٠٠ / ١١ / ١٩٨١